ماری اولی اولی اولی اولی

تاليف: تريقور برايس ترجمة: رفعت السيدعلى

المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر



المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر

تأليف: تريڤور برايس ترجمة: رفعتالسيدعلي



حار العلوء للنشر والتوزيع

تليم فون: ٥٧٦١٤٠٠ (٢٠٢)

فساكس، ٢٠٩٩٩٠٧

إدارة المبيعات، ١٠١٦٣٦١٩٢٠

بريد اليكتروني: daralaloom@hotmail.com

المراسكات، ص.ب٢٠٢ محمد فريد - ١١٥١٨ القاهرة

الكتــــاب: رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر

الكاتب، تريفوربرايس

التسرجسمية، رفعت السيد على

رقم الإيداع: ١٦٩٩/٢٠٠٢

التسرقسيم الدولي: 5-77-380-977

التهدقيق؛ الحسيني عمران

التنفيين، شركة الأمل للطباعة والنشرت ٢٩٠٤٠٩٦٠

الطبعة الأولى 2001 جميع الحقوق محفوظة

رسائل عظماء الهلوك

فس الشيرق الأدنس القديم المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر



دعوة مفتوحة للدفاع عن التاريخ القديم، تهدف للتعريف بالثقافة المضادة وترجمة نصوصها، ونشر الردود عليها في سبيل المساهمة في إحياء حركة تنوير فكرية/تاريخية تعتمد العلم والأصالة والجدية.

المسرف العدام رضا الطويل مستشار التحرير گهمال رمزي مديرا التحرير رفعت السيد على مهمود الطويل سكرتير التحرير



تضم المنطقة التي نشير إليها باسم الشرق الأدنى - وهي تسمية غير دقيقة إلى حد كبير - دولاً كثيرة تمتد من تركيا في الغرب حتى العراق في الشرق، وتمتد باتجاه الجنوب من سوريا إلي لبنان وإسرائيل والأردن حتى التخوم الشرقية لشبه جزيرة سيناء. وتمتد دراستنا عن الشرق الأدنى القديم لتشمل مصر أيضًا، فقد كانت للمملكة التي نهضت على ضفاف النيل علاقات سياسية وتجارية وثيقة بممالك الشرق الأدنى القديمة، كما كان لها تأثيرها القرى ونفوذها الفعال على تلك المالك خلال الألف الثاني قبل الميلاد. كما لعبت جزيرة قبرص أيضًا دوراً في شئون الشرق الأدنى القديم، في الوقت الذي لم تلعب فيه اليونان ومنطقة ميسينيا إلا دوراً هامشيًا غير محسوس، غير أنها من العناصر التي لا يمكن إهمالها عند دراسة العلاقات الدولية، في المرحلة التاريخية التي يمكن إهمالها عند دراسة العلاقات الدولية، في المرحلة التاريخية التي يمكن إهمالها عند دراسة العلاقات الدولية، في المرحلة التاريخية التي

والعصر الذي نتناوله في هذه الدراسة على وجه التحديد هو ما يطلق عليه العصر البرونزي المتأخر الذي يغطى على وجه التقريب خمسمائه عام، تمتد من بدايات القرن السابع عشر إلى بدايات القرن الثاني عشر، وقد شهد ذلك العصر صعود عدد من الإمبراطوريات العظمى، اقتسم حكامها السيطرة على المنطقة فيما بينهم. ولم تكن سيطرة أي من تلك الإمبراطوريات على مناطق نفوذها تتم بسهولة ويسر، وبالقدر نفسه لم يكن بإمكانها الحفاظ عليها دون عناء.

وحتى في عصرنا الحالي بكل ما يحمله ويقدمه من مزايا الاتصالات الحديثة وترسانات الأسلحة الفتاكة، من الصبعب على أية قوة عظمى السيطرة الدائمة على أية منطقة من مناطق الشرق الأدنى شديدة التعقيد،

وقد كانت الصعوبة في المرحلة الزمنية التي نتحدث عنها أكبر كثيرًا أو أشد تعقيدًا.

وخلال العصر البرونزى، كانت الحاجة شديدة إلى وسائل فعالة من الاتصال والتواصل، للحفاظ على الهيمنة السياسية والعسكرية على مناطق بعينها، كما كانت ضرورية ولازمة للروابط التجارية الدولية التي يعتمد عليها ليس مجرد رخاء الدول، بل بقاؤها ذاته. كان التواصل الفعال يعتمد بالدرجة الأولى على سهولة الانتقال بلا عائق برًا وبحرًا. كانت مخاطر ذلك الانتقال عبر أرجاء الشرق القديم مخيفة ومحبطة. كانت الانتقالات عبر مسافات طويلة بالمقاييس القديمة، سواء التي يقوم بها التجار، أو مبعوثو الملوك، أو البعثات الدبلوماسية، أو الجيوش في حملاتها العسكرية، تنطوى على المرور بمناطق وعرة شحيحة الماء أو سلوك طرق موبوءة بالعصابات وقطاع الطرق، وأحيانًا عبر مناطق يصعب اجتيازها بسبب أحوال المناخ الموسمية، وكان الانتقال البحرى لا يقل خطرًا إن لم يزد، مع احتمالات هبوب العواصف الشديدة أو هجوم قراصنة البحر، مع يزد، مع احتمالات هبوب العواصف الشديدة أو هجوم قراصنة البحر، مع قلة عدد المرافئ الآمنة على طول سواحل البحر المتوسط.

كما أضافت تعقيدات الأصول العرقية السياسية اشعوب الشرق الأدنى القديم تحدياتها ومشاكلها الخاصة، التي واجهت كبار ملوك تلك المرحلة. كانت المنطقة تضم كثيرًا من الممالك الصغيرة المتباينة الأعراق، وقبائل بدوية وتجمعات شبه بدوية، ومجتمعات مستقلة وقبائل جبلية شديدة العدوانية— أعراق كثيرة ولغات ولهجات لا حصر لها، إلا أن أربعة رجال فقط تمكنوا من السيطرة على أقوام تلك المنطقة خلال العصر البرونزى المتأخر، وتقاسموا النفوذ والسيطرة على كل تلك الأخلاط، فكيف تسنى لهم تحقيق ذلك؟

أحد العناصر الهامة التي يسرت تحقيق ذلك نجاحهم في تحقيق نظم من التواصل الدائم فيما بينهم، وقدرتهم على التعاون على حل كل القضايا التي تطرأ بالطرق الودية الدبلوماسية، أكثر من لجوبهم إلى حسمها عن طريق الحرب والقوة، ونشأت ممالك وإمبراطوريات عظمى فى منطقة ما بين النهرين، فى الألف الثالث وبدايات الآلف الثاني قبل الميلاد (أى في العصر البرونزى المبكر والوسيط) إلا أنها كانت قصيرة العمر، فقد فشل قادتها فى استيعاب وفهم تعقيدات إدارة مناطق واسعة كسبوها بحد السيف دون وجود إدارات قوية، تتفهم كيفية التنسيق مع حكام القوى المنافسة الطامحة هى الأخرى إلى بسط نفوذها فى المنطقة. كانت إمكانية تحقيق تعايش سلمى تعتمد على التوصل إلى تسويات، عن طريق التفاوض بين اثنين أو أكثر من كبار الملوك، والتوافق على تقسيم مناطق النفوذ فى المناطق الخاضعة لهم، وهو ما لم يتم أبدًا قبل العصر البرونزى المتأخر.

نهضت خمس ممالك عظمى في ذلك العصر البرونزي المتأخر:

- ممكلة الحثيثيين وكان موطنها الأساسى فى منطقة وسط الأناضول،
- والمملكة الحورانية الميتانيين فى أعالى ما بين النهرين وشمال سوريا،
- ومملكة أشور فى شدمال ما بين النهرين، ونهضت المرة الثانية بعد
انهيار الإمبراطورية الميتانية فى القرن الرابع عشر، والمملكة البابلية
القسيطية فى جنوب منطقة ما بين النهرين، والمملكة المصرية التى نهضت
مرة أخرى تحت حكم سلالة من أبنائها بعد طرد الهكسوس، وعلى مدى
العصر البرونزى المتأخر اقتسمت ممالك أربعة الهيمنة والسيطرة على
مناطق الشرق الأدنى، وحلت أشور محل الميتانيين في النصف الثانى من
تلك الحقية الزمنية.

كون حكام تلك الممالك ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً نادى النخبة (1) فقد اكتسب كل منهم وضع وصفة «ملك عظيم»، ووجّه كل منهم الخطاب إلى الآخر بصفته «أضاه الملك»، وصافظوا علي التواصل الدبلوماسى المنتظم مع بعضهم. وكانوا في بعض النواحي أفضل كثيراً من كونهم مجرد أمراء حروب، إلا أن الحروب كانت تنشب بينهم من أن لآخر خلال دلك العصر البرونزي المتأخر. غير أن السياسات الودية الفعالة كانت لها

اليد العليا على التطلعات العسكرية ضبيقة الأفق. أيقن كبار ملوك تلك الحقبة أنه بالإمكان تحقيق مكاسب أكبر على مستوى النفوذ الشخصى للملوك وعلى مستوى الرخاء والانتعاش لمالكهم، بالتوافق والتحالف مع الخصم أكثر مما يمكن تحقيقه باللجوء إلى حد السيف.

كانت المنطقة علي اتساع يكفى لتحقيق التطلعات والطموحات للجميع، كما كان للتفاهم السلمى بين الأنداد فوائد جمة، زادت من الفرص التجارية والحصول على المواد المطلوبة لكل منها من بلاد أخرى. فضالاً عن ذلك، استفاد كل الملوك من الاستقرار الذي ساد المنطقة، نتيجة للمعاهدات التي برموها فيما بينهم (وهناك المزيد من التفاصيل عن ذلك الجانب في الفصل الثاني).

اعتمدت علاقات اللوك ببعضهم في المقام الأساسي والجوهري على التواصل الودي الدبلوماسي فيما بينهم، وبدرجة أكبر على الرسائل التي كانوا يتبادلونها. ومن خلال تلك الرسائل -على وجه التخصيص- تتبدي الأشكال الدبلوماسية التي سادت علاقات الشرق الأدنى في تلك للرحلة في أجلى مسورها، إلا أن الأمس لم يخل من بعض المواقف المدهشية، وأحيانًا خبيبة الأمل التي كانت تنتج عن بعض المواقف. والقراءة الأولى للرسائل لا تقدم الكثير، وتبدو في أحيان كثيرة وكأنها تصريحات رسمية، وتبدو في أحيان أخرى وكأن لاهمَّ لمن كتبوها إلا التشكي بسبب أمور تافهة، مثل قلة قيمة الهدايا المرسلة، وعدم إظهار الاحترام والترحيب بمبعوث ملكي، أو التقاعس عن إرسال رسالة تعاطف لأخ ملكي، حين ألمت به وعكة صحية. وقد تبدو مثل تلك الشكاوي تافهة ومثيرة للشفقة، على الأقل بمستوى تفكيرنا المعاصر، ولكن، كما سنتين، كانت لها أبعادها التي تتجاوز الشفقة؛ لأنها تلقى الضوء على أنماط من القيم والمبادئ والرسميات التي يتبين بعد ملاحظتها بدقة أنها كانت مهمة ولازمة، لنجاح الاتفاقات التي يدور حولها تفاوض، وعلى استمرار الوفاق والتحالف في عالم الدبلوماسية الدولية لتلك المرحلة التاريخية. كما تنير لنا الرسائل بعض جوانب المكونات الشخصية لأولئك الذين كان مصيير عالم الشيرق الأدنى القديم بين أيديهم، والرسائل توضح جوانب لم تكن أبدًا لتظهر على تماثيلهم ولا في وثائقهم. وتأخذنا الرسائل أيضا إلي الاقتراب اقترابًا حثيثًا من العصور التي عاش فيها من كتبوا تلك الرسائل. والأهم من ذلك كله، تمكننا الرسائل من إعادة رؤية تلك المرحلة كما كان يراها ممن عاشوها، من خلال إدراكهم للمواقف وردود أفعالهم عليها.

حين كنت مازات طالبًا جامعيًا كلفت بقراءة بعض أعمال سيشرو، كمادة مرجعية لإعداد دراسة عن العقود الأخيرة للجمهورية الرومانية. وكانت خطب رجل الدولة، الرومانية مصدرًا قيمًا للمعلومات عن تك المرحلة من تاريخ روما، إلا أن قراءة الرسائل التي كتبها سيشرو إلي أصدقائه ورفاقه من رجال الدولة، والرسائل التي تلقاها منهم، جعلتني أحداث مع حالة اتسمت بوضوح رؤية المناخ السياسي في روما، في تلك المرحلة التي شهدت تقلبات واضطرابات سياسية عنيفة، فقراءة أحداث روما كما كانت تحدث وكما ستجلها ورآها من صنعوها وعاشوها يخلق الإحساس لدى القارئ أنه يعايش الأحداث كما وقعت، أكثر بكثير مما يحصل عليه المرء من مجرد قراءة الخطب السياسية.

وبالمثل، تمكننا الرسائل المنتمية إلي العصد البرونزي المتأخر من إعادة معايشة أحداث الشرق الأدني القديم، وفي بعض الصالات نجد تنفسنا نعيش تلك الأحداث وهي في مرحلة الصنع، ومثل ذلك الاقتراب من الأحداث القديمة أكثر قيمة من مجرد قراءة وسرد الأحداث، كما كتبها طرف ثالث بأثر رجعي، وأحيانًا تكتب الأحداث بعد فترات طويلة من خفوت أصدائها.

وبالطبع، لا تعدو الخطابات كونها أحد مصادر المعلومات التي نعتمد عليها في إعادة تركيب أحداث تاريخ الشرق الأبني القديم، ولابد لنا أن نستخلص كل ما يمكن استخلاصه من مختلف المصادر، إن كان لنا أن

نقدم صورة متوازنه، يمكن الاعتماد عليها بقدر الإمكان لمختلف الممالك التي كانت تكون ذلك العالم، وهو المنهج الذي التزمت به في التاريخ الذي قدمته عن المملكة الحثينية (2)، إلا أننى أثناء ذلك زاد اهتمامي بتخصيص كتاب مستقل للرسائل المتبادلة في العالم الذي عاشت فيه الإمبراطورية الحثينية. وهناك قصص شيقة تظهر من خلال تلك الرسائل. واسوء الحظ فإن محتوى الرسائل يمكن ذكره بطريقة عارضة في مجرى السياق العام للتاريخ الذي لابد له أن يعتمد علي مدى واسع من المصادر المختلفة، دون أن يعطى لأحد تلك المصادر أهمية خاصة على حساب باقى المصادر. ومن هذا الكتاب.

لقد تناولت قبل ذلك بعض تلك الرسائل وقدمتها في تاريخ الدولة الحثينية، كما قدمت بعضها الآخر في كتاب أخر عن المجتمع الحثيني(3)، وسوف أعيد عرضها مرة أخرى في هذا الكتاب، إلا أنها تقدم هنا بمعالجة تفصيلية كاملة، مع الحرص على إيرادها في الموضع الصحيح لها، في سياق أحداث الشرق الأدنى القديم بوجه عام، وفي موضعها المنجيح من ترتيب مراسلات الملوك بوجه خاص، ويعد من وجه التعميم أنْ نطلق عليها مراسلات ملكية؛ إذ أنْ بعضها كانت مرسلة أو واردة من ملك إلى أحد أشراد أسبرته، أو العكس، أو إلى ومن يعض كيار رجال الدولة ، وكل الرسائل التي ظلت باقية حتى عصرنا وتم العشور عليهام صنوعة من ألواح الطين، ومنقوش عليها نصوص الرسائل قبل جِفَافِها، وجِديرِ بِالذِكرِ أَنْ نِقْرِرِ أَنْ مِنْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى القَرَاءَةِ وَالْكِتَابِةِ من خارج موظفي الدولة قلة نادرة. إن ما عثر عليه في مواقع دور حفظ الرسائل بعد نموذجًا لكل المراسلات التي تبودات في تلك الحقبة، ومهما كان حجم وكم الرسائل التي عثر عليها، إلا أنها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الحجم والكم الحقيقي والفعلى الذي كتب بالفعل. ولحسن الحظ، تمكُّنا من معرفة تصوص رسائل مفقودة من خلال نقل أهم فقراتها في رسائل الرد عليها، وهي عادة كانت شائعة في ذلك العصر. وسنورد تفاصيل أكثر

عن ذلك في القصل الثالث.

وهناك ملحوظتان أخريان عن النصوص التي عثر عليها حتى الآن:

- أولهما: أن الرسائل المتبادلة بين البلاطين، العثيني والمصبري من أبرز النصبوص التي نتناولها في هذا الكتاب، ويرجع ذلك إلى أنها انعكاس المصادر التي عثر فيها علي تلك الرسائل، فأغلب الرسائل المعروفة لنا عن تلك المرحلة التاريخية عثر عليها في دور حفظ رسائل مصر وتركيا، وأيضًا في دار حفظ مملكة أصغر هي أوجاريت والتي كانت ترتبط بعلاقات وثيقة مع مصر والحثينيين، عدا ذلك، لا يوجد شك في أنه خلال النصف الثاني من العصر البرونزي المتأخر، في المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها أغلب الرسائل، هيمنت مصر والملكة الحثينية على المشهد العالمي، لذلك لا يدهشنا أن نجد أنهما لعبا الدور الأكبر في شبكة الاتصال الدولي، وفي التواصل الدبلوماسي أكثر من المالك الكبري الأخرى، التي تشاركهما نظريًا في الهيمنة على شئون ذلك العالم.

- ثانيهما: هناك احتمالات قوية بظهور مواقع دور حفظ أخرى والكشف عنها في الأعوام المقبلة. ويعد العثور على أماكن دور الحفظ في مواقع مثل أوجاريت وإيمار، وداخل البلاد الحثينية في مواقع ماسات (الحالية)، وأورتاكري وكوزاكل 1 من العوامل التي تعطي أمالاً قوية أن مزيداً من البحث والتنقيب في أرجاء الشرق الأدنى سيظهر للوجود دور حفظ أخرى مازالت مطمورة. إلا أنه حتي هذه اللحظة، فإن أهم مجموعة مراسلات تم الكشف عنها على الإطلاق، مجموعة مراسلات تل العمارنة التي ظهرت للوجود في مصر عام 1887. وعلى ضوء تكرار الإشارة إليها في كل الكتاب وأهميتها القصوي في عرض الدبلوماسية العالمية التي سادت العصر البرونزي المتأخر، أضفت ملخصاً مختصراً عن طبيعتها ومحتواها في أخر الكتاب كملحق مستقل.

وهناك أكثر من منهج يمكن اتباعه عند تناول مراسلات كبار ملوك العصر البرونزي المتأخر في الشرق الأدنى، واتبم كوهين وويستبروك

المنهج التصنيفي على أساس المفاهيم، في سلسلة عظيمة من المقالات وجمعت بتحريرهما عام 2000. أما المنهج الذي اتبعته فهو الاقتراب من كاتبى تلك الرسائل، ومن القصص والمواضيع التي تحتويها.

هناك رسائل مازالت بانتظار نشر نصوصها، ومنها ذلك العدد الهائل الذي يصل إلى 3000 رسالة، والتي عشر عليها في موقع سابينوا في الأناضول (أورتاكوي حاليًا)، داخل البلاد الحثيثية، وسوف يشار إلى تلك الرسائل التي لم تنشر نصوصها باختصار.

إبريل 2003 تريفور برايس باحث استشارى، وعضو شرفى في جامعة كوينزلاند بأستراليا وزميل الأكاديمية الاسترالية للعلوم الإنسانية.

الجزء الأول

إعادة بناء المشهد

فضلت استعمال المصطلح «بابل»، الذي يستعمل حاليًا للإشارة إلى الملكة التي كانت مدينة بابل تفرض هيمنتها عليها، بأن استخدم اسم المدينة في الإشارة إلى كليهما بالاسم ذاته، أي المدينة والمملكة، إلا أنه بالدرجة الأولى اسم يشير إلى مساحة جغرافية للمنطقة بأجمعها، التي كانت تشكل المملكة.



الخمس ممالك الكبرس

يقدم لنا العصر البرونزي المتأخر صورة معقدة، إلا أنها كانت دائمة التبدل والتباين في الوقت ذاته، وهو صورة للتوازنات التي كانت دائمة التغير بين الممالك العظمي، من استداد النفوذ وتقلصه، ومن تغير الولاء وتبدله، وتغير التحالفات وتحولها في صراع وتنافس عظماء ملوك تلك المالك الخمس، وفي تعاونهم معًا في بعض الأحيان، وفي تأمين نصيبهم من المنطقة طبقًا لقوة كل منهم، ومن بحثنا في مراسلات ذلك العصير، سنجد أنفسنا مضطرين للانتقال مابين ملوك تابعين إلى عاصمة مملكة كبرى، ومن بلاط ملك عظيم، إلى بلاط ملك عظيم آخر. وهو ما ينطوى على التحدي، ويبعث التعقيد الميز في المشهد الدولي في العصر البرونزي المتأخر الحيرة ادى القارئ غير الملم بمعرفة كافية عن التطورات التاريخية لذلك العصر، والتركيبات السياسية التي سادت ذلك العصر، وهكذا، وقبل انتقالنا إلى نصوص المراسلات ذاتها، لابد أن نولي العلاقات التاريخية والسياسية التي تبودلت فيها تلك الرسائل بعض الاهتمام، وهذا ما سنقدمه في أول فصلان، مركّزين اهتمامنا قبل أي شيء آخر على صبعود وانحدار الخمس ممالك الكبرى، التي مارس ملوكها هيمنتهم على الشرق الأدنى خلال مدى زمني يتراوح من مائتي إلى خمسمائة عام، وهي ممالك أشور، بابل، والملكة المصرية، والحثينية والمتانية.(1)

مهلكة أشور2

تبرز المملكة الأشورية بوضوح في المراسلات المبكرة للنصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، كجماعات من التجار الناجدين الذين أسسوا سلسلة من مستعمرات تجارية قوية، على طول الطرق البرية، التي كانت تربط عاصمتهم أشور بمدن وممالك شرق ووسط الأناضول.

ونعلم عن أنشطتهم من خلال 15000 لوح استخرج أغلبهم من منطقة كانش (نيسا) وهي المنطقة التي كانت تعد مركز الالتقاء التجاري ومحور الانشطة التجارية.

كانت كانش تقع عند منحنى النهر الذي أطلق عليه الحثينيون اسم مارسانيتا، والذي تحول في العصور التالية إلى نهر ماليس (ثم كيزيل ايزمال حاليًا)، بلغت المستعمرات الأشورية شانًا عظيمًا ومتقدمًا في التعاون الدولي بين الأشوريين وشعوب الأناضول، واعتمد نشاط التبادل التجارى على التبادل السلعي المطلوب من منتجات شعوب لشعوب أخرى. كانت السلعة الرئيسية من جانب الأشوريين هي المنسوجات والقصدير المستخدم في صناعة الأواني، مقابل الذهب والفضة المستخرج من الأناضول.

وهناك رسائل عديدة من بين الرسائل التجارية تعد شهادة لا تقبل الشك عن الكفاءة العالية التي أظهرها التجار الأشوريون في معاملاتهم التجارية، بالرغم من التوترات التي لم يكن من المكن تجنبها والتي ظهرت من خلال تلك الرسائل. مرت عمليات التبادل التجاري بمرحلتين في سياق تطورها، بدأت الأولى من الربع الأخير للقرن العشرين قبل الميلاد، حتى منتصف القرن التاسع عشسر قبل الميلاد، (أي من بداية حكم الملك الأشوري ارشوم الأول حتى حكم بوزور – أشور الثاني)، في حين بدأت المرحلة الثانية من أواخر القرن الناسع عشر قبل الميلاد، حتى النصف الأول القرن التاسع عشر قبل الميلاد، حتى النصف المرحلة الثانية من أواخر القرن الناسع عشر قبل الميلاد، حتى النصف

كانت الحروب والصراعات بين ممالك الأناضول هي السبب الرئيسي المؤكد لتوقف النشاط التجاري في نهاية المرحلة الأولى، وفي إنهائها كليًا عند نهاية المرحلة الثانية.3

وارتبطت مرحلة تبادل الرسائل برجل من سلالة العموريين الذي ترك

بصدمة واضحة على التاريخ الأشوري كأحد أعظم الملوك الأشوريين المبكرين، وكأحد أقوى الشخصيات في منطقة الشرق الأدني في زمانه. والرجل الذي نقصده هو شمشي – عدد (1813 -1871).4

فبعد أن احتل مدينة إيكالاتوم علي نهر دجلة، أصبحت العاصمة الأشورية وهي مدينة أشور، التي كانت تقع على الضفة المقابلة للنهر تحت رحمته، ثم اتجه بقواته إلى الغرب. كان أول أهدافه الاستراتيجية هي غزو مملكة مارى ذات الموقع المتميز استراتيجيًا، وكان يحكمها في ذلك الوقت ملك يدعى يحدون – ليم، وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات، كانت أيضًا لمملكة ماري تطلعاتها الإمبريالية الخاصة بها، وكانت تلك التطلعات تعارض مع التطلع الأشورى للتوسع غربًا، وقام شمشى – عدد بمواجهة ذلك التحدى علي الفور، فهاجم قوات يحدون – ليم، واشتبك معهم في معركة، وهزمهم هزيمة حاسمة، وبعد ذلك بفترة قصيرة، اغتيل يحدون مملكة مارى لنفسه، وبعد تخلصه من أهم منافس له، انفتح الطريق أمامه لتحقيق طموحاته التوسعية، وخضعت له كل منطقة أعلى ما بين النهرين.

كانت الاعتبارات التجارية على وجه التقريب من أول وأهم أهداف شمشى – عدد وحملاته العسكرية الغازية، وعن طريق نجاح حملاته العسكرية وتوسيع مناطق نفوذه أصبح يهيمن على أهم طرق التجارة التي تربط بين أشور وسوريا، وكذلك الطرق المؤدية إلى شرق ووسط الأناضول.

واستقر شمشى – عدد في العاصمة الجديدة التى شيدها باسم شوبات إنليل، وعمد إلي تعيين ابنيه إشمى – داجان، ويسماح – عدو كنواب له على إيكالاتوم ومارى، لتسهيل إدارة شئون البلاد، وخول لهما التعامل مع الممالك الأخرى على قدم المساواة، ولا يخضعان لأى أحد إلاه. كان من الضرورى لأمن وسلامة مملكة شمشى – عدد أن تتم الهيمنة والسيطرة القوية على الحدود، بتأمين وتقوية المدينتين اللتين عهد بهما إلى ابنيه (5). وتظهر الرسائل اللوحية الكثيرة التى اكتشفت في مارى

المراسلات التى تمت بين شمشى - عدد وابنه الأصغر يسمع - عدو الكثير من شئون الملكة وأعمالها الإدارية، كما تظهر أيضًا من خلال تلك الرسائل جوانب كثيرة من علاقة الأب بابنه(6). كان الابن عرضه التأنيب والتوبيخ من أبيه واتهامه بالتراخى والكسل والتقاعس والتساهل والفشل في النهوض بالأعباء الملكية، كما ينبغى له أن ينهض بها، إلا أنه يتضع من الرسائل أن كلا الابنين ظلا عنى ولائهما وإخلاصهما لأبيهما، ولايمكن لومهما ولا اعتبارهما مسئولين عن الانهيار السريع للمملكة بعد موت أبيهما.

وكما في كل حالات إمبراطوريات الشرق الأدنى، كان تحقيق استمرار ومواصلة السيطرة لأماد زمنية طويلة على المناطق الواسعة التي تم إخضاعها بالقوة العسكرية صعبًا وعسيرًا وفوق قدرة القوة الغازية، وكانت الموارد والقوة اللازمة للدفاع الكفء وإدارة إمبراطورية تتوقف إلى حد كبير على شعوب مغلوبة لا يمكن للغازى فرض قوته عليها كل الوقت. كانت الإمبراطورية التي أقامها شمشي - عدد تحت تهديد مستمر وتحديات دائمة من القوى الأخرى المعاصرة لها، وكذلك من الأقوام والشعوب التي فرض هيمنتها عليها. وهناك رسالة شهيرة كتبت في وقت متأخر نسبيًا، وكتبها مسئول في معلكة مارى، تبرز انطباعًا جيدًا عن أحد أطراف تنافس القوى، الذي كان سمة بارزة في عالم الشرق الأدنى، في القون المبكرة للألف الثاني قبل المبلاد. يقول نص الرسالة:

«لا يوجد ملك قوى بفضل قوته وحدها، فقد حكم عشرة أو خمسة عشر ملكًا من بعد حمورابى ملك بابل، وكذلك بعد رم- سن، ملك لارسا، وكذلك بعد رم- سن، ملك لارسا، وكذلك بعد إيبالسل ملك اشتونا، وبعد اميوتبييل ملك قطنا. كما تلى عشرون ملكا ياريم- ليم، ملك يمحاد (حلب) (7). وسرعان ما انهارت عشرى مملكة شمشى- عدد مباشرة بعد موته، واستقلت من جديد ممالك صغرى كثيرة كان قد فرض عليها هيمنته حوالى عام 1760، خضع ما تبقى من مملكته تحت حكم الملك البابلى حمورابى، وبعد حمورابى بحوالى 170

عامًا خَصْعَت بابل لحكم الطِّينيين، وأدى غزو الطَّينيين لبابل إلى بعث جديد للأشوريين، فالمنطقة التي هيمن عليها شمشي - عدد في عصور سابقة استوات عليها مملكة الحورانيتين، التي تزعمها الميتانيين، وفيما يعد أدنى وأضعف أوقات التاريخ الأشوري، اجتاح ملك الميتانيين شاوشتاتار العاصمة التقليدية العظيمة مدينة أشور، واختفت الإمبراطورية الأشورية كليًا على وجه التقريب من على مسرح أحداث منطقة الشرق الأبني، ولكن كان ذلك إلى حين . ظلت القوة الأشورية نائمة، وبالرغم من أنها فقيت استقلالها، إلا أن العناصر الرئيسية والجوهرية للملكة ظلت موجودة، بما فيها السلالة الماكمة. وكان وجود السلالة الماكمة كافيًا لبعث القوة الأشورية من جديد، والتي جمعت قواها بالكاد بعد وهن الميتانيين وتدمير إمبراطوريتهم على أبدي المثبنين، وظهر ملك أشوري جديد في مشهد القوى الدولي وهو الملك أشور أوباليت (1353- 1318)، ويانهيار الميتانيين أمام قوة جيوش المثينيين، تمكن أشور أوباليت من تحقيق استقلاله، بل ويداً في السيطرة على أجزاء من الإمبراطورية الميتانية المنهارة، بل إنه راح يتطلع ويسعى إلى تدعيم قوته في ميزان القوى الدولي في ذلك الوقت بتبادل المراسلات مع فرعون مصر، بصفته ملكًا عظيمًا يراسل ملكًا عظيمًا، لا يقل عنه قوة ومنزله.

وراح ملك الحثينيين سوبيليوليوما يتابع تلك التطورات بانزعاج بعد أن تمكن من تدمير الميتانيين، وسعى بكل جهده لمنع أو على الأقل تحجيم أو منع نمو القوة الأشورية في شرق الفرات، بتنصيب شاتيوازا ابن عدوه المقهور توشراتا كملك على بقايا إمبراطورية الميتانيين المنهارة، وراحت بابل تراقب ذلك البعث الآشوري بفزع، كانت هناك عداوة تقليدية وتاريخية بين المملكتين الجارتين. وفي الوقت الذي استولى فيه الحوريون على كل شمال ما بين النهرين، شعر البابليون بالراحة ولم يعودوا يشعرون بأي شعديد حقيقي من الأشوريين المهزومين، إلا أن الهيمنة الحورية انتهت على أيدى الحثينيين، وبدأت قوة الآشوريين في التنامي من جديد. وعبر ملك

بابل بورنابورياش الثانى (1359 -1323) عن مخاوفه وعن تلك التطورات الجديدة في رسالة منه إلى فرعون مصر(8)، إلا أن التوتر بين الملكتين وصل إلى تهدئة مؤقته بزواج ابنة أشورأوباليت، الأميرة موباليتات سيروأ من ابن بورنا بورياش الأمير كاراينداسن. ولسوء الحظ، لم يرض القادة العسكريون لبابل عن ذلك الزواج،والذين لم يكن ليسعدهم أو ليلقى ترحيبهم فكرة أن يحمل حكامهم القادمون دماء أشورية في عروقهم. لذلك حين جاء الوقت الذي يحق فيه لكاراهارداسن ابن الزواج الأشوري البابلي أن يعتلى العرش، اغتاله المتعصبون البابليون من الجيش، وملكوا شخصنا مجهولاً يدعى ناصيبو جاش، لمجرد أن دمه بابلى نقى. وغضب أشورأوباليت لتلك التطورات وثارت ثائرته، فقام بغزو مملكة بابل وأعدم من نصبوه ملكاً عليها.

وهدأ التوتر التقليدي بين أشور ويابل، ولكن إلى حين، حتى وقع الجانبان اتفاقية ترضية بين كل من ملك آشور عدد – نيراري الأول (1295-1264) ونظيره البابلي؛ لترسيم العدود بين الإمبراطوريتين في الفترة ذاتها، أحرز الآشوريون نجاحاً كبيراً في الاستيلاء على أراضي الفترة ذاتها، أحرز الآشوريون نجاحاً كبيراً في الاستيلاء على أراضي المملكة الميتانية وتشديد قبضتهم عليها شرق نهر الفرات. كان استيلاؤهم على منطقة الميتانيين المتحالفين مع الحثينيين سببًا في إثارة ضيق الحثينيين، إلا أنه لم يصل إلى حد المعارضة. وتلقى الحثينيون بعد ذلك لطمة أقسى وأشد وطأة، حين منيت جيوشهم بهزيمة مهينة على يد أحد، خلفاء عدد نيراري، وهو توكولتي نينيورتا الأول (1233-1197)، الذي هزم جيوش الحثينيين هزيمة حاسمة في معركة نهريا، (ويحتمل أن ذلك جيوش الحثينيين في المغرو الأشوري الناجع للراضي الخاضعة للحثينيين في المترتبة على الغزو الأشوري الناجع للراضي الخاضعة للحثينيين في سوريا بالفة الأهمية، فلا يوجد أي شك أن الأشوريين كانت لهم تطلعاتهم من أزمان قديمة في السيطرة المباشرة على المنطقة الواقعة من نهر الفرات حتى ساحل البحر المتوسط، وأصبحوا في وضع بعد تلك المعركة وكأن كل

تلك المنطقة المشار إليها قد أصبحت في قبضتهم.

إلا أنه وعلى عكس ذلك، وهو ما بعث الارتياح الشديد في نفوس الحثينيين حول توكولتي— نينورتا اهتمامه فجأة إلى الجنوب— إلى بابل، وربما كان ما دفعه إلى ذلك مهاجمة الملك البابلي كاشتيلياش الرابع للحدود الفاصلة بينهما، مما اعتبره خرقًا للاتفاقية التي أبرمها سلفه عدد — نيراري مع البابليين، ويحتمل جدًا أن توكولتي نينورتا تبني وجهه نظر— في وجهة نظر معقولة جدًا— أن من الأفضل تأمين حدوده الجنوبية قبل الإقدام على مخاطرة كبرى بقوته العسكرية ضد الحثينيين في آخر مناطقهم في سوريا. وبكل المقاييس، حققت حملته ضد البابليين نجاحًا باهرًا، حتى إنه ضم كل مملكة بابل، وساق خصمه كاشنيلياش في القيود والأصفاد إلى عاصمته أشور.

إلا أن حكم الأشوريين لبابل لم يدم طويلاً. كان عبء تأمين الإمداد للقوات العسكرية اللازمة لفرض هيمنة الأشوريين على المملكة البابلية تشكل عبنًا باهظًا، حتى إنها استنفذت طاقة الأشوريين، حتى إنهم حولوا كل الإمدادات الأخرى اللازمة لحماية باقى حدودهم، وأصبحت الحملة العسكرية العظمى التى كان ينوى أن يسيرها لتعبر الفرات لمهاجمة الحثينيين فى الشمال بعيدة حتى عن التخيل. وبدأت قوات توكولتى نينورتا تعانى من هزائم متتالية، مما أدى إلى اغتيال الملك. ولم تكد تمضى خمسة عشر عامًا على وفاته، حتى قام ملك بابلى يدعى عدد شو موصر خمسة عشر عامًا على وفاته، حتى قام ملك بابلى يدعى عدد شو موصر بتحرير كل مملكة بابل من الحكم الأشوري، وفي أثناء تلك المعارك تمكن من أسر الملك الأشورى الليل كودوروصر (1187 -1183) وفي أشود على الماسراع والتناحر على العرش، فتتابع عدد من الملوك على عرش أشور لفترات قصيرة لكل منهم.

إلا أن أشور كانت تثبت على الدوام أنها أحد أهم الممالك العظمى التي تعاود النهوض في العصر البرونزي، فبعد عقود من زوال المملكة

الحثينية، وحين فقدت مصر للأبد وضعها كقوة عالمية عظمى، وفي الوقت الذي كانت فيه بابل تحكم من قبل سلالات وأسر غير متميزة وأصبح فيه الميتانيون في غيوم الذكريات المتلاشية، ظل الأشوريون قوة عظمى في الشرق الأدني. وفي عهد ملكها تيجلاث بيلمسر الأول (1114 - 1076) كان الأشوريون مازالوا يسيطرون علي جانب كبير من منطقة مابين النهرين. ومن ذلك الوقت ظلت قوتها تتزايد، حتى أصبحت في وقت ما، في عصر يطلق عليه عصر المملكة الأشورية الصديثة، أقوى وأقسى وأعنف إمبراطورية شهدها عالم الشرق الأدنى القديم.

مملكة بابل

حين بسط ملوك سومر نفوذهم على منطقة جنوب بلاد مابين النهرين في الألف الثالثة قبل الميلاد، لم يكن بإمكان أي إنسان أن يتنبأ بأن تلك المدينة الصغيرة الواقعة بشرق الفرات ستصبح ذات يوم مركزًا لأهم حضارة، ومركزًا لنفوذ طاغ في حضارات الشرق الأدنى القديمة، في عصور كانت تهدم وتتداعى على يد أعدائها، وفي عصور أخرى لم تكن لتبدو إلا مدينة تابعة لا قيمة لها لجيرانها الأقوياء. إلا أنها في تلك المنطقة التي شبعت صعود وانهيار حضارات كثيرة، وبزوغ واختفاء ممالك كثيرة عظمى، صمدت وبقيت ودامت مدينة بابل. وحين استوى بنوخذ نصر على عرشها عام 605 قبل الميلاد، اعتلى عرش الملكة في عاصمة كان عمرها عدربي على ألفي عام، وهو أطول عمر لمدينة خارج مصر في منطقة الشرق الأدنى بأجمعها.

على مدى بضعة قرون ظلت مدينة بابل بعد ظهورها بلا قيمة ولا تأثير، بالرغم من أنها كانت المركز الإدارى لسلالة وأسرة أور الثالث (2112 -2104). وما نعنيه بعدم تميزها عدم تأثرها بكوارث الغزو الخارجى الذي أطاح بالسلالة الحاكمة ، ولا بدخولها في تنافس عسكرى

مع مملكتى إسين ولارسا، المتنافستين على الهيمنة على جنوب ما بين النهرين. وبالرغم من ذلك، فإنه في الفترة التي يطلق عليها تاريخيًا مرحلة إسين لارسا (2017-1763) يبرز تطور هام في تاريخ المدينة مع تأسيس حكم أسرة من الملوك العموريين (حوالي 1844) كان أولئك العموريون، الذين أطلق عليهم اسم المارتو – في النصوص المسجلة من القرن الثالث قبل الميلاد – في الأصل من القبائل السامية، وربما هبطوا في الأصل إلى سهول ما بين النهرين سعيًا ويحتًا عن أرض معشبة لقطعان أغنامهم ومواشيهم، ولما ازداد عددهم بدءوا يستقرون، وبدءوا يشكلون تهديدًا متزايدًا للممالك المجاورة، وعلى ممالك المدن القريبة. وبالفعل، قبل فترة وجيزة من السقوط النهائي لملكة أور الثالث، كان أحد زعماء تلك القبائل العمورية قد نصبً نفسه حاكمًا على مملكة مدينة لارسا، التي كانت تقع على مسافة 40 كيلو مترًا فقط شمال مدينة أور.

وظلت مملكة بابل تحت حكم أول خمسة ملوك عموريين، والذين غطى حكمهم حوالى مائة عام، مجرد مملكة من بين ممالك كثيرة صغيرة الحجم والشأن، بل وكانت تحت هيمنة تمارس عليها من خصومها في مملكتي إسين ولارسا. ولكن في عام 1792 حدث صعود مفاجئ وتطور سريع، وحدث ذلك مع صعود الملك العموري السادس، وهو ملك يدعى حمورابي (1799 - 1732) في بداية الأمر، لم يول حمورابي الشئون الخارجية أي اهتمام، بل عكف في أول ثمانية وعشرين عامًا من حكمه على تنظيم الشئون الداخلية العملكة، بما فيها سن القوانين المنظمة لعلاقات المجتمع، وكذا إصلاح الأحوال الاجتماعية لشعبه.

إلا أنه بداية من العام التاسع والعشرين من حكمه بدأ فى التحول إلى تبنى سياسة عسكرية أكثر عدوانية. وبرر ذلك الميل بتجمع قوات متحالفة من الممالك المجاورة ضد مملكته من العيلاميين والجوتيين والأشوريين، ومن شعوب إشنونا (تل اسمر الحالية)، مما كان يهدد استقرار بابل، وربما كان على حق فى ذلك، فكلما حقق حمورابى نجاحًا فى تنظيم شئون

مملكته إدرايًا واجتماعيًا، وتحويله إلى مجتمع رخاء متماسك، لفت إليه أنظار عدم الرضى من جيرانه، وبادر بالتوجه إلى أعدائه، واشتبك معهم واحدًا بعد أخر، فهزم على التوالى مملكة لارسيا (1763)، واشتونا (1761)، ونتج عن تلك المعارك أن أصبحت كل منطقة جنوب ووسط ما بين النهرين تحت هيمنة بابل. بعد ذلك، هاجم حمورابي مملكة جاري (1761)، والتي كانت قد حققت بعد استقلالها عن الأشوريين بقيادة قائدها النشط والتي كانت قد حققت بعد استقلالها عن الأشوريين بقيادة قائدها النشط زيمري – ليم (1776-1761) منزلة وضعتها في مصاء اقوى الممالك في الشرق الأدني في عصرها. وانتصر حمورابي على مملكة ماري، واستولى عليها وضمها إلى مملكته، وأخيرًا، في العام الثالث والستين من اعتلاء عمورابي عرش بابل، سقط آخر ما تبقي من الملكة الآشورية، التي كانت قبل ذلك الإمبراطورية العظمي، التي أسسها الملك العظيم شمشي— عدد،

أدى ذلك إلى توحد كل منطقة ما بين النهرين تحت إدارة حكم واحد، قبل نصف قرن من نهوض الملكة الحثينية في وسط الأناضول. إلا أنه في الوقت الذي حققت فيه بابل تلك المكانة الرفيعة كان حمورابي قد أصبح طاعنًا في السن، ومات بعد إتمامه مهمته ببضعة أعوام، بعد حكم دام ما يربو على أربعة عقود. وتحت حكم ابنه سامو ليونا (1749 -1712)، بدأت الإمبراطورية في الانكماش. ويرجع ذلك جزئيًا إلى بزوغ أسرة خصوم جدد تسمى سلالة «أرض المستنقعات»، والتي نشئت في مناطق المستنقعات الجنوبية، وتمكنوا من اقتطاع جزء من إمبراطورية بابل من الجنوب حتى مدينة نبور (10). ولكن، بالرغم من انكماش رقعة الملكة، حافظ خلفاء حمورابي على قوتهم وفرض هيمنتهم على الملكة علي مدى حافظ خلفاء حمورابي على قوتهم وفرض هيمنتهم على الملكة علي مدى عدى الله أن يكون آخر تلك السلالة من الملوك، وهو سمسو - ديتانا، وصلت قدر له أن يكون آخر تلك السلالة من الملوك، وهو سمسو - ديتانا، وصلت السلالة من الملكة عليها، ولا تتوفر انا أبة الملكة بابل (1595) وفرض سيطرته عليها، ولا تتوفر انا أبة مطومات عن الفوضى التي سادت بابل بعد تلك الغزوة، فبمجرد أن انتهى مطومات عن الفوضى التي سادت بابل بعد تلك الغزوة، فبمجرد أن انتهى مطومات عن الفوضى التي سادت بابل بعد تلك الغزوة، فبمجرد أن انتهى

مورسيلي من نهب المدينة، لم يشعر أية أهمية لها، وعلى الفور بدأ رحلة عودته الطويلة إلى موطنه، وكان المستفيد الأكبر من انهيار مملكة سلالة حمورابي مجموعة يطلق عليها اسم القسيط. كان القسيط مهاجرين استقروا في جنوب ما بين النهرين، وربما أو يعتقد أن موطنهم الأصلي الذي قدموا منه جبال زاجيرو (في منطقة عيلام)(11)، وكان أول ظهور لهم على مسترح التناريخ أثناء حكم حمورابي، ويعتقد أنه قد وقعت صدامات وعداوات بين القادمين الجبد والمقيمين في المنطقة الذين حلوا عليهم رغمًا عنهم، ويبدو أن القسيط مالوا إلى الدعة وتجنب الصدامات في المنطقة التي استقروا بها، كرعاة في مواسم الرعي وعمال حرفيين في مواسم العمل، عاشوا حياة شبه قبلية، إلا أنه كان من بينهم من اعتاد بسرعة حياة المدن وأنماط معيشتها المستقرة، ولما حل الوقت الذي انهارت فيه بابل على أيدي مورسيلي الحثيني كانت جماعات من القسيط قد بدأت في تنظيم أنفسها كقوة سياسية لها وزنها في جميع أنحاء مملكة بابل. وهكذا، تمكنوا من حصياد ما تبقى من مملكة سلالة حمورابي المنهارة، فحين كانت الغزوة الحثينية لبابل في بدايتها كانت جماعات القسيط بالقبرب من ذروة السلطة في بابل ، وبعد أن قناموا بغيرُو منطقة أرض المستنقعات في الجنوب، تبوأت، تلك السلالة مكانتها وفرضت فيمنتها على كل أرجاء مملكة بابل، بعد انسحاب مورسيلي الحثيني، وظل حكمهم لبابل مستمرًا بلا انقطاع، حتى آخر العصر البرونزي المتأخر(12).

كانت إنجازات القسيطيين باهرة وملموسة في كثير من الأوجه، تميزوا قبل أي شيء، في حقيقة أنهم حكام أجانب، كانوا حتى عهود قريبة مازالوا بدواً قبليين يعيشون على الرعى، وبالرغم من ذلك نجحوا في السيطرة والهيمنة علي إمبراطورية متقدمة، ونجحوا في الحفاظ علي تلك السيطرة لأماد زمنية، لم يضارعهم أحد في مداها في أية حقبة من حقب التاريخ لأي سلالة أخرى حاكمة، ويلفت النظر أيضاً أن القسيطيين كانوا في غاية الكفاءة في الوصول ببابل مرة أخرى إلى مركز إحدى القوى

الدولية العظمى في العصر البرونزي المتأخر، في المجالين السياسي والتجاري. إلا أن أهم إنجازاتهم وأعظمها كان في المجال الثقافي والفكري والمعرفي، لم ينحصر جهدهم وإنجازهم فقط في المحافظة على فكر وثقافة حمورابي وسلالته وتغذيتها، بل كان لهم إنجازاتهم الخاصة الثقافية والفكرية والمعرفية. فتحت حكم ورعاية الملوك القسيطيين انتعشت الفنون والأداب والعلوم وبلغت شأنًا لم تبلغه من قبل، كما تحولت اللغة الأكادية في شكلها البابلي، لتصبح لغة دولية للمعاملات بين كل ممالك المنطقة ولغة العلاقات الدبلوماسية بينها، واستخدمت على نطاق واسع في المنطقة ولغة العلاقات الدبلوماسية بينها، واستخدمت على نطاق واسع في المختصين من أهل بابل في المجالات التي تتطلب مهارة عالية، مثل الطب والنحت والحكمة والتنبؤ وفنون النقش والكتابة والغطوط، وكان الطلب عليها شديدًا من المالك المجاورة ليابل.

كل ذلك. يضاف إلى الأنشطة التجارية الكثيفة لبابل، جعل مدينة بابل والمنطقة الجغرافية التي تحمل اسم بابل تتبوأ مكانة مرموقة وضعتها في مصاف البلاد العظمى، ومما أضفى على ملوكها الصفة اللائقة بهم بصفتهم من عظماء ملوك الشرق الأدنى في عصورهم.

أما المعلومات عن الملوك القسيطيين كأفراد فهى شحيحة. ففى الغالب لم يصل إلينا الآن إلا بعض الأسماء. وحين نعثر علي بعض التفاصيل عن ملوك قسيطيين معنيين وأفراد أسرهم، وأحياناً بعض المعلومات عن بعض كبار موظفى الدولة من القسيطيين، فإن تلك المعلومات تتوفر بطريق غير مباشر، أى عن طريقه ما توفر من معلومات وتسجيلات من حضارات أخرى ومصادر أجنبية غير بابلية. وهكذا، نعرف عن طريق الملك الحثينى مورسيلي الثانى عن زواج أبيه سوبيللو ليوما من أميرة بابلية، وهى ابنة بورنابورياش الثانى. وسجل مورسيلى الثانى استبداد تلك الملكة البابلية الجديدة، وإسرافها، وتبذيرها، وإدخالها عادات جديدة غير مألوفة فى البلاط الحثيني. وانتهى الأمر باتهامها بالتامر لقتل الزوجة الأثيرة

لمورسيلى الثانى، وكان مصيرها النقى من العاصمة الصنينية. وكما لاحظنا، ارتبط بورنابورياش بزواج لم يكلل بالنجاح، كمصاهرة سياسية من ابنة منافسية الأنسورى أشور أو باليت، وهو الزواج الذى وصلت معلوماته إلينا عن طريق المراسلات المتبادلة بينه وبين الفرعون المصرى أخناتون، تلك المراسلات من أهم المصادر المتوفرة عن بورنابورياش الإنسان لا الحاكم، وطبيعة علاقته بالبلاط المصرى، وكذلك أيضًا تبدو أهمية المراسلات المتبادلة بين أبيه كاداش مان إنليل الأول (1374 -1360 ق.م) وفرعون مصر أمنحوتيب الثالث، وفيما يخص مرحلة تلك المراسلات، لا تقدم لنا تلك الرسائل بأي حال مزيداً من المعرفة عن التاريخ البابلي المتسم بشحة المعلومات المتوفرة عنه في تلك المرحلة، أي في العقود الوسطى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ومعا يتسم بصفة خاصة في هذا الشأن تلك الرسالة المطولة والكاملة والواضحة التي بعث بها الملك الحثيني حتوسيلي الثالث لملك بابل كاداش مان إنليل الثاني (1263 -1255) بعد فترة قصيرة من ارتقاء الأخير لعرش بابل، وتحتوى الرسالة على بعض النقاط التاريخية الهامة عن الموقف السياسي في بابل، في الوقت الذي اعتلى فيه كاداش مان انليل عرش بابل، وعن علاقات أبيه كاداش مان تورجو (1281 -1264) لكل من بابل، وعن علاقات أبيه كاداش مان تورجو (1281 -1264) لكل من المحتينيين والمصريين في الفترة الزمنية السابقة. ونظم أيضًا من تلك الرسالة عن وصول قبائل أرامية للمنطقة، مما يزودنا بواحد من أول المراجع التاريخية عن ذلك العرق البشري الذي سيلعب دورًا هامًا وبارزًا في منطقة سوريا – فلسطين، في القرون الأولى للألف الأولى قبل الميلاد.

وبمصطلحات عسكرية، لعبت الإمبراطورية البابلية في عصور حكم القسيطيين دورًا محدودًا جدًا في الشئون الدولية في تلك العصور. لم تسع المملكة البابلية في تلك العصور بأى شكل إلى توسيع رقعتها البغرافية إلى الغرب من نهر الفرات أو شرقه، أما ادعاء الأشوريين أن البابليين يسعون إلى التوسع شرق الفرات، فقد كان ادعاءً مبالغًا فيه،

كانت القوى العظمي في تلك العصور ترى بايل كمملكة ذات شان، وعاملوا ملوكها وأضغوا عليهم صفاته ووضع مماثل لصفاتهم وأوضباع إمبراطورياتهم، وربما كان السبب في ذلك يعود إلى الفوائد المادية التي كان يمكن الاستفادة منها، عن طريق العلاقات الودية الحميمة مع بابل. إلا أن ذلك لا يتعارض مع احتمال نظر الممالك الأخرى إلى بابل كحليف عسكري له وزنه وقيمته الحربية، وبدأ ذلك عند صبراع الحثينيين والميتانيين، وصبراع الحثينيين مع مصر، وكذلك حين هاجمت مصبر بلاد الحثينيين، وكان لحتمال قيام بابل بتقييم عون عسكرى مباشر وملموس لأي حليف لها أثناء الحروب في منطقة الفرات، أو بوجه أكثر تعميماً في منطقة سورياء احتمالاً مستيعداً تمامًا. كانت بابل تقدم لطيفها موقفًا متعادلا حياديًا يضمن لحملة جيش الملك- الأخ (ودا) أن يضوض حروبه ضد أعدائه شرق أو غرب القرات، وهو مطمئن أنه لن يجد عداءً أو تدخلا من جيش بابل. وكانت التحالفات عن طريق الزواج والمساهرة من التوجهات الحكيمة التي تضمن لبابل بقامها على الحياد، وقد كان ذلك ما دفع سيطلولنوما الزواج من الأميرة الباطنة، واعتبارها زوجة مفضلة قبل إقدامه على تسبير حملته المسكرية للقضاء على الميتانيين إلى الشمال من بابل، ربما كانت هناك أيضاً اعتبارات استراتيجية من بين عناصر أخرى بفعت حاتوسيلي الثالث إلى السعى لتجديد معاهدات التحالف المثينية البابلية في بداية عهد كاداش مان- إنليل الثاني. فوق كل ذلك، كانت العدوانية العسكرية المتصباعدة للأشوريين تبدو تهديدا مستقبلاً لكلا الإسبراطوريتين، بالرغم من المجهودات الجادة للملك الحثيني لتأسيس علاقات ودية مم الملك الأشوري عدد- نيراري الأول. ولا نعلم إن كانت رسالة حاتوسيلي التي بعث بها إلى كادشمان- إنليل قد نجم عنها بالفعل علاقات أقوى بين الحثينيين وبابل أم لا. إلا أن التهديد الأشوري ظل قائمًا، فقد ظلت تلك الإمبراطورية الصناعدة تتوسع وتمتد في منطقة الفرات وفي انتجاه الشمال أيضاء لم تكن إلا مسألة وقت فقط قبل أن تدير الإمبراطورية الأشورية عينها إلى اتجاهات أخرى أيضا الله غرب الفرات، أو إلى الجنوب، كانت بابل تحت وطأة تهديد خطير، وكما رأينا بعد ذلك، تحول التهديد إلى خطر حقيقى واقعى، على يد الملك الأشورى توكولتى نينيورتا الأول. فبعد أن هزم قوات الحثينيين فى موقعة نهريا، حول توكولتى وجهة قواته إلى الجنوب، واجتاز الحدود الفاصلة لجيرانه الجنوبيين، ثم سحق قوات الملك البابلى كاشتيلياش، واقتحم مدينة بابل كسيد جديد لها. كان نصراً هائلاً، إلا أنه كان نصراً قصير العمر. كان توكولتى نينورتا قد مد خطوط تموينه إلى مسافات بعيدة عن موطنه بصورة خطيرة تهدده وتهدد قواته، وكان مرغماً على التخلى عن تلك بصورة خطيرة تهدده وتهدد قواته، وكان مرغماً على التخلى عن تلك

وهكذا، استعادت الأسرة القسيطية استقلالها عن أشور، رغم خسارتهم العسكرية، وظلت تحكم بابل بمأمن تام من التدخل الأجنبى الخارجي، وكانت تعانى على وجه الخصوص من تهديد العيلاميين إلى الشرق منها. إلا أن بابل خلال تلك العقود الأخيرة التى انحدرت فيها سلاله القسيطيين الحاكمة لم تحرم من بعض الفترات القصيرة من الثبات والانتعاش والرخاء. إلا أنها خلال تلك العقود لم تعد تتعم بصفة القوة الإقليمية العظمى. وانتهى نظام حكم السلالة القسيطية بفترة حكم قصيرة لأخر ملوكها إنليل نادين— آهي (1157 -1155). وبعد موته خضعت بابل إلى سلسلة من الحكام غير المتميزين من سلالات غير معروفة، حتى انتصر الأشوريون عليهم مرة أخرى. وبحلول القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت ولاية تابعة للإمبراطورية الأشورية الجديدة.

المملكة المصرية (13)

كان على مصر أن تتعلم درساً قاسياً. وبالرغم من انعزالها الجغرافي النسبى عن الشرق الأدنى القديم إلا أنها أيضًا كانت عرضة للفزو الأجنبي مثل كل المالك الأخرى في العالم، خاصة حين انقسمت مصر

على نفسها. فبعد حكم ملوك الملكة المصرية المتوسطة الذي استمر لأربعة قرون نعمت فيها البلاد بالتوحد والاستقرار (2055-1650)، تعرضت مصر التمزق السياسي من جديد، مثلما حدث فيما يطلق عليه الفترة الفاصلة الأولى (2160-2055) ومرة أخرى في الفترة الفاصلة الثانية (1650-1550)، نتابع على عرشها عدد من الملوك الضعفاء الذين كانوا يختفون بمجرد ظهورهم. ولم يكن لدى أي منهم— ممن ادعوا بأحقيتهم بعرش مصر— القدرة ولا الدعم الكافي اللازم لتوحيد المملكة تحت سلطة قوية واحدة، لتضع حدًا للانهيار المتواصل لقواتها العسكرية وقدراتها الاقتصادية. وبذلك كان الوضع مواتيًا لانتهازه.

كانت هجرات شعوب كنعان خلال عصور الملكة المترسطة تستقر بشكل نهائي في دلتا مصر وبأعداد كبيرة لا حصر لها(14). وبالفعل، اعتبر بعض الباحثين أن أولئك المهاجرين، كانوا سبيًّا في انهيار السيطرة السياسية التي وصلت بالحكم إلى انهياره(15). وربما كانوا بالفعل عنصراً هامًا من العناصر التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية المصرية بعد حكم أسر الملكة المتوسطة. ومن بين شعوب كنعان نهضت جماعة قوية، من بين شعوب فلسطين المنتمية للحقية الثالثة من العصير البرويزي الوسيط، والذين هيمنوا على الملكة المصرية ما يقرب من قرن كامل، من بين قادتهم، والذين يشار إليهم بوجه عام باسم الهكسوس، ظهرت سلالة من الملوك، الذين بعد أن حكموا مصر لفترة من مدينة ممفيس، نقلوا مركز حكمهم إلى مدينة حواريس (مكان تل الضبعة الحالية) في شرق الدلتا. وفي سياق هيمنتهم على الملكة المسرية تحولت سلالة ملوك مصر المنتمين إلى الأسرة الثالثة عشرة إلى مجرد ملوك ضعفاء، تابعين للوك الهكسوس وخاضعين لهم، وكانت الأسرة الرابعة عشرة مجرد فرع من سلالة الأسرة الثالثة عشرة، واستقرت في الدلتا خاضعة للهكسوس وتحت هيمنتهم. وهكذا، أصبحت الأسرة الخامسة عشرة التي تحكم مصر مكرنة من أربعة ملوك أجانب على التتابع أو أكثر قليلا. إلا أن درجة نفوذ الأسرة الخامسة عشرة وتأثيرها كان محدودًا جدًا، فبالرغم من صعودها المثير السلطة والحكم، إلا أنهم لم ينجحوا أبدًا في فرض سيطرتهم على كل أرجاء مصر خاصة الجنوب، لم تملك أبدًا الموارد ولا القدرة والإمكانيات الإدارية لتحقيق ذلك. وحتى في المناطق التي فرضوا سيطرتهم عليها، كانوا يفرضونها من خلال نواب لهم، وهم جماعة من أمراء آسيا (وهم ما أطلق عليهم اسم الأسرة السادسة عشرة) على شمال مصر ومن خلال الأمراء المصريين الخاضعين في جنوب مصر.

وفى أغلب مرحلة حكم الهكسوس لمصر، لم يقابلوا بأى قدر من المقاومة أو التحدى من شعب مصر الأصلى، إلا أن طبية في الجنوب بدأت في التحول لتصبح مركز المقاومة المصرية. كانت بطبية سلالة من الأفراد امتدت بعيداً عن الأسرة الثالثة عشرة، التي ضم الهكسوس ملوكها إليهم، وامتدت تلك السلالة في الجنوب، وحكموه تحت هيمنة الهكسوس، ليكونوا بعد ذلك الأسرة السابعة عشرة المصرية. وباعترافهم أن الهكسوس هم سادتهم كانوا يتجنبون إظهار أية عداوة للحكام الأجانب المقيميين في حواريس، حتى وصل آخر ملوك تلك الأسرة لحكم الجنوب وهو كاموس في أقصى جنوب مصر، وكان ملوك كوش متحالفين مع ملوك الهكسوس، ويشكلون في الوقت نفسه خطراً على مملكة الجنوب المصرية في طبية، بدأ كاموس بعدها مباشرة في شن الهجمات على الهكسوس ذاتهم، وانتزع من قبضتهم كل المناطق المصرية جنوب ممفيس، ثم شن حملة مباغتة على من قبضتهم كل المناطق المصرية جنوب ممفيس، ثم شن حملة مباغتة على حواريس ذاتها، وهي قلب مركز الحكم الأجنبي لمصر.

وكان ذلك بمثابة تمهيد الطريق لأخية أحمس، واستطاع ملك طيبة الجديد أن يستولى على حواريس، طاردًا الهكسوس إلى البلاد التى وقد منها أسلافهم، وتمكن من إلحاق هزائم متكررة بهم خارج مصر، كما تمكن من توحيد كل أرجاء مصر وإخضاعها لهيمنته وسيطرته (1529).

وكانت نجاحاته بمثابة علامة على بداية عصر جديد في التاريخ

المصرى، وهو العهد الذي دام على مدى عهود الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وهي الأسرات التي تغطى المرحلة التي اصطلح على تسميتها باسم الملكة الحديثة (1550-1069)، وأصبح أحمس مؤسس أول تلك الأسرات، وهي الأسرة الثامنة عشرة، واتخذ من طيبة عاصمة إدارية للمعلكة وحاضرة الدولة، بعد أن كانت المركز الذي بدأ منه مقاومته للهكسوس. وكان حتى قبل اعتلائه العرش قد خطى الخطوات الأولى نحو تحرير وتوحيد البلاد، وأدى ذلك- بالإضافة إلى علاقة الإخوة بأخية كاموس الذي سبقه في حكم طيبة، أي انتمائه إلى سلالة حاكمة إلى اكتسابه شرعية قبلها الجميع، إلا أن سياساته ومشروعاته كانت كلها موجهة إلى إرساء بداية تاريخية جديدة لمصر. كان تطلعه إلى المستقبل أكثر من تطلعه إلى الماضي وتحت قيادته وإشرافه، ومدفوعًا بتطلعاته أسس الركائز التي شيّد عليها إمبراطورية مصرية، وبدأت مصر تستعيد مكانتها كقوة دولية عظمي في تلك العصور.

وقاد أوائل ملوك الأسرة 18 كثيرًا من الحملات العسكرية في النوية في النوية في أقصى الجنوب وإلى الشمال باتجاه سوريا وفلسطين. ففى الجنوب قام أحمس وأول ملكين تلياه على العرش، وهما أمونحتيب الأول وتحتمس الأول، بتوسع رقعة الإمبراطورية في الجنوب، والتي كان قد بدأها كاموس من قبلهم جميعًا، فأخضعوا النوبة العليا والقصوى تحت هيمنة التاج المصرى مباشرة، وكانت النوبة العليا، التي أطلق عليها المصريون اسم (واوات) تغطى المساحة الجغرافية المعتدة من جنوب أسوان والواقعة بين الشيلالات الأولى والثانية لنهر النيل. أما النوبة القصوى فقد كانت تمتد من الشيلات الثانية حتى الشيلالات الرابعة، وبسبب الثروات المعدنية (18) والأرض الزراعية التي تتميز بها بلاد النوبة، أصبحت النوبة من أشمن ممتلكات الإمبراطورية المصرية.

إلا أن تحتمس الأول (1504 -1492) كان أول من وضع مصدر في مصاف القوة العالمية الأولى، بعد أن حقق انتصارات عسكرية متتالية في

سوريا حتى وصل إلي نهر الفرات. وبمصطلحات عسكرية بحتة، كانت إنجازاته الحربية مبهرة. ولكن بالنظر إلى التداعيات التي ترتبت على تلك الانتصارات العسكرية التي أحرزها، نجد أنه قد هيمن على مناطق، هو ومن تلوه، أكثر مما يستطيعون هضمه. وتحت حكم الأرملة حتشبسوت (1479 -1458) أرملة تحتمس الثاني، ابن تحتمس الأول، بدأ النفوذ المصرى في سوريا يتقلص ويتداعى. فقدت حتشبسوت أغلب الأراضى التي غزاها حموها تحتمس الأول، ولم يتبق تحت الهيمنة المصرية إلا الجزء الجنوبي من فلسطين، ومن المحتمل إلى حد كبير، أن قرارها بتقليص رقعة نفوذ التاج المصرى له علاقة بزيادة نفوذ وأثر الميتانيين على الشؤن السوربة.

ومما لا شك فيه أن حتشبسوت أثرت وفضلت تبنى استراتيجية الحوار، والتوافق السلمى، والاحتواء كحلول أفضل من هيمنة القوة، كأفضل وسيلة في التعامل مع العدوانية المتزايدة والجوع العسكرى لقوة مملكة الحوريين الصاعدة والمتنامية في شمال سوريا. وفي جميع الأحوال كانت مهتمة بصفة أساسية بدعم رخاء مملكتها الاقتصادى، وتنمية علاقات تجارية دولية، أكثر من اهتمامها بمشروعات الغزو العسكرى وتوسيع رقعة الملكة. ولا تظهر النقوش النصية التي دونت في عصرها أية انتصارات عسكرية بقدر ما تظهر أخبار البعثات التجارية التي كانت ترسلها إلى فينيقيا لجلب الأخشاب، وإلى شبه جزيرة سيناء لجلب التركواز، وإلى بلاد بونت، والتي كانت ربما تقع في السودان أو في أريتريا لجلب مجموعات متنوعة من منتجاتها العجيبة.

أما ابن زوجها وولى عهدها تحتمس الثالث (1479-1425) (19) فقد كانت توجهاته أكثر صرامة وعدوانية، فبمجرد أن استوى على عرش البلاد تم إعادة صياغة العقيدة العسكرية المصرية، ومرة أخرى عادت إلى الظهور شخصية الفرعون المصرى قاهر الآسيويين، وبرزت إلى طليعة صنفات فرعون مصر، وكانت سبع عشرة حملة عسكرية على غرب آسيا،

كفيلة بتأسيس شهرة تاريخية لتحتمس الثالث كأعظم قائد عسكرى في عصره. ومن أشهر المعارك التي خاصَها، معركة مجدو التي انتصر فيها على تحالف من شعوب سوريا الخاضعين للميتانيين (1457)، وغنم منها غنائم كثيرة، منها ما لا يقل عن 924 عجلة حربية، وبعد انتصاره في تلك المعركة الحاسمة، أصبح الطريق ممهدًا أمامه لاقتحام أرض الميتانيين ذاتها. كانت بالكاد قد مرت مائة عام منذ أخر مرة انحنى فيها حاكم مصرى أو ركم أمام الأسيويين. كان أتجاه الله العسكري قد تغير كليًّا، وانتصر تجتمس الثالث في قلب البلاد التي غزا أهلها مصر، وتحول الغزاة إلى خاضعين، وأصبح حكام آسيا يرسلون إليه الهدايا والترضيات والجزية، طمعًا في كسب وده وتحالفه معهم. وتبين بعد ذلك أن بعض مكاسب تجتمس الثالث العسكرية كانت سريعة الزوال، مثلما جدث مع كثير من المكاسب العسكرية لسميِّه تحتمس الأول، وكان العنصر المؤثر. في ذلك العامل الميتاني. فقد زوت مملكة الحوريين وعانت من اضمحلال مؤقت، تحت وطأة هيمنة تحتمس الثالث على سوريا، إلا أنه بمجرد أن تولى الحكم عليهم الملك الحازم شوشتاتار، بدأت المملكة المبتانية في الانتعاش من جديد واستردت طموحاتها، ومرة أخرى لجأت إلى عقد المعاهدات والمصالحات كأفضل وسيلة، للتعامل مع المملكة المصرية التي يمكن أن تكون حليفًا مفيدًا الهاء كما كان يمكن أن تكون بكل يقين عدوًا ا خطيرًا . في عهد تحتمس الرابع، تم توقيع معاهدة بين القوتين، سلَّمت فيها مصر بحقوق المتانيين في شمال سوريا، بينما سلِّم المتانيون بحق مصير في الهيمنة على جزء من ساحل سوريا وكل جنوب سوريا، وعلى البابسة، كان خط النفوذ الفاصل بين الملكتين بقع بالكاد شمال مدينة قادش الواقعة على نهر العاصبي،

وربما كانت تلك المعاهدة والتحالف بين مصد والميتانيين هي السبب الرئيس في فترة السلام والازدهار التي تمتعت بها المملكة المصرية في عهد خليفة تحتمس الرابع، وهو الملك أمونحتيب الثالث (20) ويسيادة

الأمن والسلام نتيجة المعاهدة التي عقدت مع الميتانيين، ظلت مصر غير مهددة بأية حروب عسكرية طوال عهد أمونحتيب الثالث، وتمتعت المملكة في عهده بفترة غير مسجوقة من السلام واستتباب الأمن والرضاء والانتماش والازدهار، طول فترة حكمه واعتلائه عرش البلاد. وعلى عكس ذلك تمامًا، كان ذلك العصر هو العصر الذي كان فيه الحثيثيون على شفا الهلاك والفناء، بعد تعرضها للغزو من جميم أرجاء حدودها، واستغل أمونحتيب الفرصة بسعيه إلى التحالف مع مملكةٌ غرب الأناضول، مملكة أرزاوا، بعد أن أيقن أنها ستصبح قوة عظمي في تلك المنطقة. إلا أن المثينيين غيبوا توقعاته، فقد استعادوا قوتهم، وتعافوا بعد الصراع الطويل الذي خاضوه ضد الميتانيين، حافظ فرعون مصر خلاله على علاقات رسمية محايدة مم كلا الجانبين، كان يؤمن أنه لا يوجد أي سبب يدفعه التورط في حروب عظمي، كان اقتصاد مصر مزدهرًا، كما كانت الدولة تتمتع بإدارة مستقرة وثابتة، وكانت خزائن البلاد مليئة ومكتظة بالكنوز، وكان أهل مصر يعيشون حقية غير مسبوقة من الرفاهية، وانعكست حالة الرفاهية وانتعاش الفنون على عدد كبير من المنشئت المعمارية، التي شيدت في ذلك العصير،

ثم حل عصر ثورة العمارنة

ويبدر أنه لن تكون هناك أبدًا نهاية للجدل المحيط بشخصية الفرعون أمونح تبيب الرابع (1352 -1336) (21)، والذي عكس اسبمه الجديد أخناتون تكريس نفسه كليًا هو وأسرته لعبادة إله الشمس أتون. فتحت أي وصف يمكن تصنيف أخناتون؟ وكيف يمكن تقييمه؟ وأي تقييم يصدق عليه؟ هل كان نبيًا دينيًا عظيمًا؟ هل يمكن اعتباره أو اعتماده كأول داع للتوحيد في التاريخ البشري؟ أم يمكن اعتباره كافرًا مرتدًا، دفع بلاده إلى حافة الدمار والانهيار؟ أم كان ناسكًا منعزلاً بذاته ومنغمسًا فيها، والذي ترك الفساد يتفشى في الأجهزة الإدارية للمملكة، وخاطر بالمكانة الدولية

المرموقة البلاده؟ أم كان ذا ضمير حى عميق، ولكن بضف فى الشخصية مما دفع التقليديين المحافظين الذين فقدوا نفوذهم وخسروا امتيازاتهم بسبب دعوته إلى التجمع ضده للقضاء عليه والتخلص منه؟

الدينا الكثير مما يمكن ذكره عن أخناتون. لو أخذنا في الاعتبار أن المضم الذي شيد فيه عاصمته الجديدة أخيتاتون (تل العمارنه حاليًا) قد عثر فيه على أهم وأخطر دار المحفوظات التي تجمع المراسلات الدولية والتي وصلت إلينا سالمة من عصر أخناتون، وأهمية ودلالات تلك الرسائل لا يمكن تجاوزها من قبل أي دارس أو باحث يتعرض اتقييم عهد ذلك الفرعون.

ما يبرز بوضوح من خلال مراسلات العمارنة أن الملوك الأجانب خاصة ملوك الحثينيين، والميتانيين، والأشوريين، والبابليين كانوا يسعون بكل جهد إلى الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية جيدة مع مصر طوال عهد العمارنة، وكانوا يسعون حقًا إلى تقوية أواصر تلك العلاقة أو التحالف مع مصر عن طريق زواج التحالف، ولو كان الإخوة الملوك قد أحسوا أن مصر تمر بفترة اضمحلال في قوتها وانهيار في أجهزتها وأنها تفقد مركزها الدولي، إلا أنهم بالتأكيد لم يظهروا أيًا من ذلك في رسائلهم لأخناتون، فرعون مصر، حتى إن الملك المثيني العظيم المحارب سبيللوليوما كان حريصاً على التأكيد لفرعون مصر أنه صديق له، وأنه يحترم مناطق النفوذ المصرى، ويبدى رغبته في المحافظة على السلام بين بلاده ومصر، في الوقت الذي كان فيه على قدم وساق في سبيل القضاء على الميتانيين قضاءً مبرماً.

فضلاً عن ذلك، تظهر ملفات الرسائل التي بقيت حتى الآن، التي تم تبادلها بين أخناتون وحكام الولايات التابعين للتاج المصرى في سوريا وفلسطين، بمالا يدع مجالاً للشك أن فرعون مصر أخناتون ظل على اتصال منتظم لمتابعة الأنشطة المختلفة في الأقاليم التابعة للتاج المصرى، بالرغم من الادعاءات أنه في الغالب لم يكن ليستجيب لأغلب الشكاوي

الواردة من حكام الولايات ولا لطلباتهم. فلو كان أخناتون ملكا أهمل بشكل خطير شئون مملكته، أو ملكاً مسئولاً عن انحدار مملكته وتدهور تصدرها القوى الدولية في عصره، فإنه من اللافت جداً النظر أن الرسائل الواردة إليه والصادرة منه في آخر أعوام، تتميز بكونها من أثرى مصادرتا عن عالم العصر البرونزي المتاخر. من اللافت النظر أيضاً أن الملك الذي استحوذت عليه رؤية دينية مختلفة لم يسجل أية إشارة عن معتقداته الدينية في أي من رسائله، التي بعث بها إلى الحكام التابعين لهيمنة بعث بها إلى الحكام التابعين لهيمنة التاج المصري.

ويموت أخناتون، كانت الأسرة الثامنة عشرة تكاد تصل إلى نهايتها. أما فترة الحكم العابر التي اعتلى فيها الملك- الصبي توت عنخ أمون عرش البلاد (1336-1327)، وهو أخر السلالة، فإنها لم تكن لتستحق إلا ذكرًا عابرًا في منفحات تاريخ مصر، لولا اكتشاف مقبرته كاملة دون أن تمس~ والظروف التي أحاطت باكتشافها، ولا يثير الدهشة أن الفرعون الذي فرض عليه أن يكون ملكًا وهو في سن التاسعة، والذي مات بعدها بتسعة أعوام، لم يكن له أية إنجازات تذكر خلال فترة حكمه في سنى مراهقته، إلا أن تلك الأعوام شهدت هجر وتدمير مدينة أخناتون، واستعادة المجتمع الممرى لكثير من عاداته ومعتقداته السابقة على أخناتون، واستعادة رجال الدين لقوتهم ونفوذهم، والعودة إلى ترتيب قوى المجتمع السابقة على أخناتون. كما نجع أيضبًا في إثارة غضب وعداوة وحنق أقوى ملك بلا منازع في الشرق الأدني، فبلا أي سبب واضح، أمر توت عنخ أمون بشن هجوم على مدينة قادش، التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للحثينين. وقبل ذلك الهجوم غير المبرر، كان سبيللوليوما يولى أهمية كبيرة وعناية فائقة إلى تجنب إثارة أية عداوة مم الجارة الجنوبية، أي الملكة المصرية، ووجد فجأة أن ذلك الجار يسلك سلوكًا عدوانيًا مفاجئًا وغير مبرر، وكان رد الفعل سريعًا، وسحق الحثيثيون الجيش المصرى المهاجم لقادش، وظل غضب سبيللوليوما مستعراً، حتى بعد الموت المفاجئ للفرعون الصنفير بعد ذلك بفترة قصيرة.

ولا يمكننا إلا تخمين الأسباب التي حدت بتوت عنخ أمون للهجوم على المثينيين، ربما كان يسعى إلى تجسيد صورة جديدة له «قاهر الأسيويين» على غرار ونمط أسلانه، إلا أنه جازف مجازفة خطيرة، وخانه قياس قرته قياساً صحيحاً، وبالتالي بالغ في تقديره لنجاح الحملة، إلا أنه مهما كانت الدوافع، فإن تلك المجازفة غير المحسوبة ألقت بظلالها على ما تلى ذلك من أحداث، وظهر ذلك من خلال نص رسالة، ولجنة عليا لتقصى الحقائق، وعمل من أعمال خرق المواثيق الذي يصل لدرجة الخيانة، والتي وضعت مصر والحثينيين في صدام لا يمكن التراجع عنه أو إصلاحه، وسوف نعود لشرح ذلك فيما بعد.

وكان الحكم القصير لأى (1327-1323) الذى خلف توت عنغ آمون على عرش مصر، والحكم الأطول نسبيًا والأكثر حيويه لحورمحب (1328-1295)، واللذان غطيا معًا ما يزيد عن ثلاثين عامًا فى حكم مصر وهى الفترة التى شهدت تلاشى واضمحلال الأسرة 18 ومولد الأسرة 19. كانت مدينة أخناتون قد هجرت بعد موت أو اختفاء منشؤها مباشرة، وتم تدمير وتحطيم وإخفاء كل ما يدل عليها، وحرم الحديث عنها أو ذكر اسم عساحبها، كما وضعت نصوص جديدة تحقَّر وتحط من شأن أخناتون المارق أو الكافر الأعظم وكل عهده وكل ما يمت إليه بصلة، وحتى يومنا هذا فإن الدعاية السيئة التى أحاطت بتلك الشخصية العظيمة، والتى قادها توت عنخ آمون (أو مستشاريه) ثم حورمحب من بعده، ظلت تؤثر وتلقى بظلالها على الرأى العام وعلى آراء الباحثين عن ذلك الملك الذى اشتهر باسم «الملك الكافر». من بعد أخناتون ورسبائته عادت مصر إلى ممارسة عقائدها التقليدية السابقة عليه. وعادت الطبقة الارستقراطية لتحتل مكانتها في طيبة، كما عادت سلطة الكهنة والمؤسسة الدينية إلى سابق قوتها ونفوذها. وعادت الملكة المصرية من جديد إلى تبوّه مكانتها سابق قوتها ونفوذها. وعادت الملكة المصرية من جديد إلى تبوّه مكانتها سابق قوتها ونفوذها. وعادت الملكة المصرية من جديد إلى تبوّه مكانتها سابق قوتها ونفوذها. وعادت الملكة المصرية من جديد إلى تبوّه مكانتها

كقوة عظمى على المشهد السياسي الدولى في تلك المرحلة، وكان المسرح مهيئًا تمامًا لظهور أسرة حاكمة جديدة،

في تلك المرحلة ظهرت شخصية جديدة على مسرح الأحداث لرجل يدعي براميسيس. كان براميسيس ممن ينطبق عليهم وصف بلاد ما بين النهرين لشخصيات مماثلة يطلق عليها «ابن المجهول»، فبالرغم من أن براميسيس كان ينتمي لطبقة النبلاء، إلا أن عائلته لم تكن تتميز عن غيرها من العائلات النبيلة العربقة للأسر المصربة من الطبقة العليا، وكانت عائلته تعيش في منطقة نائية من مناطق الدلتا. لم تكن لدى الأسرة أية أسباب تؤدى بأحد أبنائها إلى إصرار أعلى مراتب العظمة في الإمبراطورية المسرية، إلا أن براميسيس لفت وهو في ريمان شبابه نظر حورمحب الذي لم ينجب وليًّا للعهد. وتأثَّر حورمحب بالصفات اللافتة للنظر في شخصية برأميسيس، ورأى فيه المقومات التي تجعل منه وليًا محتملاً للعهد، ويحتمل أنه أنفق أعوامًا عديدة في إعداده وتدريبه اتولى ذلك المنصب العظيم. وحدث ما حدث، فحين وافت المنية حور محب، اعتلى براميسيس عرش منصر باسم رمسيس الأول (1295-1294). وكان صعوده للعرش بداية عهد الأسرة 19، وهي الأسرة التي اشتهرت في التاريخ باسم الرعامسة، والتي فرض ملوكها هيمنتهم على الإمبراطورية المصرية، طوال أزهى عصورها وأكثرها رخاءً ماديًا وعطاءً فكريًا وثقافيًا. ولسوء الحظ، لم تتوفر لرمسيس الأول أية فرصة لإنجاز أي شيء إلا فرصة وضم الأسرة على طريق الملوك، فقد مات رمسيس الأول بعد عام أو نحو ذلك من اعتلائه عرش مصرر. كل ما فعله قبل موته أن جعل من ابنه مبيتي الأول (1294-1279) وليًّا للعهد، وبعد أنّ اعتلى العرش انطلق سيتي الأول لإنجاز مهمة استعادة مصر لكامل ومطلق هيمنتها السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدني(24). وسير حملات عسكرية متتابعة على كنعان وفلسطين، حتى هيمنت مصر عليها هيمنة مطلقة، وتلتها حملات عسكرية على جنوب سورياء وأصبح المشهد معدا للصدام بالحثينيين، وتصاعد التوتر بين الدولتين لأول مرة منذ موت توت عنخ أمون، أصبح لمصر قائد وحاكم قوى، وموارد تمكّنه من تحدى قوة الحثينيين، الذين كان يحكمهم فى ذلك الوقت مواتاللى الثاني، وبقدر ما يمكننا استخلاصه من حقائق من خلال النص البلاغي المسجل على نصب النصر التذكارى لسبتى الأول فى معبد الكرنك بالأقصر، نجد أن سيتى الأول قد أحرز نصراً حاسماً على الحثينيين فى معركة حربية، وقعت الأول قد أحرز نصراً حاسماً على الحثينيين فى معركة حربية، وقعت بسبب النزاع على الحدود ومناطق النفوذ فى بلاد العموريين ومدينة قادش، وأصبحت المنطقة من قادش باتجاه الجنوب والجزء الساحلى إلى الشمال، من العموريين بما فيها كل منطقة العموريين بسوريا، تحت هيمنة وسلطة التاج الإمبراطورى المصرى.

واستمر السلام غير المستقر بين الإمبراطوريتين، إلا أنه لم يدم طويلاً حتى وقع صدام عظيم بين مواتاللي وابن سيتي الأول، الذي اعتلى العرش بعد موت أبيه، الملك رمسيس الثاني (1279 -1213)(24) وكان ذلك في مدينة قادش بعد موت سيتي الأول بخمسة أعوام.

ومعا لاشك فيه أن الشجاعة التي أظهرها رمسيس الثاني في تلك المعركة، بعد الهجوم المفاجئ الذي شنّه العثينيون على فرق جيشه المتباعدة، حمت جيشه من الدمار الكلي والشامل، بل ربما كانت السبب في نجاته هو من الموت. وانتهى ذلك اليوم وقد حقق رمسيس التوازن الذي يصل إلى درجة التعادل لقواته، التي لم تكن قد تجمعت بعد، وتفصل بين فرقها مساحات شاسعة، حين شنّ الحثينيون هجومهم المفاجئ على الفرقة التي يقودها رمسيس الثاني بنغسه، وفي اليوم التالي لم يكن أمامه إلا التقهقر بقواته باتجاه الجنوب ومن خلفه جيش الحثينيين، الذي راح يطارده، ولم يكن لدى رمسيس الثاني أي خيار غير أن يتخلى لمواتاللي الشاني عن منطقة أوبي أو أبينا وكل ما يقع شمالاً، والتي كانت تضم ميينة دمشق. ولا يدهشنا، رأى فرعون مصر بعد انتهاء المعركة المصيرية في تسجيلاته التي سجلها عن تلك المعركة، والتي صورها في نقوشه في تسجيلاته التي سجلها عن تلك المعركة، والتي صورها في نقوشه

ونصوصه كنصر شخصى حققه بذاته على الحثينيين المنحطين، ومجَّد رؤيته لتلك الأحداث بالكلمة والصورة على جدران ما لا يقل عن خمسة معايد مصرية هائلة.

ومهما كانت الصورة التي حاول رمسيس الثاني أن يصورها عن نفسه كقائد عسكري عظيم، إلا أنه في واقع الأمر لم يكن عقلية عسكرية فذة. لم يكن السبب في نجاح الهجوم الصاعق المباغت الذي شنه الحثينيون في قادش عائدًا إلى مهارة الحثينيين بقدر ما كان بسبب ضعف التخطيط الاستراتيجي للجملة العسكرية المصرية، وعدم كفاءة فرق الاستطلاع وضعف جهاز الاستخبارات العسكرية.

وحيث إن رمسيس كان القائد الأعلى للجيش المصرى، فقد كان يتحمل مسئولية ذلك الفشل، وكذلك كان مسئولاً عن النتيجة التي وصلت إليها تلك الحملة العسكرية وما ترتب عليها، وكان لذلك المشهد المهين لقوات الفرعون وهي تقر متراجعة والقوات الحثينية من ورائها تطاردها تداعياته التي ترتبت عليه بعد ذلك، فعلى مدى عامين بعد تلك الحملة، ظل رمسيس يحاول وضع حد لتمرد الحكام المحليين الضاضعين للتاج المصرى في كنعان وفلسطين، والذين تشجعوا على رفع راية العصيان بعد فشل حملة رمسيس على قادش، وراحوا يسعون لنيل الاستقلال والخروج عن طاعة الفرعون. ولم يضيع رمسيس وقتًا في التصدى لذلك العصيان الذي انتشر في كثير من المدن التابعة. فقام بسلسلة من الحملات العسكرية المكثيفة والحازقة، حتى تمكن من استعادة السيطرة على المتمردين وخضاع كل المناطق التي رفعت راية العصيان.

كانت هذاك تهديدات أخرى توجب عليه التصدى لها بحزم، وكانت أقرب إلى قلب مصر من تلك التى وقعت أحداثها بالشمال الشرقى. كانت أكثر تلك التهديدات خطورة تأتى من أرض ليبيا المتاخمة لصحراء مصر الغربية، كانت قبائل ليبيا قد هاجمت مصر من الغرب في عصر أبيه سيتى الأول، وكادت تصل إلى قلب الدلتا لتستقر بأرضها الضمية. وبنى

رمسيس الحصون المسكرية المتدة من غرب الداتا حتى منطقة العلمين الحالية: ليجبر خصومه على الدفاع بدلاً من الهجوم، إلا أن تلك الحصون لم تكن ضماناً مستديماً لأمن الجدود الغربية ضد هجمات تلك القبائل، وعاد التهديد الليبي ليزداد من جديد في عهود خلفاء رمسيس الذين حكموا من بعده.

وبالرغم من عدم اختفاء التهديدات الخارجية، إلا أن مصر طوال السنتة والستين عامًا التي حكم فيها رمسيس الثاني تمتعت باستقرار ورخاء طوال عهده، فبعد معركة قادش قلُّص رمسيس الدور العسكري إلى أبعد حد ممكن، وقضى المندسون المصريون جل عصره في تشييد منشئته المعمارية التذكارية؛ لتخليد اسمه، وفي انعاش الاقتصاد وتكوين الشروات عن طريق التجارة، واستغلال الشروات المعينية ومشروعات استخلاصها أكثر من اهتمامهم بالمشروعات العسكرية التوسعية، وسواء كان رمسيس واعيًا بذلك أم لا، فقد كان أقرب إلى نموذج ونمط أمونحتيب الثالث منه إلى تحتمس الثالث. كان بانيًا ومشيدًا أكثر منه سيدًا للحرب، وكان رجل دولة عالمي أكثر منه قائدًا عسكريًا يثير الفزع والخوف وطبع، بصمته كعاهل دولي على معاصريه، ولذلك حظى باحترام وتقدير أنداده من اللوك المعاصرين له، كما حاز إعجاب رعايا أنداده من اللوك، وكان ذلك انعكاساً واضحًا ومباشرًا لمواقفه في السياسة الدولية في عصره، والوسائل الدبلوماسية التي اتبعها في عالمه الذي عاش فيه. كان في ذلك العالم من أهم الشخصيات التي تحظي بالاحترام والتقدير. وشهد عصره أيضًا استتباب السلام بشكل نهائي مم الحثينين(25). وهناك نسخة باللغة الأكادية من نص معاهدة السلام التي وقعها مع اللك الحثيني جاتوسيليس الثالث تعتلي مدخل مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة بنيويورك. وظلت كثير من المراسلات المكثفة التي تبودات قبل توقيم تلك المعاهدة وبعدها بين رمسيس الثانى وحاتوسيليس الثالث محفوظة حتى وقيتنا الحالي. تلك المراسلات، كما سنرى لاحقًا، لا تلقى فقط أضواء كاشفة على مجال العلاقات الدولية في ذلك العصير، بل تمدنا برؤى عميقة عن تفاصيل حياة من تبادلونها ومكوناتهم الشخصية.

وكحقيقة عملية فإن معاهدة السلام والتحالف بين المصريين والحثينيين لم يكن لها تأثير عملى مباشر على مقدرة كل منهم على درء الأخطار الفارجية والقوى المتصاعدة التى تشكل خطرًا وتهديدًا لأى منهم. فقد واجه ابن رمسيس الثانى وخليفته ، ميرنبتاح (1213 -1203) تحديات جديدة من ليبيا، والتى أصبحت أشد خطورة بعد تحالف القبائل الليبية للهاجمة بقيادة زعيمها ميريرى مع تحالف آخر مكون من شعوب كانت تسمى شعوب البحر، ووافدة من شمال البحر المتوسط للهجوم على مصر واحتلالها. ونجح ميرنبتاح في صد غزو الحلفاء وطردهم، كما عاد لوأد تمرد بلاد النوية، والواضح أنه ترتب على انشىغاله بالتصدى للغزاة القادمين من الغرب، وتمكن من القضاء على ذلك التمرد بنجاح، إلا أن الأسوأ كان مازال في طي الغيب.

بموت ميرنبتاح وصلت الأسرة التاسعة عشرة إلى نهايتها، وتلتها سلسلة من الأسر الحاكمة التي لم تدم طويلاً. وكان من المهام الشاقة التي تولاها رمسيس الثالث (1184 -1153) استعادة الأمن والانضباط. كان رمسيس الثالث هو المؤسس الفعلي للأسرة العشرين، والذي احتفظ لنفسه باسم سلفه الذائع الصيت رمسيس الثاني، وفعل الشيء ذاته ثمانية ملوك ممن تلوه على عرش مصر، إلا أن رمسيس الثالث لم يكد يتهيأ له فسحة من وقت بعد اعتلائه العرش، قبل أن يجد نفسه مواجهًا بتحديات خطيرة لا قبل له بها، وتهديدات غزو من الأرض والبحر. ومن جديد تجمعت جحافل شعوب البحر القادمة من شمال المتوسط متجهين إلى جنوبه قاصدين مصر، عبر الطريق البحر على الساحل الشرقي للبحر المتوسط وعبر فلسطين، وكذلك عن طريق البحر مباشرة حتى سواحل مصر على وعبر فلسطين، وكذلك عن طريق البحر مباشرة حتى سواحل مصر على والثامن من حكم رمسيس. ومرة أخرى من قبائل ليبيا في العامين الخامس والثامن من حكم رمسيس. ومرة أخرى نجحت مصر في صد الفزاة

وطردهم، وتمكنت من صد تجمعات شعوب البحر القادمة براً عن طريق الساحل الشرقى للمتوسط على حدود مصر فى چاهر (منطقة فينيقيا بعد ذلك)، وهزمت تجمعات شعوب البحر الفازية بعد معركة شرسة، وتم تصوير وقائعها على جدران معبد رمسيس الثالث فى مدينة هابو، كما تمكن من صد الليبيين وردهم على أعقابهم.

وارمسيس الثالث فضل عظيم في تلك الانتصارات على المحن التي تجمعت على مصدر في عهده، وهيأت تلك الانتصبارات لمن خلفوه من الأسرة المشرين التي أسسها الاستمرار في حكم مصر لقرن كامل على الأقل من بعده، أي بعد زمن طويل من انتهاء حكم الأسر التي تزامنت مم المرحلة الأخيرة من العصير البرونزي، إلا أن مصير كانت قد أنهكت وضعفت إلى حد بعيد، ولم يعد بإمكانها الادعاء أنها من الدول والقوى العالمية العظمى أكثر من ذلك. وظهرت قوتان دوليتان جديدتان مع بدايات الألف الأول قبل الميلاء، بالرغم من استمرار وجود أسماء قديمة كانت مازالت تهيمن على شئون العالم القديم، كما نهضت الإمبراطوريتان الأشورية والبابلية من جديد. واستمرت مصر متمتعة باستقلالها على مدى القرون الأولى للألفية الأولى، وكان ذلك يرجع إلى حد ما إلى موقعها الجغرافي الفريد. إلا أن بُعد المسافة النسبي وكذلك الصحراء المحيطة بها لم يضف عليها نوعًا من الجماية الكاملة. فأخيرًا سقطت في يد الحاكم الأشوري (إزار حدون) في القرن السابع قبل الميلاد، وأصبحت مثل بابل، ليست إلا ولاية تابعة، ضمن كثير من الولايات التابعة للإمبراطورية الأشورية.

مملكة الحثينيين (26)

«كان هناك ملك عليم في الأيام الغالية يدعي لابارنا، كانت بلده التي يحكمها صفيرة، ورغم صغر بلده، كان كلما خرج على رأس صعله مسكرية ضد بلد آخر، يغزوها بقدرته ويغضمها اسبطرته، واستمر في تدمير البائد الأخرى، قاضيًا على قوتهم، حتى وصل إلى البحر

الذي أمنيح حنودهه.

كانت الفقرة السابقة مما سجله الملك تيليبيو في القرن السادس عشر قبل الميلاد، عن أمجاد سلف عظيم له يدعى لابارنا سبقه على عرش الحثينيين. كان الملك الأسطوري لابارنا قد حول مملكته من بلد صغيره إلى مملكة كبيرة، امتدت على الجانب الشرقي من سهول الأناضول، ووصلت حدودها الجنوبية هتى سواحل البحر المتوسط. كانت الإنجازات الأسطورية للملك لابارنا بعثابة الإلهام والمثل الأعلى لكل ملوك الحثينيين من بعده، وتحول اسم لابارنا ليكتسب تبجيلاً وقداسة، حتى أصبح مقطعاً من مقاطع أسماء الملوك الذين تلوه على عرش الحثينيين. ويبدأ التاريخ المعروف للحثينيين بالملك لابارنا، أي في بدايات المقرن السابع عشر قبل الميلاد.

كانت ممالك سابقة قد قامت في الألف الثالث قبل الميلاد في قلب الأناضول وفي شرقها، وكان من أبرز تلك الممالك المملكة التي نشأت في قلب الأناضول وسميت باسم المثينية. كانت تقع في المنطقة التي يحدها نهر كان يطلق عليه الحثينيون اسم مارسانتيا، وكان مقر الحكم في مدينة تسمى حاتوس، كان سكان تلك المنطقة، في أغلبهم من سكان محليين، يسمون (لحثينيون). إلا أن هناك جماعات أخرى كانت تعيش أيضًا في المنطقة نفسها، من المتحدثين بالهند أوربية، كانوا قد وفدوا إلى قلب منطقة الأناضول من مناطق تقع إلى شمال البحر الأسود (ومازالت تلك الفرضية موضع جدل)، وبحلول نهاية الألف الثالث قبل الميلاد كانوا قد استقروا في مناطق من شرق الأناضول ووسطه، ثم امتدوا إلى مناطق بغرب الأناضول بعد ذلك.

وفى بدايات الآلف قبل الميلاد، وهى الحقبة الزمنية التي أسس فيها الأشوريون قواعد تجارية في وسط وشرق الأناضول، كان الحثينيون والهند أوربيون المقيمون في المنطقة ذاتها قد انصهرا في شعب واحد. وبالرغم من ذلك، كانت هناك بعض المناطق التي ظلت مشغولة بشعوب

هند أربية صرفة أو بجماعات حثينية صرفة، ونشأت أسرة قوية ويحتمل أنها من أصول هند أوربية في شرق الأناضول في مدينة تسمى كوسارا، وانتقلت إلى قاعدة حكم جديدة في مدينة قريبة تدعى بنسا، وتعرف أيضاً باسم كانيش، وكانت تقع على الالتفاف الجنوبي لنهر مارسانتيا، وكانت تجاورها إدارة المستعمرات الأشورية التجارية. ومن مدينة نيسا، شنأ الملك أنيتا بن الملك بيتانا سلسلة حروب إلى شمال النهر وجنوبه، حتى تمكن من تأسيس إمبراطورية الأناضول الشرقية، وفي مجرى تلك المعارك كان قد دمر مدينة حاتوس، وترك الأعشاب تنمو فوقها وأعلن أنه لن يسمح لتلك المدنية أن تبنى من جديد.

كانت الإمبراطورية التي شيدها أنيتا قصيرة العمر، فلم تدم لأكثر من جيل واحد بعد سلسلة الصروب التي شنها. وزامن انهيارها سبحب الأشوريين لأنشطتهم التجارية من الأناضول، حوالي منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد. كان التجار الآشوريون يخشون العمل في مناطق غير مستقرة، ففككوا مستعمراتهم التجارية وانسحبوا من الأناضول. ولا نتوفر لدينا معلومات عن النصف قرن الذي تلي ذلك، فمع رحيل المحطات التجارية الأشورية لم تعد توجد سجلات مكتوبة في تلك المنطقة، أصبحت الدلائل الآثارية المنتمية إلي تلك الفترة نادرة إن لم تكن منعدمة. والبحث عن أدلة أو وثائق عن ذلك الزمن يماثل البحث عن أدلة لعصسر مظلم مصغر.

إلا أن بداية القرن السابع عشر قبل الميلاد شهد بداية عهد جديد في تاريخ الأناضول. فعلى مدى القرون الخمس التالية سيطر الحثينيون على الأناضول وهيمنوا عليه كليًا، وأصبحت تعرف باسم المملكة الحثينية، وقد أشرنا فيما سبق إلى العصر المبكر للمملكة تحت حكم المؤسس العظيم لابارنا، الذي كان سببًا في تحول المملكة إلى أكبر قوة في كل منطقة الأناضول، والمرجح جدًا أن حفيده قد تلاه مباشرة على عرش المملكة، وهو الملك حاتوسيلى الأول (1650-1620) ومن شبه المؤكد أن حاتوسيلى الأول

من أعاد إعمار مدينة حاتوسا، لاغيًا بذلك حكم الملك أنيتا على تلك المدينة ألا تقوم لها قائمة أبدًا، واتخذ منها عاصمة للمملكة ومقرًا لعرشه. ولم يكن ذلك إلا استهلالاً لعهده كملك، فبعد ذلك لم يكتف بمجرد منافسة جده فيما أنجزه، بل سعى إلى التفوق عليه. كانت أول خطوة له السعى لتعزيز نتائج غزوات جده لابارنا، وفي طريقه لإنجاز ذلك قضي على كثير من التمردات في مناطق مختلفة من المملكة، وحين أنجز تلك المهمة بنجاح واتته في لحظة تاريخية فكرة التوجه بالجيش إلى سوريا. ومهما كان السبب المففى خلف توجهه بقواته إلى سيورياء إلا أنه اعتاد بعد ذلك الخروج بحميلات عسكرية ضد سيورياء وفي واحدة من تلك المميلات الناجِحة تمكن من العبور بقواته نهر الفرات، مدمرًا وغانمًا كل المدن التي كانت في طريقه. وأدت تلك الحملات السورية إلى حتمية دخوله في حروب ضد مملكة شبميال سيوريا القبوية، وكنانت تسبمي مملكة بمحد، وشن حاتوسيلي عدة حروب على عاصمتها حلب، ولكن، بالرغم من أن الحروب المتكررة أنهكت قوى مملكة شمال سوريا، إلا أن ملك الحثينيين لم يتمكن أبدًا من اقتجام عاصمتها حلب، وحين وافته المنية، كانت حلب مازالت سليمة لم تمس،

وصلت إلينا أخبار حمالات حاتوسيلى على سوريا من السجالات المكتوبة بالمسمارية على ألواح طينية، اكتشفت مدفونة في موقع سجلات العاصمة الحثينية. وتوجد ألواح بذلك الأرشيف مسجلة بثماني لغات، إلا أنه من الثابت أن اللغة الرسمية للحثينيين كانت اللغة الهندأوربية وهي ما كان الحثينيون يطلقون عليها اسم نيسيت، والاسم مشتق من اسم مدينة نيسا، التي كانت مقر عرش الملك أنيتا أثناء تواجد المراكز التجارية الأشورية بالأناضول. وقد يشير ذلك إلي بروز نفوذ المتحدثين باللغة النيسيتية الهند أوربية في مجال الشئون السياسية والاجتماعية بالملكة، غير أننا لابد أن نسقط مفهوم أن ذلك يعنى بالضرورة أن من بدءوا المملكة، غير أننا لابد أن نسقط مفهوم أن ذلك يعنى بالضرورة أن من بدءوا المملكة الحثينية وشيدوها لابد أن يكونوا من

عبرق هند أوروبى خالص تمكن من التغلب على السكان المحليين من الحشينيين. فقد كان سكان منطقة وسط الأناضول، من بدايات الألف الثانى قبل الميلاد بما فيها أرض الحثينيين، مختلطين تمامًا بما فيهم من الحثينيين وحوريين وكذلك الهند أوربيين.

لم يتبين وجود أى حس عرقى بين الحثينين. كانوا، مثل المصريين، خليطًا من أصول عرقية متباينة. لم يكن لهم اسم خاص يميزهم كبشر أو عرق بشرى، لذلك أسموا شعوبهم باسم الأرض التى عاشوا عليها، أى شعب الأرض الحثينية باستخدم اسم حثين قديم، كان مستعملاً من قرون، بل ألف عام من قبل قيام المملكة الحثينية. ولابد أن نعرف أن اسم حثين اسم حديث نسبيًا، أى ظهر تحت تأثير (وهذا غير دقيق بدرجة ما) الإشارة إلى الحثينين في التوراة.

وتلى حاتوبسيلى على العرش حفيدة مورسيلى الأول (1620 -1590)، والذى اتبع بشكل حرفى كل سلوكيات جده، فلم يسع فقط إلى تحقيق إنجازات مساوية لما أحرزه جده، بل سعى إلى التفوق عليه وبوسائل غير مسبوقة ومدوية. قاد قوات الحثينيين العسكرية من جديد صوب سوريا، وضرب حصاراً حول حلب حتى أسقطها ودمرها، وكان ذلك نهاية مملكة يعحد بشمال سوريا، ولم يُمض وقتًا طويلاً في الاستمتاع بذلك النصر. وكانت جمرات حلب المحترقة مازالت ساخنة حين تحرك بقواته شرقًا بأتجاه نهر الفرات، ثم سار بمحازاة النهر متجهًا إلى بابل. وفي عمل سيظل مدويًا في التقاليد الحثينية كأعظم إنجاز للإمبراطورية الحثينية الوليدة، اجتاح مورسيلى مدينة بابل كالإعصار، ونهب كنوزها ودمرها.

وبالرغم من ذلك الانتصار المدوى والمشهود إلا أنه كان بلا قيمة للملك الحثينى ولا للمملكة، وبعد أعوام من عودته إلى حاتوسا عاصمة ملكه، اغتاله حانتيلى شقيق زوجته. وكان ذلك العمل العنيف بداية لسلسلة من الانحدار في مستقبل المملكة، وكان لابد لحانتيلى أن يلقى نفس مصير ضحيته. وكان ذلك بداية عهد جديد، لعب فيه التآمر والاغتيال الدور

الرئيسى فى تحديد شاغل كرسى العرش ولدى زمنى طويل، ففى حالة الضعف والانقسام الذى انحدرت إليه المملكة الحثينية، أصبحت صيداً سهالاً للحوريين الذين اخترقوا حدودها من الجنوب الشرقى، وراحوا ينهبون ويدمرون كل ما يصادفهم بحرية مطلقة كلما أرادوا ذلك، كذلك تمردت كل الجماعات المحلية داخل المملكة مستغلين حالة ضعف الحاكم وانشغاله بالصراعات الداخلية والمؤمرات، وخرجوا عن طاعة الملك ولم يبق من المملكة إلا الأرض المحيطة بالعاصمة. ولم يتوقف الأمر عند ذلك البلاء، بل حلت فوقه موجة طويلة من الجفاف دامت لأعوام طويلة، مما أوصل المملكة إلى شفا الانهيار.

وكان اعتلاء ملك يسمى تبليبينو (1525 -1500) بمثابة ثبات وهدوء نسبى للمملكة، وتم وضع قواعد جديدة تنظم وراثة العرش، وتم تكوين هيئات إشرافية وتنظيمية، لضمان تنفيذ تلك القواعد التى وضعها تبليبينو. كما نجح ذلك الملك في استعادة بعض الأرض التي فقدتها المملكة. إلا أنه كان واقعيًا، فقد كان يدرك أن استعادة السيطرة على كل الشعب ومناطقه عملية خطيرة وباهظة الثمن، وحالة للملكة الفعلية لا تتيح له ذلك، فسعى الى تحقيق ذلك الهدف بطرق سلمية، فعقد معاهدة مع إزبوهتاشو، ملك منطقة كيزووادنا في جنوب شرق الاناضول، والتي كانت خاضعة للمملكة الكبرى قبل ذلك. وتحول ذلك العمل السلمي الدبلوماسي بعد ذلك ليصبح أحد الأدوات الرئيسية في تعاملات الحثينين، بعد ذلك في منطقة الشرق الأدنى القديم استعمل ملوك الحثينين أسلوب المعاهدات؛ لتقنين روابطهم بالأمراء والملوك المحليين الخاضعين لهيمنتهم، ولتحديد حقوقهم وواجباتهم بالأمراء والملوك المحليين القوي الكبري في عصرهم في منطقة الشرق في علاقتهم بعظماء ملوك القوي الكبري في عصرهم في منطقة الشرق في علاقتهم بعظماء ملوك القوي الكبري في عصرهم في منطقة الشرق الأدني.

نجح تيليبينو في تحقيق بعض الاستقرار للعرش الحثيني وللمملكة على النطاق الأكبر، وظلت تقع بعض الانقلابات الداخلية الجديدة، بالرغم من قلتها مقارنة بما كان يحدث قبل حكم تيليبينو، وظل اهتمام وتأثير

العثينيين محصوراً في منطقة شرق الأناضول على مدى القرن التالى بأجمعه. وتركت سوريا لهيمنة القوى العظمى في ذلك العصر، وهما الميتانيون والمصريون. ولم تصل إلى عصرنا أية معلومات عن الحكام الستة الذين تلوا تليبينوا على عرش العثينيين، فالذي تلاه على العرش وهو تاهور وايلي كان دخيلاً على نظام وراثة العرش، واستولى على الحكم من زوج ابنة تيليبينو، الو وامنا أما آخر الستة المجهولين، ميوواتاللي الأول، فيبدو أنه أيضًا كان دخيلاً على وراثة العرش، ووصل إلى العرش عن طريق الاغتيالات، حتى تم اغتياله هو الآخر.

ويبدو أن مغتاليه اتفقوا على تتريج ملك جديد يدعى تود حاليا (حوالى 1400 ق.م)، وكان اعتلاؤه العرش بمثابة عهد جديد في تاريخ الحثينين، وتميز ذلك العهد الجديد بإعادة إحياء مشاريع الغزو العسكرى خارج الحدود الحثينية – باتجاه الغرب الأقصى للأناضول ومن جديد باتجاه سوريا، ونتيجة لذلك، تحول الصثينيون في ذلك العهد الجديد ليصبحوا في قمة ما استطاعوا تحقيقه، وأصبحوا في القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد، أعظم قوة في الشرق الأدنى القديم، ويمكن أن نشير إلى مملكة الحثينيين في ذلكما القرنين باسم المملكة الحديثة، وأحيانًا يطلق عليها الإمبراطورية الحثينية التي استمرت على مدى قرنين (حوالي 1400 -1200ق.م)، تبوأت خلالها المملكة الوضع الذي هيأ لها اتصالات مكثفة وواسعة مع الممالك العظمي المعاصرة في الشرق الأدني

وعلى الرغم من ذلك تراوح مصير الملكة وتذبذب كثيرًا بين مد وجزر، فانتصارات تود حاليا العسكرية في سوريا وغرب الأناضول أعاد المملكة إلى تبوتبوء وضعها وسمعتها كقوة عظمى في المنطقة، إلا أن للتركيب البنائي المملكة ظل هشًا وغير محكم البناء. ففي عهد أرنوواندا الذي تلاه في الحكم بعد أن كان وليًا للعهد، كانت الأزمات تنشب في مواضع

متباينة من الملكة. فوق ذلك، كان تحالف المصريين والميتانيين يهدد بقوة أية استعادة لنفوذ الحثينيين على سوريا، وهو النفوذ الذي استعادوه بعد الغزوات التي قام بها تود حاليا على سوريا.

ووصل الموقف إلى حالة خطيرة من التدهور في عهد تودحاليا الثالث (1375? -1350)، والذي كان له من سوء حظه أن يشهد غزو مملكته في عصره من جميع الاتجاهات، من قبائل مجموعات كثيرة متباينة من قوى الأعداء الذين أطلق عليهم بوجه عام الفزوات المحلية أو الداخلية. وتم اختراق قلب البلاد، واضطر تود حاليا الثالث إلى الفرار إلى مدينة تسمى ساموحا على الحدود الشرقية للبلاد، حيث كون بها بلاط المنفى. أما العاصمة فقد احتلت واجتاحتها القوى الغازية. في تلك الأيام المظلمة من بدايات القرن الرابع عشر حتى منتصفه، وصل تاريخ الحثينيين تقريبًا إلى بهايته.

وبالرغم من اعتلال صحته وإصابته بكثير من الأمراض، قاد تود حاليا حروبًا متصلة، ليحرر عاصمته ويعود إلى عرشه، وبعد إصرار ودأب، نجح في استعادة المملكة، وطرد قوى الأعداء، وطارد بعضهم حتى أعادهم إلى الأماكن التي قدموا منها، ثم دمر بلادهم وأنزل بهم هزيمة ساحقة. وربما يعود أغلب النجاح الذي حققه في استعادة بلاده إلى المهارات العسكرية البارزة والمتميزة، التي كان يتمتع بها ابنه وقائد جيوشه سبيللوليوما، والذي اعتلى العرش من بعده (1350 -1322).

كان سبيللو ليوما بالفعل هو مهندس العمليات العسكرية الناحجة التي مكنت أباه من استعادة الملكة واسترداد عاصمته وعرشه، ويحمله عسكرية قادها ببراعة مشهودة على سوريا، قرر أن يغزو الميتانيين في عقر دارهم، فعبر الفرات، وتمكن من غزو عاصمتهم واشو جني، ثم استدار وغزا كل المالك الصغرى السورية التي كانت خاضعة للميتانيين. وبذلك ضعفت قوة الميتانيين الدولية ووصلت إلى نهايتها، إلا أن اثنى عشر عاماً أخرى مرت قبل أن تسقط قرقميش، آخر مدينة حصينة للميتانيين في

قبضة الحثينيين.

وقيما يخص غرب الأناضول، راح سبيللوليوما يرسل البعثات العسكرية إلى داخل أرض أرزاوا. واستقرت قبضة الحثينيين على منطقة غـرب الأناضول في عبهد مورسيلي الشاني (1321 -1295) ابن سبيللوليوماء الذي قاد في عامين متتالين حملتين عسكريتين في العامين الثالث والرابع من حكمه. وأدت تلك الحملة الطويلة إلى إنهاء تمرد، وتفريغ المنطقة من سكانها، بعد أن كانت أشيد المناطق تمردًا أو عصبياناً واستعصاءً على الترويض من بين جميع أنحاء مملكة أرزاوا، وإلى فرض الهيمنة على باقى الممالك المطية المنفري في غرب الأناضول. وجاء من بعد مورسيلي الثاني ابنه ميوا تاللي الثاني (1295 -1272) ليعزز تثبيت سيطرتهم على غرب الأناضول بمزيد من إجراءات تشديد القبضة عليهاء قبل أن يركن انتباهه على التهديد الذي بدأ يلوح من أقصبي الجنوب من الفرعون رمسيس الثاني، والتقي الجيشان على نهر العاصبي، وكما ذكرنا قبل ذلك، انتهى اليرم الأول من الصندام دون إحبرار نصبر حياسم لأي طرف، إلا أن الحثينين يعدون منتصرين على المدى البعيد، طبقًا لما ترتب على تلك المعركة من نتائج وانحسنار النفوذ المصرى عن أغلب سوريا وانتقاله إلى الحثينيين كنتيجة مترتبة على تلك المعركة.

وتلى ميواتاللى على العرش ابنه أورحى -- تيشوب (1272 -1267)، الذى حظى فى بداية حكمه بدعم وتأييد عمه (أو هكذا بدا الأمر) حاتوسيلي، إلا أن خلافًا نشب بينهما، وحين حاول أورحى -- تيشويى أن يعزل عمه عن كل مناصبه الهامة، سارع عمه إلى حمل السلاح وجمع الأتباع، وهزمه واستولى على عرشه وأبعده إلى سوريا، وهكذا، بدأ عهد حكم حاتوسيلى الثالث (1267 -1237). وأصر أورحى -- تيشوب على استعادة عرشه، وبعد محاولات كثيرة فاشلة لاكتساب دعمًا أجنبيًا خارجيًا يعينه على عمه، فر من مكان منفاه، ولجأ ابعض الوقت إلى بلاط رمسيس الثاني فرعون مصر، وترتب على ذلك توتر شديد في العلاقات بين

الحثينيين والمصريين، بعد أن كانت العلاقات قد أصبحت ودية بعد معركة قادش. أما رمسيس الثاني فقد أعلن اعترافه الكامل والواضيع بحاتوسيلي الثالث كملك شرعى للحثينيين، إلا أنه رد على مطالب حاتوسيلي الثالث المتكررة بطرد أورحي يتشوب من مصير، بأن أورحي يتشوب غير موجود بمصر أو لم يعد موجوداً بها على الإطلاق.

وفيما عدا ذلك الاستثناء، ظلت العلاقة بين البلاط الملكى الحثيني وبلاط رمسيس الثاني في مصر تتسم بالود والحرارة، بعد إيرامهما معاهدة السلام الشهيرة (1258) والتي أنهت كل العداوات السابقة بين الملكتين، وتوثقت العلاقات بين الملكتين بالمساهرات التحالفية، أي عن طريق الزواج.

وخلف حاتوسيلى بعد موته ابنه توداليا الرابع (1237 -1209). ومن جديد، يرث ملك حثينى جديد تلالاً من المشاكل التي كانت خليطاً من مشاكل الداخل وصراعاته، ومشاكل الخارج من أعداء متربصين. وكانت أهم المشاكل الخارجية التي واجهت توداليا الرابع نهوض الأشوريين من جديد وتنامى قوتهم باضطراد، كانت قوتهم تتزايد ونفوذهم يتمدد في شرق نهر الفرات، وكانت قوتهم المهددة لجيرانهم قد بدأت في النمو، بعد الدمار الذي حاق بالميتانيين. وفي محاولة منه لكبح جماح تلك القوة الصاعدة المهددة، جمع توداليا الجيوش وبدأ صراعه مع الملك الأشوري المعاصر له وهو توكولتي نينورتا الأول وحاقت بقوات توداليا هزيمة ساحقة مدوية على أيدي الملك الأشوري في معركة نيهريا. وربما لم يكن ساحقة مدوية على أيدي الملك الأشوري في معركة نيهريا. وربما لم يكن انقضي إلا زمن قصير، حين واجه كارثة أخرى من الداخل على شكل انقلاب داخلي، أدى إلى فقدانه للعرش لبعض الزمن، بعد أن استولى عليه ابن عمه كورونتا، إلا أنه تمكن من استعادة العرش بعد ذلك، ويدأ في مواجهة الاضطرابات الأمنية والتمرد الذي انتشر في أرجاء مختلفة من مملكة.

إلا أن النهاية كانت قد باتت وشيكة، فأخر ملك حثيني معروف كان ابن توداليا، وهو سبيللوليوما الثاني (أو سبيللولياما) (1207)، والذي قام بتسجيل أنباء بعض المعارك التي خاضها ضد أعدائه، بما فيها معركة

بعرية أمام سواحل قبرص، وبالرغم من تمكنه من إحراز بعض النجاحات العسكرية، إلا أن مملكته وعصره وصلا إلى نهاية مفاجئة، وحلت تلك النهائة خلال أعوام قليلة من اعتلائه العرش، أما أسباب ذلك الانهيار النهائي في البدايات المبكرة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد، فمازالت قيد البحث والتنقيب وموضع جدل ونقاش. إلا أن الثابت الذي لاشك فيه أن حاتوسا العاصمة حاق بها دمار شامل، وما لبثت أن اختفت من الوجود ولم تعد بها حياة. وبسقوطها، كانت نهاية مملكة المثينيين التي انتمت إلى العصر البرونزي.

هملكة الهيتانيين (29)

خالال القرون الأخيرة من الألف الثالثة قبل الميلاد، ظهرت أول تسجيلات تتحدث عن مجموعات سكانية متباينة، عرفوا باسم الحوريين في الشرق الأدنى القديم. أما موطنهم الأصلى الذي قدموا منه فغير معروف على وجه اليقين حتى الآن، ويميل بعض الباحثين إلى أنهم قدموا من منطقة كورا— أراكسيز عبر القوقاز، بينما يميل باحثون أخرون إلى ترجيح أن أصلهم من منطقة شرق الأناضول. إلا أنه مهما كان الموطن الأصلى الذي قدموا منه، فقد اندمجوا معًا اندماجًا تامًا— سياسيًا، وعسكريًا وثقافيًا— في تلك المنطقة التي استقروا بها، أو في خارجها مع الشعوب التي احتكوا بها وعاركوها. كانوا مجموعة من الشعوب العدوائية الميالة للتوسع عن طريق الحرب، ودل على وجودهم وانتشارهم انتشار الأسماء الحورية والمكرنات الثقافية الخاصة بهم في شمال منطقة ما بين النهرين، وشمال سوريا وشرق منطقة الأناضول. ومن الثابت، أنه حتى بعد أن تلاشت قوة الحوريين السياسية بزمن طويل، ظلت المكونات الثقافية للحوريين مؤثرة وسائدة في المناطق التي تمكنوا يومًا من اختراقها للصوريين مؤثرة وسائدة في المناطق التي تمكنوا يومًا من اختراقها والسيطرة عليها.

ومن الثبابت لدينا الآن وجبود الدولة الصورانيية من القبرن الثبالث

والعشرين قبل الميلاد، من التسجيلات التي تظهر اشتباكهم مع الدولة الأكادية في حروب قادها نارام- سن (2254-2258)، إلا أن الدولة الأكادية كانت قصيرة العمر، ووصلت الإمبراطورية الأكادية إلى نهايتها المفاجئة بعد ذلك بعدة عقود (2193). ويسبب الفراغ السياسي الذي ترتب على سقوط الإمبراطورية الأكادية، احتلت الشعوب المتحدثة اللغة الحورية أجزاءً من شمال ما بين النهرين وشرقها، وأسسوا دويلات في تلك المنطقة، وظلوا على مدى قرن أو نحو ذلك بمناى عن أي خطر خارجي أو تدخل أجنبي في شئونهم، حتى عهد أسرة أور الثالث، ويبدو أن مؤسس تلك الأسرة الحاكمة أور – نامو (2112 -2095) بدأ في الهجوم على تلك الدويلات الحورية، إلا أن الموقف تحول بعد تولى خليفة أور – نامو وهو القائد العسكري شولجي (2047 -2094)، فبعد معارك كثيرة مظفرة في شمال وشرق مملكته، تمكن شولچي من الانتصار على كل تلك الدويلات الحورية، وأخذ أعداداً عظيمة من سكانها كأسري حرب.

وفي القسرون التي تلت تلاشسي وزوال أسسرة أور الثالث (حسوالي 2000 ق.م)، أصبحت المعلومات المتوفرة عن الحوريين شذرات بسيطة ونادرة. إلا أنه بحلول نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد توحدت كثير من الولايات الصغرى، والتي كان الحوريون يشكلون أغلبيتها السكانية في دولة واحدة أكبر، أصبح أسمها مملكة الميتانيين، أما سبب ذلك الاتحاد أو من كان خلفه قما زال سؤالا مفتوحًا يبحث عن إجابة. بعض الباحثين عزى ذلك الاتحاد إلى أسرة هند – آرية، أو هند – إيرانية حاكمة دخيلة على تلك الدويلات، وتوصلوا إلى ذلك الاستنتاج بسبب ظهور أسماء هند إيرانية للحكام والملوك الميتانيين، وكذلك ظهور أسماء آلهة هند – إيرانية بين مجمع الآلهة الميتانية. وبالطبع لا تبدو فكرة دخول طبقة غريبة حاكمة تعرض هيمنتها وسيطرتها على مجتمعات قائمة قبل وصولهم، ليست غريبة بأي حال وليست نادرة، بل هناك أمثلة غيرها، مثل القسيطيون غريبة بأي حال وليست نادرة، بل هناك أمثلة غيرها، مثل القسيطيون

الذين حكموا بابل وكانوا من خارجها، وكذلك النورمانديون الذين حكموا إنجلترا، وهناك حالات أخرى مازالت قيد البحث والدراسة. ولقد أشرنا قبل ذلك إلى الافتراض شبه المؤكد والمتفق عليه من أن المملكة الحثينية قد تكونت بفضل أسرة هند أوروبية، حاكمة دخيلة على الشعوب التي كانت تقطن منطقة وسط الأناضول. وفي حالة الميتانيين، فإن نظرية النخبة الهند- إيرانية الحاكمة الدخيلة أصبحت مؤخرًا غير مؤكدة، وأقل احتمالاً عن ذي قبل، بعد ظهور أسباب جديدة تتناقض معها (30). أما ظهور أسماء هند- إيرانية لملوك وآلهة في قمة المجتمع الميتاني، فهو إشكالية تصتاح إلى مزيد من البحث.

ومن العجيب أن تلك الصضارة – التي كان لها ذلك التأثير الثقافي العميق الذي ترك بصبماته المبيزة على عالم الشرق الأدنى القديم – لم يصل عنها إلا تسجيلات نادرة ونصوص قلبلة، بل إن المواقع الحقيقية لمعاصمتى الميتانيين، وهما واشوجاني وتايد، غير معروفة حتى الآن، وكل ما يمكن تخمينه عن تلكما العاصمتين أنهما كانتا إما في شمال ما بين النهرين أو في شمال سبوريا، وهو أقرب ما يمكن التوصل إليه من تضمينات(31). ومن جهة أخرى، فإن الإشارات النصبية إلى الملكة المذكورة في نصوص المالك الأخرى المعاصرة للميتانيين، والتي تذكر مملكة الميتانيين باسم الحوريين، أو الميتانية أو هانيجالبات، أما المصريون والكنعانيون فقد كانوا يطلقون عليها الاسم السامي العربي وهو نهارينا أو نهاريما، أما اسم ماتياني والذي تحول بعد ذلك إلى ميتاني (أو ميتاني) كان يستخدم من قبل المواطنين الميتانيين أنفسهم، فقد تم التيقن منه من خلال جزء من نص منقوش، يحتمل أن تاريخه يرجع إلى عصر الفرعون تحتمس الأول(32).

وبمجرد اكتمال تكون المملكة الميتانية، بسطت نفوذها بسرعة على شمال مابين النهرين وعلى شمال سوريا حتى شرق الأناضول، ودعم الامتداد العسكرى ترسيخ الميتانيين لوجودهم وهيمنتهم على دويلات

شمال سوريا، التى أصبحت ولايات محلية منضمة تحت سيطرة الميتانيين، أي ولايات محلية تابعة للإمبراطورية الغنية سريعة النص، إلا أن التطلعات الإمبريالية الميتانية الترسعية لم تصل أبداً إلى درجة التشبع، كانت هناك تطلعات إلى مغانم أعظم تقع خلف جبال توروس وما يقابلها من أراضى. وفي جنوب شرق الأناضول، كان الميتانيون قد قهروا مملكة كيزر وادنا وسيطروا عليها، ويحتمل أن ذلك قد وقع بدون حرب، عن طريق الضغوط الدبلوماسية أكثر منه بالقوة العسكرية (انظر ما يلي). ولم تكن إلا مسألة وقت، بل وقت قصير، حتى أصبحت القوات العسكرية الميتانية تشكل خطراً ماحقًا على الإمبراطورية الحثينية في وسط وغرب الأناضول، ولم يكن التهديد للحدود الحثينية فقط، بل على قلب الإمبراطورية الحثينية في عقر دارها، واستغرق ذلك الصراع المرير بضعة عقود من الأعوام بين عقر دارها، واستغرق ذلك الصراع المرير بضعة عقود من الأعوام بين المثينيين والميتانيين، للهيمنة على المناطق التي راح كل طرف يدعى أنها المشينية التفاوضية، ولم يعد هناك أي أمل لإنهاء الصراع إلا بالطرق الودية السلمية التفاوضية، ولم يعد هناك أي أمل لإنهاء الصراع إلا بالدمار الكامل النهائي لأحد طرفه.

وهناك إشارات عديدة في التسجيلات الحثينية المبكرة إلى العداء المزمن بين الحثينيين والحوريين. ويذكر نص قديم منقوش أن حاتوسيلي الأول وهو أحد عظماء ملوك الحثينيين اضطر إلى العودة من حملة عسكرية كان قد بدأها على منطقة أرزاوان بسبب بدء الحوريين في غزو بلاده. وهو الغزو الذي نجم عنه اشتعال التمرد والانشقاق في البلاد التي كانت تحت سيطرة الحثينيين. ويختمل أن ذلك الهجوم كان ردًا انتقاميًا على هجوم حاتوسيلي قبل ذلك على بلاد خاضعة لهيمنة الحوريين (مثل أورسو، التي كانت هدفًا للحثينيين، وحاصروها حصارًا فاشكر) خلال حملته على مناطق شمال سوريا. واشتعلت العداوة من جديد في عهد مورسيلي الذي خلف حاتوسيلي على عرش الحثينيين، وقام الحوريون مورسيلي الذي خلف حاتوسيلي على عرش الحثينيين، وقام الحوريون

واشتعل الصراع مرة أخرى فى عهد قاتل مورسيلى والمستولى على عرشه حانتيلى الأول، فقد قام الحوريون بغزو أرض الحثينيين، فراحوا يعيثون فيها فساداً ويجمعون غنائمها، وواجههم حانتيلى وتمكن من إخراجهم من بلاده، إلا أنه لم يتمكن من استرجاع زوجه حاراتسيلى وولديه، الذين وقعوا في أسر الحوريين.

وسبق أن عرفنا بظهور مملكة كيروادانا في المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية القائقة جنوب شرق الاناضول، وكانت قبل ذلك من المناطق الفاضعة للحثينين، ويحتمل أن ظهور مملكة كيروادانا المستقلة عن المحينين قد قامت ونشأت بدعم من الحوريين، النين حلوا بعد ذلك في تلك المنطقة بأعداد كبيرة. ثم نشأ تحالف بين إيدريمي، وهو حاكم محلى خاضع لنفوذ باراتارنا ملك الميتانيين وبيليا حاكم كيروادانا، مما زاد من حدة اختراق الحوريين للأناضول عبر حدودها الجنوبية الشرقية، مما شاعف من التهديد الموري، أو بوجه أدق التهديد الميتاني للحثينيين، ولم يكن التهديد لأمن وسلامة البلاد والمناطق الشرقية الخاضعة للحثينيين فقط، بل كان التهديد موجهًا ضد قلب بلاد الحثينيين ذاتها، والتي ظهر من قبل أنها كانت معرضة بسهولة للهجوم من قبل عدو شديد التصميم على ذلك، ويتميز بقدر كبيرمن العدوانية.

إلا أن هناك خصماً آخر كان على الميتانيين مواجهته. فقد شكلت العملات العسكرية الناجحة على شمال سوريا، التي قادها الفرعون المصرى تحتمس الأول، تحديًا مباشرًا للإمبراطورية الميتانية النامية. إلا أن فشل خلفاء الفرعون المباشرين - وهما تحتمس الثاني وحتشبسوت في انتهاج نهج تحتمس الأول، في دعم الحملات العسكرية وترسيخ وتأمين المناطق التي غزاها في شمال سوريا – أتاح الفرصة للميتانيين للتحرك بحرية لاستكمال هيمنتهم على شمال سوريا وشرق الأناضول.

وبتجدد النشاط العسكرى المصرى على شمال سوريا في عهد تحتمس الثالث، تعرضت المناطق التي خضعت الهيمنة الميتانية مرة أخرى التهديد،

ولا يوجد أى شك فى أن الحثينيين والأشوريين والبابليين رأوا فى تحتمس الثالث محرراً لهم من الطغيان الميتانى، وسارعوا جميعًا إلى توثيق أواصر العلاقات معه، بل إنهم بدءوا في إرسال الهدايا والجزية له. إلا أن غزواته كانت مثل غزوات تحتمس الأول بلا أثر دائم في إرساء وترسيخ النفوذ المصرى في شمال سوريا. فقد ثبت أن هناك تحديات خطيرة تواجهه وتواجه نفوذه الشخصى في المناطق التي غزاها، من خلال حملته السابعة عشرة والأخيرة، والتي كان دافعه إليها القضاء على التمرد في مدينة تونيب بوسط سوريا وقادش بشمالها الشرقي. وفي بلاد الميتانيين كان الملك شوشراتار القوى قد استوى على العرش (حوالي -1420 كان الملك شوشراتار القوى قد استوى على العرش (حوالي -240 يحظى بدعمه، وتحت قيادة شوشراتار القوى النشط كان الميتانيون في سبيلهم بدعمه، وتحت قيادة شوشراتار القوى النشط كان الميتانيون في سبيلهم الوصول إلى ذرى القوة والهيمنة في عالم الشرق الأدنى القديم.

ويعد أن تحرر شوشراتار من الخوف من أى تدخل مصرى جديد في برامجه التوسعية، بدأ بغزو أشور، فاجتاح عاصمتها أشور وحصد كل ما توصل إليه من غنائم. ثم استكمل حملته غربًا عبر نهر الفرات، فأخضع كل ممالك شمال سوريا، حتى وصل بقواته إلى ساحل البحر المتوسط، وربما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى الجنوب حتى فلسطين، إلا أن أغلب مناطق جنوب سوريا كانت مازالت تحت النفوذ والهيمنة المصرية. كان شوشراتار بلا أدنى شك منجذبًا إلى طموحات إخضاع كل المنطقة، بما فيها منطقة فلسطين، التي كانت توجد بها جاليات حورية كبيرة، إلا أن أي تحرك بذلك الاتجاه كان لابد أن يخضع لحسابات دقيقة، تأخذ في اعتبارها قبل أي شيء حتمية الصدام المباشر مع مصر، حيث كانت كل مناطق جنوب سوريا وفلسطين تحت الهيمنة المصرية المباشرة في عهد خلفاء تحتمس الثالث. كانت أفاق النجاحات العسكرية الأولية الميتانيين ضد العسكرية المصرية في شمال سوريا جيدة للغاية، إلا أن المخاطر ضد العسكرية المصرية في شمال سوريا جيدة للغاية، إلا أن المخاطر

بعيدة المدى كانت مما لا يمكن تجنبه.

لم تواجه شوشراتار موانع جمة أو خطيرة في توسعه السريع في شمال سوريا، ولم نشكل الأشوريون ولا القسيطيون البابليون أي خطر يذكر على توسعاته غرب الفرات. كانت الملكة الوحيدة التي يمكن أن تشكل خطرًا عليه هي مملكة المثينيين. إلا أن الملكة المثينية لم تكن حتى ذلك الرقت قد استعادت مكانتها كقوة دولية عظمي، كانت بالكاد قد تمكنت في ذلك الوقت من استعبادة هيمنتها على كثير من مناطق الأناضول، التي فقدتها في فترة الاضطرابات التي تلت اغتيال ملكها مورسيلي، إلا أنها كانت لا تزال تفتقد القدرة على استعادة قدرتها العسكرية على الغيزو، والتي مكنت ملوكها الأوائل من غيزو المناطق السورية. إلا أن الحثينين اثبتوا أنهم يتمتعون بالقدرة على استعادة قوتهم في مواجهة عدوان خارجي. لم تكن إلا مسألة وقت حتى عادت بهمة جديدة لإعادة تأسيس وجودها ونفوذها في شمال سوريا، وكان ذلك يعني حتمية الصراع مم الميتانيين، ولو كان الميتانيون في ذلك الوقت مشتبكين في صراع شند مصر، لكانوا قد وقعوا بين عدوين قويين وقادرين، فيمجرد أن وجِّه الحثينيون اهتمامهم لاستعادة نفوذهم في شمال سوريا، تخلي الميتانيون عن تطلعاتهم في الجنوب.

كل تلك الاعتبارات شغلت الملك الميتاني ارتاتاما الأول، خليفة وربعا ابن شوشراتار، مما دفعه إلي السعى إلي التفاوض مع فرعون مصر آمونحتب الثاني للتحالف معه، ومن الواضح أن التوصل إلى تحقيق مثل ذلك التحالف، كان لابد أن يسبقه الاتفاق بين المملكتين على حدود مناطق النفوذ التي تخص كلاً منهما. كنان ذلك يعنى للميتانيين تخليهم عن تطلعاتهم إلى بسط نفوذهم على جنوب سوريا. وكانت مصر تضمن بذلك سيادة بلا تحديات تذكر على تلك المناطق، بينما تتخلى مصر للميتانيين عن كل المناطق التي كان قد غزاها كلً من: تحتمس الأول وتحتمس الثالث فيل ذلك في شمال سوريا. ومن الواضح أنه كان هناك عدد من النقاط

الشبائكة في المفاوضيات، قدم المصريون عبروضًا وشروطًا بديلة بخصوصها لتلك التي قدمها الميتانيون. ولا يوجد أي شك في أن كل المفاوضيات قد بطنتها الشكرك المتبادلة وعدم ثقة كل طرف في نوايا الأخر، واستمر الحال على ذلك حتى اعتلى تحتمس الرابع عرش مصر وتم التصديق على الاتفاق مع ارتاناما ملك الميتانيين، وتوجوا الاتفاق بزواج تحالف(33). ويموجب ذلك الاتفاق رسمت حدود مناطق النفوذ بين المملكتين، بسيطرة مصر على المناطق التي تقع شمال مصر حتى قادش على نهر العاصى، ومنطقة العموريين حتى مدينة أوجاريت على ساحل البحر المرسط، بينما تخضم كل المناطق التي تلى ذلك إلى نفوذ وهيمنة الميتانيين،

مكنت تلك المعاهدة أرتاتاما ملك الميتانيين من إحكام قبضته على شمال سوريا، مع احتمالات ضئيلة بوجود مخاطر من الحثينيين، فقد كان الحثينيون مشغولين تمامًا بتأمين بلدهم ذاتها من مخاطر غزوهم في عقر دارهم، فكما ذكرنا من قبل، تصاعد التهديد حتى تحول إلى غزو وانشقاق داخلي في عهد تودحاليا الثالث الحثيني. ووفر ذلك الميتانيين حرية الحركة في شمال سوريا وبسط نفوذهم عليها في تلك المرحلة. إلا أن استعادة الحثينيين لقواهم في عهد ابن تودحاليا وخليفته سبيللوليوما أعاد انعاش العداوة التاريخية بين الحثينيين والميتانيين. كان التطلع إلى بسط النفوذ من الجانبين على المناطق ذاتها تقضي على أي احتمال التوصل إلى تسوية سلمية، مثل تلك التي أمكن التوصل إليها بين الميتانيين والمصريين. أصبح الحثينيون والميتانيون في مرحلة الصدام النهائي المدمر.

ولسوء حظ الميتانين- عدا مواجهتهم اواحد من أشد ملوك الحثينين عزمًا وضراوة- دخلت الصفوة الحاكمة للميتانين في نزاعات وانشقاقات خطيرة بين تكتبلات الأسرة الحاكمة في صراع على السلطة، وخلف ارتاتاما على عرش الميتانين ابنه شوتارنا الثاني، الذي وسع من مناطق نفوذ الميتانيين حتى أقصى منطقة في الشمال تسمى ايسووا، إلا أنه بعد فترة قصيرة من موته واعتلاء ابنه ارتاشومارا العرش تعرض ابنه

للاغتيال، مما مهد السبيل لاعتلاء شقيقه الأصغر توشراتا العرش، إلا أنه كان هناك مطالب آخر بالعرش، ارتاتاما آخر كان يحظى بدعم وتأييد الشعب الميتاني، وبالقعل أعلن نفسه ملكًا.

ورأي سيللبولبوما ملك الحثيثين أن تلك الظروف مواتية، ولابد له من استغلالها، كان قد لقي قبل ذلك هزيمة عسكرية على بدي توشيراتا، مما يعنى أنه كان يواجه عدوًا قويًا، وأن النجاح في مواجهة الميتانيين يتطلب نشاطًا ديلوماسيًا سلميًا، كما يتطلب تحقيق نجاح في ساحة الحرب. ويذلك بدأ التفاوض مم أرتاتاما. ويموجب اتفاقهما (الذي لا أثر له حتى الآن)، يعترف سبيللوليوما ملك الحثينين بأرتاتاما كملك شرعي عظيم الميتانيين، ويقدم له الدعم اللازم، حتى يتمكن من الانفراد بعرش المتانيين بعد هزيمة توشراتا، ومن غير المعروف ما هو نوع الدعم أو الوعود التي وعد أرتاناما سبيلاوليوما بتحقيقها له في المقابل، ولا الإنجازات أو المكاسب التي يمكن أن يحققها الحثينيون من وراء ذلك الاتفاق للوصول إلى نصر محقق، إلا أن الحملة العسكرية الناجحة والتي استمرت عامًا كاملاً وقادها سبيللوايوما على شمال سوريا مهدت الطريق لتحقيق انتبصباره النهبائي، بالرغم من تمكن توشيراتا من الفيرار حين بدء سبطلوليوما في التوجه إلى عاصمة المتانين الملكية، وكلف التدمير النهائي للميتانيين الحثينيين اثني عشر عامًا أخرى من المعارك. وحلت نهاية الميتانيين بغزو الحثينيين لقرقميش، أخر معقل حصين الميتانيين، وباغتيال توشراتا على بد أحد أبنائه.

وترك الدمار النهائى للإمبراطورية الميتانية فراغًا سياسيًا فى شرق الفرات، سارع الأشرريون الذين كانوا خاضعين للميتانيين لملئه بقيادة ملكهم أشور أوباليت. وتدفقت القوات الأشورية وقوات مملكة آلش واجتاحوا ما تبقى من المملكة الميتانية، واقتسموا منطقة الشمال فيما بينهم. وكان ذلك سببًا لانزعاج سبيللوليوما، لما قد يترتب على انتصاره على الميتانيين وقضائه عليهم قضاءً نهائيًا. فيتدميره أحد أعداء الحثينيين،

إنما أتاح الفرصة الملائمة لنمو وظهور عدو جديد، والذي سيتبت على مدى زمنى قصير أنه لا يقل خطورة، وربما ورد إلى ذهن سبيللوليوما بعض الاحتمالات عن الأخطار المتوقعة على مصالح الحثينيين خاصة في سوريا إذا أستعاد الأشوريون قوتهم القديمة.

واتته فكرة أنه بالإمكان تجنب ذلك الخطر بصنع ملك ميتاني جديد تحت هيمنتهم ويجلسوه على عرش ما تبقى من بلاد الميتانيين، ليتكفل يتحجيم القوة الأشورية الناهضة، وعقد معاهدة مم أرتاناما لدعمه للوصول إلى العرش من أو خليفته، بمجرد إقصاء توشراتا عن العرش، إلا أن ارتاتاما وولده شوتارنا الثالث أظهرا بعد ذلك ميلاً غريبًا للأشورين. فقد دعموا القوات الأشورية في اجتياحهم وتدميرهم للعاصمة الميتانية واشوجاني ومدن ميتانية أخرى، بعد انتصار المثينيين على الميتانيين، ثم راهوا برسلون إلى الملك الأشوري بالهدايا الثمينة، بما فيها الغنائم الثمينة، والتي كان سلفهم شوشتاتار الأول قد غنمها من الأشوريين من ستين عامًا سابقة. آخر ما كان يقبله سبيللوليوما أو يريده سبيللوليوما هو وجود حاكم أو ملك موال للأشوريين على العرش، الذي أقصوا توشراتا عنه، وإن سقط ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية في أيدي الآشوريين أن في نطاق نفوذهم، فإن المناطق الخاصعة للحثينيين في غرب الفرات، خاصة مدينة قرقميش ومنطقتها، والتي أصبحت مملكة تابعة للحثينيين، ستصبح معرضة لخطر دائم وتهديد مستمر من الأشوريين، لذلك اربد سبيللوليوما عن الاتفاق الذي توصل إليه مع أبي شوتارنا. بدلاً من ذلك، عاد إلى دعم ابن توشراتا، ويبدو أن كيلى- تيشوب بن توشراتا كان هو المستول عن مصرع أبيه، وهرب بعدها إلى بابل. إلا أن البابليين رفضوا منحه حق اللجوء إليها، فاضطر إلى الرجوع إلى الشمال، ولجأ إلى عدو أبيه سبيللوليوما، وبعد أن تأكد سبيللوليوما، من ولاء كيلي- تيشوب، رُوِّجِه مِنْ إحدى بناته، ثم بعث به إلى قرقميش للإعداد لغزوة مشتركة عبر الفرات مع الأمير الحثيني شاري- كوشوه، الملك المعين على قرقميش، ولم

تلق تلك الغزوة إلا مقاومة ضئيلة. وتم تنتصيب كيلى - تيشوب، الذي ارتبط عن طريق الزواج بالحثينيين ملكًا على ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية تحت الهيمنة الحثينية، واكتسب اسم شانيواذا، وكما يمكن أن نتوقع، أدى ذلك الانقلاب والتحول من سبيللوليوما باحتجاجات شديدة من شوتارنا، الذي اتهم سبيللوليوما بخرق الاتفاق والمعاهدة التي عقدها من قبل مع أبيه آرتاتاما. فطبقًا لذلك الاتفاق، توقع شوتارنا الدعم الكامل من سبيللوليوما حتى يتمكن من اعتلاء عرش الميتانيين وكان محقًا في ذلك. وبدلاً من ذلك دعم سبيللوليوما بن توشراتا عدوهما المشترك السابق. إلا شوتارنا مع الآشوريين وميله إليهم يعد خرقًا من جانبه، للاتفاق المعقود مع أبيه، ويجعله باطلاً. وبغض النظر عن تلك الحجة، لم يكن سبيللوليوما من ذلك المعنف الذي يلتزم بمعاهدة أو دواعي الشرف، أو الإخلاص، أو من ذلك الصنف الذي يلتزم بمعاهدة أو دواعي الشرف، أو الإخلاص، أو التعامل بعدل بقف حائلاً في طريق تحقيقه لأهدافه.

ولم تعد الإمبراطورية الميتانية التي انهارت تصنف في مصاف القوى العظمى، وحلت مطها قوة الأشوريين التي راحت تتنامى بعد انهيارهم،

وكان نمو القوة الأشورية من جديد من النواتج الثانوية المترتبة على نجاح سبيلوليوما في تدمير الإمبراطورية الميتانية. أما بقايا الإمبراطورية المنهارة والذي أصبح بشار إليه باسم مملكة هانيجالبات، فقد راحت تسقط بمرور الزمن تحت الهيمنة الأشورية المطلقة، وخلال حكم خليفة شاتيوازا وهو شاتيوازا الأول تضالحت مملكة هانيجالبات، حتى أصبحت إمارة تابعة للأشوريين، وراحت علاقتها تتذبذب مع الأشوريين بحلول نهاية العصر البرونزي، بدءاً من التمرد الذي قاده ابن شاتيوارا وخليفته وازاشاتا، ولم تعد تتمتع بأي دعم، أو على الأقل أي عون يعتد به من الحثينيين في محاولتها لتأكيد استقلالها عن الأشوريين وهيمنتهم. وتخلّى الملوك الحثينيون المتأخرون عن أي ادعاء بحقوق لهم على الحكم على ما تبقى، مما كانت في يوم ما الإمبراطورية الميتانية العظمي.

2

التفاعلات المتبادلة بين القوم: الإدارة الإمبريالية والعلاقات الدولية

إدارة البلاد الخاضعة

في كل لحظة على وجه التقريب خلال العصر البرونزى المتخر، خضيعت مناطق بدءًا بالأناضول، مرورًا ببلاد ما بين النهرين، وسوريا، وفلسطين، حتى مصر، إلى هيمنة واحدة أو أكثر عن الممالك العظمى، كما كانت هناك كثير من أوجه الشبه في الوسائل التي استخدمها كبار الملوك، لفرض سيطرتهم وهيمنتهم على البلاد الخاضعة لنفوذهم، إلا أنه كانت هناك أيضًا أوجه اختلاف بين تلك الوسائل، تباينت من إمبراطورية لأخرى.

كانت لكل مملكة عظمى مساحتها الجغرافية الأصلية التى نشأت عليها، وهى المساحة الجغرافية التى تقع بها عاصمة تلك المملكة، وكان سكان وأهل تلك المساحة الجغرافية يعدون رعايا مباشرين لتلك المملكة، ويغذون الجيش بالأفراد المحاربين، والذين كانوا يرون في أنفسهم، على مختلف مستويات طبقات المجتمع، أعلى مستوى من أبناء البلاد الخاضعة بالغزو، وأحق بالتميز.

كان لكل مملكة عظمى لغتها الخاصة الرسمية، بالرغم من أن تلك اللغة المختارة لم تكن إلا واحدة من لغات متعددة يتحدث بها أبناء الملكة، ولم تكن بالضرورة أكثر تلك اللغات انتشاراً بين أبناء وشعب الملكة.

كذلك لم يكن الانتماء العرقي للنخب الحاكمة ينتمي إلى العرق الأوسع انتشاراً بين أبناء الملكة.

كانت بابل في العصر البرونزي المتأخر محكومة بالملوك القسيطيين، وهم من أصل أجنبي غير بابلي.

كذلك كانت السلالة التي حكمت الحثينيين، فمن المحتمل أنها كانت تنتمي إلى أعراق أجنبية عن المنطقة، ويحتمل أيضًا أنه لم يكن العرق

الأوسع انتشاراً في بلاد الحثينيين.

كذلك كانت النخبة الحاكمة للإمبراطورية الميتانية تنتمى إلى عرق أجنبي يختلف عن العرق الذي ينتمي إليه أغلب أبناء شعب الإمبراطورية، الذي كان يقطن أرجاها المختلفة (1).

وخارج المناطق الأصلية لكل إمبراطورية، كان كل ملك يفرض هيمنته على بلاد أخرى خاضعة، وغالبًا ما كان خضوعها في الأغلب الأعم راجعًا. إلى غزوها عسكريًا. كانت تلك البلاد تتكون من بلاد وممالك تابعة للمملكة العظمي، وكانت تحكم في الأغلب بملوك محليين، بافتراض أنهم يوفون بالتزاماتهم التي يفرضها عليهم خضوعهم لملكة أكبر أو إمبراطورية أقوى، وكانوا يوجه عام أصبحاب صيلاهيات واسعة في إدارة ممالكهم الصغرى أو مدنهم التي يحكمونها، ونجد في الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها المثينيون مع الممالك التابعة تحديدًا واضحًا للالتزامات المتبادلة بين الطرفين، كانت تلك المعاهدات تتخذ شكل العقود الشخصية، لا بين مملكتين أو حكومتين، بل بين فردين الملك: الأعظم والحاكم المحلى الخاصم له، كان من أهم التزامات الحاكم المحلى تجاه الملك الأعظم الذي يخضم له دعمه بالقوات العسكرية عند الحاجة ودفع الجزية السنوية. مقابل ذلك كان من حق الملك الخاصم أن يحظى بدعم الملك الأعظم إذا تعرضت بلاده لمخاطر الغزو من طرف ثالث، أو إذا تعرض وضعه كحاكم للتهديد من أية جماعة داخلية أو خارجية. كذلك يضمن له الملك الأعظم أن يظل اعتلاء عرش تلك المنطقة مقصورًا على سلالة ذلك الحاكم المحلى(2).

أما فراعنة مصر العظام، فمن غير المعروف إن كانوا قد عقدوا اتفاقات مماثلة مع حكام وملوك المناطق المحلية والبلاد التي غزوها أم لا؟ فلم يعثر حتى الآن على وثائق تثبت ذلك(3).

من الثابت أن كبار المسئولين المصريين كانوا يتنخلون بشكل أعمق من السيئولين الحثينيين في شيئون إدارة البلاد الخاضعة انفوذ أي منهما. (انظر ما يلي)، مما قلل من أهمية الحكام المحليين. غير أن عدم وجود

عقود رسمية تحدد التزامات الخاضع تجاه الفرعون والدعم المقابل من الفرعون له من المكن أن ينتج عنه كثير من سوء الفهم بين الملك الأعظم والملك الخاضع.

وربما يفسر ذلك عديدًا من الشكاوي والتذمر التي تحتوي عليها رسائل تل العمارنة من قبل الملوك الخاضعين، يعبرون فيها عن خيبة أملهم وإحساسهم بالإحباط، بعد أن فشلوا في الحصول من الفرعون على المعونات المادية والدعم العسكري عندما احتاجوا إليها، لم تكن تلك الشكاوي يتم تجاهلها بلا رد من الإدارة الفرعونية، بل كان يرد عليها بردود غاضبة من الملك الفرعون، يؤنبهم فيها على مداومة إزعاجهم له، وعلى فشلهم في حل المشاكل بأنفسهم، وعدم تحملهم مسئولياتهم في شئون مناطقهم وبلادهم التي يحكمونها، كما يؤنبهم على عدم التزامهم بالأوامر التي وجهت إليهم قبل ذلك، لذلك كان من المفيد كتابة اتفاقات رسمية تنص على الالتزامات والحقوق المتبادلة بين الملك الأعظم والملك الحلى الخاضم لهيمنته.

واختلفت درجة تدخل الملك الأعظم في شدون الملوك الضاضعين من مملكة إلى أخرى، وأحيانًا كانت تختلف بين مملكة خاضعة وأخرى داخل الإمبراطورية ذاتها. كان من النادر أن يتدخل ملوك الحثينيين في الشدون المحلية الممالك الصغرى الخاضعة لهم، كانوا يتدخلون فقط في شدون تأمين التواصل والطرق بانفسهم لا في الشدون الداخلية لتلك المناطق. أحيانًا كانوا ينشدون حاميات عسكرية أو حصوبنًا في بعض الممالك الخاضعة، إلا أن ذلك لم يكن يتخذ إلا لضرورة يحتمها تعرض تلك المناطق لعوامل عدم استقرار، أو أن تكون تلك المملكة المحلية الخاضعة لهم في منطقة استراتيجية معرضة لمظامع الأعداء، كان النقص المزمن في أفراد الجيوش – وشدة الاحتياج إلى توفير كل الموارد العسكرية، جاهزة تحت الطلب الحملات العسكرية الكبرى الموجهة للخارج أو لحماية أرض الدولة ذاتها – لا يسمح للحثينيين بنشر قوات عسكرية دائمة في الممالك

الصغرى، ولم ير الحثينيون أية ضرورة لاتخاذ مثل تلك القرارات.

أما البلاد والممالك والمناطق الخاضعة للهيمنة المصرية في سوريا-فلسطين فقد كانت تقسم، لأسباب إدارية، إلى عدد من الولايات (4)، وكان المسئولون المصريون، سواء عسكريين أو مدنيين، يتدخلون بشكل أعمق في الشئون المحلية وإدارتها في تلك الولايات. إلا أن الملوك والبيوت الملكية المحلية في تلك المناطق استمرت في سدة الحكم وممارسة سلطتها، كما تركت هيئات الحكم المحلية ونظم الإدارة الهيكلية المحلية والمؤسسات السياسية تمارس أعمالها دون تدخل (5).

إلا أن مجمل الإدارة المحلية للولايات والمناطق والممالك الخاضعة ظلت خاضعة للإشراف من قبل مسئولين من لدن الفرعون، كان يطلق عليهم اسم المفوض أو المندوب الملكى (بالأكادية rabisu، وبالكنمانية sokinu)، والذين كانت مهامهم الإشراف على جمع الجزية والضرائب من الحكام المحليين، كان بعض أولئك المندوبين أو المفوضين ينت مون إلى أصول كنمانية، إلا أن الأغلبية العظمى كانوا مصريين، وخلال مرحلة العمارنة، قام المفوضون بدورهم كمفوضين جوالين، بسلطات مخولة إليهم من الفرعون مباشرة، وعلى عدد من المدن في منطقة معينة من المناطق الخاضعة للنفوذ المصرى. كانت المسئولية العليا لاستمرار الهيمنة المصرية على سوريا وفلسطين من مهام موظف كبير معين من الفرعون مباشرة ويحمل لقب: «المشرف العام على بلاد الشمال (الأجنبية)».

وكان من سلطاته كممثل شخصى للفرعون في المنطقة المعين عليها، الإشراف على الحكام والملوك المحليين كأحد أهم مسئولياته.(6)

وكان حكام مصريون مقيمون، يعينون على المدن الحصينة الكبرى مثل غزة، وكوميدى (تم التعرف على موقعها في منطقة كامنة اللوز في وادى البقاع بجنوب لبنان)، وفي سومور (سيميرا باليونانية)، ومجدو، وبيت شان (وتقع كلتاهما في وادى يزرعيل شمال فلسطين)، وكانت تلك المدن العسكرية الحصينة تستخدم كمناطق قيادة للحكام المعينين من قبل

الفرعون، الإشراف على المدن المحلية الواقعة في نطاق كل منها، وكانت صلاحياتهم تتضمن القيام بالإدارة المدنية والعسكرية معًا، بالرغم من أن الإدارة العسكرية المحضية كانت موكلة إلى ضباط عسكريين مصريين في تلك المناطق، وبصحبة كل منهم فصائل من راكبي العجلات الحربية والمشاة وفصائل من الرماة بالنبال تحت قيادتهم المباشرة (7). وكان من مسئوليات الحاكم أو الملك المحلي أن يهتم بنفسه بإمداد تلك القوات بالغذاء الجيد وما يحتاجون إليه، وقد كتب أكيزي ملك قطنه إلي أخناتون فرعون مصر في إحدى رسائله: هجين وصلت القوات العسكرية والعجلات الحربية من عند مولاي، قدمنا لهم الطعام والشراب الجيد، والثيران، والأغنام والماعز والعمل والزيت، (8).

ولا تتوفر معلومات يقينية حتى الآن عن حجم تلك القوات، والمدى الزمنى الذى كانت تتواجده فى تلك المناطق الخاضعة. إلا أننا نعتقد أن تلك القوات لم تكن لتوجد بالمناطق الخاضعة إلا فى حالة حدوث توترات بين مسسئولى الإدارة المسرية والحكام المحليين ورعايا تلك المناطق الخاضعة، وقد ظهر من نصوص رسائل تل العمارنة فى مرات عديدة حدوث مثل تلك الاضطرابات. من جهة أخرى، كانت هناك مناسبات يطلب فيها الملك المحلى من الفرعون أن يوفر له حامية من القوات المصرية لفرض الأمن والمحافظة على السلم، أو لحماية حدود مملكته أو إمارته من عدوان جيرانه الطامعين.

ولا يوجد أى شك فى أن الحكم المصرى للمناطق الخاضعة لم يخل من منزايا وقوائد لتلك المناطق، ولكن حين كانت توجد بعض المالك بالفة الصغر مستقلة فى سوريا فلسطين فقد كانت تترك لصغر شأنها، إلا أن الفرعون كان يؤكد ويصر على خضوعهم لنفوذ كبار موظفيه، وكان الحكام المحليون لتلك المدن يشار إليهم باللؤنة الاكادية أنهم مجرد bagannu أى «محافظين». ويعلق البروفيسور ريدفورد على ذلك أنهم إنما بذلك كانت تخفض مراتبهم ومنازلهم لتماثل رتب محافظين المدن في مصر، وكانت

وكانت تفرض عليهم الضرائب والخدمات مثل تلك التي تفرض على المدن والمحافظات المصرية الماثلة (و).

ربما يعود ذلك إلى أن الفرعون كان يرى أن أمراء المقباطعات والاقطاعيات الصغيرة الأستوبين لا يستحقون أكثر من تلك النزلة. وطبقًا لتسجيلات تحتمس الثالث، لم يقل عدد الأمراء الأسيوبين، وجلهم من الفلسطينين الذين حاربوه في موقعة مجدو عن 300 أمير، وبمجرد أن خضعوا للحكم المصرى بعد المعركة، أجبر أولئك الأمراء على إرسال أولادهم إلى مصر، بحجة تعليمهم تعليمًا لائقًا بهم كأبناء أمراء، وتعويدهم على أسلوب ونمط وثقافة الحياة المصرية، ولإعدادهم إعداداً ملائماً لتولى الحكم بعد آبائهم على المقاطعات التي وفدوا منها. كانت إقامة أبناء أولئك الأمراء في كنف البلاط المصرى، يعد في حقيقة الأمر بمثابة اتخاذهم أسرى بشكل مهذب ولائق، فقد كانوا تحت بد الفرعون بمثابة ضمان لمسن سلوك أبائهم. وبدأ أتباع ذلك النهج في عهد تحتمس الثالث، وسجل تحتمس عن ذلك: «جليت أبناء زعماء المناطق، ليكونوا أسرى في مصدر، وإذا منات أي واحد من زعمناء المناطق يرسل ابنه ليشبوأ مكان أبيه»، غير أنْ بعض الحكام التابعين تبوأوا مكانة مرموقة لدى بعض عظماء ملوك العصير اليرونزي المتأخرة وسمح لهم بممارسة صيلاحيات أوسع من تلك المنوحة لغيرهم، أولئك الذين كنان بإمكانهم الاضطلاع بدور حيوى في حماية مناطقهم بأنفسهم، بل والتوسع الجغرافي لصالح الملك الأعظم في المناطق التي يحكم ونها. والمثال السارز على ذلك الملك إيدريمي (11)، الذي كمان خلفًا لأبيه على مملكة حلب، ووقع تمرد على حكمه أجيره على الفرار، ويقى سبعة أعوام في المنفي، ولما أضمُّتم الميتانيون مملكة حلب تحت هيمنهتم بقيادة باراتارنا ملك الميتانيين، أعاد إيدريمي الملك المنفي إلى بلاده، ودعمه، وأيده، وبوأه عرش حلب، وعقد معه اتفاقًا بذاك، ولكن تقلص حجم الملكة إلى حد كبير، وأصبح مركز العرش الجديد في مدينة الإله (تل أسانا حاليًا). ولم يهدر إيدريمي الوقت لإثبات جدارته بثقة باراتارنا، فبعد أن قام بغزو سبع مدن على أطراف مملكته كانت خاضعة لنفوذ الحثينين، وقع معاهدة مع بيليًا، ملك الملكة ذات الموقع الاستراتيجي الهام، وهي مملكة كيزوادنا الواقعة جنوب شرق الأناضول. وقام بكل ذلك بعباركة من سيده الأعلى باراتارنا ملك الميتانيين، كما وقع المعاهدة بعدما حصل على موافقته على توقيعها. وزاد ذلك من خطورة الميتانيين على المملكة الحثينية، ولا يوجد شك في أن ذلك كان أحد أهداف إيدريمي الرئيسية. ورأى باراتارنا بجلاء أن أحد أتباعه كان عاملاً رئيسيًا في توسيع رقعة نفوذه في الأناضول، لذلك لم يتردد أبدأ في دعم توجهات إدريمي وكل ما يقوم بفعله. وفي حقيقة الأمر كان هو الذي أوحى إليه بتلك التوجهات.

كذلك دعم سبيللوليوما الأول الأمير الميتاني اللاجئ إليه كيلي-تيشوب، والذي اكتسب بعد ذلك اسم شاتيوازا، ابن الملك المهزوم توشيراتا، وزوده بالدعم العسكري اللازم لاستعادة عرش أبيه من خصيم أبيه والمدعوم من الأشبوريين شوتارنا، وأصبحت بقبايا الإمبراطورية الميتانية «كويروانا Kuirwana»، أي مجرد «محمية» تابعة للحثينيين. تلك الصالة السياسية والتي نادرًا ما أضفيت على مملكة مغزوة، أظهرت اعتراف الحثينيين بأهمية «شاتيوازا» في حماية مصالحهم في تلك المنطقة في مواجهة التهديدات الأشورية. ذلك الاعتراف ارتفع بالحاكم التابع إلى مرتبة أعلى من مجرد حاكم تابع، وظهر ذلك الاعتراف بتلك المنزلة في مراسم الاستقبال الاحتفائية بـ «شاتيوازا »، حين كان يقوم بزيارة العاصمة الحثينية، كما كان يظهر بصورة عملية في توفير وتقديم امتيازات خاصة لم تكن تقدم لغيره من الملوك والإمراء الخاضعين لهيمنة الإمبراطورية الحثينية. كالإعفاء من دفع الجزية، والسماح له في بعض الأحيان بضم المناطق التي غزاها إلى هيمنته المباشرة. إلا أنه في أغلب الأحوال كان حاكم مثل، تلك الولاية التابعة، لا يحظى باستقلال يزيد عن ذلك، عدا ذلك يكون له الحق في تحقيق أو ممارسة علاقات مستقلة مع أية قوى عظمى أخرى، وبذلك لم يكن ليزد بأى حال عن كونه دمية في يد الملك المثنني.

اكتسبت كيزوادنا هى الأخرى صفة «كويروانا Kuirwana»، أى «محمية» تابعة للمملكة الحثينية، ومثلها مثل البلاد الأخرى الواقعة فى نطاق الهيمنة، مرت بمختلف مراحل التطور السياسى والعسكرى، كانت جزءًا من الإمبراطورية الحثينية القديمة، ثم حققت استقلالها عن الحثينيين، ثم دخلت فى تحالفات فى أزمنة مختلفة مع كل من الميتانيين والحثينيين، ثم خضعت النفوذ الحثيني كولاية تحت الحماية Kuirwana ، ثم ضمها أخيرًا إلى مناطق النفوذ الحيوى الحثيني، ثم خضعت للحكم الماشر للحثينين،

وعبر نهر الفرات، خضعت هانيجالبات (وهو اسم ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية) للتطور السياسى نفسه، من ولاية مستقلة نظريًا وداخلة تحت الهيمنة والنفوذ الآشورى، ثم مع سقوطها التدريجى تحت النفوذ الآشورى تحول ملكها إلى ملك تابع في عهد الملك الآشورى عدد نيرارى الأول، بعدما شن ملكها شاتوارا الأول هجومًا غير مبرر، وقدر له الفشل سلفًا على الدولة الآشورية. ثم قام ابنه وخليفته وازاشاتا بالتمرد على الأشوريين، وقام الملك الآشورى عدد نيرارى بسحقه، ووجد في تلك المناسبة الفرصة السائحة لضم هانيجالبات ضمعًا نهائيًا للإمبراطورية الأشورية، بل إنه جعل من عاصمتها تايدى أحد المقار الملكية المخصصة الدولة.

النموذج ذاته من صراع ثم غزو يتلوه ضم يمكن تبينه أيضاً في وادى النيل. فقد أدت الغارات التي شنها كاموس، آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة على بلاد كوش (النوية)، والذين كانوا متحالفين مع الهكسوس في ذلك الوقت، إلي تمهيد الطريق إلى شن مزيد من الحملات العسكرية من بعده، والتي قادها الفراعنة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة، أي آمنحتيب الأول، وضحوا كل المناطق التي غروها إلى الأرض

المصرية، حتى أصبحت كل منطقة النوبة من بدايات المملكة الحديثة أرضاً مصدرية، وتحكم حكمًا مباشرًا من فرعون مصدر. وكان ذلك الضم العضوي يختلف عن الولايات الآسيوية الخاضعة للهيمنة والنفوذ المصرى، والتي كانت تحكم كما ذكرنا بحكامها المحليين، واحتفظت بقدر كبير من شكل الحكم الذاتي(12).

أما مناطق مصر الجنوبية فقد وضعت تحت الحكم الملكي المباشر عن طريق نائب ملك، مسئول أمام الملك مباشرة، حتى إنه عرف باسم ابن الملك حاكم كوش، أو المشرف العام على بلاد الجنوب. كانت المنطقة المكلف بالإشراف عليها تمتد جنوبًا من الولاية الثالثة في صبعيد محمر حتى كورجوس، الواقعة عند شيلالات النيل الرابعة، وكانت تلك المنطقة تضم النوبة العليا والدنيا وظهر منصب نائب الملك أيضًا في الإمبراطورية المثينية من عهد سبيللوليوما الأول، وامتد في عهود من تلوه من ملوك الحثينيين، فبعد أن دمر سبيللوليوما إمبراطورية توشراتا (الميتانية)، عين سبيللوليوما اثنين من أبنائه كنائبين له على قرقميش وحلب. وكانت تلك الخطوة بمثابة تطور هام في السياسة الخارجية للحثينيين، فلأول مرة في تاريخهم بمتد حكمهم المباشر إلى بلاد تقع خارج حدود الإمبراطورية ومن بين أولئك النواب، كان كثير منهم من نسل كبار الملوك، ومارسوا في سوريا أدوارًا سياسية وقضائية وعسكرية هامة، كما كانوا يتعاملون مع الحكام المحليين نيابة عن الإمبراطور ذاته.

قبل ذلك بأربعمائة عام قام الملك الأشورى شمسى – عدد هو الآخر بنعيين ابنيه (إشمى حاجان ويسمع – عدد) في منصبين كنائبين له على إيكالاتوم ومارى، وكبانتا من أهم المدن الحيوية في المملكة. كانت تلك التعيينات في مناصب نواب الملك في السياسة الحثينية والآشورية إنعكاسًا لما تمثله المدن الاستراتيجية التي يتعين عليها نواب الملك، كما مثلوا لسكان المدن ذاتها علامة واضحة جلية على أهمية مدنهم، ووضعها المتميز. كان ذلك التميز يضعهم في مرتبة أعلى من مراتب المدن المجاورة

لهم، وكان يمثل لهم في المستقبل تأكيداً الأهمية مدنهم كمراكز للقوة الإقليمية.

كانت بابل أهم الكتل الجغرافية المتماسكة من بين الإمبراطوريات العظمى في تلك المرحلة. فتحت حكم القسيطيين تم تقسيم المملكة إلى عدد من المناطق الإدارية أو الولايات، على رأس كل منها حاكم محلى، يقيم في قلب أكبر مراكزها المضرية، وكان يضضع مباشرة الملك، ومن أهم مسئولياته جمع الضرائب على شكل محاصيل، وحيوانات حية، وسلع أخرى مثل الأخشاب من المناطق الريفية، كان مسئولاً أيضًا عن توفير الإقامة والغذاء للقوات العسكرية، وعن المشاريع العامة التي تقام في منطقته، بما فيها إقامة المعابر والقناطر وأسوار المدن وصيانة قنوات الري وتطهيرها.

وتدل النقوش المسجلة على علامات الصدود للأراضى، والتى كانت تسمى كودوراس، أن الأسر القسيطية الصاكمة للإمبراطورية البابلية أدخلت إلى الإمبراطورية نظام الاقطاعيات الزراعية التى كانت تمنع لكبار موظفي الدولة، بمن فيهم رجال البلاط، والكهنة، وكبار قادة الجيش، وأحيانًا لأعضاء من الأسر الحاكمة، كما تبنى ملوك الحثينيين سياسة مماثلة في منح الاقطاعيات الزراعية. كانت تلك الاقطاعيات الزراعية الممنوحة بمثابة مكافأة لأولئك الذين يضدمون الملك بإخلاص في المجالات المختلفة، وكانت تعد دافعًا لمن يحظون بها على المداومة على إخلاصهم وولائهم التاج. كما كانت تضمن الحصول على أقصى إنتاج يمكن تحقيقه يوضع تحت تصرف الملك، مما يؤدى إلى زيادة العوائد والضرائب التي تبخل الخزائن الملكية، إلا إذا كانت بعض الاقطاعيات تستثنى من تلك الضرائب.

انتعشت بابل تحت ذلك الحكم المركزي الذي مارسه الملوك القسيطين. وكان انتعاشها يعود إلى حد كبير إلى تماسكها، وإلى انعدام تطلع قادتها إلى توسيع رقعة المملكة، ولذلك لم تواجه إلا قليلاً من المشاكل التي كانت

تواجه الإمبراطوريات الأخرى المعاصرة لها، في محاولاتها فرض سيطرتها الدائمة على المناطق البعيدة عنها التى غزتها وأخضمتها الهيمنتها. كما نُعمَ قادة بابل بالغوائد التى ترتبت على اعتراف «الإخوة الملوك العظماء» بهم، دون أن يجهدوا أنفسهم عسكريًا لاكتساب ذلك الاعتراف بحد السيف. وبالرغم من أن نهوض وبعث جيرانهم الأشوريين أدى إلى زيادة التوتر والمصادمات العابرة بين المملكتين المتجاورتين، إلا أن ذلك لم يكن له أى تأثير يذكر على استقرار الإمبراطورية البابلية، ولا على رخاء أهلها حتى العقود الأخيرة من العصر البرونزى المتأخر.

إدارة العلاقات الدولية

تبين لنا أنه على طول العصير البرونزي المتأخر كانت أغلب مناطق الشيرق الأدنى القديم تحت هيمنة قوة أو أكثر من القوى العظمى التي ظهرت وتكونت خلال تلك المرحلة، وهكذا نجد أنه في قمة النجاح المصري العسكري في عهد تحتمس الثالث، امتدت الهيمنة المسرية لتحتوي رقعة واسعة من البلاد من النوبة العليا حتى فلسطان وسوريا، وحتى التخوم الغربية لمنطقة ما بين النهرين، بعد ذلك بفترة قصيرة، وصلت الملكة الميتانية إلى قمة قوتها، وأصبحت قوة عظمى في شمال ما بين النهرين وسنوريا، وشكلت تهديداً خطيساً على المصنالح الصشينينة في شنرق الأناضول، وبعد أن دمر سببللولوما الملكة المتانية وقضي على استقلالها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أصبح الحثينيون- بلا أي منازع – من أقدوى الممالك العظمي، وفي عبه د مدورسلي الثنائي بن سبيللوليوما امتدت البلاد الخاضعة لهيمنة ذلك الملك الحثيني العظيم من ساحل بحر إيجه إلى الشرق عبر كل منطقة الأناضول (13)، وعبر كل المنطقة التي كانت تشغلها الملكة الميتانية شمال ما بين النهرين وسورياء حيث أصبحت مدينة قرقميش الميتانية تابعة للحثينيين، وعلى عرشها نائب من نواب لللك الحثيثي، وهل الأشوريون محل الميتانيين بكونهم الخطر الجديد الذي يشكل تهديدًا على الحثينيين، استولى الأشوريون على ما تبقى من المملكة الميتانية شرق الفرات، وراحوا يتطلعون إلى الجانب الآخر الذي استولى عليه الحثينيون من المملكة الميتانية الواقع غرب الفرات حتى ساحل البحر المتوسط، إلا أن النزاع الذي نشب بينهم وبين بابل جارتهم الجنوبية أدى بالملك الأشورى تيكولتى - نينورتا الأول إلى تغيير وجهته إلى بابل، ونجح لفترة محدودة في ضم مملكة بابل إلى مملكته.

من الواضح إذن، أنه بمصطلح القوى العظمى عن «مناطق النفوذ»، كان مشهد الجغرافيا السياسية دائم التبدل والتحول والتغير، ولو أخذنا مشاهد خاطفة للمنطقة كل بضعة أعوام لوجدنا تلك المشاهد متباينة ومختلفة على الدوام بشكل جنري. كانت أكثر الفترات ثباتًا واستقرارًا هي تلك التي تلت توقيع معاهدة السلام الشهيرة بين مصر والمثينيان في منتصف القرن الثالث عشر قبل المبلاد، في تلك الفترة، كانت عضوية الملكة الميتانية في نادى القوى العظمي قد انتهت، وكان الأعضاء الأربعة، بما فيهم الملك الأشوري عدد- نيراري الأول، مشتبكين في علاقات ببلوماسية متبادلة. كانت الملكة المصرية والمملكة الحثينية أقرى أعضاء نادي الكيار بلا منازع، وكانت العلاقات بين الفرعون رمسيس والملك حاتوسيلي تمر بأزمات من أن لآخر حتى بعد معاهدة السلام. إلا أنه على المدى القصير على الأقل لم يكن هناك احتمال نشوب حرب شاملة بينهما. الأهم من كل ذلك أنه كان قد تم التوصيل إلى اتفاق يحدد مناطق نفوذ كل منهما، وكانت المنطقتان اللتان طال النزاع حولهما وهما: منطقة قادش ومنطقة عمورو قد تخلي عنهما رمسيس الحثينيين، مقابل ذلك، احتفظت مصر بهيمنتها على أغلب فلسطين القديمة، مع شريط ساحلي على البحر التوسط يمتد شمالاً حتى السامرة، أما في عمق اليابسة فقد احتفظت مصر بنفوذها علن منطقة بمشق وما في جنوبها حتى فلسطين، واعترف كلُّ من الطرفين بمناطق وحدود نفوذ الطرف الآخر واحترامها.

وحتى خلال القرون السابقة على إبرام المعاهدة، كانت الصروب

الشاملة بين القوى العظمى ظاهرة نادرة نسبيًا، كان ذلك في عالم تعد فيه الحروب ظاهرة متوطنة، حيث كان السلام، لا الحرب، استثناءً القاعدة.

كان المتوقع والمنتظر من عظماء الملوك إظهار قدراتهم العسكرية في ميادين القتال، وانتزاع الغنائم من ثروات وماشية وأسرى من الأعداء يعملون في خدمة الجيش، وتقديمهم كقرابين شكر يضحى بهم على مذابح الهتهم، وكان الحصول على الغنائم يمثل أهمية خاصة لملء خزائن المملكة، وانعاش المقاطعات الزراعية، وتوسيع رقعتها، وسد النقص في قوة العمل.

كان من المفاهيم الثابتة لدى كل ملك أن عليه منافسة من سبقه في إنجازاته والتفوق عليه. كانت الحروب تخاض لتوسيع رقع الممالك لزيادة عوائدها وتكريس نفوذها وهيمنتها، وأحيانًا ما كانت الحروب تخاض لأسباب عدوانية إمبريالية بحتة بلا دوافع معقولة، كما كانت تخاض في أحوال أخرى للهيمنة على طرق تجارية هامة، وفي حالات أخرى للدفاع عن حدودها أو متاطق زراعية هامة منتجة للغلال، ضد عدو طامع للاستيلاء عليها.

إلا أن الحالات التي حارب فيها عظماء الملوك بعضهم بعضاً تعد قليلة. والاستثناء الملحوظ أذلك هي حالة الحرب الدائمة التي استمرت بين ملوك الحثينيين والميتانيين، والتي انتهت بالتهمير النهائي للمملكة الميتانية بانتصار سبيللوليوما علي توشرانا. باستثناء تلك الحالة، نجد صدامين وقعا في قادش، وقع أولهما بين ميواتاللي الثاني الحثيني والفرعون المصرى سيتى الأول وخليفته. كذلك أيضا الهزيمة المروعة التي أنزلها الملك الأشوري توكولتي- نينورتا الأول بقوات الملك الحثيني تودحاليا الرابع في معركة نهريا، بالتأكيد كانت هناك مناوشات من أن لأخر بين الأشوري العظمى، وعمليات عسكرية من أن لآخر يقودها أحد أولئك الملوك العظم على مناطق خاضعة لنفوذ ملك أخر. وفي آخر عقود العصر البرونزي المتأخر اشتعلت العداوة في عدة مناسبات بين الأشوريين والبابليين. غير أنه في عالم اعتاد الصراع الحربي والعسكري، ويعدد لم

يقل عن أربعة من عظماء الملوك والإمبراطوريات الكبرى في أية مرحلة زمنية يتطلع كل منهم إلى ترسيخ سلطته والمحافظة على نفوذه وهيمنته على بلاد أخرى خاضعة له، وتشكل أهمية خاصة، وكانت غالبًا تقع في مناطق جغرافية فاصلة بين تلك الممالك، نجد أنه من اللافت للنظر بشكل واضح أن الصدامات الكبرى بين أولئك الملوك في كل عصر كانت نادرة الحدوث. فكيف يمكن تفسير ذاك؟

في أواخر الألفية الثائثة وباكورة الألفية الثانية قبل الميلاد، كان عالم الشبرق الأدنى القديم قد شبهد قيبام إمباراطوريات عظمي مالت إلى التوسع، بدءًا من الإمبراطورية التي أسسها الملك الأكادي سارجون، تبعتها بعد انهيارها بمائة عام الإمبراطورية التي أسسها في شمال ما بين النهرين أور- نامو، مؤسس أسرة أور الثالثة، وفي بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد نهضت عدة إمبراطوريات، تنافست فيما بينها لتحقيق الهيمنة والسيطرة على مناطق شمال ما بين النهرين وسوريا، إلا أنها سرعان ما تلاشت واضمحات. حتى إن أقوى أولئك الملوك مثل شمسي-عنده الأشبوري، وحبمبورابي البيابلي، ويمجد في حلب- انتهاشت إمبراطورياتهم وتوهجت لتنطفئ سريعا وتسقط وتنهارا وظات ذكري الممالك العظمي وكبار الحكام باقية في أذهان الأجيال التي تلتها، واضبحة في أثرها على الممالك التي تلتها. كان اللك الحثيني حاتوسيلي الأولى يقيس إنجازاته على إنجازات سارجون الأكادي العظيم، وإنجازات تارام- سن بن سارجون وخليفته، وترسخ كل ذلك في فولكلور الشعوب، وبرك أثاره ويصماته عليه، كما كان لانتصار الملك الحثيني مورسيلي الأول على مملكة حلب وعلى بابل وتدميره لهما معًا أثره في تبوء مورسيلي الأول مكانة مرموقة في التاريخ الحثيني العسكري، كذلك كان للانتصارات الكبري غير المسبوقة التي أحرزها تحتمس الثالث في حملاته العسكرية على سورياء أثرها في أن يصبح تحتمس الثالث نمونجًا يحتذي به لكل الفراعنة المقاتلين الذين تلوه.

غير أن كل أوائك الملوك الذين أعجبوا بأسلافهم والذين روادتهم فكرة منافستهم والتفوق عليهم كانوا أيضا على وعى ويقين بسرعة زوال منجزات أسلافهم. زالت سريعًا كل إنجازاتهم وضاعت، أحيانًا بمجرد انتهاء عهودهم. وكانت الرسالة واضحة للأجيال التالية من الملوك.

فالنجاح في ميادين المعارك بغض النظر عن تحقيقها نصراً جزئياً، أو حاسمًا - ليست ضمانًا في حد ذاتها لتحقيق أسس ثابتة لاستمرار الهيمنة على بلاد جديدة تم غزوها عسكرياً. لقد سقطت الممالك السابقة؛ لافتقادها لمصادر ثروات دائمة ومستمرة، والخبرة والخبراء الضروريين لترسيخ استمرار الهيمنة والسيطرة على المناطق التي غزوها على مدى زمنى معين. كما كانت تنقصهم المهارات وريما أيضاً الإدارة للتفاوض مع القوى الكبرى المجاورة حول المناطق المتنازع عليها. كانت المفاوضات السلمية بين القوى المتطلعة الهيمنة والنفوذ في منطقة واحدة بمثابة الدعم الذي يحقق استقراراً أطول لكل من تلك المالك.

واستفاد خلفاؤهم من ملوك العصر البرونزي المتأخر من إدراك ما حدث لأسلافهم. ولم تكن تطلعات ملوك تلك المرحلة للوصول إلى مرتبة القوى العظمى تقل عن ذلك، ولكن، ألم تكن هناك وسائل أمام أى ملك عظيم لإشباع تطلعاته الشخصية، وتأمين مصالح مملكته ونفوذها في المناطق الخاضعة لهيمنته خارج حدود مملكته، دون صراع عسكرى مع أنداده من ممالك عظمى أخرى؟ كانت الوسائل السياسية والدبلوماسية من المكن أن تحقق مثل ما تحققه القوة العسكرية إن لم تزد عنها، وبتكلفة تقل كثيرًا عن تكاليف الحروب. أكثر من ذلك، بالرغم من إعجاب المصريين التالين لتحتمس بإنجازاته العسكرية، سيدرك الفراعنة المصريون التالون له أن أفضل عصور الانتعاش الاقتصادى كانت تلك العصور التي اتسمت وتميزت بأقل نشاط عسكرى، مثل عهد حتشبسوت وأمينحوتيب الثالث، وهي العصور التي تعيزت بكثرة أثارها، وأرقاها فنيًا

كانت المواقع الجغرافية للممالك العظمي ذات تأثير أيضًا على العلاقات بينهما، كانت بلاد الفراعنة تبعد كثيرًا عن الإمبراطوريات الكبرى الأخرى المعاصرة لها. كان لصر والميتانيين اهتمامًا كبيرًا بالنطقة الكبرى سوريا- فلسطين، وهي المنطقة الجغرافية التي كانت تفصلهما عن بعضهما، وأدى ذلك الاهتمام من كلا الطرفين بالمنطقة ذاتها إلى نشوب صراع مسلح بينهما، إلا أن الصراع أدى إلى التفاوض والتوصل إلى اتفاق، حين أدرك الطرفان أن المنطقة المتنازع عليها كانت من الاتساع، بحيث يمكن اقتسامها فيما بينهماء مما يسمح لكل طرف بضم مناطق واسعة إلى مجال نفوذه، والأهم، فرص السيطرة على مناطق غنية بالموارد لكل منهما على ساحل البحر المتوسط، وحل الحثيثيون محل الميتانيين كشركاء في الهيمنة على سوريا. إلا أن الحثينيين لم يكن لديهم تطلعات تذكر في المناطق الواقعة جنوب دمشق، وبعد عهد تحتمس الثالث لم يصبح لدى مصر تطلعات إلى المناطق الواقعة شمال دمشق، وعلى مدى رُمني معين أصبحت منطقتًا عمورو وقادش من مناطق النزاع الساخنة، وكنانت مناطق فناصلة بين المملكتين العظمنيين، إلا أنه يعبد أن تخلى رمسيس الثاني عن المنطقتين للحثينيين، أزال أخر عائق في طريق التوصيل إلى اتفاق مع أخية الحثيني. والذي انعكس على «الاتفاق الأبدي»، كما أطلقوا عليه، والذي كان مُرْضِيًا لتطلعات الملكتين الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية،

كذلك قصرت بابل، في عهد حكامها القسيطيين، تطلعاتها علي منطقة ما بين النهرين، وبالرغم من وجود الإمبراطورية الآشورية التي كانت قد انبعثت من جديد، واستعادت قوتها، التي كانت تمثل تهديدًا حقيقيًا على الولايات السورية الخاضعة للحثينيين، وكذلك علي مناطق النفوذ المصرية في سوريا، إلا أنها لم توجه أية حملة عسكرية (في ذلك العهد) لتوسيع رقعتها باتجاه غرب الفرات.

بوجه عام، تمكنت الممالك العظمي في العصر البرونزي المتأخر من

المحافظة على علاقات سلمية وعلاقات تعاون وتشارك مصالح، باستثناء كما لاحظنا حالة صراع الحثينيين والميتانيين. فمن البدايات الأولى للمملكتين ظلا في صراع عسكرى لم يتوقف. كان الميتانيون قد تمكنوا من تكرين تحالف مع ولايات تابعة وولايات مستقلة، تمند من شمال ما بين النهرين وشمال سوريا حتى منطقة شرق الأناضول. وذلك حرم الحثينيين من أية فرصة تواجد في منطقة سوريا، مما كان له أثر سيئ عليها كقوة عظمى من قوى الشرق الأدنى القديم، والأخطر، كان ذلك الامتداد الغربي للميتانيين يشكل تهديداً خطيراً لقلب بلاد الحثينيين ذاتها، بعد أن أصبحوا قريبين منها إلى حد الخطر، وكان الحوريون متواجدين من فترات وعهود أقدم في شرق الأناضول. وعرف من عهد حاتوسيلي الأول الحثيني عن تعرض بلاده لهجمات خطيرة من الحوريين، والتي راحت نتكرر على مدى عهود من خلفوه. ولم يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان نتكرر على مدى عهود من خلفوه. ولم يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان نتكرر على مدى عهود من خلفوه. ولم يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان نتكر على مدى عهود من خلفوه. ولم يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان أبدأ، طالًا بقى الحوريون على أعتاب بلادهم.

من جهة أخرى، لم يكن الميتانيون ليتخلوا عن مناطق يعدونها من صميم حقوقهم، وجزءً لا يتجزأ من بلادهم. لم يكن من المكن أن يقبلوا طائعين بإرادتهم وجود قوة دخيلة في منطقة شمال سوريا، والتي كان سكان مناطق منها من الحوريين، والذين كانوا إضافة حقيقية لقوة المملكة الميتانية وأمانها ورخائها، ولكن، في الجانب الحثيني، أظهر حاتوسيلي الأول وخليفته مورسيلي الأول أن الحثينيين لا يمكن أن يقبلوا أية هيمنة أجنبية على شمال سوريا؛ لأن ذلك يغلق تمامًا في وجوههم أية مساهمة أو وجود فعال في كل المنطقة. لم يكن هناك أدنى فرصة للتصالح، وبالتالي لم يكن هناك أي مجال لمناورات دبلوماسية سلمية، خاصة حين كان يشغل العرش الميتاني ملك يكن مشاعر شديدة العداء الحثينيين. والذي وكانت النتيجة صراعًا طويلاً بلا هوادة بين الملكتين الكبيرتين، والذي انتهى بانتصار الحثينيين، واختفاء الملكة الميتانية من بين نضبة الممالك انتهى بانتصار الحثينيين، واختفاء الملكة الميتانية من بين نضبة الممالك

كانت للموامل الجفرافية أثر واضح على تشكيل العلاقات بين القوى العظمي في تلك المرحلة. إلا أنه كانت هناك عوامل أخرى غيرها، فكما لاحظنا كان عظماء الملوك يكرسون أغلب وقتهم وجهدهم للإعداد للحملات المسكرية، كانت تلك الحملات تكرس في الأغلب ضد قوى عدائية محلية تهدد البلاد ذاتها أو المناطق الخاصعة لهيمنتها، أو ضد المتمردين من سكان البلاد الخاضعة، كان فرعون مصبر يسيِّر الحملات العسكرية إلى بلاد النوية، (بالرغم من أن تلك المنطقة كانت في الأغلب في حالة هدوء تحت حكم نائب للفرعون)، أو توجه الجملات ضد متمردين في المناطق الأسيوية الضاضعة للنفوذ المصرى. إلا أن أخطر مشكلة كان عليه مواجهتها في الدفاع عن بلاده هي ذلك التهديد المستمر الذي شكلته القبائل الليبية غرب مصر. كان عليه أيضًا أن يحمى السواحل البحرية الشمالية من خطر قراصنة البحر، والذين لم يكونوا إلا بدايات لجمافل بحرية، ممن أطلق عليهم اسم شعوب البحر الذين هاجموا سواحل مصر الشمالية في عهدي ميرنبتاح ورمسيس الثالث. قاد الملوك الحثينيون أيضنًا حملات عسكرية عديدة ضد متمردي المناطق الخاضعة لنفوذهم وحلفائهم في غرب الأناضول (على وجه التخصيص)، وأحيانًا ضد متمردي الولايات السورية الخاضعة لهم. إلا أنهم بدورهم واجهوا مشكلة مزمنة تمثلت في الهجوم على بلادهم بجحافل القبائل القوقازية القادمة من الشمال، خاصة من منطقة البحر الأسود. كانت تلك القيائل القوقازية سريعة في انتهاز فرصة أية اضطرابات في بلاد الحثينيين أو أية مناسبة تكون فيها الملكة تعانى من وطأة إرسال جيوشها إلى مناطق معارك بعيدة، وتنتهز الفرصة للهجوم من الشمال. كانت الانتصارات على المتمردين والأعداء المطيين تكفي في الفالد لإظهار قدرة عظماء الملوك كقادة مسكريين، خاصة حين تترتب على ثلك الانتصارات الاستبلاء على غنائم ذات قيمة. ومن جهة أخرى، كانت المواجهة مع ملك عظيم أخر تؤدى إلى استنزاف خطير للموارد للإعداد لتلك المواجهة (14)، دون أي ضمانات للنجاح، وترك المملكة خالية من قوتها الضاربة الحامية، وتعريضها لهجمات أعداء أخرين من مناطق أخرى. كان من الأفضل كثيراً لأى من عظماء ملوك تلك المرحلة التاريخية أن يوفروا تلك الموارد، ليستخدموها عند الضرورة القصوى ضد أعداء يهددون قلب المملكة، وأن يحل بالطرق الودية السليمة أى نزاع مع ملك عظيم أخر، قبل أن يتصاعد النزاع ويتحول إلى صراع عسكرى، والذي يمكن أن يكون مدمراً لكلا الطرفين.

كانت هناك أيضًا فوائد مادية بحتة التي تنتج عن الملاقات الودية السليمة بين كبار الملوك، خاصة على صعيد التجارة والتبادل التجاري،

اتسم العصر البرونزى المتأخر بانتعاش التجارة العالمية في منطقة الشرق الأدنى، وأزدادت الروابط التجارية بمنطقة بحر إيجه، وانتعشت تجارة منتجات الحضارة المنوانية في جزيرة كريت، ومنتجات الحضارة المسينية في اليونان، من بين شبكات التجارة العالمية، وظهر ذلك من انتشار مراكز التبادل التجارى على السواحل الشرقية لبحر إيجه والسواحل الشرقية للبحر المتوسط، وكذلك من محتويات حطام السفن التي عثر عليها على السواحل الجنوبية لمنطقة الأناضول، وبما نعرفه عن الأسواق العالمية الكبرى التي تواجدت على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وبينما انطوت الأنشطة التجارية على عنصر مخاطرة بارز، فإن المتوسط، وبينما انطوت الأنشطة التجارية على عنصر مخاطرة بارز، فإن حجم وتنوع المنتجات التي كان يتم تداولها يعكس بوجه عام ثبات واستقرار التجارة العالمية في تلك المرحلة، والتي لم يكن من المكن أن تتم وستون القوى العظمى، التي هيمنت على عالم الشرق الأدنى القديم.

أحد أهم ذلك العناصر، بل مفتاح نلك العناصر جميعًا في علاقات كبار ملوك ثلك المرحلة هو التواصل. بالرغم من أنه بقدر ما نعرف، لم يكن «الإخوة» الملوك الكبار يلتقون، إلا أنهم تواصلوا بوسائل مختلفة، كتابة أو شفاهة. كانت الرسالة المدونة أحد أهم وسائل الاتصال والتواصل، بل إنها في حقيقة الأمر كانت من الوسائل الرئيسية التي استخدمت لتأسيس وترسيخ العلاقات الدبلوماسية السلمية بين كبار ملوك ثلك المرحلة.

وحتى هذا الموضع كنا نرسم الخلفية التاريخية والسياسية للممالك الكبرى، التي كانت موجودة في العصر البرونزي المتأخر. وقد أن الأوان أن نتحول إلى مراسلات ملوك تلك المرحلة التاريخية، ودورها الحاسم الذي أدته في عالم الدبلوماسية الدولية في ذلك الوقت.

الجزء الثانى المراسلات و مضمونها

3

الرسائل والرسل

الرسائل

الألواح المسمارية

في مجال نظم الكتابة في عالم الشرق الأدنى القديم، كانت ترسم الرموز، وتنحت، وتطلى بالألوان أو تحفر على مختلف المواد القابلة للحفر. كذلك كانت تنقش النصوص التذكارية على وجه الكتل الصخرية وعلى قواعد التماثيل، وعلى جدران القصور، والمقابر والمعابد. كانت النسخ الأصلية للوثائق الهامة مثل المعاهدات تنقش على رقائق المعادن، مثل البرونز والفضة أو الحديد. وكانت رقائق الأخشباب المفصلية شائعة الاستخدام، حيث تحفر أسطحها وتطلى بالشمع، وغير معروف أنواع الوثائق التي كانت تستخدم رقائق الخشب المفصلية في تسجيلها(1).

كانت أوراق البردى شائعة الاستخدام في مصر في الأعمال الإدارية، ولأغراض أخرى متنوعة، وبعد انتهاء العصير البرونزى كانت الوثائق والرسائل رخيصة التكلفة تسجل على رقائق من الرصاص. كذلك كانت جلود الحيوانات من الأدوات الملائمة للكتابة عليها، إلا أنه من البداية المبكرة للتسجيلات المدونة في منطقة ما بين النهرين، كانت الألواح الطينية من أكثر المواد شيوعًا في الكتابة على أسطحها، كان الطين يشكل على هيئة ألواح مستطيلة، وأحيانًا كان سطحها يحدب، إلا أنه كانت توجد أشكال أخرى غير الألواح المستطيلة، بما فيها الشكل القمعي، أو الشكل المستدير، وأشكال أخرى متنوعة،

وبينما كان الطين مازال طرياً، كان يمثل سطحًا ملائمًا للنقش عليه في النصوص المسمارية في عالم الشرق الأدنى القديم، والتي كانت تنقش

رموزها على الطين الطرى بحافة قطعة خشبية مسننة. وبمقارنة طريقة النقش على الألواح الطينية بغيرها من وسائل التسجيل على المواد الأخرى، تبين أن النقش على الألواح الطينية أطول عمراً. وحين كانت تلك الألواح تحرق في النار، سواء بطريق المصادفة أو القصد، تتحول إلى ألواح صلبة يصعب كسرها، وثبتت صحة ذلك خلال قرنين من أعمال الحفر والتنقيب في المواقع الأثارية المختلفة لمنطقة الشرق الأدنى، ووصل عدد الألواح المكتشفة في تلك المناطق إلى مئات الآلاف من الألواح

كانت الوبائق الرسمية المنفوشة على الألواح الطينية تخزن في مخازن خاصة داخل القصور، وفي المعابد الكبرى، أو في غرف وبائق خاصة تعد كدور السحفوظات، إلا إذا كانت معدة لإرسالها إلي ملك آخر، أو حاكم تابع، أو إدارى كبير في أحد الأقاليم. وحين كانت تلك الرسائل ترسل إلي وجهتها، كانت تنقش نسخ منها قبل إرسالها وتودع في الأرشيف؛ للرجوع إليها عند الحاجة. كذلك عثر على مسودات رسائل ووبائق في مستودعات تلك الألواح الطينية، ومن تلك المسودات توصلنا إلي نتائج مثيرة عن عملية إعداد النصوص والوبائق، ومراجعتها قبل التوصل إلى كتابة النص النهائي.

لقد كشف البحث والتنقيب عن أنواع عديدة من النصوص والوثائق المسجلة على الألواح الطينية في أنحاء مختلفة من الشرق الأدنى، كان منها نصوص احتفالية، وتراتيل دينية، وصلوات وابتهالات لآلهة مجسدة، وموجز لقوانين، وحكايات شعبية، وقصائد شعر، ومعاهدات، ونظم تشريفية، وتعليمات وأوامر لكبار رجال البلاط، ونصوص دينية وأدبية، ونصوص قصصية، وإعلانات بيانية ورسائل. واهتمامنا الرئيسي في هذا الكتاب بأخر ألوان وأشكال تلك النصوص، وهي الرسائل. كانت الرسائل هي الوسيلة المعتمدة للتواصل داخل وبين ممالك الشرق الأدنى القديم، فقد تواصل كبار ملوك الشرق الأدنى مع نظرائهم من ملوك عن طريق

الرسائل، وكذلك مع أبنائهم الذين كانوا نوابًا لهم في أرجاء الملكة، ومع الملكة الملكة الملكة ومع الملكة الملكة الملكة الملكة الملكة الملكة الملكة وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانت الرسائل تتبادل بكثرة بين مختلف أعضاء الأسرة المالكة في كل من الإمبراطوريتين المصرية والحثينية. كان أبناء وبنات وزوجات أحد كبار الملوك يتبادلون الرسائل مع أبناء وبنات وزوجات ملك آخر.

وكان الملوك يتبادلون الرسائل أحيانًا مع زوجات ملوك آخرين وكذلك مع أزواجهم وأبنائهم. كتب الملك الميتاني توشرانا رسائل إلى الملكة تايي، الزوجة الأثيرة لأمونحتيب الثالث وأم أمونحتيب الرابع (أخناتون)، وراسل رمسيس الثاني بانتظام الملكة المثينية بودوهيبا زوجة حاتوسيلي الثالث. كذلك كان كبار الموظفين في المقاطعات يكتبون لكبار الموظفين في الماصمة، وأحياناً على حاشية رسالة كانت مرسلة من الملك إليهم. كذلك كان الكتبة أنفسهم يرسلون برسائل شخصية قصيرة إلى نظرائهم الكتبة في البلاط الملكي على هوامش الرسائل الملكية(2).

الكتبة

عدا الوثائق، كان الكتبة مسئولين عن نقش الألواح- الرسائل الموجهة إلى ملك معين، وقراءة الرسائل الواردة إلى البلاط كرد على رسائل الملك. كان إتقان ذلك العمل يتطلب خبرة ودراية ودرية طويلة يبدأها من يمارسها وهو صبى في مدارس خاصة ملحقة بالمعبد أو القصر(3). وعرفت تلك المنشآت التعليمية في اللغة السومرية باسم إيدويا زرويخ، والتي تعنى حرفيًا «بيت الألواح الطينية»، وكان كل من نظامي الكتابة المصرية والمسمارية في غاية التعقيد؛ لاحتوائه على مئات من الرموز، وكان كثير منها، خاصة في الكتابة المسمارية، يميز بصعوبة بالغة عن غيره؛ نظرًا لتشابه وتقارب كثير من تلك الرموز. لذلك نجد مما توصلنا إليه من مصادر في منطقة ما بين النهرين، أن النظام التعليمي المفروض

على صفار الكتبة غاية في الصرامة، بما فيها الضرب البدني في حالة التقصير، أو التمرد، أو التقاعس. كان نظام تعليم القراءة والكتابة في مصر وبين النهرين يعتمد على النسخ المستمر للنصوص، مع التدرج والانتقال من النصوص البسيطة السهلة إلى النصوص الأكثر تعقيداً وصعوبة.

ويما أن قلة نادرة من سكان تلك الممالك كانت علمة بالقراءة والكتابة (يبلغ التقدير في مصر القديمة نسبة 1 بالمائة). كانت مهنة الكتابة مهنة شديدة التخصيص والتشدد في انتقاء من يقومون بهاء لذلك اقتصر العمل بها على عائلات معينة، كانوا يتوارثونها من جيل إلى جيل.

اذلك كان المتدربون في بلاد ما بين النهرين ينتقون من بين عائلات النخبة، وكذلك كان الأمر في كل من سوريا وبلاد الأناضول، إلا أنها كانت من طبقات أعرض وأوسع في مصر. كان الكتبة بإمكانهم عن طريق الكد والدأب والاجتهاد تحقيق مراتب عليا، والتوصل إلى تبوء مراكز إدارية عليا في ممالكهم، بل كان يمكن أن يصبح أحد أعضاء الدائرة المحيطة مباشرة بالملك، وأن يصبح من خاصتة ومستشاريه. ولو أخذنا في الاعتبار شدة النظم البيروقراطية التي صبغت إدارة ممالك العصر البروبزي المتأخر، لتأكد لنا شدة الاحتياج لمهنة الكتبة المحترفين. لم يكن عدد الكتبة في المعبد الأكبر لرب العواصف في حاتوسا عاصمة الحثينيين يقل عن اثنين وخمسين كاتبًا، وهو ما يزيد عن ربع العدد الإجمالي لكل العاملين بالمعبد. وباستثناء الكتبة الذين كانوا يعملون بالإدارة المركزية، العاملين بالمعبد. وباستثناء الكتبة الذين كانوا يعملون بالإدارة المركزية، كانت المراكز الحضرية المنتشرة بأنصاء الممالك بحاجة أيضًا إلى كتبة، لخدمة مصالح المملكة. وسنتعرف فيما يلي على بعض كتبة الأقاليم. عدا نذك،كان عدد من الكتبة يصحب الملك أثناء حملاته وغزواته العسكرية.

هل كان يمكن تمييز الكتبة عن غيرهم من المتعلمين في المجتمعات التي ينتمون إليها؟ إنه سؤال يصعب التوصل إلى إجابة له، حيث إنه على الأقل بستخدم مصطلح كاتب في بعض جوانبه، للدلالة على أشخاص تتجاوز وظائفهم مجرد الكتابة. فالأطباء، ومقيمو الشعائر الدينية والكهنة، ويحتمل كل أصحاب الوظائف العليا في الإدارة الملكية، كانوا جميعًا على درجة عالية من إجادة القراءة والكتابة – أو على الأقل بما يكفى لاضطلاعهم بأعباء وظائفهم الإدارية. بعض فراعنة مصد أيضًا كانوا غير أميين. وهناك شك كبير في أن يكون نظراؤهم من الملوك الأجانب على تلك الدرجة من المعرفة بالقراءة والكتابة.

كانت مهنة الكتابة بدورها تخضع لهيكل وظيفى هرمى. والأقل وضوحًا مدى الكفاءة الهيكيلة، وإن كانت كذلك، فإلى أى مدى؟ في النصوص الحثينية، كانت هناك درجة عالية من التخصص في تلك المهنة يستدل عليها من وجود مصطلح «كاتب الألواح الخشبية»، إلا أنه دون أن نعرف على وجه التحديد ما الذي كانت تستخدم فيه تلك الألواح الخشبية، لا يمكننا أن ندرك أو نخمن اتساع أو ضيق ذلك النشاط أو مدى الأهمية التي كان عليها. وربما قضى بعض الكتبة جل أعمارهم كموظفين مرتحلين، ينسخون النصوص، ويتلقون النصوص إملاءً، أو يخزنون النصوص في دواوين الحفظ، أو يستخرجون منها ما يراد منهم إخراجه.

وحقق أخرون مستويات أعلى فى تلك المهنة، وارتفع بعضهم إلى مراتب أولئك الذين يمارسون نفوذًا وتأثيراً فى شئون المملكة السياسية والإدارية.

ولعب بعض الكتاب الذين حققوا المناصب العليا المرموقة دوراً بارزاً في مجال العلاقات الدولية والنشاط الدبلوماسي. كان لتبنى اللغة الأكادية، أو البابلية بمعنى أدق(4) في العصر البرونزي المتأخر – كلغة تواصل دولية ولفة دبلوماسية دولية – ما حتم تعيين كتاب يجيدون لغتين أو ثلاثة، إن لم يكونوا متعددي الألسن في قصور كبار ملوك تلك المرحلة، وسنأخذ في اعتبارنا أعمال الترجمة التي انطوت عليها عملية تبادل الرسائل بين ملكين، لا يتحدث أي منهما اللغة الأكادية، إلا أنها كانت اللغة المعتمدة في كتابة الرسائل. كان أولئك المكلفون بأعمال الترجمة يعينون مع الوفود

الخاصة فقط، القيام بمهمة ترجمة الرسائل، إلا أنه كانت توكل إليهم أعمال أخرى أيضًا مثل مسح الأميرات الأجنبيات بالزيت المقدس في بلادهن، قبل رحيلهن الزواج بملكهن (5) وكان من الممكن أيضًا أن يمارسوا دور المستشار الملكي، ومراجعة محتوى الرسائل الواردة إليه، ونصحه بالرد الملائم على تلك الرسائل وإعداد مسودة الرد وعرضها عليه، بلغة الملك الوطنية قبل كتابة الصيغة النهائية. كان ذلك يتطلب كفاءة شديدة في تلك المهام لا في المهارات الدبلوماسية فقط، بل أيضًا في الدراية والإلمام الواسعين بالشئون الدولية، والتغيرات الدائمة والمستجدات الدراية عليها.

أليات التواصل

قبل إرسال أية رسالة ملكية، كانت تنسخ منها نسخ خاصة، إذا كانت رسالة هامة مثل تلك الرسائل المتبادلة بين بلاطين ملكيين، وتودع النسخ في دار حفظ خاصة؛ لاستعادة النصوص بعد ذلك إذا تطلبت الظروف ذلك. وانطبق ذلك أيضًا على نصوص الوثائق الهامة، مثل المعاهدات التي كانت تبرم مع الملوك التابعين أو الملوك الأجانب، في بعض الأحيان نجد أن بعض النصوص التي سنتعرض لها كانت الأصول المرسلة أو الصادرة إلى المرسل إليه، وفي حالات أخرى نجد أن مصدر النص نُسخُ احتفظ بها المرسل.

ولسوء الحظ، لا يمكن أن تتاح لنا الفرصة لمقارنة النسخ بالأصول، إذ يصعب الصحول عليهما معًا، وحين نجد عند المرسل نص رسالة كانت صحادرة من عنده، فمن الطبيعي أن نفترض أنها نسخة عن الرسالة الأصلية، وحين نجد نصاً عند المتلقى، فمن الطبيعي أيضاً أن نفترض أنه الأصل، وفي أغلب الأحوال نجد أن ذلك الافتراض صحيح، ولكن، كما سنرى فيما يلى، هناك استثناءات لذلك الافتراض.

ولا يوجد شك أن هناك مناسبات كثيرة حمل فيها الرسول عددًا من

الرسائل من بلاط ملك إلى بلاط ملك آخر، وكان الرسول بمثابة حامل الحقيبة الدبلوماسية، التى تحوى رسائل عديدة إلى عناوين مختلفة من مرسلين عديدين. وينطبق ذلك حرفيًا على رسائل كانت واحدة المحتوى، مرسلة من الفرعون رمسيس الثاني إلى كل من الملك الحثيني حاتوسيلي الثالث، وزوجته بودوهيبا، كما ينطبق على المراسلات المتبادلة بين الأعضاء الآخرين المتماثلين من العائلتين الملكيتين (6) وكان يعهد الكاتب أحيانًا كتابة سلسلة من الرسائل حول موضوع واحد، وترسل في وقت واحد. ومثال لذلك أرسل كاتب حثيني رسالة بالنيابة عن الملك إلى قرعون مصر يطلب فيها إعفاء تجار آلاسيا(7) من دفع رسوم الجمارك، ثم بعث برسالة إلى مسئول كبير بالاسيا، الذي أرسل رسالة تحتوي علي الطلب ذاته، ويف أنها أرسلت في ذات الوقت إلى أحد كبار ألمسئولين ويف تلمدين (8).

والرسائل التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة واحدة من أهم مجموعات الرسائل التي عثرنا عليها من العصر البرونزي المتأخر، وهي الرسائل المتبادلة بين البلاط الملكي المصرى والبلاط الملكي الحثيني، أثناء حكم رمسيس الثاني وحاتوسيلي الثالث، (وقد عثر على تلك المجموعة في أرشيف العاصمة الحثينية)، ومن ذلك يمكننا استنتاج أن الرسائل التي كانت موجهة إلى البلاط الحثيني هي الرسائل الأصلية القادمة من مصر، بينما كانت نصوص الرسائل التي عثر عليها في حاتوسا وموجهة إلى أعضاء البلاط الملكي المصرى ليست إلا نسخًا عن الرسائل الأصلية. وحيث إنه لم يعشر على أصل تلك الرسائل في مصر حتى الآن، فمن المدتمل أن بعض تلك الرسائل- التي يفترض أنها نُسخُ ليست إلا أمولاً— لم يتم إرسالها إلى مصر لسبب أو لآخر، وينطبق الاحتمال ذاته أصوحهة من فرعون مصر إلى ملوك بابل وأرزاوا (وهي مملكة كانت بغرب موجهة من فرعون مصر إلى ملوك بابل وأرزاوا (وهي مملكة كانت بغرب الأناضول)، وكذلك على رسائل أخرى كانت موجهة إلى الملوك الخاضعين

له في سوريا وفلسطين.

وأحيانًا ما كانت تكتشف رسائل لا هي بأصلية ولا هي بنسخ، بل مجرد مسودة أولية، ويتصليحات عديدة في النص للترصل إلى الصياغة النهائية، وسنشير في مناسبات مختلفة إلى واحدة من أكثر الرسائل إثارة وذات دلالات كثيرة، وهي مسودة رسالة، والتي كانت (بشبه يقين) موجهة من الملكة بودوحيبا إلى الملك رمسيس (9)، ولا توجد نسخة من الصياغة النهائية للرسالة، ولا نستطيم أن نؤكد أنها لم تلغ وتتلف أو تم التغاضي عَنْ إرسالها، قبل أن تعبل إلى الحالة النهائية التي توجِب عمل نسخة منها، فبعض محتواها كان يحمل توبيخًا مباشرًا. إلا أننا بوجه عام نعول على النسخ أو المسودات التي فقدت أصولها، وكذلك على الأصول في تجميع صورة الغلاقات بين المرسل والمتلقى للرسائل في العصير البرويزي المتأخر، وكذلك المواضيع الكبرى والاهتمامات التي كانت تتناولها تلك الرسائل، ويمكننا أيضًا أن نخمن محتوى الرسائل التي فقدت للأبد، وذلك من خلال الردود عليها، وأحيانًا ما كانت ردود الرسائل تحتوى على فقرات منقولة عن الرسالة الواردة، كلمة بكلمة، كما جاءت في الرسالة الواردة، وكنان لتلك العادة في نقل فقرات من الرسائل التي فيقدت في الربود عليها فوائد جمة، إذ أنها كانت تنقل من الرسائل التي فقدت فقرة بفقيرة والرد الملائم على كل فيقيرة منهيا، وهو منا مكنًا من إعبادة بناء الاستفسارات والطلبات والتعليقات والشكاوي، التي كانت قد سجلت في الرسائل الواردة، والتي لم يعثر عليها.

وتبرز ذلك فقرات مستمدة من مسودة رسالة بودوحيبا إلى الملك رمسيس:

«وعن ما كتبته يا أخى لى: «هكذا أرسلت أختى لى: حين سافر الرسول لزيارة الأميرة للبابلية التي أعطيت (بالزواج) إلى (ملك) مصر، تركوا ينتظرون واقفين بالخارج، وكان ذلك الرسول هو إليل بيل نيش الرسول الخاص للك بابل، وهو من أخبرني بذلك».

وهناك ثلاث رسائل تناولت الموضوع نفسه، ولا يوجد من الشلائة إلا رسالة واحدة، وهي الرسالة الشالشة حسب ترتيبها زمنيًا (والنسخة الموجودة على شكل مسودة) إلا أنه من الممكن التوصل إلى محتوى الرسالتين السابقتين من مضمون الرسالة الثالثة، فتتابع الرسائل حدث كما يلى:

فقى الرسالة الأولى المرسلة من بودوحيبا لفرعون مصر أشارت إلى الإذلال الذي تعرض له المبعوث البابلوني في مهمته لزيارة أميرة بابلية أصبحت إحدى زوجات الفرعون، وفي الرسالة الثانية، رد رمسيس علي رسالة ملكة الحثينيين، وفنّد تلك الادعاءات وأنكرها، وردت بودوحيبا على الرسالة بالرسالة الثالثة التي نتناولها، وذكرت فيها أن المعلومات وردت إليها مباشرة من مبعوث ملك بابل بنفسه، وهو صاحب شكوى إهمال البلاط المصرى له.

وتعد تلك الرسائة مثالاً سهلاً ويسيطاً على تبادل الرسائل التي أشرنا إليها، وسنتعرض لأمثلة أكثر تعقيداً بعد ذلك. إلا أنه من الهام أن نؤكد أن بعض العبارات التي تعزى إلى مرسل رسائل بعينه لم نتوصل إليها من رسائله، بل من خلال نقلها بحرفييتها في الردود الآتية على تلك الرسائل، ومن الواضح أن كثيراً من مراسلات العصر البرونزي المتأخر قد فقدت، أو قد تكتشف في قادم الأيام. لهذا السبب نشعر بامتنان؛ لأن كتبة الرسائل التي توصلنا إليها كانوا يحرمنون كل الحرص على أن تكون المسائل التي توصلنا إليها كانوا يحرمنون كل الحرص على أن أعضاء أسرته، قد فهمت على وجهها الصحيح والدقيق، وتوضع موضع الاعتبار، ويرد عليها بدقة، نقطة بعد نقطة وموضوع بعد موضوع، بعد نقل الفقرات كما وردت حرفيًا إلى رسالة الرد، للالتزام بالرد على النص لأصلى، وإعادة تذكير المرسل بكل النقاط التي أرسلها.

وكان ذلك من الأهمية على وجه الخصوص في الحالات التي كانت تستخدم فيها اللغة الاكادية كلغة المراسلات المعتمدة، في الوقت الذي كان

- فيه المرسل والمرسل إليه من غير الأكاديين. في مثل تلك المالات كانت نصوص الرسائل المتبادلة لابد أن تمر على ما لا يقل عن ست مراحل بدءًا من صبياغة النص الأول حتى تلقى الرد. وعند إعادة بناء تلك الخطوات، سنفترض أن بداية التراسل قد بدأت من البلاط الحثيني:
- 1- بالتشاور مع الملك يضع الكاتب النص المبدئي باللغة التي يتحدثها الملك، وهي اللغة الحثينية التي كان الحثينيون يسمونها «نيسيت»، وتعد مسودة رسالة الملكة بودوجيبا إلى رمسيس مثالاً على ذلك.
- 2- بعد إدخال تعديلات وتصليحات على النص في صورته الأولية، يعطى
 الملك موافقته على النسخة النهائية، ثم تترجم إلى اللغة الأكادية.
- 3- ترسل النسخة الأكادية إلى مصدر، ولا بد أن تترجم في مصدر إلى
 اللغة المصرية، حتى يمكن قراءتها على الملك.
- 4- يكتب الرد على الرسالة باللغة المصرية أولاً، ويمر النص بعطية إصلاح وتعديل حتى يعطى الملك موافقته عليه.
- 5- يقوم مترجم أو مترجمون من الكتبة المصريين بكتابة نص الرسالة التي وافق عليها الفرعون باللغة الأكادية.
- 6- يرسل الرد المكتوب بالاكادية إلى حاتوسا عاصمة الحثينيين، حيث
 يترجم إلى الحثينية، ثم يقرأ على المرسل إليه.

بمرور نصوص الرسائل بكل تلك الخطوات، يبدو أن احتمال تجاوز معنى، أو صياغة خاطئة لنقطة هامة أو معنى هام، بعيد تمامًا عن احتمال حدوثه. وهكذا، عند إعداد رد على رسالة يعكف الكاتب على استخراج أهم الأمور التي تناولتها الرسالة الواردة، خاصة تلك الجوانب التي تتطلب ردًا مباشرًا وواضحًا، تلك الجوانب والنقاط الهامة كانت تعاد كتابة في الرد كلمة بكلمة، مع الرد على كل مسالة فيها مباشرة، بعد إعادة نقل نصبها الأصلى، وحين يتلقى المرسل ردًا على رسالته، فإن الردود على المسائل تقارن قياسًا على ما ورد بالرسالة الأولى، وكان لذلك أثر كبير في

إجلاء أى سوء فهم، أو على الأقل تحقيق أدنى حد ممكن من إساءة الفهم بين المتراسلين. لتجنب إحساس خاطئ من أى طرف أنه تعرض لإهانة من الطرف الأخر في ثنايا نصوص المراسلات، كان مرسل الرسالة يجد أنه من الضروري أن يدافع عن نفسه ضد ما قد يعتبره اتهامًا ظائًا له من الطرف الآخر، وهي الاتهامات التي قد تنتج عن سوء فهم أو المبالغة في فهم أحد الأمور التي وردت بالرسالة القادمة.

الرسل

البعثات الدبلو مأسية

حين تصبح الرسائل جاهزة لإرسائها، كانت توضع في مغلفات من الطين، وتختم بخاتم المرسل، وتسلم لرسول، ليتوجه بها إلى الوجهة المنشودة، سيراً على الأقدام أو على عربة تجرها الجياد، وأحيانًا على صهوة جواد، وفي حالات أخرى على قارب بحرى. وتشير الرسائل مرارًا وتكرارًا إلى كلمة الرسول والرسل، بالرغم من أن هذا المصطلح «رسول» وبالأكادية «مارسبرى» (mar sipri) يتضمن وينطوى على دلالات واسعة عيدة، تتراوح من مجرد حامل رسالة لتوصيلها فقط، إلى سفراء بارزين، وعظماء. وكبراء الوزراء، والذين كانوا أحيانًا أفرادًا من الأسرة المالكة الحاكمة، لهم صعلاهيات واسعة بالتفاوض مع ملك أجنبي نيابة عن الحاكمة، لهم صعلاهيات واسعة بالتفاوض مع ملك أجنبي نيابة عن الملوكهم(10). وكانت المجموعة الأخيرة تعمل كوسطاء دائمين بين كبار الملوك، واكتسبت أدوارهم أهمية فائقة، على ضوء أن الملوك الكبار ذاتهم لم يكونوا ليلتقوا أبدًا، وفي هذا السياق كتبت الملكة بودوحيبا إلى رمسيس قائلة: «بالرغم من أننا نعن كبار الملوك نعد إخوة إلا أن أيًا منا لم يكونو بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي الم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائمون والغادون بينناء (11) وفي المنات الرسالة المرسلة من ملك إلى أخيه الملك عادة ما تنقلها

مجموعة منتقاة من البلاط الملكي، فقد كان تسليم مثل تلك الرسائل يتم في شكل مهمة ديلوماسية،

وحين تكون العلاقات بين كبار الملوك علاقات ودية، كانت البعثات المرسلة من ملك إلى آخر تلقي حفاوة بالغة، وتقابل باحتفالات وطقوس احتفائية (خاصة إذا كانوا يحملون معهم كثيرًا من الهدايا النفيسة القيمة)، وكانت تقدم لهم كل وسائل الترفية والإقامة المريحة، كل حسب أهميته. كانت رسالة من أحد كبار الملوك إلى أخيه الملك تعد مناسبة احتفائية تتم بعراسم خاصة. كان يسبق تسليم الرسالة كلمة تقديم، يقوم بإعلانها كبير المبعوثين، وهو الذي يتم اختياره للتقديم؛ لتمتعه بكفاءة دبلوماسية خاصة، وأحيانًا ما يكون أحد أفراد الأسرة الحاكمة. وعند الحاجة كان هناك مترجم جاهز لترجمة كلمة كبير المبعوثين إلى الملك مترجم جاهز لترجمة كلمة كبير المبعوثين إلى الملك مباشرة، قبل تقديم الرسالة.

وحين كان كبير المبعوثين يلقى كلمة التقديم، فإنه كان يقدمها عن لسان ملكه، فيضمنها كلمات التحية المماثلة اللك الكلمات التي تتصدر الرسائل من أخ ملكي إلى أخيه الملك الآخر، مثل:

«جمیع أحوالی بخیر. أتمنی أن تكون جمیع أحوالك بخیر. كل شئون بیتك، وزوجاتك، وأبنائك، وكبار رجالك، وخیلك، وعرباتك، وبلادك أتمنی أن يكونوا جمیعًا بخیر. أما أنا فكل أموری بخیر، وكذلك بیتی وزوجاتی وأبنائی، وكبار رجالی، وخیلی، وقواتی العسكریة، كلهم بخیر، وكل بلادی بخیر».(12)

تلك الصياغة شديدة الرسمية التي تعبر عن التحيات الملكية كانت تختلف قليالاً من رسالة إلى أخرى، ويفترض أن الأمر ذاته كان ينطبق على كلمة التقديم التي يوجهها كبير الموفدين إلى الملك قبل تسليم الرسالة، إلا أنها كانت جميعًا تتسم بالرسمية الدبلوماسية، ولا يوجد شك في أن المتحدث الماهر والذي يشعر بأهمية المناسبة كان يلقى كلمته ببلاغة وحسن بيان، في جميع الأحوال كانت تلك الرسميات ضرورية، وبمجرد الانتهاء

دور کبیر الهبعوثین

كان برنامج كبير المبعوثين المثل لملك يحتوى على عدد من الموضوعات والمسائل معدة للنقاش مع الملك المرسل إليه(13) إلا أن أغلب تلك المسائل كان يرتبط بمحتوى الرسالة المكلف بتسليمها، ولا يخرج عنه، فيظل ملتزما إلي حد بعيد بالنقاط التى وردت في الرسالة، أو بالمسائل التي تنتج عنها وتتفرع منها. ومع أن ملكه كان يسمع له ببعض الصلاحيات، إلا أنه كانت هناك حدود فيما يحق له التكلم بشأته، وأن كلامه يتفق ويتوافق مع ما أوجز في الرسالة، وكان يوجد بالطبع كتبة يحضرون اللقاء ويضاهون ما يذكره كبير المبعوثين شفاهة بما جاء مكتوباً في الرسالة. وكانت الرسالة بمجرد تسليمها ينزع عنها ما يحفظها، ويزال خاتم التغليف، وتترجم فوراً إلى اللغة المحلية (إن لم تكن الاكادية)، ويقوم بالترجمة مترجمو المتلقي، حتى يدرس محتواها بالجدية اللازمة. وكان الاهتمام ينصب على الفقرات الرضوعية، مثل الوعود أو الطلبات التي اشتمل عليها حديث المبعوث.

وإذا فشلت الرسالة في نقل ما يراد منها، فإن الأمر يتطلب متابعة، وهذا ما أدى بملك أرزاوا تارهوندا رادو إلى الكتابة إلى ملك مصد آمونحتيب الثالث معربًا عن قلقه من التناقض بين ما ذكره المبعوث شفاهة ومحتوى الرسالة المكتوبة التي ارسلها إليه فرعون مصر، قال أرزاوا في رسالته:

«بالنسبة لما ذكره (المبعوث) كالبايا لى (نيابة عن الفرعون) لنرتبط بعلاقة دم بالمساهرة، أنا لست على يقين مما ذكره كالبايا في هذا الشأن، فالرسالة لم تؤكد هذا المعنى».

كذلك أكد حاتوسيلى الثالث إلي الملك أحياوا أن التوتر الذي طرأ على علاقتهما (انظر إلى الفصل 12) إنما يرجع إلى سوء أداء الرسل.

كان لسوء الأداء أو عدم الكفاءة أو سوء الفهم خاصة في أعلى المستويات الدبلوماسية لما كلفه ملكه بنقله، أو لتعمد النقل الخاطئ يؤدى

بمن يقترفه إلى أوخم العواقب، وهذا ما بعث به الملك حاتوسيلي في أمر مماثل:

«ابعث يا أخى ولحدًا من رعيتك، وسوف أحاكم أمامه المبعوث الذي أرسلته برسالتي إليك، وسوف يرى أننى سأطيح برأسه أمامه. أما إذا لم ينقل رسوك رسالتك بدقة، سيطاح برأسه هو الآخر»(15).

كان كتابة نص الرد على رسالة ملك يتطلب أيضًا مناقشة مبعوثيه حول دقة مضمون الرسالة. وكانت بعض محتويات الرسائل تتطلب الدقة والإحكام، أو مفاوضات مع المبعوثين والاتفاق على بعض الأمور. وكانت هناك مناسبات كثيرة يجد فيها كبير المبعوثين نفسه في مواقف تتطلب منه المبادرة أو التصرف، للتوصل إلى حلول مع مضيفه ومستشاريه حول أحد الجوانب التي وردت في الرسالة، وربما يجد نفسه في مواقف تتطلب كل المهارة الدبلوماسية في معالجة آثار أية عبارات عدوانية، قد تتضمنها أو تتثيرها إحدى الرسائل.

وتمتلئ كثير من الرسائل بالشكاوى والتأنيب والتوبيخ، وأحيانًا بطلبات غريبة غير معقولة.

وأحيانًا ما كان يستجاب لذلك بكلمات الطمأتة. وأحيانًا ما كان أحد كبار الملوك يحتج على ما كتبه أخوه أو أخته الملكة إليه. وهذا ما حدث فعلاً من سبيللوليوما من الحتوى الفظ الرسالة التى تلقاها من أنحسن أمون أرملة توت عنخ آمون، والتى أعماها الغضب من رده الذى لم تجده محققًا لما طلبته منه. وأرسلت مرة أخرى مؤكدة على طلبها ولكن بعبارات شديدة ومهينة لكبريائه. وألقت تلك الرسالة عبئًا كبيرًا على كبير مبعوثيها حانى، الذى كان مسئولاً عن البعثة المصرية الحاملة الرسالة إلى العاصمة حاتوسا، وكان حانى شنهيرًا على المستوى الدولى بأنه من أفضل الدبلوماسيين، حتى إنه كان يماثل في عصرنا الحالى من يقال عنه السيد حيًّلال المشاكل، واستعمل أقصى قدراته لتهدئة الملك سبيللوليوما والإيحاء وألا أن تحريضه على الاستجابة لما طلبته الملكة. وأثبتت الأحداث بعد ذلك

أنه كان من الأفضل ألا يستجيب، وسنذكر تلك الواقعة بتفصيل أوسع في الفصل (11).

وهناك مصادر مستقلة أثبتت أن المبعوث كان يقوم بأداء مهمته بأمانة. كان الموفدون من أجانب، ولنقل مشالاً إلى البلاط المصرى، عادة ما يصاحبهم لدى عودتهم إلى بلادهم وقد من البلاط المصرى من كبار موظفى القصر حتى عودتهم. وكتب رمسيس عن ذلك إلى الملكة بودوحيبا الحثيثية قائلاً:

«أقول لأختى أن تيلى تيشوب مبعوث أختى قد وصل إلى حضرتى ومعه رياماشسى مبعوث أختى (16)، ومعهم مبعوثى بارحيناوا وزينابا ومانيا وطمأتونى جبيعًا عن صحة أبنائه، وسررت أيما سرور»(17).

بالإضافة إلي ذلك الاستقبال الرسمى العام المعان في البلاط للوفود الأجنبية حاملة الرسائل، كان الملك يتلقى تقارير مستقلة من موظفيه ورجال بلاطه العائدين من مهمة دبلوماسية لتسليم رسالة، خاصة عن أية لقالحت أو اجتماعات عقدوها مع أخيه الملك. وكانت تقاريرهم تؤكد على ما ورد بالرسائل التي جلبها المبعوث الأجنبي، وكانت تلك التقارير المستقلة التي يقدمها موظفو الملك تزوده بمعلومات مؤكدة تعرز من مصداقية المعلومات التي قدمها مترجمو الرسائل.

فى أحيان خاصة واستثنائية كانت كل الرسميات تنحى جانبًا، أو تختصر إلى أبعد حد، إذا أراد الملك أن يرسل فى أمر شخصى أو عاجل إلى بلاط ملك آخر، فمثلاً: أرسل رمسيس مبعوثه مانيا إلى الملكة بودوحيبا برسالة شفاهية عاجلة. وكانت العجلة أو السرعة التى تتطلبها تجعله يتجنب إضاعة الوقت فى إعداد الرسالة ثم ترجمتها ومن بعدها كتابتها، إلا أن ذلك استدعى أيضًا الاستعانة بوسائل أخرى للتأكد من صحة الرسالة. وحتى تتيقن الملكة من أن ما نقله مانيا كان نقلاً دقيقًا وصحيحًا لما ذكره ملكه حرفيًا، أعاد الملك مبعوثها ريا ماشى الذى كان لايه في بلاطه ذاكرًا له نفس ما ذكره لمانيا، وأرسله على وجه السرعة إلى

ملكته في حاتوسا بصحبة وقد مصرى، وكل ذلك مشروح في عجالة صاحبت كل منهما(18).

المرسلون الأجانب مقيمون ومحتجزون

قد يبدو من الفقرة السابقة أنه من قبيل المسادفة كان أحد مبعوثي الملكة المثينية موجوداً بالبلاط المسرى، حين أرسله رمسيس بتأكيدات الرسالته الشفاهية التي بعث مانيا لإبلاغها إلى الملكة الحثينية. ولكن في جقيقة الأمن خاصة خلال فترة سادها التواميل الودي الديلوماسي بين البيوت المالكة، كان من الشائع جدًا أن يقيم المبعوثون الأجانب لبلاط ملك أزمنة غير محددة، حتى يكونوا تحت طلب الملك المضيف إذا احتاجهم فجأة لمهمة دبلوماسية عاجلة إلى بلادهم، في كل الأحوال، كان كيار الملوك حين يرسلون كبار رجالهم لمساحبة وقد أجنبي عائد إلى بلاده، كانوا أيضًا بمثابة بعثة من بلادهم إلى البلاط الآخر، وكانوا بذلك يعدون حلقة من سلسلة التواصل الذي لا ينقطم بين ملكهم وأخيه الملك الأخر، لذلك لابد أن نتوقع أنه في كل لحظة كان مبعوثو ملك يقيمون في بلاط الملك الآخر. وكان إرسال موظفي وكبار رجال البلاط لمصاحبة بعثة عائدة إلى بلادها، يضفى على البعثة العائدة إحساسًا بالأمن عند مرورهم في بلاد مضيفهم، وخلال وعبر مناطقها المختلفة، كما يضفى عليهم الحماية ضيد أية مضايقات، يمكن أن يتعرضوا لها من المواطنين أو من بيروقراطية حرس الحدود والحاميات، أو من الموظفين المحليين.

وكانت مدة البعثة من لحظة حمل الرسالة حتى تسليمها والإقامة في بلاط المضيف تتفاوت إلى حد كبير، كما لم تكن محددة المدة، وكان ذلك يتوقف على عوامل كثيرة. كان من تلك العوامل الأحوال المناخية الموسمية. فإذا أرسلت على سبيل المثال بعثة من المملكة الحثينية إلى مصر في أخر الخريف (ونعرف على الأقل واحدة على وجه اليقين ينطبق عليها ذلك)، فإن الجليد يمنعها من العودة في الشتاء، ولذلك تؤجل عودتها حتى الربيع

التالى، لم يكن ذلك يشكل أية صعوبة لو قارنا شتاء مصر المعتدل بشتاء منطقة الأناضول. وقد تبينا أن عدداً من المبعوثين الدبلوماسيين كانوا يستقرون لأوقات غير محددة في المالك الأجنبية، أي «مبعوثين مقيمين»، غير أن هذا لا يقارن بالسفارات الدبلوماسية الحالية مهما صغر حجمها (19).

كانت الإقامة الطويلة في بلد أجنبي تتيح لأفراد البعثة فرصاً جيدة لجمع المعلومات عن شتى المناحى، وكان ذلك سبباً رئيسياً في حرمان مبعوث ما من العودة إلي بلاده، وكان أي ملك لديه أفراد بعثة أجنبية ويعلم أنهم قاموا ببعثات سابقة إلى ممالك أخرى، كان يسعى إلي استخلاص كل ما يعرفونه من معلومات عن تلك الممالك الأخرى التي ذهبوا إليها، وكان على قمة تلك المعلومات حالة العلاقات بين كبار الملوك الآخرين، فهو الموضوع الذي ظهر بشكل أو بآخر في عدد من مراسلات كار الملوك.

هل كبانت العلاقات ودية؟ هل كانت هناك أية آنواع من النزاعات بينهم؟ وكان لا يقل أهمية لديه أن يعرف إن كان أي ملك من أنداده يحظي بمعاملة من ملكهم أفضل مما يلقاه هو.

بتلك الوسائل ظل كبار الملوك على اتصال بكل مجريات الأحداث على المستوى الدبلوماسى الدولى، ولم يكونوا ليترددوا في إظهار أي جانب يضايقهم من الملوك الآخرين في نصوص رسائلهم، من إهانات حقيقية مقصودة أو متخيلة،أو بسبب الاهتمام بملك آخر أكثر من الاهتمام به شخصيًا، أو رداءة وتفاهة وحقارة الهدايا المرسلة إليه من ملك آخر، أو إغفال ذكر صبعود ملك إلى عرش، أو مرض ملك، كما أشاروا مرارًا وتكرارًا في رسائلهم إلى منع الملوك الآخرين لمبعوثهم من العودة إلى بلادهم.

كانت هناك مناسبات كثيرة منع فيها المبعوثون من العودة إلي بلادهم رغمًا عنهم، ورغمًا عن ملكهم، اشتكى بارنابورياش الثاني إلى أخناتون

فى إحدى رسائله قائلاً: «اقد احتجزت مبعوثى إليك عندك عامين حتى الآن، وطلب منه إطلاق مبعوثه في الصال (20). كسا اتهم سلفه كاداشمان— انليل الأول امونحتيب الثالث أبا أخناتون بأنه احتجز أحد مبعوثيه إليه لمدة ستة أعوام (21). وفي مناسبة أخرى احتجز رسل أحد الولايات السورية الخاضعة لنفوذ مصر وهي ولاية تونيب، احتجزوا في مصر لما لا يقل عن عشرين عاماً. (22)

كانت هناك أسباب عديدة، كما سنرى فيما يلى، وراء عدم عودة بعض الموفدين إلى بلادهم لأزمان طويلة. ومهما كانت تلك الأسباب، كانت عودة أى مبعوث إلى بلاده متوقفة على موافقة الملك المضيف على عودته. وتضمنت كثير من الرسائل إلى فراعنة مصر طلبًا بعدم حجز الرسول بعد انتهاء مهمته. وكتب الملك الآشورى أشور— أوباليت إلى ملك مصر قائلاً: ولا تؤخر الرسول الذي أرسلته إليك، دعه يقوم بزيارته ثم يعود إلى بلده. دعمه يعمرف ويرى من بلادكم، ثم اسمع له بالعودة، (23) دوعلى ذلك أرسلت إليك قيليا كبير وزرائي وتونيب— إبرى»، كما كتب الملك الميتاني توشراتا إلى فرعون مصر أمونحتيب الثالث قائلاً: كما كتب الملك الميتاني توشراتا إلى فرعون مصر أمونحتيب الثالث قائلاً: هد يسمع أخي لهم بالعودة في الصال، حـتى يمكن أن يعودوا إلى مريعًا (24).

في حالات كثيرة، لم يكن حجز المبعوثين بمثابة عقاب لهم أو بمثابة عمل عدواني. كانت هناك رسميات لابد من اتباعها قبل أن يسمح للموفدين بالمغادرة، وكان الانتهاء من تلك الرسميات يستلزم بعض الوقت. ولم يكن للموفدين أنفسهم ولا للملوك الذين أوفدوهم أى قدر من السيطرة على طول مدة بقائهم، إذا لم يكن الملك المضيف ذاته مهتمًا بعودتهم، كانت الإقامة الطويلة للموفدين تعود في بعض الأحيان إلى البطء البيروقراطي الوظيفي، أو لعدم إبلاغ المسئولين للملك بشأن رجوعهم، حتى يعطى موافقته على عودتهم، أو ببساطة لهوى وغرض في نفس الملك المضيف. وقد يعود طول الوقت أيضًا إلى طول الزمن الذي قد يستغرقه المضيف. وقد يعود طول الوقت أيضًا إلى طول الزمن الذي قد يستغرقه

إعداد الرد على الرسالة التي تتوا بها، ليعودوا به إلى ملكهم، أو في إعداد الهدايا التي سترسل معهم، أو في الانتهاء من وسائل إعداد عروس ملكية تعود معهم إلى ملكهم.

أرسل الغرعون امونحتيب الثالث مين، أكبر مبعوثيه الدبلوماسيين وأفضلهم إلى الميتانين، لمصاحبة تادوحيبا ابنة الملك الميتاني توشراتا للقدوم إلى مصر، ليتخذها زوجة. ومر زمن طويل منذ أن غادر المبعوث مين أرض مصدر دون أية أنباء منه أو عنه. ويانزعاج شديد، كتب أمونحتيب إلى توشراتا ليعلمه بما يجرى، ولدينا رد توشراتا على تلك الرسالة، وشرح في تلك الرسالة أن مين قد استبقى في ميتاني، بسبب الوقت الذي يستغرقه إعداد الأميرة وتهيئتها للسفر إلى مصر. وطمأن ملك مصر ألا يقلق على أمن ورفاه مبعوثه، قال في رده: وإنه ليس مريضًا، إنه لا يلفظ أنفاسه الأخيرة، هو مازال كما هو، لقد قمت بالفعل بمعاملته هو وقوات أخي التي صحبته أفضل معاملة ويحفاوة وتشريف وتميزه (25).

ولا نعلم بدقة المدة الزمنية التي بقى فيها (مين) لدى الميتانيين، حين بعث توشراتا بالرسالة السابقة إلى أمونحتيب الثالث. ولكن توشراتا أخبره أنه مازال أمامهم سنة أشهر أخرى، قبل أن تصبح الأميرة العروس جاهزة للقدوم إلى مصر، بمصاحبة (مين) كبير مبعوثي أمونحتب الثالث.

أحيانًا ما كان احتجاز الرسول يحدث كنوع من العقاب. كان الاحتجاز يوظف لمعاقبة مرسل على جرم أو سلوك سئ ارتكبه في بلا مضيفه، وسنذكر أمثلة على هذا النوع من الاحتجاز فيما يلى، إلا أنه كان يحدث أحيانًا أن يحتجز الرسول لا لجرم ارتكبه بل لاستياء المضيف من ملك الرسول الشيء فعله أو من شيء لم يفعله، وكان يجب عليه أن يفعله، حتى على مستوى الشجار والنزاع بين الموظفين المحليين في مختلف أنحاء المملكة، وصل إلينا تهديدات موظف لموظف آخر بأنه سيسجن أو يحجز خدمه أو من يمتون إليه بصلة إذا وطأت أقدامهم منطقة نفوذه (ارجع إلى الفصل 10). وأحيانًا ما كان المبعوثون إلى بلاط ما يجدون أنفسهم الفصل 10). وأحيانًا ما كان المبعوثون إلى بلاط ما يجدون أنفسهم

يعاقبون، كرد فعل لما فعله ملكهم مع مبعوثى البلاط الأول. كتب توشراتا إلى أخناتون بلهجة احتجاج شديد:

«لقد أشرت إلى ذلك فيما سبق لأخى (أخناتون)، سوف أهجز (مين) رسول أخى إلى، حتى يدع أخى رسلى يرحلون من عنده ويعودون إلى، والآن أجد أخى يرفض تمامًا أن يدع رسلى يرحلون من عنده، ووضعهم تمت حراسة مشددة».(26)

على عكس ذلك تمامًا ما نجده في عالم الدبلوماسية المعاصر لنا، ففي عالم الدبلوماسية المعاصر لنا، ففي عالم الدبلوماسية الحالى نجد أن دولة ما تقوم بطرد أفراد البعثة الدبلوماسية عند وقوع نزاع شديد لا سجنهم ومعاقبتهم، أو عندما تستاء دولة ما من سلوك أولئك الدبلوماسيين الخارج عن التقاليد والأعراف المراعاة في الدولة التي يمثلون بلادهم فيها. ويتشابه العالم القديم مع الحتلاف العالم المعاصر في سرعة رد الفعل تجاه مثل تلك الخروقات مع اختلاف الوسائل.

قام أخناتون بحبس مبعوث مملكة الاسيا، كنوع من الاحتجاج ضد فعل قام به بعض أبناء بلده، إذ أغاروا على ساحل مصرى كعمل من أعمال القرصنة، كان أولئك القراصنة يغيرون على السواحل الشرقية للبحر المتوسط من قاعدة لهم على الشاطئ الجنوبي لمنطقة الأناضول، في منطقة تدعى لوكا في النصوص الحثينية. وكتب أخناتون إلى ملك آلاسيا يتهمه هو ورعيته بالضلوع في تلك الاعتداءات، وأنكر ملك آلاسيا تلك لتهمة بسخط وغضب، وقال في رده:

«لماذا تتهمنى يا أخى هذا الاتهام؟ إنا لم أفعل شيئًا من ذلك». وعلى عكس ذلك، أعلن كاتب الرسالة أن مملكة آلاسيا ذاتها تعانى من هجمات القراصنة:

«إن رجال اوكا يهاجمون القرى في بلدى عامًا بعد عام (27) ومضى في رسالته مطمئتًا فرعون مصر أن رعبته لا يمكن أن تشارك في مثل تلك الأعمال.

وفى المقيقة، لم تكن ادعاءات الفرعون بلا أسانيد، فبعض الأسرى من القراصنة كان من بينهم رعايا من مملكة الاسيا، إلا أن ملك الاسيا أراد أن يتوصل إلى الحقيقة في تلك المشكلة، فقال في رسالته:

«لو كان من بين الأسرى رجال من بلادى، أرسلهم إلى وساقوم بما يجب».

ورغم ما ذكره، لم يكن ليصدق أن رعاياه من المكن أن يقوموا بأعمال قرصنة، فأردف:

«أنت بالفعل لا تعرف شيئًا عن رجال بلادى، لا يمكن أن يقوموا بمثل تلك الأعمال».

تم يواصل رسالته قائلاً:

«إِنْ كَانَ رَجِالَ مِنْ عَنْدِنَا قَدَ قَامُوا بِنَكَ الْأَعْمَالُ فَعَالًا، قَلَكَ الْحَقِّ أَنْ تَقْعَلُ مَا تَرَاهُ مَلَائِمًا هِ.

وتمتلئ الفقرة بأجمعها بالتناقض، وتبدو كل جملة وكانها تناقض سابقتها، فمرة يذكر أن رجاله لا يمكن أن يسلكوا ذلك السلوك. ولكن إن كانوا قد فعلوا، فإنه يجب إرسالهم إليه لمعاقبتهم بنفسه، إلا أنه لا يمكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك، ولكن إن كانوا قد ارتكبوا ذلك الجرم، تصرف أن يكونوا مد قدام ملائمًا لك.

وتنبئ تلك التناقضات الكثيرة في نض الرسالة بأنها كتبت بتعجل في غياب الخبراء المعنيين بكتابة الرسائل الدبلوماسية، وربما كان المختص بكتابة الرسائل في بلاطه هو المبعوث المحتجز في البلاط المصرى، وأجبر رفض فرعون مصر إطلاق سراح مبعوث ملك الاسيا على القيام بدور المبعوث، وبدا أن ذلك هو جوهر ولب الرسالة، إلا أن البروفيسور موران يعلق على مضمون تلك الرسالة قائلاً: «إن تلك الفقرة تحمل من التضارب والتناقض، حتى إنه يمكن تفسير النص على عدة أوجه»، وهو ما يدل دلالة واضحة أن نص الرسالة قد كتب، دون الاستعانة بالمختصين في مجال الكتابة الدبلوماسية.

وحتى لو كف أحد الملوك عن إرسال مبعوثيه إلى مملكة ما، فإن ذلك كان يعد كعمل من أعمال العدوان، ويبلغ أثر ذلك السلوك مبلغاً قد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين المملكتين، أو على الأقل بين الملكين نفسهما. حدث نلك حين انزعج حاتوسيلى الثالث بعد إرتقاء كاداشمان—إنليل الثانى عرش بابل، وامتنع عن إرسال أى مبعوثين من لدنه إلى البلاط الحثيني. وكتب إليه حاتوسيلى يسائه عن سبب ذلك، ورد كاداشمان على رسالته مختلقاً أعذاراً واهية: «لأن الأحلامو يكتون عداء أنا، فقد أوقفت إرسال المبعوثين.. الملك الأشوري يمنع رسلي من المرور عبر بلاده، ورد عليه حاتوسيلى رافضًا تلك الأعذار المختلفة قائلاً: «هل مملكتك من الصغر حتى إن الأحلامو يمنعون رسلك، ومن هو ذلك الملك الأشوري حتى يمنع رسلك من المرور، بينما يمضى رسلى جيئة وذهاباً عبر بلاده دون معارضة».

أما السبب الحقيقى لامتناع كاداش- إنليل الثانى عن إرسال مبعوثيه، فقد كان يرجع لسبب آخر كما ظن حاتوسيلى. كان السبب يعود إلى المستشار السئ الملك كاداش- إنليل، وهو إنى- ماردوك- بالاتو، الرجل الذى تركته الآلهة يعيش طويلاً، والذى لا يتوقف لسانه عن ذكر السوه والشر. كان ذلك على الأقل ما رأه حاتوسيلى فى وزير كاداش إنليل، والذى كان ينهج نهجًا معاديًا للحثينين، فى الوقت الذى كان يميل فيه كل الميل للأشوريين، وكتب إليه محذرًا:

«انتبه، لا يتوقف ملكان عن تبادل المبسوثين، إلا إذا كانت بينهما عداوة» (28).

مبعوثون يعاملون بقسوة

كانت معاملة الملوك لبعض المبعوثين سببًا في كثير من الشكاوي، حتى في الحالات التي تكون فيها العلاقات بين ملكين على أفضل ما يراد لها من ود وتقدير متبادل.

فكبار المبعوثين الأجانب لم يكونوا ليثقوا على الدوام في حصولهم على التقدير والاحترام، الذي يكفله لهم وضعهم المتميز. كان من المكن أن يعاملوا بطريقة مهيئة في مملكة أجنبية أو يتم تجاهلهم، وكان ذلك يعود في بعض الأحيان إلى أن الملك المضيف قد ضايقه سلوك ما من ملكهم، أو في بعض الأحيان إلى أن الملك المضيف أن ملك المبعوث لم يعد صنواً ولا في أحيان أخرى لاعتبار الملك المضيف أن ملك المبعوثي بابل الذين سعوا نذاً له. وذلك يفسر سلوك رمسيس المزدري لمبعوثي بابل الذين سعوا لزيارة أميرة بابلية في مصر، فعما ذكرناه قبل ذلك عن مسودة الرسالة التي كانت بودوحيبا قد أرسلتها إلى الملك رمسيس وذكرناها فيما سبق، يتولد لدينا انطباع بأن رمسيس لم يعد يعتبر إن حاكم بابل يستحق لقب ملك عظيم» (29)، وإن كان قد قز في نفسه هذا الانطباع عن ملك بابل، فإن ذلك يدفعه إلى اللامبالاة بمبعوثيه، وكان فقدان الاعتبار من ذلك الصنف من المكن أن يؤدي إلى قطع العلاقات الودية.

كان ممثلو ومبعوثو الدول الصغرى لا يأملون ولا يمنّون أنفسهم بمقابلة أحد كبار الملوك. إخض النظر عن مدى إصرارهم والحاحهم على ذلك.

وأحيانًا ما كان الرسل يخاطرون باحتمال تعرضهم إلى مصير سئ في بلاد الملك المضيف. وكان ذلك سببًا في الاعتراض والاحتجاج شديد اللهجة الذي أرسله الملك الأشوري أشور – أو باليت إلى الملك أخناتون، بسبب معاملته السيئة المبعوثين الأشوريين المرسلين للبلاط المصري. كان مسئولو المراسم المصريون يتركونهم واقفين لساعات طويلة تحت شمس مصر الحارة، حتى يوشكوا على الهلاك والموت، وتسائل في رسالته: (30)

«لَاذَا يَجِبُر رَسَلَى عَلَى الْوَقُوفَ تَحَتَ أَشَعَةَ الشَّمِسِ لَقَتَرَاتَ طُولِلَةً، حَتَى يَتَعَرِضُوا اللَّمِنَ مَنْ ضَرِيةَ الشَّمِسِ».

ثم يضيف:

وإذا كان في وقوف رسولي الأوقات طويلة تحت شمس حامية أي فائدة
 للملك، إذن دعه يتلل في الشمس حتى يموت في مكانه من ضرية الشمس،

هذا إذا افترضنا أن في ذلك فائدة للملك» (31)

والسخرية واضحة في نص الرسالة، إلا أن ذلك يثير تساؤلاً إن كان الفرعون منتباً في الإساءة عن عمد لضيوفه الأجانب، وقد يكرن الأمر على عكس ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار تفسير بروفيسور ردفورد بعيداً عن تفسير ذلك السلوك بأنه نوع من العقاب، فإن مبعوثي أشور – أو باليت كانوا مساهمين – حتى لو كان رغم إرادتهم – في طقوس طويلة لعبادة الشمس، التي كان يمارسها الفرعون المصرى مع كبار رجال الدولة، (32)

والفقرة التى تثير تلك التساؤلات مازالت مطروحة للبحث، ولو كان ردفورد محقًا فيما ذهب إليه، فإن تلك الفقرة تعد المصدر الوحيد (وهو غير مباشر تمامًا) في كل نصوص رسائل تل العمارنة التى تشير إلى ديانة أخناتون وعبادة الشمس، إلا أن ذلك لم يكن ليؤثر على ضيق أشور أو باليت، فمراعاته للمعتقدات الدينية التى يؤمن بها إضوه الملك، ومعارساته وطقوسه لم تكن لتحظى باهتمامه كثيرًا بقدر اهتمامه بسلامة وراحة مبعوثيه.

وفي مناسبة تالية لما سبق بعقود كثيرة كتب حاتوسيلي الثالث إلى الملك رمسيس متسائلاً عن المعاملة التي لقاها أحد المبعوثين المثينيين إلى مصر، قال في رسالته:

«أرسلت مبعوثي زيورا إليك في مهمة، ليحظى بمقابلة أخى الملك، ويبلغه كلماتي، فلماذا لم تدعه يعد؟» (33)

ولم يترك الفرعون لأخيه الملك مجالاً للشك عما حدث لمبعوثه، فقرر قائلاً:

«ومن يكون ذلك الكلب؟»

وأخبره أنه أمر بتكبيل ذلك التعس زيووا أيدى وأقدامًا. ولا نعلم ما الذنب الذي اقترفه المبعوث زيووا ليلقى ذلك المصير البائس، إلا أن المؤكد أنه أوقع نفسه في مشاكل خطيرة مع السلطات المصرية. بل بلغت تلك المشكلة حدًا من الخطورة جعلته يواجه احتمال الحكم بإعدامه، فقد سجل

حاتوسيلى: «ليس من العدواب قتل مبعوث»، إلا أن رأى رمسيس لم يتغير. إلا أنه طمأن أخاه الملك أن المبعوث العثيني الآخر الذي كان بعصر في الوقت ذاته (ضاع اسمه ولم يبق منه إلا حرف «أ») سيلقى المعاملة التي تسعد سيده وترضيه، أما موضوع زيووا ومصيره فقد أصبح موضوعًا منتهيًا. ويبدو أن أسوأ مخاوف ملكه (وبلا شك أسوأ مخاوفه هو أيضاً) قد تحققت.

ويبدو من رفض رمسيس لطلب حاتوسيلي في هذا الشائن أن الحصانة الابلوماسية لم تكن لتعنى شيئًا في عالم العصر البرونزي المتأخر.

ويحتمل أن ذلك لم يكن ليشمل كل المناسبات والظروف المماثلة. فقى عهد حكم أخناتون، سمح لمبعوثين من مبعوثي الميتانيين يدعوان ارتاشويا وعسلى اللذين خالفا القانون، أثناء مهمة لهما بمصر بالعودة إلى بلاهما، وفي وذلك بافتراض أن ملكهما سيتخذ بنفسه ما يراه ملائمًا لمعاقبتهما، وفي خطاب من الملك الميتاني توشراتا لأخناتون، أكد له أن العدالة ستأخذ مجراها بدقة شديدة في حق المبعوثين المخالفين للقانون المصرى، ومَثَّل المذنبان أمام توشراتا مكبلين بالأغلال والأصفاد، وتم نفيهما إلى مدينة حدودية من بلاد الميتانيين، ولم يقدم توشراتا علي إعدامهما، علي الأقل حتى تصله معلومات تقصيلية عن طبيعة الجرم الذي ارتكباه (34).

مزايا ومخاطر العمل الدبلوماسن قديما

انضوى فى عالم الدبلوماسية القديمة بعض الأشرار وحثالة البشر، كما سنرى فيما يلى. إلا أن عالم الدبلوماسية القديم ضم أيضًا بين صفوفه كثيرًا من الشرفاء أصحاب المراكز المرموقة، والذين نالوا احترام وثقة الملوك الأجانب، بنفس القدر الذي حظوا به من ملوكهم. وقد قاموا بالفعل بمهام في غاية الأهمية في مجال العلاقات بين كبار الملوك، حتى بلغ الأمر أن أحد الملوك كان يطلب من أخيه الملك أن يواقيه بمبعوث معين

بالاسم؛ للاستفادة من خدماته. وهكذا، نجد أن بارنا بورياش الثانى طلب من أخناتون أن يبعث إليه بعظيم القدر حايا، ليرأس الوفد المرافق للأميرة البابلية القادمة من بابل، لتصبح زوجة أو إحدى زوجات فرعون مصر (35). كذلك أصبح المبصوث المصرى (مين) من أقرب المقربين والمفضل لدى توشراتا ملك الميشانيين، وذلك أثناء وجوده هناك، أثناء تجهيز ابنة توشراتا، قبل انتقالها إلى مصر للزواج بالفرعون، وذكر توشراتا عن مين في إحدى رسائله للفرعون(36):

«لا يوجد مثيل له في العالم كله»

وحين كتب توشراتا بعد ذلك إلى أمونحتيب ملك مصر، طالبًا منه إرسال مبعوث مصرى لمساحبة رسله العائدين من مصر إلى بلادهم، لم يترك طلبه دون أن يذكر من يريده على وجه التخصيص:

«هل لأخي أن يرسل (مين)، ليعلم أخي أنه لو أرسل أحدًا غير مين، أنا لا أريده، كلا، لا ترسل سوى مين»(37).

كان المبعوثون يتلقون أيضًا هبات ثمينة من الملوك المرسلين إليهم، كانت الهدايا تأتى في قيمتها في مرتبة تألية للهدايا المرسلة معهم إلى ملوكهم، وكانت المكافآت والهدايا التي يحصلون عليها تتناسب مع المهام الملقاه على عواتقهم، وباستثناء المهارات السياسية العالية التي تتطلبها مهنتهم، كان نعط الحياة التي يحيونها في خدمة سادتهم يلقي عليهم أعباء بدنية هائلة، وأحيانًا ما كانت تلك المهام تعرضهم لمخاطر شديدة، في انتقالهم سيراً على الاقدام أو على عربة تجرها خيول، وكانوا معرضين لاجتياز بلاد ومناطق غير مضمون سلامتهم فيها، حتى لو كانت تصحبهم حراسة عسكرية (انظر الصفحة التألية). كانت الأحوال البيئية القاسية، والطقس القائظ الحرارة، وشع مصادر المياه أو انعدامها في بعض المناطق، جانبًا من المخاطر الطبيعية التي يواجهونها، وهو ما ذكره بورنا بورياش لأخناتون في إحدى رسائله إليه(38). عدا ذلك كانوا يواجهون مضاطر الحيوانات المفترسة، وبنفس القدر من الأفراد الضارجين على

القانون، قال بورنا بورياش في رسالته عن المبعوثين:

«يذهب حامل الرسائل إلى بلاد أجنبية، بعد أن يوزع أملاكه على أبنائه، فهو معرض لهجوم الأسود أو هجوم الأسيويين، (39) وكانت السلطات المحلية في الأقاليم تعجز عن حماية المبعوثين، عند مرورهم عبرها من هجمات الخارجين على القانون أو جماعات المتمربين، كان البعوثون بلجأون للتغلب على تلك المخاطر إلى الانضحام إلى جماعات كبيرة مرتحلة في مساره ذاته مثل قوافل التجارة. وبالفعل قام التجار في بعض الأحيان بمهمة المبعوثين من ملوكهم (40). ولكن بالرغم من أن القوافل الكبيرة ذاتها في أحيان كثيرة لم تكن ضمانًا كافيًا للحماية من هجمات الجماعات المتمردة بالجبال مثل عصابات الحابيرو (41) وإن أخذنا على محمل الجد شكوي أخرى لبورنا بورياش بعث بها إلى فرعون ممير، قان الحكام التابعين لفرعون مصير، مثل حاكم دمشق، لم يكن ليتعفف عن مهاجمة ونهب القوافل التجارية البابلية (42)، ومن غير المعروف إن كان أخنائون قد صوب وقوم ثلك السلوكيات أم دفع التعويض الذي طلبه أخوه الملك البابلي؟ ونظن أن كثيرًا من الجرائم من ذلك الصنف قد مرت دون عقاب، وكان ذلك بحد ذاته حافزاً على مزيد من الاعتداء على العابرين الأجانب، سواء كانوا مبعوثين أو تجارًا.

وسواء كانوا ينتقلون مستقلين أو برفقة قافلة تجارية، كانت الوفود الأجنبية بوجه عام تزود بحماية عسكرية، سواء من بلدهم أو من ادن الملك المضيف، وهم في طريق عودتهم إلى بلادهم. كان حجم فرقة الحماية العسكرية يزيد حين تكون بصحبة الوفد كميات كبيرة من الهدايا الثمينة، وعلى وجه الخصوص إذا ضمت البعثة المرتجلة شخصيات مرموقة مثل عروس ملكية تنتقل إلى زوج المستقبل في الدولة المنتقلة إليها.

كان الوقت الذي يستغرقه رسول في الانتقال من بلاط ملكه إلى بلاط الملك المرسل إليه يتوقف على عناصر كثيرة. وتم تقدير المسافة التي يمكن أن يقطعها الرسول في اليوم أنها تتراوح من 27 إلى 37 كيلو مترًا، أو 17

إلى 23 ميلاً (43)، ونعرف من إحدى رسائل توشراتا إلى أخناتو أن قطع المسافة بينهما والعودة في ثلاثة أشهر يعد زمنًا قصيرًا (44) ونعرف من تلك الرسائة أيضًا أن الرسول جلب معه عند عودته إلى عاصمة الميتانيين أربعة أجولة مليئة بالذهب، وكثيرًا من المجوهرات والمشغولات الشمينة كهدية من فرعون مصر إلى توشراتا ملك الميتانيين، ولابد أن نفترض أنه اصطحب معه هدايا لا تقل قيمة إلى فرعون مصر من ملك الميتانيين. ولابد أن اصطحاب هدايا بذلك القدر كان يبطئ من حركة الرسول، بافتراض أن وسائل حماية البعثة متوفرة في الذهاب والعودة في مثل تلك الحالات، وطبقًا لحجم البعثة وحراستها، فإننا نتوقع أن أية رحلة بين بلاط الفرعون المصرى وبلاط أحد كبار الملوك المعاصرين له والعودة ، كانت تستغرق على الأقل بين أربعة وستة أشهر (45).

اقد أشرنا إلى المخاطر البشرية والطبيعية التي كان مبعوث الملوك يتعرضون لها أثناء قيامهم بذلك العمل. كما لم نستثن الموظفين المحليين، الذين كانوا أحيانًا وراء الهجوم على المرتحلين من مبعوثين، وحتى او لم يصل بهم الأمر إلي الهجوم واغتصاب المقتنيات الثمينة المرسلة من أحد الملوك إلي ملك آخر، فقد كانوا يطلبون دفع جعل من المال علي تلك المقتنيات. وكانت البعثات الأجنبية القادمة إلي دولة ما والمصحوبة بممثلين لملك الدولة المضيفة يستثنون من ذلك. وفي المناسبات كان أحد الملوك يتلقى طلبًا من أخيه الملك أن يؤمن ويضمن سلامة مرور التجار التابعين له، وإعفائهم من دفع ضرائب عند مرورهم في بلاد الملك الآخر (46).

وأحيانًا ما كانت البعثات والوفود الأجنبية تزود بنوع من وثائق السفر مماثل لجواز السفر الحالي وصادر عن بلاط ملكي، مثل وثائق السفر التي زود بها الملك توشراتا مبعوثيه، لتسهيل سفرهم إلي مصر، وتيسير انتقالهم عبر البلاد الخاضعة لهيمنة الفرعون، ومسجل بتلك الوثائق النص التالي:

«رسالة إلى كل ملوك كنعان، رعايا أخى (ملك مصر). هذا ما ينكره

الملك (الميتاني): «أنا أبعث رسولي أكيا إلى ملك مصر، أخي، في مهمة عاجلة. ممنوع على أي إنسان تعويقه، سهّلوا له الومنول الآمن إلى مصر، واصحبوه إلى مستولى الحدود المصريين، وممنوع على أي إنسان مهما كان السبب أن يمسه بأي سوء (47)

ولا نعلم مدى فاعلية تلك الوثائق في حماية المبعوثين من مضايقات المسئولين المحليين في المناطق الخاضعة. وفي أغلب الأحوال كان الأمر يتوقف على حجم البعثة العسكرية المرافقة للرسل؛ لتأمينهم وحمايتهم، والتأكد من توفير المرور الأمن لهم.

4

الحب الأخوس

كانت المراسلات بين كبار الملوك تفيض بعبارات الحب الأخوى من ملك لأخيه، وإعلان المساعر القلبية، وتمنى أفضل الأحوال الصحية وكامل الرفاه لمملكة أخيه بأجمعها، بادنًا بعائلة أخيه الملك، ومنتهيًا إلى كل رجال بلاه، وخيوله، وعرباته، بل وكل البلاد الخاضعة له. وأثناء حقبة تل العمارنة أصبح «الحب» أحد المصطلحات الدبلوماسية الدولية(1).

وأصبح المصطلح الأكادى الذي يعنى «الحب» رامو ramu أو راأمو ramu (ومشتقاته)، يعنى الحب المخلص والتفانى فيه، وراح يذكر بغزارة في المراسلات المتبادلة بين الدولة المصرية والدولة الميتانية. وأثناء الأعوام الأخيرة من حكم آمونحتيب الثالث كان التحالف المصرى الميتانى قد توثق بزواج الفرعون من الأميرة الميتانية «تادوحيبا» ابنة الملك توشراتا(2). إلا أن لحم وليسمة العرس المطهى كاد أن يكون جنزاً من وليسمة دفن أمونحوتيب. والمعتقد أن آمونحتيب قد مات بعد فترة قصيرة بعد زواجه من الأميرة الميتانية، وكان الشغل الشاغل لزوجته الأثيرة الأولى والمغضلة (تايى) أن تظل الروابط القوية التي أرساها زوجها الراحل بنفس القوة والمتانة في عهد ابنها أخناتون، الذي خلف أباه على عرش مصر. كان وجود ملك جديد يعنى التوصل إلى اتفاقات جديدة مع الملك الميتاني والدبلوماسية بين الدولتين.

واستدعت الملكة (تايي) السفير الميتاني (كيليا)، وسلمته رسالة شخصية منها إلى ملكه. وفي تلك الرسالة ذكّرت (تايي) توشراتا بالروابط

القوية التي كانت تربط بين زوجها ووالد توشراتا الملك شوتارنا الثاني وهي الروابط التي حافظ عليها توشراتا ذاته بعد موت أبيه. وانعكس ذلك على السفارات التي دأب أمونحتيب على إرسالها إلى البلاط الميتاني.

وطلبت تايي من توشراتا أن يحفظ تلك الروابط قائلة:

«لا تنس حبك لـ «ميميوربا» (أمونحتيب)، وليكن لديك هب أكبر لـ «نافوريا» (أخناتون)، واستمر في إرسال سفاراتك، واحدة بعد أخرى، لا تقطع الاتصال ولا توقف مبعوثيك».

وسرعان ما راح توشراتا يطمئنها قائلاً:

«لن أنسى أبدًا حسيى لزوجك، أمسا أبنك نافسوريا، فسإن حسبى له سيتضاعف عشر مرات» (4).

وأرسل توشراتا رسالة إلي الفرعون الجديد تحمل المعنى نفسه: هيذكر أخى ذلك: بقدر ما أظهرت حبك لأبى ميموريا، فأظهر الآن حبك لى، ويما أن أخى راغب في هذه اللحظة أن أخى راغب في هذه اللحظة ذاتها أنا أظهر لك حبًا يقوق حبى لأبيك عشر مراته (5)

ولو أخذنا في الاعتبار الصدام اللائح في الأفق بين الميتانيين والحثينيين، فلا تدهشنا تلك الاستجابة الحميمة من توشراتا لمبادرة أخناتون وأمه، فتجديد العهود وتقوية التحالف مع مصر ستترتب عليه فوائد استراتيجية كثيرة، قبل وقوع التناطح المصيري بين الميتانيين والحثينيين.

وحتي تتوافق مواقفه مع تعبيرات الحب الأخوى والاهتمام بملك عظيم، كانت الأخلاقيات الدبلوماسية تتطلب إظهار الأسى والحزن علي موت ذلك الملك الزميل، فكتب توشراتا إلى أخناتون قائلاً:

دهين علمت بموت أخى نيسموريا(6)، بكيت في ذلك اليسوم، ولم أذق طعامًا ولا شرابا، وفي غمرة أحزاني قلت: ليتني أموت، أو ياليت عشرة ألاف من بلدى أو عشرة آلاف من بلد أخى يموتون ويحيا أخى الذي أحبه والذي أحبني عمرًا مديدًا كالسماء والأرض»(7). ومن الواضع أنه كانت هناك مغالاة في إظهار المساعر، إلا أنها لم تكن لتخلق من حزن حقيقي لموت أخ ملكي، ولو حتى لأسباب نفعية. فقد وجد حاتوسيلي الثالث ملك الحثينيين بعد موت الملك كاداشمان - تورجو الذي كان حليفًا له، أن من خلفه على العرش (كاداشمان - إنليل) - ميلاً أقل من والده للصداقة والتعاون مع حاتوسيلي، على الأقل في البدايات المبكرة لارتقائه العرش، ومن ثم كانت الرغبة في الحفاظ على الاتصال مع ملك جديد للإبقاء على العلاقات القوية التي تم تأسيسها مع الملك الراحل، بل تقويتها إن أمكن، لذلك كتب حاتوسيلي إلى الملك الميتاني الجديد كاداشمان - إنليل قائلاً:

«هين أقمنا أنا وأبوك علاقات ودية وأصبحنا أخرين محبين لبعضهما، لم نكن إخرة ليوم واحد فقط، ألم نؤسس علاقة الإخوة لتكون أبدية؟ ثم توصلنا إلى اتفاق فيما بيننا كما يلى: نحن فانون، من يبقى حيًا بعد أخيه سوف يحمى أبناء من يمت أولاء(8).

كانت الاستمرارية هي مفتاح الاستقرار، وكان الحزن على موت ملك راحل تختلط بفرحة صعود ملك جديد من بعده، وإعلان جديد بالثقة أن كل شيء في المستقبل سيظل كما كان فيما مضى، فبعد أن أظهر توشراتا الحزن اللائق بموت أمونحتيب، أردف قائلاً:

«وحين علمت أن أكبر أبنائه نافوريا(9) أصبح الآن ملكًا محل أبيه، قلت: لم يمت أخى نيموريا، ابنه الأكبر نافوريا أصبح ملكًا في مكان أبيه. لم يتغير شيء عما كان عليه فيما سبق، (10).

وأخر جملة هى التى تحمل المعنى والمغزى المراد قوله، وهو أن: وشيئًا لم يتغير عما كان عليه فيما سبق، إلا أن كل طرف كان يتطلب تطمينًا مستمرًا وتأكيدًا متكررًا لذلك المعنى، لذلك كانت تتكرر الشكوى أن الهدايا المرسلة لأخ ملكى كانت أقل وأرداً من تلك التي كان يرسلها أبوه الراحل، سواء إلى المرسل إليه أو إلى سلفه المتوفى.

وكما لاحظنا من قبل، كانت المشاعر الحميمة ودرجة المحبة الأخوية

تترجم بلا أى خجل، أو تحشم إلى مصطلحات مادية. كانت الهدايا تمثل أسهل طريقة ملموسة لقياس مقدار ذلك الحب. وسنرى عددًا من الأمثلة على ذلك في الفصل التالي.

عامل الجغرافيا

كانت هناك وسائل أخرى لقياس ذلك العب الأخوى، أو انعدامه الظاهر. فمثل زوج قلق من زواج غير مستقر، يصبح ملك في علاقته بملك أخر على درجة عالية من الحساسية، لأسباب حقيقية أو متخيلة. وهكذا، نجد أن بارنابورياش يشتكي من أن أخناتون لم يظهر أي قدر من المشاعر حن اعتلت صحته:

«منذ أن وصل رسول أخى إلى، كنت مريضًا، اسبأل رسولك وسوف يؤكد الك ذلك، ومازلت في فترة النقاهة من ذلك المرض، ألم يعلم أخى بمرضى الذا لم يظهر أخى الاهتمام بذلك الماذا لم ترسل أحد مبعوثيك لزيارتى وسعى مبدوث أخناتون إلى طمأنة بورنابورياش من أن ذلك لم يكن متعمدًا، وقال له:

«بالطبع كان أخوكم يبعث برسول إليكم (للاستقسار عن منحتكم) لو كان قد علم بمرضكم».

وأشار المبعوث إلى بعد المسافة إلي مصد، وأردف: «من كان بإمكانه أن يخبر أخاكم على الغور بمرضكم حتى يبعث اليكم بتمنياته الطبية؟»

وأبدى بورنا بورياش دهشته من ذلك القول ورد عليه قائلاً:

«إن أخى ملك عظيم الشائن، هل تبعد عليه بلد ما وتقرب إليه بلد أخرى؟»

وأكد عليه المبعوث المصرى أنه ومبعوث بورنابورياش متأكدان من ذلك الأمر، وأن بإمكانه التحقق من صحة ذلك من مبعوثه، وهذا ما ضعله بورنابورياش بالفعل قال:

دحين تحققت من رسولى وأكد لى أن مصدر على مسافة بعيدة جدًا، لم يعد بى غضب (11).

وجهل بورنابورياش الواضح بجغرافية المنطقة لا يمكن قبوله كحقيقة إلا أنه من المحقق، أنه بعد اندثار أسرة حمورايي، كان حكام بابل نادرًا ما ينتقلون إلى ما هو أبعد من الحدود الجنوبية لملكة ما بين النهرين، وظل ذلك قائمًا -على الأقل- حتى بدأ آخر ملوك بابل القسطيين برسلون الحملات العسكرية لمهاجمة الأشوريين في شمال ما بين النهرين، ولكن لم يتجاوز أي منهم أبدًا إلى غرب الفرات، ولذلك كانوا- يعكس كثير من إخوانهم الملوك الذبن قادوا حملات عسكرية إلى بلاد تبعد كثيرًا عن موطنهم- لايعرفون كثيرًا من المعلومات الأولية مثل سعة الشرق الأدني وترامى أطرافه، خاصة إذا أضفنا مصدر إلى الشرق الأدنى القديم. إلا أنهم كانوا مدركين أن المسافات التي تفصلهم عن عواصم المبالك الكبري الأخرى مسافات شاسعة، فعلى سبيل المثال كانت المسافة بين بابل وأخيتاتون حوالي 2000 كيلو مترًا، وحتى الوكان الرسول يرحل بأسرع ما يمكنه في رحلة بين بلاط الفرعون المصري إلى بلاط أحد الإخوة من كبار الملوك، فإن الرحلة كانت تستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر، أما البعثات كبيرة العدد كاملة الهيئة، فقد كانت تستغرق وقتًا أطول كثيرًا من ذلك، خاصة إذا كانت تصطحب معها حمولة كبيرة من الهدايا. كان بورنابورياش بدرك تمامًا المسافة التي يقطعها مبعوثوه، حتى يصلوا إلى بلاط فرعون مصر والزمن الذي قد يستغرقونه في مثل ثلك المهام. كذلك كان يدرك على نحو واضح أن فرعون مصر أن يقبل للحظة ادعاءه بالجهل بنعد المسافة ببئهماء

فكيف يمكننا أن نفسر إذن ذلك الادعاء بعدم المعرفة؟ طبقًا لتفسير بروفيسور جونسون، كان هناك سبب تكتيكي وراء ذلك الادعاء بالجهل الذي اتضع في نهاية الرسالة، فقد كان بورنابورياش يرسل رسالة ما بين السطور. لم يكن ليشعر بالرضا تجاه فرعون مصر – كان متضايقًا من أمر فعله أو أمر فشل في فعله – وعبر عن ذلك رمزيًا بأن أرسل إليه هدايا تافهة تقل كثيرًا عما هو متوقع، في الوقت ذاته لم يكن يريد لأن يترك

انطباعًا بأنه بخيل أو غير قادر. لذلك استغل ادعاء طول المسافة ومتاعب السفر (وذلك من المعلومات التي ذكرها المبعوث المصري والتي تم مضاهاتها والتأكد من صحتها من مبعوثه)، ليبرر بها عدم إرساله هدايا قيمة وثمينة في تلك المرة (12). ولو اتبعنا تفسير جونسون، لابد أن نفترض أنه كان لدى بورنا بورياش سبب ما لعدم إظهار السبب الحقيقي، اضيقه من فرعون مصر. بدلاً من إعلان سبب ضيقه، استخدم تلك الوسيلة والتي كان يعلم جيدًا أن فرعون مصر سيدرك مغزاها، فضلاً عن ذلك أظهر عدم رضاه وهو متأكد من أن هداياه قليلة القيمة ان تعزى إلى عدم كرمه أو عدم قدرته، وكل ذلك ثابت لدى الفرعون، والذي كان ولابد أن يعرف السبب الحقيقي لضيق أخيه الملك.

إلا أن ادعاء بورنابورياش الجهل بعدى المسافة التى تفصل بلاطه عن البلاط المصرى من الممكن أن يكون حقيقة لا ادعاء. كانت الروابط الأخوية نتطلب أن يواظب كل منهما على الاطمئنان على صحة أخيه الملك وسلامته، وأن يرسل إليه بعبارات الود والاهتمام بشئونه إن علم أنه مريض.

إلا أن بورنابورياش لم يجد بين رسائل الاطمئنان التي وردت إليه من المالك الأخرى بعد زيوع نبأ مرضه أية رسالة اطمئنان وتمن بالشفاء من فرعون مصدر. كان آخناتون على وجه اليقين لم تصله أنباء بمرض بورنابورياش في وقت مصرضه ليحرسل له تمنياته بالشفاء، وكان بورنابورياش هو الآخر على يقين من ذلك. إلا أنه كان من الأنسب لبورنابورياش أن يتعامل طبقًا للسبب الحقيقي لإنقاذ ماء الوجه، ويقدر ما أظهر باقي الملوك اهتمامهم بمرض بورنابورياش، أظهر فرعون مصد لامبالاته، وكانوا سيبقون على تلك القناعة لو لم ينكر الفرعون تلك التهمة بنفسه، أو على الأقل عن طريق مفوضيه ومبعوثيه،

لقد لعب بورنابورياش تلك اللعبة الدبلوماسية، فقد راح يظهر غضبه من لامبالاة فرعون مصر بعرضه، وحرص على أن يظهر ذلك لمبعوثي

الفرعون، وأصد على أن يقدموا له تفسيرًا لذلك، وعلى اعتذار لائق عن لامبالاة سيدهم بنبأ مرضه.

وقام مبعوش الفرعون بما هو متوقع ومنتظر منهم. راح مبعوش فرعون مصر يؤكدون لبورنابورياش أن عدم وصول رسالة اطمئنان على صحته من فرعون مصر لا يعنى أنه لا يبالى به، بل إن ذلك بسبب طول المسافة التى تفصل بين المملكتين، مما يحول دون وصول نبأ مرضه لفرعون مصر، حتى يقوم بما يجب ويرسل تمنياته بالشفاء. وهكذا، حصل منهم بورنابورياش على التصريح الذي يريده، وسئل مبعوثيه التأكد من مدى بعد المسافة بين بابل ومصر. كان الادعاء الشديد بالجهل بجغرافية المنطقة ليس إلا وسيلة بلاغية استعملها التأكيد على الإجابة التي زوده بها مبعوش الفرعون، وهي استحالة أن يعلم الفرعون بمرض أخيه الملك، في وقت يسمح له بإرسال تمنياته له بالشفاء، ويعلن له فيها اهتمامه بصحته وأحواله.

لقد كان يهم بورنابورياش إلى حد بعيد أن يسمع كل الموجودين ببلاطه أسباب عدم وصول رسالة من فرعون مصر للاطمئنان على صحته، وأن يبعد عن الأذهان أى مفهوم بأن اهتمام فرعون مصر به قد قل عن ذى قبل.

وهناك احتمال أخر يفسر إدعاء بورنابورياش الجهل بالمسافة الشاسعة التي تفصل بين بلاده ومصر، فمما لاشك فيه أن كل المبحوثين الأجانب إلى مصر كانوا يتعرضون لدعاية مكثفة وهم بمصر عن قدرة الإمبراطورية المصرية واتساع مساحته، وأنها أعظم إمبراطورية ظهرت حتى ذلك الوقت، وأنه لا يوجد مكان بالعالم يبعد عن متناول ملوكها العظماء، وأنه لا شيء يحدث في العالم إلا ويعرف به فرعونها، وأن ملك بمثل تلك القوة لا تمثل المسافات عائقًا أمامه. كل تلك المعلومات كانت تغرس في عقول كل المبعوثين الأجانب لدى مصر، وبالرغم من ذلك، ها هو المبعوث المصرى لدى بابل يعتذر ببعد المسافة عن إحجام ملكهم عن

إرسال رسالة تمن بالشفاء لأخيه ملك بابل. وسرعان ما أمسك بورنابورياش بتلابيب ذلك العذر، وربما كان ذلك العذر هو السبب في تساؤله: «هل يوجد مكان بعيد عن أخى الملك العظيم ومكان أخر قريب؟» إلا أن مرماه غاب عن إدراك المبعوث المصرى الذي أخذ التساؤل بحرفيته على محمل الجد، ثم أخذ بورنابورياش بنصيحة المبعوث المصرى، وتأكد على صحة المعلومة من مبعوثيه.

كانت كل تلك التساؤلات جانبًا من الخطة التي برأسه، إلا أن المفهوم المحقيقي لتساؤله لم يكن ليخفي على الفرعون، فالملوك العظماء لم يكونوا ليشرودوا من النيل من إخوتهم الملوك الأخرين، حين تواتبهم الفرصة الملائمة، وسوف نعرض مزيدًا من الأمثلة عن ذلك.

حق استعمال مصطلع «أخ ملكس»

لعب استخدام مصطلحات القرابة العائلية في الرسائل المتبادلة بين الملوك دُوراً كبيراً، كان لمفهوم العائلة التي تقدم ملكين كبيرين كأخوين يستخدم أيضًا بين أصحاب المراكز العليا المتمائلة في مملكتين. كذلك خاطب ابن رمسيس الثاني الأمير سوتاحابساب الملك حاتوسيلي به «أبي» كذلك وجّه رمسيس الثاني الخطاب للأمير الحثيني تاشمي - شروما به «إيني»، كذلك استخدم رمسيس الثاني والملكة بودوحيبا زوجة حاتوسيلي في مخاطبتهما لبعضهما في نصوص الرسائل صفتي «أختي» و«أخي» كذلك خاطبتهما المعضهما في نصوص الرسائل صفتي «أختي» و«أخي» يودوحيبا بلقب «أختي». وأضافت روابط الزواج أبعاداً أخرى للعلاقات بين بودوحيبا بلقب «أختي». وأضافت روابط الزواج أبعاداً أخرى للعلاقات بين في رسمائله به «أخي» أحياناً و«ابني»، مما يشي بدلالة واضحة ان ابنته في رسمائله به «أخي» أحياناً و«ابني»، مما يشي بدلالة واضحة ان ابنته تادوحيبا قد انتقلت إلى حريم أخناتون بعد موت أمونحوتيب الثالث.

إلا أن حق توجيه الخطاب إلى ملك كبير بصفته أخ أو إلى أعضاء أسرته بصفتهم أخت أو ابن أو ابنه لم يك مباحًا بلا ضوابط. وهذا يظهر قبل أي شيء، أن من يخول له هذا الحق لابد أن يكون قد حقق لنفسه أولا وضع وصفة «ملك عظيم»، فالإخوة كصفة كانت لابد لتحققها المجازي أن تكون بين طرفين متكافئين. وهكذا، نجد أن الأشوريين حين اتجهوا بكل قوتهم لملء فراغ القرة، الذي نشأ شرق الفرات بعد انهيار المملكة الميتانية، سعى ملكهم أشور—أوباليت إلي تحقيق وضع كبار اللاعبين السياسيين في المشهد السياسي الدولي، فقرر أن يبادر هو بالكتابة إلى الملك أخناتون وشغم رسالته بهدايا ثمينة إليه:

هكذا يتحدث أشور- أو بالبت ملك أشور إلى مصر:

«بالرغم من أنه لم يسبق لأحد من أسلاني الكتابة إلى ملك مصر، ها أنذا أكتب إليك اليوم، وأرسل إليك رسولي، لزيارتك وزيارة بلدك، وأبعث إليك أيضًا، كهدية، عربة رائعة، وجوادين، وشجرة نخيل من اللازورد النقيء (13) ويبدو من لهجة الرسالة، ومحتواها ومصطلحاتها التي تشي بالتواضع كأول محاولة مترددة للتواصل بين أشور – أوباليت وفرعون مصر، كتمهيد لمحاولة إرساء وتأسيس روابط دبلوماسية ودية مع فرعون مصر، كتمهيد لمحاولة إرساء وتأسيس روابط دبلوماسية ودية مع فرعون مصر، وكما يذكر دكتور كوهرت، فإن أشور – أو باليت أرسل هداياه دون أن يطلب مقابلها هدايا أو أية مطالب معينة، على عكس ما كان متعالى الله منال).

لم يطلب إلا طلبًا واحدًا من فرعون مصبر، وهو ألا يعوق رسوله ولا يحتجزه في مصبر، قال:

«اسمع له أن ينتهى من زيارته، ويرجع إلى بلادنا»، ودون أى شك كان أشور— أو باليت يدرك بوضوح أن رسل كبار الملوك عرضة التأخر الأوقات متباينة، قبل أن يحصلوا على الموافقة المثول بين يدى الملك المضيف، أو من الممكن أن يعوقوا حتى بعد المثول بين يدى المضيف الأوقات متباينة، حتى يحصلوا على إذن الملك المضيف لهم بالمغادرة. وبإدراكه لذلك، لم يطلب الملك الأشورى من أخناتون إلا سرعة السماح لمثله بالعودة إلى بلاده. كان الهدف الأساسى من تلك المهمة هى اكتشاف أو معرفة إن كان

الفرعون سيقبل إقامة علاقات ودية معه أم لا، وكان تواقًا لمعرفة كيفية استقبال البلاط والفرعون المصرى له، في أول رسالة ودية، كان أشور – أو باليت يظهر تواضعه المتعمد، لم ينعت نفسه في تلك الرسالة بصفة هملك عظيم، كما لم يوجه الخطاب إلى أخناتون بصفته أخيه. كما لم يطلب هدايا مقابل هداياه التي بعث بها رسوله إلا أنه من الواضح أنه تلقى ربودًا إيجابية على مبادرته، ففي رسالة منه إلى أحد خلفاء أخناتون، وتحتمل أنها كانت مرسلة إما إلى توت عنخ أمون أو إلى أي، كتب نص رسالته كما يكتبها أحد أكابر الملوك إلى ند له، أو أخ ملكي إلى أخيه الملك (15).

ويتسق مع طبيعة تك المراسلات في عديد منها شكواه من تفاهة الهدايا المرسلة إليه من الفرعون، ويذكر في تلك الشكوي:

«يمكن لأى امرئ في بلنكم أن يلتقط النعب كما يلتقط التراب، وتحصلون عليه بكل سهولة».

ملاذا تشع في وهبة؟ أنا أشيد الآن قصراً جديدًا، أرسل إلى بقدر ما تستطيع من ذهب حتى يصبح القصر لانقاء. (16)

وراح يذكره بالماضى، وبالهدايا التى أرسلها أبوه الفرعون إلى ملك هانيجاليت (ما تبقى من الملكة الميتانية) مؤكداً أنه أصبح الآن في مرتبة لا تقل عن مرتبته (17).

ويعلق البروفيسور أرتزى أن استقبال الفرعون للوفد الأشورى يعد نقطة تحول فى السياسة الخارجية المصرية، فذلك الحدث يماثل بداية تبادل التمثيل الدبلوماسي بين دولتين في حياتنا المعاصرة، كان ذلك يعنى اعتبراف مصدر بأن أشور أصبحت على درجة مساوية للمحلكة المصرية(18).

ولا نحتاج إلى ذكر أن الملك البابلى بورنابورياش كان يراقب المبادرات الدبلوماسية الأشورية بانزعاج شديد، وكرد فعل للأنباء التى وصلته عن استمرار الاتصبالات الأشورية المصرية، كتب رسالة مليئة بالغضب

والسخط إلى فرعون مصر في ذلك الوقت، ويحتمل أنه كان توت عنخ تمون، قال في رسالته:

«الأشوريون من رعباياي، إلا أننى لم أرسلهم إليك، لماذا يهتمون بالصغيور إلى بلدكم؟ إن كنت تصبني، دعهم ينهون عملهم عندك، ثم أرسلهم إلى وأيديهم فارغة».(19)

كان بورنابورياش يلوى المقائق بوقاحة، بل وصل فى ذلك إلى مرحلة خلق مشكله بادعائه أن الأشوريين من رعاياه، ويمكن تفهم أسباب انزعاجه المتزايد من جيرانه الشماليين، الذين راحوا ينمون بسرعة، حتى اكتسبوا وحققوا من القوة ما خوَّل لهم اعتبارهم من القوى العظمى، فى المنطقة التى كان يحكمها من قبلهم الميتانيين. كانت المسألة مجرد وقت حتى تشكل المملكة الأشورية تهديدًا خطيرًا على مملكة بابل، خاصة بعدما حقق ملكها الاعتراف به على المسرح الدولى كملك عظيم من كبار الملوك.

إلا أن إحراز مرتبة ملك عظيم من كبار الملوك لم تكن تعطى صاحبها الحق بطريقة آليه بمخاطبة أحد كبار الملوك بصفة «أخي»، كما لم يكن ترفر ذلك الحق في مخاطبة أحد كبار الملوك بصفة أخي، يتيح للملك المعنى بصورة آليه مخاطبة باقى كبار الملوك الآخرين بصفتهم إخوته. وأوضح أورحي- تيشوب ذلك بكل جلاء. أثناء شغلة لوقت قصير للعرش الحثيني للملك الآشوري عدد- نيراري الأول. كان عدد- نيراري قد جعل من المملكة الآشورية أقوى قوة في شوق الفرات حين اكمل احتلاله لا هانيجالبت(20)، آخر ما تبقى من المملكة الميتانية وضمها لملكته وأصبحت جزءً منها، وأدى ذلك إلى إفساد كلى لعلاقته بالحثينيين، فقد المحتلكة الأشورية حتى أصبحت متاخمة لولاية قرقميش الخاضعة وأسبحت بعزءً منها، وأدى ذلك إلى إفساد كلى لعلاقته بالحثينيين، فقد المحتن المملكة الأشورية حتى أصبحت متاخمة لولاية قرقميش الخاضعة الحثينيين، وسعى عدد- نيراري إلى طمأنة أورحي- تيشوب، وعن رغبته في إقامة علاقات سلمية مع الحثينيين، وبسبب تطلعه إلى ذلك ورغبته الشديدة فيه ارتكب خطأ بخطابه الملك الحثيني بصفة أخي، وترتب على الشديدة فيه ارتكب خطأ بخطابه الملك الحثيني بصفة آخي، وترتب على ذلك تلقيه رسالة توبيخ شديدة اللهجة من أورحي- تيشوب، قال فيها:

«لماذا مازات مستمرًا في ذكر الإخوة، وما هي الأسباب التي تجعلني الكتب إليك بصفة الإخوة؟.. هل يكتب الذين لا تجمعهم علاقات طببة إلى بعضهم بلقب الإخوة؟ وما هي الأسس التي تجعلني أكتب إليك بصفة الإخوة؟ هل ولدتنا أم واحدة؟ لم يكتب جدى ولا أبي لملك أشور بصفة الإخوة، يوصفك من كبار الملوك، لا أرغب في ذلك (12).

لقد قبل أورحى- تيشوب على مضض الإنجازات العسكرية الأشورية والتى جعلت ملكها يحقق صفة ملك عظيم، إلا أن تلك الإنجازات في رأيه لا تخول له أن يخاطبه بلقب «أخي»، والذي يعني ويتضمن وجود روابط شخصية حميمة بين بيتين ملكيين، والتي كانت تدعم في أغلب الأحيان بزيجات ومصاهرات ملكية بين البيتين، وتنعكس على التبادل المستمر للمبعوثين والرسل وتبادل الهدايا وتوثيق عرى الصداقة والتعاون (22). كان أورحى- تيشوب قد عاني بعض الهوان بعد أن انتزع الملك الأشوري أخر ما تبقى من المملكة الميتانية، والتي كانت خاضعة لنفوذ الحثينيين قبل ذلك في شرق الفرات.

إلا أن عدد - نيرارى، ظن بتهور متعجل من جانبه، أن تلك الانتصارات العسكرية تعطيه الحق الفورى في اكتساب صفة الإخوة الملكية، مع الملك الذي كانت تلك الانتصارات العسكرية تقتطع من نفوذه، ويبدو أن العاهل الأشورى داوم علي محاولاته وسعيه لتأسيس روابط وعلاقات أفضل مع الحثينيين خلال فترة حكمه، إلا أنه لم يحرز أي نجاح في ذلك، استرشاداً بتعليق ورد في رسالة كتبها حاتوسيلي عم أورحي - تيشوب إلى عدد نيرارى، في تلك الرسالة، أشار إلى المعاملة السيئة التي كان يلقاها ممثلو عدد - نيرارى ومبعوثوه في بلاط أورحى. تيشوب.

إن السفراء الذين كنت تداوم على إرسالهم إلى بلاط أوحى تيشوب كان يقابلون بغضب مهين (23).

أما حاتوسيلى ذاته، حين اعتلى العرش العثينى بعد ابن اخيه فلم يتردد في اعتبار عدد- نيرارى ندًا له وملكًا من كبار الملوك. كان بالطبع

يسمى إلى تملق كبار الملوك الأجانب وكسب ودهم، خاصة في ضوء الظروف والوسائل المشبوهة التي ارتقي عن طريقها عرش الحثينيين، ومن أجل أن يحظى باعترافهم، بكونه ملكًا شرعيًا على العرش الحثيني، ولابد أن نتوقع أن الملك الأشوري قد رحب كل الترحيب باعتلاء حاتوسيلي العرش الحثيني، فقد كانت فرصة سائحة لتأسيس علاقات أفضل مع المثينيين بعد العداوة التي أظهرها سلفه ضد الأشوريين. ولكن ما حدث أن عدد- نيراري امتنم عن الاعتراف والتودد إلى مرتقى العرش الحثيني الجديد. كان من الواضع غياب أي ممثل للأشوريين عند تتويع حاتوسيلي. لم يبعث عدد - نيراري بأي رمز أو إشارة أو حركة تدل على اعترافه بالملك الحثيني الجديد. وكتب إليه حاتوسيلي رسالة تشي ببعض الانزعاج: «حين حصات على الملك، لم تبعث رسولاً إلى، حين يعتلى ملك جديد عرش بلاده، يقوم الملوك المساوون له في المنزلة بإرسال هدايا تذكارية لتلك المناسبة، ومساديس تليق بالمنزلة الملكية، وزيوت عطرية التطبي. إلا أنك لم تفسل ذاك (24) كانت المملكة الأشورية بالفعل أخر الممالك الكبرى التي اعترفت بالنظام الجديد في هاتوسا، ويذكرنا ذلك بالتوبيخ الذي وجهه رمسيس إلى حاتبسيلي: «أنت لست إلا ينيلاً للك عظيم»(25).

من الواضع أن استخدام صيفة «ملك عظيم» وصيفة أخى في توجيه الخطاب لملك عظيم آخر كان من الامتيازات العظمي، وكان المخولون بذلك التميز يرفضون أن يهبوه لمن لا يستحقونه. وذلك يفسر اعتراض أورحي- تيشوب الشديد أن يوجه له الملك الآشوري عدد – نيراري حديث العهد في نادى كبار الملوك الحديث بصيفة أخى، والتوبيخ الواضح والانتقاد من رمسيس لحاتوسيلي لمعاملته لحاكم بابل بصيفته من كبار الملوك، كان فشل عاهل في الحصول على أو المحافظة على صيفة ملك عظيم. والإخوة الملكية تعني حرمانه من الفوائد المادية والسياسية التي تترتب على العلاقات الابلوماسية الودية، بما فيها المصاهرات الاستراتيجية والتحالفات السياسية، والتحاون في فرض النظام والأمن على البلاد الخاضعة،

والحصول من خلال تبادل الهدايا على منتجات بلاد أخيه الملك .

فضلاً عن ذلك، كان الاعتراف الدولى بشاغل عرش كـ «ملك عظيم» وتوجيه باقى كبار الملوك الخطاب له بصفة «أخ» يدعم ترسيخ شرعية ذلك الملك بين رعيته داخل بلاده.

أحبانًا ما كان ملك صغير بوجه الخطاب إلى أحد ملوك النخبة الكيار بصفة «أخي»، دون أن يعتبر الملك العظيم أنها إهانة أو نوع من التجاوز، لهذا نجد أن ملك مملكة الاسبياء والذي كانت مملكته تقع بجزيرة قبرص دأب على توجيه الخطاب إلى أخناتون بصيفة «أخي» في كل رسيائله التي أرسلها إلى أخناتون (26)، ويبدو أن مملكة الاسيا بصفة خاصة كانت تتمتع بعلاقات شديدة التميز مع مصر خلال فترة تل العمارنة، كما اتسمت العلاقة بين الدولتين بتبادلات تجارية منتعشة. ومن بين السلم ذات الأهمية الخاصة التي كانت قبرص ترسلها إلى مصر مادة النحاس(27) في مقابل الفضة المصرية(28) كهدايا متبادلة بين الجانبين. كانت مملكة آلاسيا تتمتع بروابط تجارية قوية مع ممالك أخرى بطبيعة الصال، إلا أن أيًّا من علاقاتها التجارية الأخرى لم ترقُّ إلى المستوى الذي كانت عليه العلاقات التجارية بين مصر وقبرص، وربما كانت هناك ظروف خاصة، منها روابط الدم بين البيتين الملكيين في كل من الاسبيا ومصدر، وهي الروابط التي خوَّات للك آلاسيا أن يوجه الخطاب للك منصر بطريقة ويصفات مخصصة بكل تشدد لأنداده من كبار اللوك وحدهم، لذلك لم يكن بإمكان ملك الاسبا أن يوجه الخطاب إلى أحد كبار الملوك الآخرين بصفة «أخى»، فلم يصل إلى الدرجة ولا حقق الامتيازات التي تعطيه ذلك الحق، وسنعرض في موضع أخر رسالة شهيرة من حاتوسيلي الثالث كتبها إلى ملك أحياوا، وهي مملكة حيثينية إغريقية، وجه له فيها الخطاب بصفة «أخي»، ويصفة فيها أنه من عظماء الملوك وكبارهم. (الفصل 12). ولكنه بقدر ما نعلم لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة كوسيلة لموقف نفعي بحت، فلم يكن ملكا آلاسيا وأحياوا قد اعتبرا في يوم ما من مجموعة ملوك النخبة القليلة، الذين تقاسموا السيطرة علي مصائر عالم الشرق الأدنى القديم.

هل التقم كبار الملوك أبدأ؟

على مستوى شخصي بحت، ما الذي كان يتصوره كل ملك من أولئك اللوك الكبار عن أمثاله من كبار الملوك؟ لا نحتاج بالطبع إلى التأكيد على أن سيل وفيض عبارات الحب والإخلاص لم ترد أبدًا عن كونها عبارات دبلوماسية بحتة. كانت أحيانًا تضفي وراحها مشاعر دفينة من العداء المتبادل، والشكوك وعدم الثقة، وكما لاحظنا، كانوا سريعي الإحساس بالهانة لأبسط الأسباب الحقيقية أو المتخيلة من أندادهم، حتى إنهم لم يكونوا ليترددوا للحظة في معاقبة أو حجز رسل إخوانهم الملوك، للتعبير عن عدم رضاهم عن سلوك فعله أو أمر أخفق أو تواني عن فعله، وكان تقديرهم وحبهم لبعضهم بعضاً يقاس إلى حد كبير بنوعية وكمية الهدايا المرسلة والمتلقاة، ولا يدعو ذلك الدهشة في عالم العصير البرونزي المتأخر، حبن كانت الروابط بين كبار الملوك تتأسس على أسباب شخصية ومنافع سياسية (ويصدق ذلك على كل التحالفات الدولية في جميع مراحل التاريخ). لم تكن الشراكة التي تجمعهم ترجع إلى نظرة شاملة ومفاهيم عميقة، للسعى إلى تحقيق عالم متحد في سلام وتناسق وتناغم، ولا يرغبتهم في تحقيق استقرار دائم وانتعاش للشعوب والدول والمجتمعات الخاضعة لهيمنتهم ونفوذهم، بل تعود إلى حد كبير إلى اهتماماتهم الشخصية. لم تجمع أبدًا أية مناسبة أولئك الملوك ولم يلتقوا أبدًا، لمناقشة أي أمار يخصنهم منعًا أو يؤثّر عليهم، تعامل كل منهم مع كبارالملوك الأخرين على أسباس فردى من ملك لملك ومن خلال المبحوثين المفوضين والنواب، وكان كل منهم على اضطلاع مستمنر من خلال مبعوثيه أو المبعوثين الأجانب بمواقف الملك الأضر مع باقي الأطراف، بل صتى لم يغفلوا المعلومات التفصيلية الاقيقة عن طريقة استقبال الملك الآخر لمندوبيهم ورسلهم والهدايا التي تلقاها والتي بعث بها لملوك أخرين،

ومما لاشك فيه أيضنًا، أن مبعوثي أي ملك بعد عودتهم من مهمة لدي بلاط ملك أجنبي لم يكونوا ليسجلوا في تقاريرهم النتائج الرسمية للزيارة فقط. بل كانوا يزودون ملوكهم بمعلومات وفيرة، عن جوانب أخرى كثيرة غير الجوانب الرسمية للزيارة، وتشمل تلك الجوانب بالدرجة الأولى انطباعاتهم الشخصية عن نوعية الملك الأجنبي ونقاط ضعفه ومزاجه الشخصي. كانت تلك الانطباعات عن شخصية اللك الآخر تستخدم في وضبع مخططات ووسائل وسبل التعاملات القادمة معه، وكذلك تحديد أنواع الهدايا التي بمكن أن تبهجه، ونقاط ضعقه وكيفية استغلالها. ومما لا شك فيه أيضًا أنه لم يكن بدافع الفضول الشخصى. كان كل ملك عظيم يهتم بمعرفة شخصية الملك الآخر كإنسان وماذا يشبه؟ ولا توجد أية مناسبة نعرفها التقي فيها أولئك اللوك وجهًا لوجه، بل ولا واحد منهم مع أخر، ويدعو ذلك إلى الدهشة، على ضوء تأكيداتهم المستمرة في رسائلهم على أهمية تقوية الروابط التي تجمعهم، حتى لو سلمنا أن الحب والتقدير الذي يكنونه لبعضهم البعض لم يكن إلا من قبيل الدواعي الدبارماسية، إلا أننا ننحى ذلك جانبًا في هذه اللحظة، لنؤكد أنه كنان يمكن تحقيق إنجازات كثيرة، لو كان قد حدث والتقى ملكان عظيمان، خاصة لو وضعنا في الاعتبار أن المفارضات التي كانت تتم بين ممثليهما نيابة عنهما كانت تمتد أحيانًا ليضعة أعوام، مع استهلاك أغلب ذلك الوقت في الذهاب والعبودة بين السلاطين الملكيين المعنيين. فنهل بذلت أية جنهبود سنابقية لاختصار الوقت والمجهود لتدبير لقاء مباشر بين أية ملكين بنفسهما؟ بينما لم نتوصل إلى أية معلومات عن أية محاولات أو مساع لترتيب ما بماثل لقاءات القمة، إلا أن هناك مناسبتين أو حدثين مسجلين، ترتفع فيهما نسبة توقع أن يكون أحد كبار الملوك قد قام بزيارة احتفائية إلى بلاط أخ ملكي، ففي رسالة إلى أمونحتيب الثالث، يشتكي ملك بابل كاداشمان- إنليل الأول أن الفرعون لم يقم بدعوته لحضور مهرجان احتفالي يقام بمصر: وهين أقمتم الاحتفال الكبير، لم ترسل رسولك إلى قائلاً: احضر، لتأكل وتشرب»(29) .

وسلط كاداشسان- إنليل الضبوء علي عدم كياسة الفرعون بتجاهله دعوته للحضبور، وبادر هو بدعوة الفرعون لمساحبته في افتتاح قصر جديد في بابل:

«سنتوم بافتتاح احتفالي بالقصر، احضر بنفسك لتأكل وتشرب معي، ان أفعل مثلك (30)

ولابد أن نأخذ شكوى كاداشمان- إنليل بحرفيتها المرة واللاذعة. ولا يوجد أي احتمال ضئيل أن يكون قد قبل في أي وقت دعوة ازيارة مصر. حتى لو ظن (ادعاءً مثل خلفه بورنابورياش) أن مصر قريبة جدًا من بابل؛ كما لم يتوقع جديًا أن يلبي الفرعون دعوته. كانت هناك أسباب قوية (سنعود إليها) لامتناع أي من كبار الملوك عن زيارة ملك آخر من أنداده. حِينَ كَانْتِ احْتَفَالَاتِ هَامَةً تَقَامَ فِي مِمْلَكَةً وَاحِدٍ مِنْ كِيارِ الْمُلُوكِ، كَانْ مِنْ العادة إرسال دعوات إلى كبار الملوك الأخرين لحضور تلك الاحتفالات، إلا أنها كانت دعوات شكلية دون أي توقع بالاستجابة لها. ومما لاشك فيه أن المدعوين كانوا يرسلون وقودًا برئاسة كبار رجالهم؛ لتمثيلهم في تلك الاحتفالات، مثلما حدث في الحفلة الكبرى التي أقامها أخناتون للاحتفاء بالعام الثاني عشر من ارتقائه العرش، وحضر ذلك الاحتفال ممثلو الملك الحثيثي، ووفود من النوبة، وليبيا، ودول أخرى، لذلك لم يكن كاداشمان-أثليل جادًا في شكواه لأمونحتيب الثالث، حين لم يدعه لحضور الاحتفال الكبير، إذ لم يكن يرى بجدية أنها فرصة ضاعت لزيارة مصر وبلاد النيل، ما كان يعنيه فعلاً إهمال أخيه الملك للقواعد المرعية، وتجاهل دعوته، خاصة إذا كان كبار الملوك الأخرين قد تلقوا دعاوى لحضور ذلك الاحتفال.

من جهة أخرى، نجد دعوة وجهها رمسيس الثانى إلى الملك الحثيثى حاتوسيلى الثالث، ووجهها بجدية وعن نية حقيقية. كانت المناسبة التي

اختارها مناسبة تتطلب احتفاءً واحتفالاً ثنائيًا من الطرفين معاً. كانت المعاهدة الشهيرة بين الإمبراطوريتين قد أبرمت بالكاد، وكان كل منهما قد أرسل إلى الآخر نسخته الموقعة على لوح من الفضة، وكانت تلك المناسبة من المناسبات التي يجب الاحتفاء بها بشكل خاص، لذلك وجّه رمسيس دعوته إليه. ولا نعرف كيفية استجابة حاتوسيلي ذاته للدعوة، ولكن لو حكمنا من نص رسالة تالية من رمسيس نعرف أنه قبل الدعوة مبدئيًا، وهذا ما كتب به رمسيس إليه، ناسخاً فقرة من رسالة حاتوسيلي إليه:

كتب إلى أخى كما يلى: وأخوك الملك سيحضر إليك، أخوك الملك سيلبى دعوتك ازيارته، أخوك سيحضر إليك في بلدك، حتى يظهر فى حضرة أخيه (31) وفى الحقيقة، كان قبول حاتوسيلى للدعوة قد أخذ بجدية أكثر من حقيقة نيته، وأخذ الفرعون قبوله للدعوة بقدر أكبر من حقيقته. ورداً على رسالة حاتوسيلى كرر رمسيس الدعوة، معبراً عن خالص أمنه وعميق رغبته فى تحقيقها:

«سيحقق إله الشعس وإله العواصف وآلهتى وآلهتك رؤية آخى الخيه، فليأت أخى إلى أخيه وأن يأت أخى إلى أخيه وأن يأت أحينا للأخر ويظهر في حضور الآخر في القصر الذي يوجد فيه عرش اللك.».

ولزيد من إقناع حاتوسيلي، أو ربما كرد فعل للشكوك التي أبداها حاتوسيلي، عرض رمسيس أن يلتقي بجلالة أخيه في خارج مصر أثناء رحلته إلى كنعان التي كانت خاضعة للنفوذ المصرى:

دساقوم أنا الملك العظيم، ملك مصر إلى بلاد كينا حى (أى بلاد كنعان حيث كان لرمسيس بها قصر ملكى) لأرى الملك العظيم، ملك بلاد العثينين، أخى، وأظهر في حضور أخى، وأستقبله في بلادى». ووصل الإعداد للزيارة مراحل متقدمة إلى المرحلة التى أرسل فيها رمسيس كبار رجال الدولة لاستقبال حاتوسيلى في بلاد أوبى (32)، وفي المنطقة المحيطة بدمشق، وكانت فيما سبق خاضعة للنفوذ الحثيني، إلا أنها كانت

في ذلك الوقت تحت الهيمنة المصرية بعد اتفاق السلام، ومما لاشك فيه أن لجنة الاستقبال المصرية الرسعية كانت قد كلفت بمرافقة حاتوسيلي حتى مكان المقابلة بقصر رمسيس في أرض كنعان، ثم يصحبه رمسيس بنفسه إلى عاصمته الجديدة التي أطلق عليها بي— راميس في دلتا مصر، فضلاً على ذلك، كان رمسيس قد ذكره في هذا الصدد بتحقير ملك آشور له ورفضه إياه، ونعته بأنه مجرد بديل لملك عظيم، وكان ذلك التذكير بالإهانة لا مبرر ولا مسوغ له ولم يكن ذلك موضعه. إلا أنه يبدو أن رمسيس لجأ إلى ذلك الأسلوب لمزيد من الإقناع والفسغط على الملك المتمنع عن زيارة مصر. وكما لاحظنا، كان حاتوسيلي يتطلع بشغف إلى قبول أحد كبار الملوك له واعترافه به وبحقه في الجلوس على عرش الحثينيين، وكان الملك الأشوري قد رفض الاعتراف له بذلك الحق. كانت زيارته لمصر تلبية لدعوة فرعونها يعد أقوى اعتراف له بذلك الحق. كانت زيارته لمصر تلبية لدعوة فرعونها يعد أقوى اعتراف الاشوري.

وكان ذلك أخر ما عرف عن تلك الدعوة لزيارة الفرعون، ويبدو بشكل يقرب من اليقين أنها لم تتم، إذ يبدو أن أحد علل حاتوسيلي قد اشتدت عليه، مما حدا به إلى تأجيل الزيارة أو إلغائها كليًا.

ونعرف عن حاتوسيلى أنه كان يعانى من حالة مرضية مزمنه، تسبب له حرقان شديداً بالقدم أو «نار القدم»، كما ذكرت في صلوات قرينته بودوحيبا، وقد وصل ذلك الأمر إلى معرفة فرعون مصر، ربما في سياق العذر الذي ساقه حاتوسيلى لعدم قيامه بالزيارة المتفق عليها (33) وأرسل رمسيس إليه بدهانات طبية لعلاج تلك العلة (انظر الفصل7)، ولكن باستثناء الحالة الصحية لحاتوسيلى، والمشاكل الكثيرة الضاغطة عليه في كل البلاد الخاضعة لنفوذه، خاصة في منطقة غرب الأناضول، قد أديا به إلى إعادة النظر في تلك الزيارة لمسر. كانت مثل تلك الزيارة تبقيه بعيداً عن مملكته لثلاثة أشهر أو أزيد، وهو غياب لا يقدر عليه، خاصة إذا كانت لديه مخاوف من وقوع تمردات وثورات من الشعوب الخاضعة له أو من ليه مخاوف من وقوع تمردات وثورات من الشعوب الخاضعة له أو من

المالك المجاورة له.

ولكن لنفترض للحظة أن حاتوسيلي قد قام بالفعل بزيارة مصر، كان التناقض البدني بين الملكين سيبدو مدهشًا ولافتًا للانتباه، ففي الوقت الذي توصلت فيه الإمبراطوريتان إلى اتفاق السلام، كان حاتوسيلي في أواخر الخمسينيات من عمره أو بدايات الستينيات، وكان سيبدو أكبر كثيرًا في العمر، خاصة مع الأمراض الكثيرة التي كانت تعتريه. كان رمسيس أمنغر منه بحوالي عشرة أعوام، وكان مازال يحظى بهيئة وشكل مؤثرين، وشعر أسود مائل للحمرة وقوام متميز، وكان وجيهًا ويهيًّا. ويطول بلغ 1,70 مترًا. كان بيدو أطول من كل معاصرية، وكان سيبدو كذلك بالنسبة لأخيه الملك الحثيني إن كان قد حقق الزيارة. كان هيئة وشكل الملك الحثيثي يصب في صالح الملك رمسيس، أو كانا قد التقيا، ليس فقط في عيون رعاياه المصريين، بل أيضيًا في عيون المعوثين من البلاد الأخرى المدعوين للمشاركة في الاحتفالات والمراسم في أثفاء زيارة الملك الحثيثي لمصرء وكانت يودوجيبا تهتم بتلك الاعتبارات، ومن المحتمل جدًا أنها استخدمت تأثيرها ونفوذها لإثنائه عن إتمام تلك الزيارة. ولكن في كل الأصوال، لا يحتمل أبدا أن كاتوسيلي فكر جِديًّا في القيام بالزيارة، الأقرب للاحتمال في قيام رمسيس بالإعداد الفعلي للزيارة، أنه نَهُ بِعِيدًا فِي افتراضاته، نتيجة ما يفترض أنه قبول مهذب من حاتوسيلي، لم يصل إلى حد تنفيذ الدعوة الأولية التي تلقاها.

كان هناك اعتبار أخر فيه فصل الخطاب في تنحية أية نية لدى حاتوسيلي للذهاب إلى مصر. وكان ذلك الاعتبار خاصًا بكيفية إظهار رمسيس لتلك الزيارة، في حال تحققها لرعاياه ولأنداده الآخرين من كبار الملوك.

لذلك نؤكد مرة ثانية أنه لم يكن من عادات كبار الملوك أن يقوموا بزيارة أحد رفاقهم من كبار الملوك في مقار عروشهم. فذلك ما كان يفعله الملوك التابعون ودافعو الجزية من صبغار الملوك. وذلك هو السبب الذي

جعل كبار الملوك يقومون بالتفاوض مع أندادهم من كبار الملوك من خلال البعثات الدبلوماسية، وسنرى أن رمسيس، بعد ذلك بعدة أعوام، لم يتردد في إظهار وصول عروسه الصنينية إلي مصر على أنه نوع من الجزية والترضية وكسب الود من الملك الحثيني (انظر القصل 6)، أما أن يأتي الملك الحثيني نفسه إلي البلاط المصرى، فإن ذلك قمة الدعاية التي لا نظير لها ارمسيس.

لا تذكر الحرب

بالرغم من الرغبة المشتركة بين كل من حاتوسيلي ورمسيس في إرساء أسس من التواصل الدبلوماسي الودي، والتفاوض لوضع معاهدة سالم، إلا أن التوتر ظل سائدًا بينهما. كانت مشكلة أورحى- تيشوب بكل تأكيد أهم وأكبر الأسباب لدوام ذلك التوتر، وكان الفشل في نسيان أشباح أحداث موقعة قادش سببًا أخر في استمرار التوتر. كان من المستحيل على أي زائر أو مبعوث من البلاط الحثيني إلى مصير إلا ويكون سببًا في تذكر صبراع معركة قادش، أو رؤية النسخة التي يرويها رمسيس عن تلك المعركة، التي عمد رمسيس إلى تصويرها، وتسجيلها كتابة على جدران خمسة معابد من أكبر المعابد المصرية، ومما لاشك فيه أن رمسيس كان يتعمد ويقصد أن يكون المبعوثون الحثينيون قد رأوا تسجيلاته ورؤيته التي سجلها عن معركة قادش، ويحتمل أنه كان يحقق ذلك من خلال إعداد ريارات للضيوف لتلك المعابد، ما ضبايق جاتوسيلي هو ادعاء إخوة الملك أنه انتصر في تلك المعركة، بل وبيد واحدة، وتصويره للخصوم وهم يخضعون له، وظل رمسيس مصراً على أنه انتصر على المك الحثيني العظيم، أو الحثينيين الفاشلين، كما أطلق عليهم. وكان حاتوسيلي على علم يقيني بحقيقة ما حدث في تلك المعركة. كان خصم رمسيس الرئيس في تلك المعركة ميواتاللي شقيق حاتوسيلي، وكان حاتوسيلي بنفسه مشاركًا في تلك المعركة التي خاصها قبل أن يعتلي عرش الحثينيين، وكان

بالتالى من المشاركين في مطاردة الجيوش المصرية حتى جنوب منطقة دمشق. وسقطت تلك المنطقة التي كانت خاضعة للنفوذ المصرى في قبضة الحثينيين، وبقيت لفترة تحت سيطرة حاتوسيلي ذاته. إلا أن رمسيس ظل مصراً بعناد على أنه المنتصر في تلك المعركة.

ولم يصل الطرفان أبداً إلى اتفاق في وجهات النظر حول حقيقة ماوقع في قادش، ولم تؤد إثارة الموضوع في أي وقت إلا لتصعيد التوبر من جديد. كان حاتوسيلي قد أرسل بخطاب عدواني شديد اللهجة بسبب رفض رمسيس تسليم أورحي— تيشوب، ملك الحثينيين السابق، الذي فر إلى مصر لاجدًا إليها (انظر الفصل 13)، واعترض رمسيس على لهجة الخطاب العدائية، ورد قائلاً:

«هين علمت أنت بهذا الموضوع، كتبت إلى أخيك تلك العبارات العدائية حتى تنتهز أول فرصة لإثارة الشجار والنزاع، دون أن ينعكس ذلك على إخريتنا وعلى السلام القائم بيننا» (34). أكثر ما كان يثير حنق رمسيس تهديدات حاتوسيلي المبطنة بقيامه بعمل عسكري، وأردف رمسيس:

«فضلا عن ذلك، أنت تثير العداوة (القديمة) بين بلدينا بكلامك هذا:» «هل نسبت أيام العداوة مع بلاد الحثينيين؟».

وكان ذلك من حاتوسيلى إشارة واضحة للانتصار الذى يدعيه الحثينيون في قادش، كان يحذر رمسيس من أنه قد يجد نفسه عرضة من جديد للانتقام العسكرى الحثيني إذا لم يسلم أورجي- تيشوب.

وفى رد رمسيس على تلك الرسالة تناول رمسيس فى آخرها الادعاء الخاص بأورحى - تبشوب، إلا أنه قبل أن ينتقل فى رسالته إلى ذلك الموضوع لم يكن بإمكانه أن بدع الادعاء الحثينى عن معركة قادش أن يعر دون أن يتحداه فى ذلك، فقد كان ذلك أهم لديه من استرضاء أخيه الملك. كان حاتوسيلى يهدده بقادش أخرى، وكان مضمون التهديد يعنى أن رمسيس قد هزم فى قادش، مما يتناقض مع النسخة التى يرويها رمسيس عن تلك المعركة، وما يرى أنه أعظم انتصار حربى له، لم يكن

بقدرته أن يترك الادعاء الحثيثي أن يمضى دون تحد منه، وكان عليه أن يعيد رواية ماحدث، طبقًا لرواية رمسيس في ذلك اليوم المصيرى:

«اخترةت قلب صفوف الأعداء القادمين من بلاد الصنينيين وضربت العدو، حين جاء جيش ميواتاللي ملك الصنينيين مع جيوش بلاد كثيرة جاءت معه.. وهجم ملك بلاد الصنينيين علي بجيشه وبجيوش كل البلاد التي جاءت معه، إلا أنني هزمتهم جميعاً بيد واحدة، بالرغم من أن جيشي لم يكن معي، وعجلات جيشي العربية لم تكن معي، وسقت جيش الأعداء من بلاد الحنينيين تلك وجلبتهم أسرى إلى أرض مصر».

ولم يؤد إصرار رمسيس على تأكيد صحة النسخة التي يرويها عن معركة قادش إلى أي تحسن في العلاقات مع المثينيين. إلا أن ما أثار الفرعون بهذه الطريقة إصرار أخيه الملك الحثيني على أن الحثينيين هم من كسبوا وانتصروا في معركة قادش. لم يكن من المكن أبدًا إنهاء ذلك النزاع وديًا، لذلك ظهر ميل مشترك بين الأخين الملكين أن يدعا فرصة للجراح القديمة للالتئام بعدم ذكر قادش بعد ذلك أو الإشارة إليها. وعلى الأقل ألا يشار إليها في المراسلات المتبادلة بعد ذلك، والتي بقيت حتى وقتنا هذا.

الإخوة الملوك يتوافقون

كانت اعتبارات نفعية بحتة هى التى أجبرت حاتوسيلى على الحفاظ على علاقات طيبة بفرعون مصر، بالرغم من نكهة العداوة التى كانت تغلف على علاقتهما. كان يطمح إلى اعتراف الفرعون به كملك شرعى على عرش المشينيين وقبوله كملك ضمن الملوك الأنداد. وتطلب ذلك اعترافًا صريحًا ومعلنًا من الفرعون به، في الوقت الذي كان إيواء الفرعون للملك الحثيني السابق يظهر الفرعون بمظهر المؤيد له ولقضيته. ومما لا شك فيه أن حاتوسيلى كان مازال يستشعر ألم الإهانة من توبيخ الملك الأشورى له وربما من الملك الإساءة وربما من الملك البابلي الجديد أيضًا، لذلك سرعان ما شعر بالإساءة

والإهانة حين لم يوجِّه إليه رمسيس الخطاب في رسالته بأسلوب يليق به كأحد كبار الملوك، وظن أن وجود الملك المهارب أورحى- تيشوب بمصر له علاقة بذلك الأمر، فكتب إلى رمسيس باحتجاج قائلاً:

«أذا تكتب تلك الكلمات القليلة إلى كما لو كنت خادماً؟ أنا الآن ملك الحثينيين لا أورحى - تيشوب» (35) ورد عليه رمسيس بسخط، في الوقت الذي حاول فيه أن يطمئنه: «علمت الآن برسالتك الفظة التي كتبتها إلى، وأن أكون قد كتبت إليك كما أكتب لأحد خدمى، فهذا غير صحيح، ألم تصيح ملكًا، أتظن أني لم أعلم بذلك؟ ألم أعلم ذلك علم اليقين؟ أنت ملك عظيم على بلاد المثينيين أنت بطل على كل البلاد. أراد رب الشمس ورب عليم على بلاد المثينيين أنت بطل على كل البلاد. أراد رب الشمس ورب العواصف أن تكون ملكًا على المثينيين مكان جدك. يجب ألا تظن أني كتبت إليك كما أكتب لخادم، وما يجب أن تكتب به إلى هو «قد يمتلئ قلبك بالسعادة والسرور كل يوم» لا تلك الكلمات الفارغة التي بلا أساس. هكذا أتحدث مع أخي. ويسبب العلاقة الحميمة التي أرسيناها بيننا كتبت اك

كان من المعروف عن رمسيس كياسته الجمة. اذلك لم يكن غريبًا أن يشعر حاتوسيلي بالمهانة من تكبر وعجرفة ونغمة التعالى التي شابت رسالة الفرعون إليه. ولكن يحتمل أن رمسيس كان يكتب بالمطريقة ذاتها إلى كل الإخوة الملوك. لقد كان رغم أي شيء رمسيس مصر، وكان بلاشك يعتبر نفسه الأعظم بين كل عظماء الملوك. وكانت تعترى حاتوسيلي مشاعر الإحساس بالذنب بسبب الطريقة التي استولى بها على عرش الحثينين، بالرغم من محاولاته إضفاء شرعية على سلوكه وكانت مشاعر الخوف من فقدانه للعرش تجعله شديد الحساسية تجاه كل ما يشعره أنه ليس أهلاً لذلك الملك، خاصة إذا جاء من أنداده الملوك. كانت حساسيته مبررة في بعض الأحوال. قوبلت أول محاولة منه للتودد الملك الأشوري بزجر ودفض، وكان رمسيس يشعر بالمتعة بتذكيره بذاك.

فعلى أي حال، كما رأى رمسيس، لا يوجد ضر إذا عمق رمسيس لديه

الإحسباس بشبهامته وكرمه مقارنة بالملوك الأخرين الذين زجروه، وأن يكون حاتوسيلي مدينًا له بذلك الموقف.

وفي الحقيقة، كان لاعتراف رمسيس بحاتوسيلي ملكًا على الحثينيين كثير من التداعيات المفيدة لحاترسيلي، ففيما يخص الولايات الخاضعة للمشيئيين بغرب الأناضول، كتب ملكها إلى رمسيس حين علم بفرار أورجي- تيشوب ملك الصنينيين الشرعي السابق إلى مصس ووجوده بضيافة رمسيس، وكان الهدف من رسالته أن يعرف إن كان رمسيس يؤيد الملك الحثيني السابق ويعمل على إعادته إلى عرشه أم لا. ولم نعثر بالطبع على نص رسالة (كوبائتا - كورونتا) إلى رمسيس، ولا يمكننا أن نعرف من نص رد رمسيس إن كان يؤيد حاتوسيلي أم أورجي- تيشوب. والمحتمل أنه لم يظهر في تلك الرسالة تأييده لأي منهما. كانت رسالة رمسيس قد صدفت بعناية شديدة، لتظهر موقف رمسيس من أورجي-تيشوب. كان رد رمسيس يهدف إلى معرفة إن كان ملك غرب الأناضول الخاصم الهيمنة الحثينية مازال يؤيد الملك السابق أورحى تيشوب الذي أقصى عن عرشه، حيث كان لابد عليه أن يفعل ذلك، لارتباطه بشروط المعاهدة التي وقعها مع مورسيلي جد أورحي- تيشوب (36)، أم يظل مخلصًا للملك المخلوع، ويتمرد على جاتوسيلي معتصب العرش، ويعرض مملكته في غرب الأناضول لخاطر جمة؟ إلا أن رمسيس انحاز بوضوح تام لحاتوسيلي، وأظهر ذلك بشكل رسمي واضح:

«تذكر التحالف الذي عقده الملك العظيم، ملك بلاد مصر مع الملك العظيم، ملك بلاد الحثينين، أخي، إخوة صائفة، وسلام مؤكد، وضمن إله الشمس وإله العواصف ذلك الاتفاق للأبد. وإليك ملاحظة أخرى، فيما يخص أمر أورحى— تيشوب الذي كتبت إلى بشائه، فإن الملك العظيم، ملك يلاد الحثينيين قد عالج هذا الأمر بالطريقة التي رغبتها».(37)

كان المقصود أن تترك تلك الرسالة أثرها، ولكن لدى من، وبأى وسيلة؟ فبالرغم من أن الرسالة مكتوبة لـ (كوبانتا- كورونتا)، إلا أنها لم ترسل

إليه بل أرسلت إلى حاتوسا عاصمة الصنينيين. فهل كان ذلك مجرد بروتوكول؟ يعلق بروفيسور بيكمان على ذلك الموقف بأنه كان من غير اللائق أن يتواصل أحد الملوك الخاضعين بأحد كبار الملوك مباشرة (38). وقد خرج (كوبانتا - كورونتا) عن تلك التقاليد المرعية بكتابته مباشرة إلى رمسيس، ومن الواضح أنه كتب رسالته دون علم حاتوسيلي، فعن المعروف أن حاتوسيلي لم يكن ليسمح لأي ملك تابع له بالكتابة إلى ملك أجنبي مباشرة لأي سبب كان، فما بالك بأن يكون السبب هو التساؤل عمن يكون مساحب الحق في الجلوس على العرش الذي يخضع المرسل لهيمنته؟

وكالعادة، انتهز رمسيس الفرصة إلى حدها الأقصى، فلم يكن دافعه للرد على رسالة (كوبانتا- كورونتا) مراعاة قواعد البروتوكول وإرسال الرد إلى حاتوساً. لقد واتته فرصة جديدة لمضايقة أخيه الملك، فقد كان الفرعون على يقين أن الرسالة سنقم بين يديه، وحينئذ يعلم حاتوسيلي ريما الأول مرة، أن واحدًا من أهم الحكام الضاضعين للنفوذ الحثيثي قد ناقش شرعية اعتلائه للعرش الحثيني مع ملك أجنبي، وكان أقل ما يمثله ذلك أنه يشكل إهانة وإذلالاً لحياتوسيلي. ولا يمكنه إزاء ذلك الموقف أن يلقى بأي اوم على الفرعون، ففي كل الأحوال لم يكن الفرعون من بادر بالكتابة إلى (كوبانتا- كورونتا)، كما قام بمراعاة القواعد المرعية بحرصه على أن يعلم حاتوسيلي بأمر الرسالة، كما أعلن دعمه غير المشروط لحاترسيلي في رده على الرسالة. كما ترتبت بالطبع تبعات كثيرة على تأبيد الفرعون ودعمه لحاتوسيلي، فقد كان حاتوسيلي لا بشك أبدًا في ولاء ملوك غرب الأناضول، ولا في ولاء حكام المناطق الأخرى الضاضعة للنفوذ الحثيني، وهو يدين بذلك إلى الفرعون الذي أعلن تأييده له، ومما لاشك فيه أن ذلك عجِّل بوضع رمسيس كشبريك رئيسي في علاقته بحاتوسىلى.

ويدل العثور على رد رمسيس على (كوبانتا- كورونتا) في حاتوسا

على أن الرسالة لم توجه أبداً إلى عنوان المرسل إليه، إلا إذا كان قد تم نسخ نسخة عن الرسالة الأصلية (39). وسيان وصل محتواها أم لم يصل إلى (كويانتا - كورونتا) فإن ذلك لم يكن ليعنى رمسيس بأى درجة، فما كتبه في ذلك الرد قصد منه بالدرجة الأولى أن يصل إلى علم حاتوسيلي.

إلا أنه من الواضح أيضًا أنه كان يهم حاتوسيلى أن يصل مضمون ذلك الرد إلى (كوبانتا- كورونتا) بطريقة أو بأخرى، ليدرك مدى تأييد الفرعون ودعمه له. ومما لا شك فيه أيضًا أنه انتهز تلك الفرصة هو الأخر ليوبخ (كوبانتا- كورونتا) لإقدامه على الكتابة إلى رمسيس متجاوزًا إياه وهو ذنب عظيم.

5

نظم وأنساق مذهلة

كان السفراء الأجانب يلقون ترحيبًا من كبار الملوك. وكانوا يحملون اليهم عبارات التحية الحميمة من ملوكهم. وكانوا يحملون معهم رسائل لجلالة الملك ولباقي أفراد الأسرة الملكية. وكانت هناك أيضًا هدايا، أشكال كثيرة متعددة من ألوان الهدايا، كلها من أرقى النوعيات. وكانت تلك الهدايا أفضل السبل لكل ملك عظيم، ليعبر بها عن حبه اللامحدود وتقديره لأخيه الملك، بالرغم من أنه لم يره في حياته، وفي أغلب الأحوال لا تتاح له الفرصة ولا تتوفر لديه النية ولا الرغبة لرؤيته. لم يكن ذلك إلا وجهًا دبلوماسيًا فقط ميز علاقات حكام الممالك الكبرى. إلا أن الهدايا كانت حقيقية وأصلية إن لم تكن المشاعر التي ينقلها حاملوها كذلك. وكان تسليم الهدايا يعد مناسبة يحضرها كل كبار رجال الدولة، وكذلك كبار ضيوف الدولة من الأجانب لمشاهدة الهدايا المبهرة والأشياء الثمينة الآتية من مملكة بعيدة؛ لتعد دليلاً حيًا وملموساً على التقدير الدولي الذي يتمتع من مملكة بعيدة؛ لتعد دليلاً حيًا وملموساً على التقدير الدولي الذي يتمتع من الملك.

وبالطبع، كان من الحكمة إعلان محتويات كل صندوق أو لفافة قبل فتحها للتأكد من الأثر الذي يتركه وتوقع ما تحويه كل لفافة.

وكان ذلك بلا شك أحد الأسباب التي جعلت مرسلي الهدايا يتجشمون عناء تسجيلها في خطاباتهم المرافقة للهدايا؛ ليعلموا المتلقى بما أرسلوه إليه.

ذهب.. وذهب، ثم ذهب! كان ذلك المعدن الثمين دائم الذكر في القرائم التفصيلية للهدايا التي يبعث بها الفرعون إلى الإخوة الملوك، فقد كان الذهب أكثر نفاسة من أية مادة أخرى وأصبح السمة الرئيسية الدالة على

ثراء مصر. كانت هناك أصناف وأشكال لانهائية من الأبوات التي تصنع من الذهب أو المطلبة به: تماثيل مسفيرة من الذهب، قناني من الذهب للزبوت العطرية، أوائي تجميل، أقواس، مغارف، كئوس، عقود، أساور، خواتم، عربات خشبية مكفتة برقائق الذهب، قوارب من خشب الأرز مكفته برقائق الذهب، أسرَّة، ومساند رأس، مقاعد وكراسي عروش من الذهب. وفي بمثة هدايا واحدة مرسلة من أخناتون إلى بورنا بورياش ملك بابل بلغ وزن الذهب 1200 منياس، أي حوالي 600 كجم(1). ويضاف إلى ذلك مجموعات كبيرة أخرى من الهدايا صبيغت من الفضية، مثل أواني الإستحمام والاغتسال، أنية قياس سوائل، مغارف، مناخل، ودلاء، وأدوات لجعل شعور النساء لولبية الشكل، عروش، مرايا، أنية تجميل، وتماثيل طريقة لقردة من الفضة تحمل صغارها في حجرها، كما كانت هناك هداياً كثيرة من البرونز، وأخرى منحوتة من الصخور والصجارة. كانت هناك أيضًا مصوغات دقيقة منحوثة من العاج ومن خشب الأبنوس، وكذلك أمشاط للشعر من العاج، وأنية مصنوعة للزبوت العطرية من العاج أيضًا على شكل ثور أو أشكال مزينة على هيئة تفاح ورمان ويلح. فوق ذلك كانت الهدايا تتضمن كميات كبيرة من المسوجات وأردية كتانية من أرق أنواع الأنسجة، ما يزيد على 1000 قطعة.

كل صنف كان يوصف ويسجل منفرداً ويوضع في موضعه الملائم من القائمة حسب المادة التي صنع منها، وفي حالة تعدد الصنف الواحد كان عدد القطع يذكر بالترتيب، إن كانت تلك الأصناف من ذهب وتليها التي من فضة ثم تلك التي من برونز.

وذكر حاتوسيلى في إحدى رسائله إلى رمسيس: «اقد سجلت قائمة المنقولات التي ستصحب العروس»، ووعده أن تفوق منقولاتها منقولات كل الأميرات الأجانب التي أرسلت إلى رمسيس من بالاد بابل أو من زولابي(2).

كل صنف كان يسجل ويوزن، قطعة بعد قطعة قبل أن تحزم وتغلف

وتختم، وكانت القائمة ترسل مصاحبة للمنقولات، وعند وصولها، كان كل صنف تفض أغلفته ثم يوزن، قطعة بعد قطعة بعد فض الأختام بطريقة رسمية، لم تكن هناك أية احتمالات أو فرص للتلاعب أو الاختلاس ما بين إرسالها وتلقيها، أو على الأقل كان ذلك هو الغرض.

كذلك كانت الهدايا المرسلة من الملك الميتاني إلى فرعون مصر، تسجل جميعها بالتفصيل الدقيق. كانت هدايا الزواج التي صحبت الأميرة الميتانية تادوحيبا إلى مصر، ليتزوجها أمونحتيب الثالث(3) تضارع في تنوعها وقيمتها الهدايا التي تلقاها الملك الميتاني من بلاد النيل.

كان من بين الهدايا مجوهرات شخصية: حلى، تماثيل صغيرة، أواني تجميل، أنية، كنوس، أنية زيوت عطرية وأدوات أخرى كلها من الذهب والفضة والبرونز والمرمر والعاج، هذا عدا مجموعات أخرى من مواد تُمينة ونفيسة، سجلت كلها بالتفصيل في القائمة التي أرسلها توشراتا ملك البيتانيين، وتظهر بالقائمة أيضًا أصناف مصنوعة من الحديد (وهناك المزيد سنذكره لاحقًا عن هذا المعدن). كان العقيق نادرًا في مصر، وكانت مصر تتحصل عليه فقط من المصادر الخارجية، وزينت به الهدايا التي أرسلت إلى الفرعون مثل الخناجر والمذبات، كما كانت هناك أيضًا أحذية وجوارب وأردية وأغطية رأس من الصوف المصبوغ أو الكتان المصبوغ، وكذلك صناديق من خشب الأبنوس، وأسلحة احتفالية مزينة سجلت بدورها في قائمة الهدايا، مثل: البلط، والصراب والخناجر والسهام، والهبراوات ذات النشوءات والبروع والضوذات، وشيمات الهيدايا الضيل والفريات المذهبة، كما كانت هناك كثير من الكماليات من لجامات خيل للرسن، وسيور اللجامات، وسروج مطعمة أو مصنوعة من العاج أو المعادن الثمينة، وكانت الخيل من أرقى أنواع الخيل، فقد كان الحوريون من أفضل مربى الخيول في العالم القديم في العصر البرونزي المتأخر،

كان الكرم والسخاء من الجوانب التي تمثل أهمية قصوى في تبادل الهدايا بين القصور الملكية، كانت الهدايا السخية لملك تضيف كثيرًا لهيبة

المانح، وكانت تظهر مدى الثراء والرخاء والانتعاش الذى تنعم به مملكته، كما كانت تظهر تنوع وكثرة المسادر المادية المتوفرة تحت أمره، كما كانت مقياساً لمدى حبه لأخيه الملك، فكلما عظم العطاء، كلما دل على حب أعظم، كانت تلك النظرية على الأقل هي التي تحدد العلاقات، فقد كتب أشور -- أوباليت ملك الأشوريين إلى أخناتون قائلاً:

«ابعث إلى بذهب كثير»(4).

كذلك أشار بورنابورياش الثاني ملك بابل إلى كميات الذهب الهائلة التي أرسلها أمونحتيب الثالث أبو أخناتون إلى كوريجالزو الذي سبق سلفه على العرش(5)، تلك الهدايا كانت برهانًا واضحًا للملوك الآخرين على الصداقة، والإخوة والسلام الذي يجمع ويربط بين حكام بابل ومصر.

كان حجم وغزارة الهدايا الذي ذكرناه يتجاوز كثيراً الحجم والكم الذي يتوقعه المتلقى في الأحوال العادية، وكان ذلك يحدث عادة في المناسبات الخاصة، وكانت الأعراس من المناسبات الهامة التي يتم فيها نبادل الهدايا بسخا، شديد، على هيئة تقدمات للعروش وبائنة ودوطة من أهل العروس أرسل توشراتا عدداً كبيراً من العبيد والرقيق (270 فتاة و المنابا) إلى آمونحتيب الثالث كجزء من هدية العرس، وعشرة أطقم من الخيول، وعشر عربات مجهزة تجهيزاً كاملاً، وكان الملوك الأجانب يذكرون أيضاً من المناسبات الملائمة لإرسال الهدايا، وكان الملوك الأجانب يذكرون بذلك في الرسائل الواردة إليهم، وكما لاحظنا في الفيصل السابق، لم يتوان حاتوسيلي عن الشكوى لنظيره الأشوري عدد -- نيراري، حين لم يرسل إليه هدايا ارتقائه للعرش الحثيني.

أما فى مناسبات تبادل الرسائل والمبعوثين فى الأحوال العادية، كانت الهدايا تقل كثيرًا عما سبق ذكره، فقد أرسل بورنابورياش ملك بابل إلى أخناتون هدية عبارة عن عشر قطع من العقيق الخام غير المشكل، وإلى الملكة عشرين نموذجًا لصرار الليل صيغت من العقيق. أما أمونحتيب

الثالث، فقد أرسل إلى كاداتشمان – إنليل ملك بابل أثاثًا لقصره الجديد عبارة عن سرير من خشب الأبنوس مطعم بالذهب والعاج وعشرة مقاعد من الأبنوس مكفتة بالذهب.

وتلقى رمسيس جياداً من البلاط الحثينى، وكاساً مطعمة بالأحجار الكريمة، وكاساً مماثلة منقوشة بالأسلوب البابلى ومطعمة باشكال من الله الحثينى تمثالاً من الله بزن 33,5 شاقلاً، وأرسل رمسيس لحاتوسيلى غوريلا. كان العبيد أيضًا يرسلون كهدايا بين البلاطين الحثينى والمصرى. كان المبعوثون المزائرون يتلقون هم أيضًا هدايا من الذهب والفضمة والزيوت من مضيفهم، وأحياناً (لاوى المراتب العليا) كانت الهدايا التي يتلقونها لا تقل كثيرًا عن تلك الهدايا المرسلة إلى ملوكهم(6).

كانت الهدايا تتبادل أيضًا بين أعضاء أسر كبار الملوك. كان المبعوثون يحضرون بطريقة روتينية الهدايا من بلاط ملوكهم، لا للملك فقط، بل أهيانًا لكل أفراد أسرته ولكبان رجال الدولة، فعن طريق رسول زوجة رمسيس الملكة نفرتارى (نابيترا) وكان اسمه باريحناوا أرسلت إلى الملكة المثينية بودوحيبا عقدًا من اثنتى عشرة خرزة نهبية يزن 88 شاقلاً، وثربًا من الكتان المصبوغ، كما أرسل الأمير المصرى سوتاحبساب إلى حاتوسيلي كأسًا من الذهب الخالص منقوش عليه ثور بقرون من صخر أبيض وعيون سوداء، وبلغ وزن ما به من ذهب 93 شاقلاً، مع أربعة ثياب من الكتان الرقيق(7)، كانت تصحب تلك الهدايا رسائل تجمل تحيات مرسلها وتمنياته الطيبة المرسلة إليه، كذلك نجد أن نفرتارى طمأتت مودوحيبا أنها هي وبلادها بكل خير، وتمنت أن تكون بودوحيبا وبلادها بكل خير أيضًا، وشكرت بودوحيبا لاستقسارها عن أحوالها المنحية، وسجلت أن بودوحيبا قد كتبت إليها عن السلام المستتب بودوطيها وبلادها وعن العلاقة الطيبة التي تربط بين زوجيهما (8).

كان ذلك النوع من الرسائل شكلاً من أشكال الصيغ الرسمية، يكتبها

الناسخون عن نماذج ثابتة معدة لذلك، دون أي جانب شخصي من المرسل، باستثناء تحديد الهدايا المرسلة مع الرسالة، ووصفها وعددها، وبالرغم من أنها كانت ترسل بصغة شخصية، كان الهدف الأول منها ذكر ووصف الهدايا المرسلة، والذكر الدقيق لاسم مرسلها، وكذلك اسم المرسلة إليه تلك الهدايا (9). وسنشرح فيما يلى أهمية كتابة وتسجيل الهدايا وأسماء المرسل والمرسل إليه.

شكاوس متلقس الهدايا

كما لاحظنا، كانت الهدايا تعد تعبيراً حميماً لمرسلها، يعرب عن طريقها عن حبه وتقديره للمرسلة إليه، وكان تسليم الهدايا يساعد على خلق جو إيجابى المناقشات التي سبتلي تسليمها بين المبعوث القادم بالهدايا والملك المرسلة إليه، بافتراض أن الهدايا كانت عند حسن ظن متلقيها. في هذا الصدد، لم تكن المشاعر المصاحبة مشاعر هبة تمنح بلا مقابل وإحساس بالامتنان التلقى. على العكس، كانت الهدايا – في أغلب الأحوال – سبباً كبيراً للإحساس بعدم الرضى، ومصدراً للشكوى.

وهناك رسائل من متلقى الهدايا تعبر عن خيبة أملهم واحتجاجهم على شح ويخل مرسل الهدايا، وأحيانًا ما كانت تعقد المقارنات بين الهدايا التى تلقوها وتلك التى أرسلها المرسل إلى غيرهم من ملوك أو أسلافهم، وقد عرضنا قبل ذلك شكوى أشور أوباليت لفرعون مصر التى قال فيها:

«يلتقط أى أمرى» الذهب فى بلدكم كما يلتقط التراب، لماذا تشع فى وهبه عين كتب سلفى أشور – ناديين – أحى إلى مصدر، أرسلتم إليه عشرين جعلاً من الذهب، (10).

«ولم يقم أخى الملك بإرسال التحاثيل الذهبية التي كان والدكم سيرسلها، وبدلاً منها أرسلت إلى تعاثيلاً خشبية مطلبة بالذهب، (11).

كان توشراتا هو الآخر قد أرسل احتجاجًا مريرًا إلى أبي أخناتون، أمونحتيب الثالث، بعد ما ثلقى منه ما كان يفترض أن يكون كمية كبيرة

من الذهب النقى، وحضر كبار الضيوف فض أختام الهدية، فقد كانت المحتويات ستظهر – بما لا يدع مجالاً لشك – مكانة الملك الميتانى بين كبار الملوك وتقديرهم له وحبهم، ثم حين رُصنت كل الهدايا واللفائف، تم فتحها وفض أختامها وأخرجت الهدايا، وأطبق الصمت على الجميع من الصدمة، فبدلاً من أن تذهل الحضور المجتمعين لنفاستها، لم تكن للقضبان المعدنية من أثر إلا الدهشة والصمت، ثم بدأ التهامس: «هل هذه فعلاً من ذهب؟ بكل تأكيد ليست من ذهب». كان لون المعدن الرصاصى يشى بوضوح لكل الحضور أنها مغشوشة بمعدن غير ثمين، وكان المشهد كفيلاً بدفع الدموع إلى التجمع في عيون الحاضرين، لذلك عبر توشراتا عن ضبقه قائلاً:

«الذهب في مصر أكثر من التراب»

. وظل الضيوف يذكرون بعضهم بتلك المناسبة وبذلك القول، وجعل ذلك من المهانة أشد وطأة وقسوة، كان الفرعون يدعى أنه يحب أخاه الملك الميتانى حبًا جمًا، ولكن كيف له أن يحب أحدًا بهذا القدر ويرسل إليه مثل تلك الهدية، خاصة إذا كان الذهب في مصر كما يعلم الجميع ملقى في كل مكان، ينتظر فقط من يعد يده ليلتقطه (12).

وعانى بورنا بورياش ملك بابل من خيبة الأمل ذاتها عند تلقيه هدية من أخناتون، كان يفترض أنها من ذهب خالص. ومرة أخرى فضح اللون الرصياصي للمعدن مكوناته المخلوطة، وحتى يتأكد بورنا بورياش من ظنونه صهر الهدية، وصدمته النتيجة، وذكر في رسالة منه:

«أربعون وزنة من الذهب أهديت إلى، ولكن أقسم أننى بعد ما صهرتها لم استخلص منها إلا عشر وزنات»(13).

ولا يمكن الاقتناع أن الفراعنة كانوا يعمدون إلى إهانة رفاقهم من كبار الملوك بإرسال ذهب مغشوش إليهم؛ لأن ذلك سينعكس بأثار سيئة عليهم وعلى متلقى تلك الهدايا، ويبدو في الصالتين السابقتين أن المختلسين كانوا وراء ما حدث، ولم يشك بورنابورياش في ذلك، ولذلك

نصبح الفرعون في رسالة قائلاً:

«لا ينتدب أخى أحدًا لإرسال الذهب الذى سيرسله إلى، يجب أن يفحصه أخى بنفسه، ويشرف على تغليفه ثم يرسله إلى، من المؤكد أن أخى لم يقم بقحص الشحنة السابقة من الذهب التي أرسلها، ترك أخى ذلك لشخص آخر يقلفها ويرسله (14).

ومما لا شك فيه أنه كان من الصعب على كثير من رجال الملوك ورسلهم أن يقاوموا إغراء سرقة أو اختلاس الهدايا الملكية، كلما وانتهم الفرصة، حتى لو قام الملك ذاته بفحص الهدايا والإشراف على تغليفها قبل إرسالها، كما نصحه بورنابورياش، فإن ذلك أيضًا لم يكن ضمانًا كافيًا أنها ستصل للمهدى إليه سليمة كما هي، ومما لا شك فيه أنه كان هناك خبراء في إعادة تغليف اللفائف كما كانت، بعد فضها والعبث بمحتوياتها، واختلاس وسرقة ما يمكن سرقته، فلا يتركون أثرًا يدل على عبثهم بالمحتويات، لذلك نكتشف أهمية كتابة قائمة مفصلة بالأصناف المسلة إلى أي بلاط ملكي، بما فيها الوزن الافرادي لكل قطعة، والوزن الإجمالي لها جميعًا، خاصة إذا كانت تلك الأصناف من المعادن النفيسة، الإجمالي لها جميعًا، خاصة إذا كانت تلك الأصناف من المعادن النفيسة، خلى يمكن مراجعتها والتأكد من وصولها، وكان الوصف الدقيق يذكر بعد ذلك.

وأدى اختلاس الهدايا وسرقتها إلى نشوب نزاع بين آمونحتيب وملك بابل كاداشمان – إنليل. كان كاداشمان – إنليل يشتكى أن مبعوثيه إلى الفرعون قد عادوا خالبي الوفاض، دون هدايا من الفرعون لأخيه الملك، ورد آمونحتيب قائلاً:

وليس صحيحًا ما تقول، هل حدث قبل ذلك لمرة واحدة أن أتي رسلك إلى بون أن يتلقوا الفضة والذهب والزيوت والاردية الرقيقة بكميات لا تظير لها في أي بك آخر؟ رسلك لا تذكر لك الحقيقة، أفواههم نطقت بالكنب قبل ذلك لأبيك والآن لك».

ثم أضاف بفظاظة:

«سواء أعطيتهم أي شيء أو لم أعطهم، سيظلون بيلغونك أكانيب، لذلك قررت ألا أعطيهم شيئًا بعد ذلك» (15).

كان ذلك الخداع من رجال كاداشمان – إنليل بمثابة سبب آخر يبرر أهمية إرسال قائمة مفصلة بالأصناف المرسلة، وكانت فاعلية وكفاءة تلك الوسيلة تعتمد على ثقة الواهب فيمن يعدون ويسجلون القائمة وعلى الرسول المسئول عن نقل الهدايا وتسليمها، وكانت القوائم أيضًا عرضة للتلاعب، كما يحدث للأصناف ذاتها.

أخلاقيات تبادل المدايا

في كل الأحوال، كان مصطلع «هدية» في المراسلات الملكية مصطلع غير دقيق المداول. واذلك، كان الفعل كله أقرب ما يكون إلى شكل راق من التبادل التجارى بين الملوك، إلا أنه لم يكن من اللائق أن يشير إليه أي ملك بتلك الصفة، وبالفعل لم يكن يليق بملك أن يمارس أعمال التجارة ملك بتلك الصفة، وبالفعل لم يكن يليق بملك أن يمارس أعمال التجارة قاصرة والأنشطة التجارية، خاصة مع أنداده من الملوك، وكانت التجارة قاصرة على الطبقات الأدنى الفانية، كانت هناك وسيلتان ساميتان أمام أي ملك، ليحظى بالأصناف والبضائع الشمينة: إما عن طريق تلقيها كهدايا أو جزية، أو عن طريق اغتنامها ونهبها بالوسائل العسكرية، وكانت الوسيلة الأولى بالفعل لا تزيد عن كونها شكلاً من أشكال التجارة المستترة، تحت شكل تبادل الهدايا – هدايا توهب وتتلقى كبرهان على الحب والمودة شكل تبادل الهدايا – هدايا توهب وتتلقى كبرهان على الحب والمودة الشكل يتفق ويتوافق مع صورة «الإخوة» بين الملوك، فالإخوة لا يتاجرون على بعضهم، فالتجارة تعنى الحصول على مكاسب من شخص آخر، أما الأخوة، فيمكنهم تبادل الهدايا ذات القيم المتساوية (16).

وكان لمفهوم تبادل الهدايا بعد أخر أيضًا. ففي كل المسروعات التجارية المعتادة بين البشر يقوم التاجر بالاتجار بأصناف نادرة أو غير موجودة أو ناقصة في بلده، ولكن كبار الملوك كانوا يحبون الظهور بصورة

من لا يعوزهم ولا ينقصهم أي شيء، ويؤكد على أن مملكته لديها كل ما تحتاجه، وغنية بكل المسادر، وفي تلك الصالة يدعى أن الهدايا التي يتلقاها لم تكن من الضرورات، إلا أنه يرحب بالهدايا التي ترسل إليه، كبرهان فقط على العلاقات الدافئة التي تربط بينه وبين المرسل، لذلك كتب بورنابورياش رسالة لأخناتون يقول فيها:

«عرفت أن بلد أخى يتوفر بها كل شىء وأن أخى لا يحتاج إلى أى شىء، كذلك يتوفر كل شىء فى بلدى وأنا أيضًا لا أحتاج أى شىء، وأكن بما أننا ورثنا عن أسلافنا علاقات حميمة تربط بيننا، فلنرسل التحيات (الهدايا) لبعضناء (17).

ولو وضعنا مصطلح هدايا التحية كبدبل دبلوماسى راق لكامة تجارة على مستوى عال، خاصة في الأصناف النفيسة المترفة، سنتفهم بسهولة سبب الفظاظة الواضعة التي يبديها متلقى الهدايا، إذا اعتقد أنه تلقى أقل مما كان يتوقع، كان أغلب ذلك التبادل يعتمد على نظام من التكافؤ السلعى بين ما وهب وما تلقى، وهو سبب أخر هام ورجيه، يفسر أهمية وضرورة تسجيل قرائم بكميات وأصناف الهدايا.

ويفسر ذلك أيضا الطلبات الكثيرة التي كان الفرعون يتلقاها من إخوته الملوك الأجانب، فملك الاسيا التي كانت تقع في جزيرة قبرص بعث إلى آخناتون(18) قائمة بالهدايا المطلوبة تحتوى على كميات كبيرة من أنقى أنواع الفيضة، وثور، ووعائين للزيت الحلو، وخبير في تدريب النسور(19)، إلا أن الطلب الشائع من الفرعون كان كميات كبيرة من الفدع.

وكتب بورنابورياش باحتقار عن وزنتين تافهتين من الذهب أرسلهما إليه أخناتون، وكانت تلك الكمية الضئيلة لا تفى بأى جانب من احتياجات المعبد الذي كان يشيده، وقال له:

> «ابعث إلى من الذهب كميات يقدر ما بعثه كل أجدادك. أما إذا كان الذهب قد شح، فابعث نصف الكمية (20).

أما تو شراتا فقد طلب من آمونحتيب أن يعامله بأفضل مما كان يعامل أباه بعشرة أضعاف، وأن يظهر له مزيدًا من الحب، وبعبارة أخرى، أن يرسل إليه كميات كبيرة من الذهب، وكان يعد في تلك الحالة كجزء من مهر العروس، ابنته تادوحيبا، وجزء لبناء مقبرة(21)، مباشرة بعد العرس، وطلب منه تو شراتا أيضًا أن يرسل إليه تمثالاً من الذهب على هيئة ابنته العروس التي كانت قد أصبحت زوجة الفرعون(22)، وتمنى بحرارة أن لا يكسر بضاطره ويرفض طلبه هو أضوه وابنة بالمساهرة في أن، وربما كانت افتة عاطفية من الملك الميتاني الذي شعر بوحشة محزنة لابنته الحبيبة وأراد تذكاراً ملموساً يذكره بها.

أو أنه كان يبتكر أفكارًا خالاقة، لدفع أخيه الملك لزيادة الذهب الذي يرسله إلى بابل.

ويثير كل ذلك موضوعًا ذا دلائة، كان «إخوة» الفرعون من الملوك الأجانب، يحرصون على تجنب إثارة أى انطباع بأن طلبهم الذهب لا يدفعهم إليه رغبتهم لتخزين المواد الثمينة اذاتها، بل على عكس ذلك، إنما كانوا يطلبونه (أى الذهب) لأغراض محددة، كان من المقبول تمامًا والمفهوم أن أيًا من كبار الملوك كان يستخدم الذهب في بناء معبد أو مقبرة، أو لصنع تمثال، في حين لم يكن من المقبول له اختزانه، أو الأسوأ من ذلك، استعماله كشكل من أشكال النقد، كان ذلك يشين المارسة النبيلة لتبادل الهدايا ويهبط بها إلى مصاف الباعة الجائلين(23).

ويحتمل أن الملك البابلي كاداشمان إنليل الأول اشترط عند إرسال إحدى بناته، لتصبح زوجة للفرعون أن يرسل إليه الذهب الذي طلبه منه، إلا أنه كان يطلب ذلك الذهب لمشروع إنشائي، وأكد على الفرعون أنه لا يطلب الذهب لذاته، وأنه إذا أزف الموعد النهائي، الذي كان مقررًا الانتهاء فيه من التشييد والبناء، لن يكون بحاجة إلى ذلك الذهب:

دإذا أتممت العمل الذي أشيده، ما حاجتي إلى الذهب ابعث إلى 3000 وزنة ذهب (90 طنًا) ولن أقبلها. سأعيده إليك إن أرسلته، وإن أعطيك ابنتي زيجة (24).

ويجب أن نذكر أيضًا أن قوائم طلبات الهدايا التي كان كبار الملوك يطلبونها من أندادهم كانوا يختمونها بعروض كريمة مفتوحة، فقد ختم بورنابورياش قائمة طلباته من أخناتون قائلاً:

«ما على أخى إلا الكتابة إلى مهما كان ما يريده، وسوف أبعث إليك به من بيتي (25).

كذلك أيضا وعد ملك آلاسيا أن يبعث إلى الفرعون أي شيء يريده، وخاصة كميات من النحاس بقدر ما يريد ويشتهي، كذلك طلب توشراتا كميات كبيرة من ذهب مصر كان يقابله مجموعات كبيرة من هدايا العرس التي أرسلها إلى مصر بصحبة ابنته العروس.

إلا أنه لا يوجد أى شك فى أن الإخوة اللوك من غير المصريين قد بالفوا فى تقدير كميات الذهب الموجودة بمصر، حتى بعد الاستنزاف المكتف لمناجم الذهب فى النوبة فى عهد رمسيس الثانى، كان ملوك الشمال يطلبون الذهب بمنطق تواجده بكميات غير محدودة:

«يمكن لأى امرى في بلدكم أن يلتقط الذهب كما يلتقط التراب، وكانوا يغرمون بذكر ذلك، وبعبدًا عن توقعاتهم غير الواقعية، هناك عوامل أخرى لا بد أن تؤخذ في الاعتبار، فبينما كان من دواعي الشرف تلبية طلب أخ ملكي، كان ذلك يعد سابقة تقاس عليها الطلبات التالية من الملك ذاته أو ممن يخلف، وكان الجميع يتوقعون نفس الكرم السابق، إن لم يزد عنه، وكان البعوث يناقش مع مضيفه قوائم طلباته بلباقة، لدفعه إلى الاعتدال وعدم الشطط والمغالاة.

وهناك وجه آخر لنظام تبادل الهدايا، وهو وجه لا يجب المغالاة في تقديره، وهو يتعلق بمكانة كبار الملوك واعتبارهم الشخصى، على المستوى الدولى وبين رعاياهم، لقد لاحظنا اندفاع متلقى الهدايا للشكوى، إذا رأى أن الهدايا المرسلة إليه أقل من الهدايا التي كانت ترسل لسلفه، أو التي ترسل إلى ملك أخر معاصر له، ولم يكن ذلك يعود إلى مجرد طمم أو

مشاعر غيرة، كان إرسال هدية تافهة من ملك إلى ملك آخر تعد من أعمال التحقير والإهانة والحط من شأنه، وكان ذلك يقلل من شأنه وهيبته في عيون كبار الملوك الآخرين، كما يقلل من هيبته في عيون رعيته والملوك الخاضعين لنفوذه. وتم دراسة مثل تلك المواقف دراسة مفصلة وسجلت حالات كثيرة منها(26). لقد لاحظنا أن وصول مبعوثين بهدايا من ملك أجنبي كان يعد في أغلب الأحوال مناسبة هامة وعامة في القصور، يدعي لحضورها أهم الشخصيات والممثلين الأجانب لبلادهم، وتفض أختام اللفائف وصناديق الهدايا في حضورهم وتعرض أمامهم. لذلك يمكنا أن تنفهم الحرج الشديد والإحساس بالمهانة الذي شعر به توشراتا، حين وجد أن الهدية ليست إلا ذهبًا مغشوشًا لا يضفي أمره على كبار الشخصيات الحاضرة، وكان تلقى مثل تلك الهدايا التافهة يشكل إهانة وتحقيرًا شديدًا لمتقبها.

ومرة أخرى، لا بد أن نؤكد على العلاقة المباشرة بين إهداء الهدايا ومكانة الشخص، كما تبدو في نظر مانح الهدية، كان يشار إلى الهدايا في الرسائل بصفتها تعبيرًا حميمًا عن علاقة قوية تربط بين ملكين. كما كانت في حقيقة الأمر تعبيرًا سياسيًا قويًا، وفي عالم مبنى على التحالفات الاستراتيجية بين الأقوياء، كان من الضروري أن يظهر أخوك الملك على وفاق معه، بشرط التكافؤ التام وعلى قدم المساواة، وأن يتعامل معك بقدر الاحترام نفسه الذي يظهره لكبار الملوك الأخرين المتحالف معهم.

وكان منع الهدايا من أهم المقاييس التي تظهر قدر ملك ما بين أقرانه من كبار الملوك. لقد كان المغزى السياسي ذاته، لا قيمة الهدايا، ما جعل حاتو سيلي يغضب من إهمال عدد – نيراري الآشوري إرسال هدايا له بعد ارتقائه العرش الحثيني، وهو ما سبب للملك الحثيني انزعاجًا شديدًا.

وكانت أحيانًا ما تساق الأعذار للتأخر في إرسال هدايا، فبعد ما عرض ملك ألاسيا على فرعون مصر أن يطلب أي كميات يريدها من النحاس، تلى ذلك بإخباره ألا يتضايق إذا استغرق وصول النحاس بعض النحاس بعض الوقت، فقد كان الطاعرن منتشراً بين سكان آلاسيا، وقال في رسالته:

«لقد وضع الإله نيرجال يده على بلادى، وقضي على كل الرجال ولم يترك عامل نحاس واحد»(27).

كما كانت أحوال الطقس السيئة تعوق إرسال كميات كبيرة من الهدايا، كما ذكر بورنا بورياش لأخناتون في إحدى رسائله:

«لقد علمت أن السفر أصبح متعثرًا، الطقس حار ومصادر المياه شحت في الطريق، لذلك لم أرسل إليك في الوقت الحالي عددًا كبيرًا من هدايا التحية الشمينة، مجرد أربع وزنات من العقيق النقي وضمس مجموعات من الجياد، بمجرد أن يتحسن الطقس، سأبعث مع رسولي هدايا ثمينة كثيرة إلى أخي،(28).

كان عدد — نيرارى قد أرسل رسالة إلى حاتو سيلى يطلب منه إرسال هدية من الحديد، وكان شديد الندرة في تلك الأيام قبل التوصل إلى طرق استخلاصه، فكان يعد من المعادن الثمينة، لذلك كانت المشغولات القليلة التي صنعت من الحديد تصنع من الكتل الطبيعية من الحديد التي يعثر عليها، أي الحديد النيزكي، وكان الحثينيون — على وجه الخصوص — قد توصلوا إلى طريقة بدائية لصهر ذلك الحديد النيزكي واستخلاصه وتشكيله، إلا أنه كان من الناحية العملية أرداً كثيراً من خليط سبائك البرونز، إلا أنه لندرته كان يلقى تقديراً عالياً، وكان يستخدم في صناعة ألواح الكتابة، والمجوهرات والأسلحة التذكارية، وكانت الأسلحة التذكارية ترسل كهدايا ملكية (29).

وكان من بين الهدايا المرسلة من توشراتا - بصحبة ابنته عروس فرعون مصر - زوج من الأساور الحديدية المطلية بالذهب، كذلك هراوة مسئنة، ونصل خنجر من الحديد المطلي بالذهب، إلا أن الهدايا المصنوعة من الحديد كانت تقل كثيراً في العدد عن الهدايا الأخرى المصنوعة من المعادن الثمينة الأخرى، ويبدو أن عدد - نيراري كان لديه تقدير مبالغ فيه

عن قدرة الحثينيين على إنتاج الحديد، لذلك رد عليه حاتوسيلي ليخبره أن طلبه الحالى لا يمكن تحقيقه، لذلك أرسل إليه هدية أخرى تعبيرًا عن الود، مع وعد بهدايا أخرى في الوقت الملائم، قال في رسالته:

«بالنسبة للحديد النقى الذى أرسلت فى طلبه منى، فإن العديد النقى لا يوجد فى خزائن فى مدينتى كيزوادنا، وكتبت إليك أن الوقت غير ملائم لمناعة الحديد، سوف يصنعون حديد نقى، واكنهم لم ينتهوا من صنعه بعد، عندما ينتهون من صنعه، سأبعث به إليك، أما حاليًا، فأنا أرسل إليك نصل خنجر من العديد، (30).

مخاطر نقل المدايا

كان جمع الهدايا أحد الجوانب، أما إرسالها إلى الوجهة المرسلة إليها، فقد كان أمراً آخر، كانت أحوال الطقس تشكل واحدة من مخاطر النقل، كما ذكر بورنابورياش، خاصة للقوافل، فقد كانت أبطأ في الانتقال، وكانت العصابات تشكل تهديدًا مستمرًا، وكانت معرفة أن قافلة ما ترتحل في خدمة الملك لا يعطيها استثناء ولا حماية من هجمات العصابات، بغض النظر عما يعتقده الملك عن ضبطه للأمن في الأراضي الخاضعة لسلطته، كان الانتقال عبرها يعد دائمًا نوعًا من أنواع المخاطرة، خاصة تلك القوافل التي تنقل أصنافًا ذات قيمة ثمينة، لم تكن القوافل الملكية تأمن حتى مخاطر المرور عبر أراضي الملك الصديق الذاهبة إليه، لقد كتب بورنا بورياش إلى أخناتون متشكيًا أن القوافل من بابل والمتجهة بهدايا إلى فرعون مصر تعرضت مرتين السرقة من موظفي الفرعون أنفسهم(31). كما اشتكى عزيرو – أحد الملوك المشاغبين الخاضعين للنفوذ المصرى حموظف مصرى يدعى حتيب(32).

أما التجار العاديون الذين كانوا ينتقلون في رحلاتهم التجارية عبر منطقة سوري، فقد كانوا في أغلب الأحوال يقعون ضحايا للعصابات، فيسرقونهم وأحيانًا يسرقونهم ويقتلونهم، وكتب بورنا بورياش مرة أخرى إلى أخناتون متشكيًا من أن التجار البابليين قد هوجموا وسرقوا وقتلوا في منطقة كنعان الخاضعة لنفوذ الفرعون، وطلب منه في رسالته أن:

«يحيل الجناة إلى العدالة، ويعوض التجار عن الأموال التي سرقت، وإعدام الجناة اقتلهم تجارنا، قم بقصاص الدم»(33).

إلا أن القصاص لم يكن المطلب الوحيد في تلك الرسالة:

«إذا لم تعدم الجناة، سيقتلون تجارًا اَخرين، سواء كانت قائلة لنا أو من مبعوثيك، وسيترتب على ذلك انقطاع الرسل بينناء(34).

وكانت الفقرة الأخيرة تحريضًا مباشرًا لمساسه بمصالح الفرعون، حتى الشحنات الصغيرة من الهدايا كانت بحاجة إلى قرة عسكرية مرافقة ذات حجم كاف لدرء خطر العصابات، كانت بعثة واحدة على سبيل المثال من لدن أخناتون إلى بابل تحتاج إلى قرة عسكرية من المشاة والعجلات الحربية نظل مرتبطة بها لأشهر عديدة، كانت البضائع تنقل على اليابسة على الحمير، وأحيانًا على السفن البحرية في جزء من الطريق(35)، كانت على النقل تزداد خطورة إذا كانت الهدايا تشمل عبيدًا أن حيوانات حية، وكانت هبة العروس الحثينية المرسلة كزوجة لرمسيس الثانى تشمل الخيل، والخراف وللاعز والماشية وعددًا من العبيد، أسرى حروب الحثينيين من شعب القوقاز شمال الأناضول، وكانت ترتيبات نقل العروس والهدايا والموكب بأجمعه موضع مناقشات عبر رسائل عديدة، تبودلت بين رمسيس وبودوحيبا، وسوف نعرض تلك الرسائل في الفصل التالى، مع عرض المتحضيرات الكثيرة السابقة على الزواج والتي أثمرت عن ترسيخ عرض العلاقات بين البيتين الملكيين، الحثيني والمصرى.

6

فى طريق عودة الأمير الحثيني حاتوسيلى، والذى أصبح بعد ذلك الملك حاتوسيلى الثالث من قيادة الجيش فى سوريا مر بعدينة لوازنتيًا، مركز المبادة والكهانة الشهير فى منطقة كيزُوادنا، وهناك التقى بزوجة المستقبل بودوحيها، ابنة الكاهن الحورانى بنتى بشارى.

وفى منامه رأى حاتوسيلى الربة عشتار وأعلمته أنه سيتزوج من بودوحيبا، وكان يقول عن ذلك: «وهبتنا الربة حب الزوج والزوجة»، وكان يتعدث عن زواجه بصفته زواجًا صنعته السماوات العلى، أما فى الحقيقة، فيبدو أن حاتوسيلى قد صرعته مفاتن بودوحيبا من أول لحظة وقعت عيناه عليها، بمساعدة الربة أو دون مساعدتها، إلا أن الحب كسبب أول الزواج كان نادرًا، إن لم يكن فريدًا في عالم ملوك الشرق الأدنى القديم.

ترتيب وتنظيم الزيجات الملكية

في مجتمع عواهل الحكم عبر التاريخ بأجمعه، وكذلك في العصر البرونزي المتأخر، كان الزواج من أهم الوسائل في تقوية التحالفات السياسية والعسكرية بين حليفين، كانت الأميرات من أهم الأدوات الدبلوماسية لتحقيق هذا الغرض.

كان أي ملك عظيم رزق بكثير من البنات يصبح تحت يده ورهن تصرفه بناته الأميرات، واللائي يمكن اختيار عرائس من بينهن لإرسالهن إلى فراش الأزواج من إخوته الملوك، وساهمت الخليلات والمحظيات في إنجاب الكثير من الأميرات للملوك، كان «الحريم» من زوجات الصف الشاني والخليلات والمحظيات من الجوانب المآلوفة في كل مملكة، كحالة رمزية أو ترفيهية فعلية لضمان متعة جلالته. وتذكر الملكة بودوحييا أن

البلاط الحثينى كان يموج بالأمراء والأميرات، فى مختلف المراحل العمرية، حين دخلت ذلك البلاط لأول مرة كزوجة، وكان بإمكان جلالته أن يختار من بين كل الأميرات من بناته الأميرة ذات السن الملائم، لتصبيح زوجة لأحد الإضوة الملوك إذا طلب منه إحدى بناته الزواج، فى أغلب الصالات تكون الأميرة المفضلة من بين أرفع الأميرات، أى من بنات الزوجة المفضلة، وكان يحتفظ بهن الزيجات الهامة، أى الزواج من أهم حلفائه. إلا أن الصفات الشخصية للمرشحة كانت أيضنًا من العناصر الهامة فى الانتقاء، بالإضافة إلى أية مواهب وكفاءات أخرى قد تتوفر فيها، فالأميرة المرشحة الزواج من أحد كبار الملوك كان لا بد لها أن تكون ذات جمال المرشحة الذواج

ومن غير المعروف إن كان لمبعوث العريس الحق في الفحص المبكر العروس أم لا، فالذي اختارها أبوها، حتى يتأكد المبعوث ملائمتها لملكهم. ولكن من المفترض أنه كانت لدى الزوج المرشح وسائله للتأكد من أنه ان يتزوج بعروس دميمة، وبالطبع، لم يكن من صالح أحد كبار الملوك أن يرسل ابنته الزواج من ملك عظيم آخر، انتعسه ولا تحظى بإعجابه. في كل الأحوال كانت توجد فرصة واحدة على الأقل افحص العروس قبل أن تنتهى، وتكتمل تحضيرات الزواج، كان مبعوث يرسل من لدن زوج المستقبل لرؤية العروس وتكريس الموافقة عليها، ولم يكن ذلك إلا جانبًا من الرسميات، بالرغم من أنها كانت فرصة المبعوث التأكد من أن العروس في حالة جيدة وأنها تصلح لما هو منتظر منها.

ولا نعرف عن حالات فشل فيها إتمام الزواج بسبب مشاكل اللحظة الأخيرة، بل على العكس، كان مبعوث العريس يعرب عن إعجابه بالعروس المختارة، كما فعل مين مبعوث آمونحتيب الثالث بعد ما رأى ابنة توشراتا، وقال أبوها في رسالة لأمونحتيب:

«أريت مين العروس المطلوبة الأخي، ولما رآها، امتدحها كثيرًا»(1).
 كذلك أيضًا، حين طلب أم ونحتيب زواج تحالف من ابنة ملك ارزاوا

الملك تارحوندا رادؤ، رتب وسيلة لمعاينتها قبل الاتفاق النهائي:

«أترى القد أرسلت إليك إيرشابًا، مبعوثى، (بتعليمات): دعنا نعاين البنة التى سيقدمونها إلى ملكى الزواج، وسوف يسكب على رأسها زيت التمسيح»(2).

وما حدث فعالاً أن ذلك الزواج لم يتم، لا لقصور بالعروس عند معاينتها، بل للأحداث السياسية التي وقعت، واسترداد الحثينيين لكامل نفوذهم على كل منطقة الأناضول وفقدان الملك أرزاوا لنفوذه الذي كان قصير العمر في تلك المنطقة، لم يعد لأرزاوا الأهمية والنفوذ، حتى يحظى بميزة انضعامه لعضوية أصهار ملك مصر.

وهناك سمة هامة واضحة نلاحظها مما سبق.

كان طريق الزواج والمصاهرات مع ملوك مصر ذا اتجاه واحد.

كان فرعون مصر راغبًا على الدوام في استقبال زوجات أجنبيات نوات حسب رفيع. إلا أن أيًا من فراعنة مصر لم يوافق أبدًا على إرسال أميرات مصريات ليكن زوجات للوك أجانب، كان ذلك تقليدًا راسخًا لا استثناء له، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب قلة عدد بنات الفراعنة. فقد كانت هناك أعداد وفيرة منهن (وكن على درجات متباينة في الترتيب الوراثي حسب وضع أمهاتهن)، كما لم يكن السبب كما ظن الكثيرون من الباحثين يعود إلى احتمال موت تلك الأميرة خارج مصر، فلا يحظى جسمهانها بطقوس الدفن، طبقًا للمعتقدات المصرية الدينية، والتي تضمن لها الخلود في العالم الآخر، بل كان السبب يعود إلى كبرياء الفراعنة واعتدادهم بانفسهم، وفي المحافظة على صورة الفراعنة الراسخة كأهم وأعظم ملوك المنطقة(3).

وأن يرسل حاكم أجنبى إحدى بناته إلى البلاط المصرى - كعروس الفرعون دون أى احتمال أن يبعث الفرعون بأميرة مصرية بالمقابل - كان يعزز من وضع الفرعون وعلوه على كل الملوك، أو على الأقل كانت تلك هى المفاهيم المصرية، ويبدو أن الملوك الأجانب قد تفهموا ذلك وقبلوه، ومادام

حظر تصدير الأميرات للصريات كزوجات يسرى على كل الملوك الأجانب، مادامت المصالح السياسية والاستراتيجية والمادية واستمرار العلاقات الدبلوماسية مع مصر قد تأسست على المصاهرة من جانب واحد، والتي كان الفراعنة بصرون عليها.

غير أن الملك البابلي كاداشهان - إنليل حاول اختبار متانة وقوة ذلك المرف المصرى، وكتب إلى أمونحتيب الثالث يطلب منه ابنته كزوجة له. وأتت الإجابة حاسمة:

دلم يحدث من بداية الزمن أن أعطيت ابنة ملك مصرى كزوجة لأى ملك أجنبى».

وأصر كاداشمان - إنليل على طلبه في رسالة تالية: «أنت الملك، بإمكانك أن تفعل ما تشاء»

وظل فرعون مصر على صلابته، لذلك لجأ كاداشمان - إنليل إلى وسيلة أخرى، قال للفرعون إنه بإمكانه تلبية طلبه، وفى الوقت نفسه يظل محافظًا على ذلك التقليد المصرى الأصيل بأن يرسل إليه أميرة مصرية مزيقة، أي ليست من بنات الملك، وعرض ذلك قائلاً في رسالة:

«لا بد أن هناك في مصر من اديه بنات جميانت صالحات الزواج فلماذا لا ترسل لي أية فتاة جميلة على أنها إحدى بناتك؟ ومن الذي يجرق على القول: إنها ليست ابنة للملك؟»(4)

كان يقترح على فرعون مصر عملية تزييف صارخ،

وبالطبع، لم يكن ذلك السبب الرئيسى فى امتناع فراعنة مصدر عن إعطاء بناتهم كزوجات لملوك أجانب، كان كل الأمر يتعلق بصورة الفرعون، ووعى الشعوب بتلك الصورة، فإذا وافق على إرسال أميرة مزيفة على أنها ابنة حقيقية الفرعون، على عكس حقيقة الأمر، فإن ما سيعرف بين الناس هو أن الفرعون خرج على التقليد الراسخ، وقام بتقديم ما لم يقدم إلى أى ملك أخر. فلم يكن أى أجنبى مهما كانت مكانته يستحق شرف الحصول على أميرة مصرية. وإن حدث ذلك فإنه كان يعزز مكانة الملك الميتاني فى

أعين نظرائه من الملوك الأجانب، في الوقت الذي تنتقص فيه هيبة ومكانة فرعون مصر. ولا يوجد شك في أن الفرعون لم يول ذلك الاقتراح أدني اهتمام.

ويثير ذلك سؤالاً أخر. فإلى أي مدى كان أي ملك يرتبط بابنة ملك أَضْرَ عَلَى يَقِينَ مِنْ أَصِالَةَ الزَّوجِيَّةِ المُرسِلَةِ إِلَيِّهِ؟ فَالضِّدِعَةِ التَّي طَلَبِ كاداشمان ~ إنليل من فرغون مصر مشاركته فيها لم تكن نادرة الحدوث، كان إيفاد مبعوث لمعاينة العروس يساهم إلى حد بعيد في التأكد من أمنالتها، إلا أن مشاكل عدم اليقين كانت تظهر من أن لآخر، ففي بعض الأحيان كان يصعب على أبناء وطن الأميرة ذاتها ومواطنيها التعرف عليها، وأدى ذلك إلى زيادة توبّر مفاوضات الزواج بين كاداشمان – إنليل وأمونحوتيب الخاصة بزواج أمونحوتيب من أميرة بابلية، كان أمونحتيب قد طلب بد أميرة بابلية، ومثَّل ذلك الطلب مشكلة لكاداشيمان – إنليل، كانت شقيقته قد أرسلت فيما قبل إلى مصبر كزوجة لأمونحتيب – أثناء حكم أبيه – ولم يسمعوا أو يعرفوا عنها شيئًا من ذلك الحين، كان كاداشمان - إنليل يرسل مبعوثيه لزيارة شقيقته والاطمئنان عليها، إلا أن أيًا منهم لم يمكنه التأكد إن كانت مازالت حية أم ميتة. وليطمئنهم، أشار أموندتيب إلى امرأة بين زوجاته وقال للمبعوثين البابليين إن تلك هي الأميرة البابلية، إلا أن المبعوثين ظلوا على تشككهم، ولم يستطيعوا التأكد إن كانت هي فعالاً شقيقة ملكهم أم لا، وأبلغوا ملكهم بذلك، فأرسل كاداشمان - إنليل بشكواه إلى أخبه الملك، وكان جوهر الرسالة:

«كان أبي قد أرسل شقيقتي كعروس لكم واختفت، وأنت الآن تطلب ابنتي أيضا؟»

وكان أمونحتيب سريع الرد على ذلك الأمر، وقال:

«إن الرجال الذين أرسلتهم لا صفة لهم، بل إن أحدهم كان راعيًا الحمير والبغال، لا يوجد منهم من كان مقربًا من أبيك ليعرف أختك ويستطيع التعرف عليها، لماذا لم ترسل واحد من كبار رجالك وعظمائهم يعرف أختك، يحيث يمكنه التحدث معها والتعرف عليها؟ لو كنت قد قمت

بذلك لكنت عرفت المقيقة، وهي حية ويأحسن حال. ويمكن أن يزوروها بجناحها الذي تقيم فيه؛ ليتأكنوا أنها سعيدة بعلاقتها مع الملك، وأو كانت قد ماتت لماذا أخفى تلك المقيقة عنك؟(5)

ولا نعلم إن كانت مشكلة شقيقة الملك المفقودة بمصر قد ظهرت حقيقتها أم لا؟ ولكن حتى، بعيدًا عن تلك المشكلة، كانت العلاقة بين ملكى بابل ومصر غير بسيطة ويسودها الشد والجذب، والأقرب إلى الاحتمال أن شقيقة كاداشمان – إنليل كانت مازالت حية بالبلاط المصرى، إلا أنها أصبحت مهملة بين حريم الملك، ولو كان قد سمح لها أن تلتقى بمبعوثى أخيها كاداشمان إنليل، فمن المحتمل جدًا أنها لم تكن لتقدم لهم صورة وردية عن حياة أميرة أجنبية تنتهى أيامها المبهجة بمجرد انتهاء عزف موسيقى الزواج، وأصبحت بعد ذلك امرأة غير مميزة ضمن كثيرات أخريات، وفي مفاوضات زواج أمونحتيب بأميرة أخرى من البيت الملكى البابلي، وهي ابنة الملك، في المرة الثانية ربما اعتقد أمونحتيب أن من البابلية المائل للقاء زوجته البابلية المائل.

مثالب سوق الزواج الدولس

وكانت هناك مناسبات انقلبت فيها روابط الزواج، أو مشاريع الارتباط بالزواج بين البيوت الملكية إلى ماسى وكوارث، فابنة بورنابورياش الثانى، التي تزوجت من الملك الحثينى سبيللوليوما، أصبحت بعد الزواج أقوى وأخطر وأشد أسباب التمزق في كل العصر البرونزى المتأخر من بين كل الزوجات المجلوبات من خارج بلاد أزواجهن، كان سبيللوليوما قد هجر زوجته الحثينية، ليتزوج من الأميرة البابلية وأطلق عليها اسم تاوانانًا، واتخذها زوجة أولى شريكة في الملك، ومن خلال ما سجله ابن زوجها مورسيلي والذي أصبح ملكًا بعد ذلك، نعرف أنها سرعان ما أصبحت نات الملكة أثناء

حكم زوجها وبعده أيضا، كما أدخلت تقاليع وعادات غريبة على المجتمع، وتقرب وتدعم من ترضى عنهم، وتغتال أبناء زوجها من زوجاته الأخريات، حتى أمكن نزع كل سلطاتها وطردت إلى المنفى.

كما حدثت اضطرابات شديدة في بابل حين اعتلى أحد أبناء بورنابورياش ويدعى كارينداش العرش، وتزوج من أميرة أشورية ابنة للملك الآشوري آشور – أوباليت، ثم اعتلى ابنهما ويدعى كاراها رداش عرش بابل، إلا أن كاراهارداش تم اغتياله على أيدى القادة العسكريين البابليين؛ لرفضهم أن يكون ملكًا عليهم من تجرى في عروقه دماء نصف أشورية، وغضب أشور أوباليت؛ لاغتيال حقيده الذي أصبح ملكًا على بأبل، وهاجم بابل منتقمًا وأعدم الملك الذي انتزع عرش حقيده (ارجع للفصل الأول).

كذلك أيضا شن سبيللوليوما هجومًا انتقاميًا على الحدود المصرية، فقد كان أرسل ابنه زائائزا، للاقتران من أرملة توت عنخ أمون، إلا أنه مات في الطريق ميتة غامصة وفي ظروف مريبة، واعتبر سبيللوليوما أن المصريين هم المستولون عن موت ابنه (انظر الفصل 11).

كذلك أدى زواج الملك الحثينى تودحاليا الرابع من أميرة بابلية أخرى إلى اضطرابات وصراعات داخل القصر الحثيني، حين تشاجرت العروس مع حماتها الشهيرة شديدة المراس بودوحيبا، والتي قادت كل معارضي ذلك الزواج ضد كل مؤيديه (6).

أما على مستوى الملوك الخاضعين لهيمنة ونفوذ ملوك آخرين أقوى منهم، فنجد أن زواج أميشتامرو الثاني ملك أوجاريت الشاب من ابنة بنتشينا ملك عمورو قد انتهى بمأساة، وطلاق مدو، ويحتمل جدًا بإعدام العروس(7).

لذلك من المكن أن يسفر زواج التحالف بين بيتين ملكيين عن مشاكل خطيرة، وأحيانًا قبل أن يتم الزواج.. بل حتى كان السفر من بلد العروس إلى بلد العريس يتسم بمضاطر شديدة. وكانت الصراسة العسكرية

ضرورية في مثل تلك الحالات، وقد أثار بورنابورياش تلك المشكلة حين كان يعد ابنته لتكون زوجة لأخناتون(8)، وكان واضحًا أن تلك العروس كانت بديلاً لعروس أخرى مرشحة الزواج من أخناتون، إلا أنها ماتت، واشتكى بورنابورياش من ضعف قوة الحراسة وصغرها التي أرسلها أخناتون لحراسة عروسه القادمة إلى مصر، وقال في تلك الرسالة:

دحایا (المسئول المسری) ایس تحت إمرته إلا خمس عجلات هربیة، فهل بإمكانه مرافقتها إلى مصر بخمس عجلات فقط؟ هل یجب علی أن أدعها تفادر بیتی فی هذه الظروف؟»

مما لا شك فيه أن انزعاج بورنابورياش كان سببه حرصه على سلامة ابنته، إلا أنه كان منزعجًا أيضا من قلة التقدير التى سببدو عليها في نظر الملوك الآخرين، حين يعلمون أن فرعون مصبر قد أرسل تلك الحراسة البائسة لمصاحبتها، واشتكى قائلاً: في الرسالة نفسها:

«جيراني الملوك قد يقولون: لقد استخدموا خمس عجلات فقط لنقل ابئة ملك عظيم إلى مصرة (9)

وراح بونابورياش يذكّر الفرعون أن فى الجيل الذى سبقه أرسل أبوه أمونحوتيب الثالث قوة قوامها ٢٠٠٠ جندى مقاتل لمرافقة أميرة بابلية إلى مصر.

وأن تكون الفتاة ابنة ملك عظيم لم يكن امتيازًا عظيمًا تحسد عليه. كانت الأميرات في حقيقة الأمر لا يزدن عن كونهن جواري ولكن من طبقة عالية، وكن يعاملن أحيانًا كسلع زائدة لدى من يقترن بهن من ملوك أجانب، وكما لاحظنا، جعل الملك البابلي كاداشمان – إنليل موافقته على زواج ابنته لأمونحوتيب مشروطة بإرسال أمونحوتيب كميات الذهب التي طلبها لمشروعاته الإنشائية في بابل، وكانت مثل تلك الطلبات التي تبدو كمقايضة تثير الحنق الذي يدفع الطرف الثاني ليويخه توبيخًا مستحقًا، فقد رد أمونحوتيب على ذلك الشرط قائلاً(10):

«شيء لطيف أن تهب بناتك من أجل الحصول على حفنة من الذهب»

استغلت أميرات كثيرات كأدوات دبلوماسية بإرسالهن إلى بلاد أجنبية كافضل وسيلة ملائمة لتحقيق مصالح ممالك أبائهن، كان ذلك هو مصير الأميرات عبر كل العصور، وكان المصير يتحول إلى أسوأ حين كانت أي منهن تقترن بملك له كثير من الزوجات، كما كانت تتكرر المدورة على الدوام، حين يجدن أنفسهن في بلد أجنبي حيث عليهن أن يقضين كل عمرهن دون أن يعرفوا كلمة واحدة من لغتة ولا عادات قومه.

كانت العروس الملكية تأتى إلى موطنها الجديد تصحيها مجموعة من الفدم من موطنها الأصلى (على سبيل المثال، جاحت الأميرة الميتانية كيلوحييا إلى مصر وبرفقتها 317 امرأة من خدمها(11)) وكانت مرافقتهم لها تمثل بعض العزاء أثناء إقامتهن في الأوطان الغريبة عنهن، كن على الأرجح موضع ترحيب واحتفاء طوال فترة الاحتفالات بالزواج، ثم بعد ذلك وتدريجيًا تنحدرن إلى زوايا الاهمال والنسيان، حتى إنه لا يبقى لديهن من سلوى إلا خدمهن الذين صحبوهن من مواطنهم الأصلية، ولا يوجد شك أن أبائهن الملوك كانوا يعدونهن عند رحيلهن من بلادهن بأنهم سيبعثون من يزورهن ويطمئن عليهن بانتظام. ولكن تبدأ تلك الزيارات في التناقص والتباعد، وكما رأينا، فإن زوجها وسيدها الجديد من المكن أن يمنع مبعوثي أبيها من رؤيتها أو التحدث إليها..

ولم يكن من غير المعتاد لأى فرعون أن يطلب أكثر من عروس من مملكة واحدة، وكما رأينا، كان على ابنة توشراتا أن تنضم إلى عمتها كشاغلات لغرف نوم أمونحوتيب الثالث، إلا أن مصاهرات التحالف المصرى – الميتاني كانت قد بدأت في عهد تحتمس الرابع أبى أمونحوتيب الثالث، وكان قد كتب إلى أرتاتاما ملك الميتانيين طالبًا يد ابنته، وأظهر ارتاتاما أنه مساوم شديد البراعة، فقد طالت مفاوضات الزواج حتى توصيلا إلى اتفاق في نهاية الأمر لذلك، راح توشراتا في سياق خطاب طويل يذكر أخذاتون بتاريخ العلاقة بين الملكتين، وجاء في تلك الرسالة:

«مین طلب جدك (تستمس) من جدی ارتاتاما ید ابنته أخت أبی

شوتارنا كتب إليه خمس وست مرأت، ورغم ذلك رفض جدى، ولم يوافق جدى إلا بعد أن كتب إليه مكرراً طلبه اسابع مرة. (12)

ثم انتقل إلى ذكر ما حدث من مفاوضات بين أبيه، شوتارنا، وأبيا أخناتون، أمونحوبيب، حول عروس ميتانية أخرى، وهى الأميرة كيلوحيبا ابنة شوتارنا وأخت توشراتا، وذكره أنه بعد الطلب من أبيه بإلصاح لسادس مرة وافق على منحه كيلوحيبا. ثم ذكر توشراتا أخناتون بالفضل الذي عامل به أباه أمنحتب، حين طلب منه يد ابنته الأميرة تادوحيبا، وأنه طوق عنقه بجميل: «فعندما طلبها لأول مرة قلت ارسوله: بكل يقين سأعطيها له».

فما سبب ذلك الفرام الواضع بالأميرات الميتانيات؟ السرهو أن العرائس الملكية كن بمثابة المعاهدات - روابط غير مستقرة بين مملكتين، إلا أنها جيدة بين الحاكمين، وحين يموت أحد طرفى المعاهدة، يسعى شريكه الذي ما زال حبًا إلى عقد معاهدة جديدة مع خليفته للتأكيد على التحالف واستمراره، وكذلك أيضا، كانت العروس الملكية تمثل رابطًا شخصبًا بين الملك الذي أنجبها وأرسلها والملك الذي تلقاها، فبعد موت ارتاتاما وتحتمس الرابع، كان لابد من إعطاء عروس جديدة للفرعون الجديد كأحد أهم عناصر تأكيد التحالف المصرى الميتاني، وكان ذلك لا يرتبط ولا يتوقف على إن كنت الزوجة الميتانية لتحتمس الرابع مازالت حية بعد موت أبيها احتاج الفرعون إلى عروس ميتانية جديدة، فقد كانت الأميرة كيلوحيبا، إلا الأميرة كيلوحيبا قد أصبحت بموت أبيها بمثابة معاهدة لا يعتد بها، لذلك الأميرة كيلوحيبا قد أصبحت بموت أبيها بمثابة معاهدة لا يعتد بها، لذلك

فى ذلك الوقت كان عمر أمونحتيب يقترب من نهايته، فما الذى حدث للأميرة تادوحيبا بعد موته؟ يبدو أن أخناتون نقلها إلى جناح الزوجات.

وبالفعل، افترض كثير من الباحثين أنها أصبحت الزوجة الثانية في ترتيب الأممية (بعد الزوجة الرئيسة نفرتيتي)، وأنها أصبحت تحمل لقب واسم «المحبوبة جدا» كيا(13). ويترتب على ذلك الافتراض احتمال جدلى، فبما أنه من المعروف أن نفرتيتي أنجبت من زوجها أخناتون ست بنات ولم تنجب له ذكوراً، فإن ذلك يدفع بافتراض أن كيا هي من أنجبت توت عنخ أمون.

ويتساط بروفيسور مورنين مشيراً إلى التوتر الدائم بين بنات نفرتيتى والأميرة كيا: هل كانت جريصة كيا أن فازت في التنافس وأنجبت ما عجزت الزوجة الرئيسة الأولى المفضلة عن إنجابه، أي وريثاً ذكراً (14)؟ وإن كانت كيا هي بالفعل الأميرة الميتانية تادوحيبا، فإن ذلك كان يمثل سبباً إضافيا للعداوة بين بنات نفرتيتي وبينها، أي أنها كانت بالنسبة لهن امرأة أجنبية غريبة وهبت أباهن وريثاً ذكراً، وهو ما فشلت أمهن به، ولم تقدر على تحقيقه، ويترتب على صحة ذلك الافتراض أن توت عنغ أمون نصف حورى، وأن جده لأمه هو الملك الميتاني توشراتا – عدو الحثينيين الرئيسي.

مراسلات الزواج المصرية – الحثينية

لا تتوفر معلومات عن طبيعة المفاوضات بين البلاطين المصرى والميتانى التى سبقت الموافقة النهائية على زواج أمونحتيب الثالث والأميرة تادوحيبا، إلا أنه توفرت لنا معلومات عن طبيعة المفاوضات. ومختلف النقاط الهامة التى ظهرت خلال المفاوضات، من نصوص الرسائل العديدة التى عثر عليها والخاصة بذلك الأمر، المتبادلة بين البلاطين المصرى والحثيني أثناء حكم رمسيس الثاني وحاتوسيلي الثالث.

كانت المفاوضات معقدة وصعبة أكثر مما يجب، بسبب تناولها أيضاً لمشكلة وجود أورحى تيشوب ملك المشينيين السبابق الذي أزاحه حاتوسيلي عن الموش بأرض مصر (انظر الفصل 13)، كانت المراسلات التي تلت عقد معاهدة السلام بين المملكتين تشي بالحرارة والود الشديد، وأعلن حاتوسيلي أنه لن يعطى ابنته إلا لرمسيس، لا لملك بابل ولا لملك

هانيجاليات (ما تبقى من المملكة الميتانية القديمة)، ورد رمسيس على تلك الرسالة مخبرًا أخاه الملك أنه تلقى رسائل من أولئك الملوك ذاتهم يعرضون فيها بناتهم عليه، إلا أنه طمأن حاتوسيلى أنه سبوليه هو ذلك الشرف.

وبينما تبادل الملكان عددًا من الرسائل تتعلق بمشروع الزواج، كان المفاوض الرئيسي لذلك المشروع من الجانب الحثيني بلا أدنى شك الملكة بودوحيبا قرينة حاتوسيلي، وبالفعل كانت مهمة سمسار الزيجات الملكية إحدى المهام الرئيسة الملكة بودوحيبا، والتي عن طريقها كانت تدير كثيرًا من شئون المملكة، لقد كتب رمسيس رسائل خاصة بالجوانب الروتينية المتعلقة بالزواج لكل من حاتوسيلي وتقريبًا ذات النص لبودوحيبا، كانت رسائله لماتوسيلي تتعلق بالجوانب الدبلوماسية، وبعضها على سبيل المجاملة، أما رسائله لبودوحيبا فقد كانت تتعلق بالجوانب العملية التي بجب إنجازها.

والرسائل المتبادلة بين الفرعون وبودوحيبا يمكن وصفها بأنها أقل من ودية، كانت أهم أسباب عدم الرضى لدى رمسيس تقاعس حاتوسا عن إرسال عروسه الحثينية، وكتب عن ذلك بنفاذ صبر إلى بودوحييا:

«أختى، لقد وعدت بإعطاء ابنتك لى، وهذا ما كتبت به إلى، إلا أنك احتجزتها عندك وغاضبة منى. فلماذا لا تعطها لى؟»

وكتبت بودوحيبا في ردها على رسالته:

دأنا بالفعل احتجزت ابنتي، وأنت بالتأكيد ستؤيدني فيما فعلت».

اقد ساقت إلى رمسيس عذراً لم يخف على رمسيس ما يتضمنه من جشع:

«لا أستطيع أن أرسل إليك ابنتى في الوقت الصالى، لأن مخازن الحثينيين كما تعلم قد احترقت، وكل ما لم تطله النيران سلمه أورحى -- يتشوب إلى بيت الرب الأعظم» (15).

ويبدو أن المبنى الذى احترق كبان من أهم مخازن الشروات في المملكة (16)، وكان يحتوى على الأشعاء التي تصلح لإعداد وتجهيز عروس

للزواج، وأدى ذلك الحريق الهائل إلى أضرار اقتصادية كبيرة المملكة الحثينية، بالرغم من أنه حدث قبل سنوات حين كان أورحى – يتشوب ابن أخى حاتوسيلى مازال على العرش قبل أن يغتصبه حاتوسيلى، ولم تترك بودوحيبا فرصة ذكر أورحى – تيشوب تمر مرور الكرام دون أن تلمح إلى إيواء فرعون مصر له:

«وحيث إن أورحي - تيشوب لنيك، اسأله عن صحة ما أقول».

وكانت إشارتها إلى أورحى – يتشوب إشارة متعمدة، فبعد أن فقد عرشه، فر من المنفى الذى أرسل إليه ولجاً إلى مصر، ولم يشاً فرعون مصر أن يطرده، وحين تكرر طلب حاتوسيلى لفرعون مصر بتسليم أورحى – يتشوب أو طرده من مصر، أنكر الفرعون وجوده بمصر، وقال: «لقد فر من مصر كالطائر»، وادعى أن أورحى – تيشوب موجود فى ذلك الوقت فى بلاد الحشينيسين ذاتها (وهناك المزيد عن تلك المشكلة فى الفصل13)، ولم يصدقه حاتوسيلى ولا بودوحيبا، ولم تخف بودوحيبا ذلك فى رسائلها، كما لم تقاوم إغراء معاندة زوج المستقبل لابنتها، كان نفاذ شير الفرعون بتأخر العروس له علاقة ببائنتها، ويظن قارئ الرسائل من شغفه وقلة صبره وتلهفه على وضع يده عليها أن بلاده هو (أى الفرعون) قد حل بها الفقر والفاقة، لدرجة أن العريس يتطلع إلى وضع يده بسرعة على ثروة العروس، وعبرت بودوحيبا عن ذلك فى رسالة منها إلى رمسيس عائلة:

«هل أصبح أخى لا يملك شيئًا على الإطلاق؟ إذا كان ابن إله الشمس، ابن إله الشمس، ابن إله العواصف والبحر لا يملك شيئًا، هل لا تملك شيئًا، ولكن يا أخى، تريد أن تفتنى على حسابى هذا لا يليق بسمعتك ولا بمكانتك». (17)

وبعد أن وبخت رمسيس على مفاذ صبره من تأخر العروس، انتهزت الفرصة التغني بمحاسن العروس ومزاياها:

«بمن يمكننى أن أقارن ابنة السماء والأرض التي سأعطيها الأخي؟ هل يمكن أن أقارنها بابنة بابل أو زولابيا أو أشور؟».(18)

وبعبارة أخرى، إذا لم يكن باستطاعة رمسيس أن يكبع نفاذ صبره أكثر من ذلك، فإن العروس من المحاسن ما يجعلها تستحق الانتظار، وبالفعل كانت العروس التى تليق برمسيس لابد أن تنتقى وتدرب على يدى بودوحيبا بعناية فائقة، ولم يكن للعروس أن تجد معلمة ومرشدة أفضل من أمها الملكة بودوحيبا، فعند وصول بودوحيبا لأول مرة إلى القصر الملكى في حاتوسا وجدت غرف أطفال القصر، وأماكن لهو الأطفال مليئة بكثير من الأمراء والأميرات الصغيرات، وكان كثير منهم من زوجها وزيجاته الثانوية ومن خليلاته أيضا (19). ولا يوجد شك في أن أعدادهم لم تتوقف عن الزيادة، كان أبناء الملك من الذكور مطلوبين بشدة؛ لتولى المناصب المسكرية بالجيش والمناصب الإدارية في المملكة، وللقيام بالمهام الدبلوماسية، وكانوا أحيانًا ما يستخدمون في مصاهرات التحالف مع ممالك أجنبية، أما الأميرات، خاصة المصنفات في مصاف عليا طبقًا لأرضاع أمهاتهن في قصر الحكم، فقد كن منذ مولدهن مادة مخصصة لأربجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن لايجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن

ويحتمل أنه لم يكن شرطًا لازمًا أن تكون الفتاة التى تختار كعروس لرمسيس الثانى ابنة للملكة والزوجة الأولى بودوحيبا، وكان ذلك ما يتوقعه رمسيس، إلا أن بودوحيبا أشارت بوضوح وبجلاء أن العروس ابنتها هى، إلا أن المصطلح يحمل من المرونة ما يجعله يمتد ليشمل كل بنات زوجها اللاتى كبرن تحت رعايتها وإشرافها، كان التركيز فى الاستقرار على عروس لفرعون مصر يتركز على انتقاء أفضل زهرة من بين ذلك المحصول الملكي، ولو تصادف أن كانت أفضل زهرة ابنة لامرأة حثينية أخرى من رفيقات فراش الملك، فإن ذلك لم يكن ليشكل صعوبة عظمى فى إعلان أنها أميرة من الدرجة الأولى، وطالما قبل رمسيس العروس على أنها ابنة بودوحيبا وحاتوسيلى، فإن هذا أهم ما يحقق المطلوب،

تطلبت المفاوضات المطولة حول شروط الزواج كشيراً من الذهاب

والعودة والمجيء والرحيل لمبعوثين ورسل من الجانبين، وأضاف التمهل في تجهيز العروس وإكمال بائنتها وكل ما يليق بابنة ملك عظيم، إلى طول الوقت الذي استغرقه ذلك الزواج حتى إتمامه، ويحتمل أنه استغرق بضعة أعوام، من اللحظة التي طلب فيها رمسيس الزواج من ابنة حاتوسيلي والمفاوضات التي تلته إلى إعداد وتجهيز العروس حتى إرسالها، وكان انتقال بائنة العروس من المفترض أن يتم على مرحلتين، كانت بودوحيبا قد طلبت من رمسيس أن يرسل رسولاً سريعًا، أي راكب جواد، ومعه الوثائق اللازمة لإكمال الرسميات الخاصة بنقل المنتكات الحية والعبيد. وكان طلبها طلبًا متعجلاً ألح على السرعة، فقد كانت هناك مجاعة في بلادها في ذلك الوقت وكان مغادرة الحيوانات الحية من البائنة يخفف الضغط على المصادر الفذائية الحثينية لإطعام تلك الحيوانات، ومن الواضح أن ذلك المكون من قائمة بائنة هدايا العروس لعربسها تم عن عمد تسبيقه على حفل العرس وعلى باقى منقولات البائنة.

واشتكت بودوحيبا أن رمسيس لم يستجب لطلبها ذاك - فقد ظل العبيد والحيوانات الحية في البلاد الحثينية.

وأخيرًا، أصبح كل شيء معدًا لرحيل العروس، كانت بوبوحيبا مازال يسيطر على أفكارها مصير عم زوجها زانانزا الذي لقى مصرعه وهو في طريقه إلى مصر، للزواج بأرملة توت عنخ أمون في ظروف غامضة، ويذلت بوبوحيبا أقصى جهودها لتأمين كل الطري،ق وقد كان على نفس المسار ألمشار إليه، وكتب حاتوسيلي إلى رمسيس يعلمه أن ابنته أصبحت جاهزة للرحيل:

«قليات مقوضك ليسكب زيت التكريس على رأس ابنتى، ليصحبها إلى بيت الملك العظيم، ملك بلاد مصر، أخى».

وفى سعادة وحبور رد رمسيس على حاتوسيلى، معيداً ما ذكره(20)، وإلى بودوحيبا بالنص ذاته:

«رائع، رائع ذلك الموقف الذي كتب لي أخي عنه لقد شاء إله الشمس

وإله العواصف، وآلهة أرض مصر، وآلهة أرض الحثيثيين أن تتحد بلدانا إلى الأبد».(21)

ومن خلال ترتيبات السفر، كما سجلت في المراسلات، يمكننا تتبع مراحل انتقال موكب العروس حتى مصر، أخبرت بودوحيها رمسيس أن الأميرة ستخرج من حاتوسا محمية بقوات عسكرية من الجيش يقودها أمير حثيني، ربما كان الأمير نيريكايلي، الابن الأكير لحاتوسيلي(22)، وأن الملكة بنفسها ستصحب العروس حتى حدود نفوذ مصر في جنوب سوريا. كما كتب رمسيس إلى أحد حكام كنعان في منطقة الحدود، وأمره أن يلبي كل طلبات واحتياجات موكب العروس وأن يقوم بتأمين حراستهم ومرافقتهم، بمجرد دخولهم أرض الفرعون في جنوب سوريا، وأن يكون مسئولاً بصفة رسمية عن حماية الموكب، ثم يتبقى أمر الحيوانات الحية والأسرى العبيد القوقازيين، أخبر الفرعون حاتوسيلي بأنه أصدر الأوامر لاثنين من حكام الأقاليم في أوبي وكنعان أن يتوليا مسئولية الأغنام والجاموس والعبيد بمجرد عبورها إلى الأرض المصرية(23)، كما بعث برسالة إلى بودوحيبا حول نفس الموضوع(24).

كان القوقازيون يشتهرون بأنهم خطرون وعدوانيون، حتى وهم أسرى، ولا يوجد شك أن بودوحيبا كانت سعيدة بانتهاز تلك الفرصة؛ للتخلص من أولئك الأسرى القوقازيين بإرسالهم إلى مصر كعبيد، وأعلن رمسيس أنه يرحب بإرسالهم إلى مصر، ولكنه نصح الملكة بأن تشدد الحراسة عليهم، حتى وهم مازالوا في الحبس الحثيني، حتى لا يشكلون أي تهديد أو خطر على المرتحلين في حفلة العرس، وكانت بودوحيبا قلقة تخشى أن يحاولوا الفرار في برية الصحراء ويرجعوا إلى بلدهم، إلا أن رمسيس محى تلك المخاوف قائلاً:

«لو كان أى أحد أحمق بما يكفى ويفر فى الصحراء، دعيه يفعل ذلك، لأنه بكل تأكيد سيلقى حتفه فيها».

في الوقت نفسه؛ كان كل شيء معدًا في مصر لاستقبال موكب

العرس، كان رمسيس قد شيد للعروس قصراً جميلاً، وأعلن أن هدية العروس ستفرق أى هدية لأى ملك عظيم، وأخيراً، وبعد أن اجتاز الموكب آخر المراحل الخطيرة من رحلته عبر شبه جزيرة سيناء، وصل موكب العرس إلى غايته، إلى المدينة الجديدة الرائعة التى شيدها رمسيس وأسماها بى – راميس فى الدلتا، وجات اللحظة التى يشاهد فيها الفرعون عروسه الحثينية لأول مرة، وكانت كما توقع، وحظت باستحسانه، وسجلت بودوحدا عن ذلك:

كانت جميلة في نظر جلالته، وأحبها أكثر من حبه لأي أحد آخر وهكذا (25)، أخيرًا تم الزواج، في العام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس (1245). كان سرور الفرعون بعروسه الحثينية يذكرها بحب أبيها لأمها من أول نظرة حين التقيا أول مرة من ثلاثين عامًا سابقة على وجه التقريب. أما بالنسبة لأبويها، فقد كان الأمر يتجاوز الحب والعواطف فلودام ذلك الحب من رمسيس لعروسه الحثينية، فإن ابنتهم تزيد فرصتها لأن تصبح ذات نفوذ في البلاط المصرى، وهو ما يعود بفوائد جمة على الحثينيين، ومما لا شك فيه أن بودوحيبا كانت قد دربتها وأعدتها للعب ذلك الدور، ومن يستطيع أن يقوم بذلك خير من بودوحيبا؟

إلا أن ذلك التطلع لم يكن واقعيًا بأى حال، كانت مصر منذ بداية عصر الملكة الحديثة تتميز بظهور ملكات مصريات قويات، ضمن الأسماء التى ترد بسرعة على الذهن: الملكة تايى، زوجة أمونحتب الثالث، ونفرتيتي زوجة أخناتون(26)، وعنخسن أمون زوجة توت عنخ أمون، ونفرتارى زوجة رمسيس، ويبدو أن نفرتارى كانت قد ماتت فى العام الثلاثين من حكم رمسيس على الأقل(27). وحتى لو كانت زوجته الثانية ايزيت حنوفرت، والتى عاشت طويلاً قد احتلت مكانة نفرتارى بعد موتها وأصبحت نوفرت، والتى عاشت طويلاً قد احتلت مي الأخرى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين(28)، لهذا السبب، بدا توقيت الزواج بالأميرة الحثينية توقيتًا يحمل فرصة رائعة إذ كان الطريق ممهدًا أمام العروس لتصبح الزوجة يحمل فرصة رائعة إذ كان الطريق ممهدًا أمام العروس لتصبح الزوجة

الأثيرة للفرعون، لقد كانت هناك سوابق للملوك الصثينيين الذين كانوا يشترطون أن تصبيح بناتهن الزوجة رقم واحد في محصاهرات التحالف(29). إلا أن ذلك الأمرحتي تلك اللحظة كان يمكن اشتراطه على ملوك تابعين أو حكام محميات خاضعة لنفوذهم، إلا أنه لم تكن هناك سابقة لأميرة أجنبية أصبحت زوجة الفرعون الأولى، حتى لو كان ذلك شرطًا وضعه حاتوسيلي أو بالأحرى بودوحيبا، لقد كتبت بودوحيبا إلى رمسيس قائلة:

دأهب أن تجعلها في مرتبة أعلى من كل بنات الملوك العظام، وألا يجد أي أحد أن هناك من يضارعها في منزلتها».(30)

وربما كان العريس المخلوب اللب، إن كان قد كان كذلك فعلاً، كان سعيداً جداً ووافق على الشرط - أو على الأقل ليتم الزواج.

وأطلق على العروس اسمًا مصريًا هو ماعت -- حور -- نفرورى، أى «التي ترى حورس، عظمة رع المرئية»، وكانت بالفعل قد أصبحت زوجة الفرعون الرئيسة، ربما استجابة للشروط الأولى، وبالتأكيد اختصتها النصب التذكارية في بلدها الجديد بحظ وافر من التكريم الذي تحظى به سيدة البلاد الأولى،

وحتى لو كان ذلك قد حدث، فإن المرء يسيطر عليه انطباعًا مؤلًا أن وصمة كونها أجنبية كانت تعمل ضدها طول الوقت، وأن فترة سعدها لن تدوم.

فضلاً عن ذلك، حتى لو كان رمسيس قد أحب عروسه لذاتها، إلا أنه ظل يبرز تلك العروس وبائنتها التي جلبتها معها كنوع من الجزية وضع تحت قدميه، كترضية ولاء أرسلت إليه من بلاد الحثينيين، وسجل رمسيس ذلك:

«ثم أرسل ملك الحثينيين ابنته مع جزية هائلة سبقتها من ذهب وقضة وكثير من البرونز، والعبيد ومجموعات خيل بلا عدد، وماشية، وماعز، وكباش بعشرات الآلاف، بلا عدد، وهي جزية دفعت ارمسيس».(31) والدعاية السياسية لا يمكن إغفالها، ونرى من خلالها سببًا واضحًا وضوحًا تامًا لماذا كان الفراعنة يرفضون رفضًا تامًا تزويج بناتهن لملوك أجانب؟ لأن ذلك، من وجهة النظر المصرية، يساوى ويوازى دفع جزية، أي أنه عمل من أعمال ولاء التبعية، يقوم به من هو أدنى، إلى من هو أعلى مرتبة وأرفع مقامًا.

لقد زعم رمسيس أن روابط المساهرة قد قوت الاتحاد بين مصر والحثينيين – مما زاد من غم وكدر ملوك البلاد الأخرى، صحيح أنه ثبت بعد ذلك أن الزواج الذي استهلك كل ذلك العناء لم يزد عن كونه نتاجًا ثانويًا التحالف المسرى – الحثيني كما كان قصير العمر.

كان لماتوسيلي أملاً معينًا إلا أنه لم يتحقق، ولذا كتب في ضبيق للفرعون:

«كنت سأعطى هاتوسا لابن بنتى لو كانت قد وضمت نكرًا، إلا أنك لا تهب نكورًا لابنتى، ألا يمكن لأخى أن ينجب ولدًا كما يقال؟ (32)

وكانت تلك الرؤية غير عادلة، فقد أعطى رمسيس، وعلى مدى زمنى طويل سيطل يعطى أدلة كافية بلا نهاية أنه قادر على إنجاب ذرية بلا عدد من الجنسين.

أما إن كان حاتوسيلي قد قصد فعلاً أن ابنًا ذكرًا لرمسيس من زوجته الأميرة الحثينية من المكن أن يعتلي العرش الحثيثي ذات يوم، فإن ذلك يظل غير مؤكد.

لقد ظل حاتوسيلى لفترة طويلة يهئ ابنه تودحاليا لأن يكون خليفته على العرش الحثيني، وكان تودحاليا هو الآخر في ذلك الوقت قد أنجب ذكوراً من صلبه.

وعلى كل حال، اختفت الأميرة الجميلة ماعت - حور - نيفرورى من المشهد، وهناك جزء من نص منقوش يذكر أنها عاشت في جناح حريم الملك بالقرب من الفيوم، مما يظهر أنها قد فقدت وضع السيدة الأولى للفرعن(33).

إلا أنه من الصعب أن نعتقد أن بودوحيبا قد قبلت بذلك، ونحن نعرف أن العلاقات ظلت ودية بين مصر والحثينيين في الأعوام التي تلت الزواج، خاصة بعدما أرسلت أميرة حثينية ثانية إلى مصر كعروس أخرى لرمسيس، ربما بعد فترة قصيرة من موت حاتوسيلي، ومن الصعب أن نتخيل أن البلاط الحثيني، وعلى رأسه بودوحيبا، كان يوافق على زيجة أخرى إذا كان رمسيس لم يستطع التقيد والالتزام بشروط الزيجة الأولى، الأقرب للاحتمال أن الأميرة ماعت – حور – نيفروري قد ماتت بعد زواجها من رمسيس بفترة قصيرة، ويحتمل جدًا أن ذلك كان السبب في سعى البلاطين الحثيني والمصرى، لتجديد العلاقات الشخصية بينهما، من خلال إعطاء عروس حثينية أخرى للفرعون.

7

بحثا عن معجزة

ربما كانت مصر أخر ملاذ يلجأ إليه حاتوسيلى، حين كتب إلى رمسيس عن مشكلة استعصى عليه حلها، كانت شقيقته ماسانوتزى عقيماً، وكانت قد وصلت إلى عمر تجاوز العمر الذي يمكن لها قيه أن تحمل وتنجب، ولا يوجد شك أن حاتوسيلى ملك المثينيين كان قد استشار أطباءه واستعان بهم، إلا أن الأمر كان واضحاً دون الحاجة إلى مختصين بعلوم الحمل والولادة؛ لأن شقيقته كانت قد تجاوزت العمر الذي يمكن أن تحمل فيه، ولم يعد هناك أي احتمال لحدوث حمل، والمشكلة أن أخاها كان يرغب بشدة ويتوق أن تحمل أخته، وكانت مصارحته بأنه يطلب المستحيل من أشق المهام على أطبائه، ولا يمكن لأحد منهم أن يخاطر بوظيفته كطبيب بالقصر الملكي، وكان البديل المقبول أن يدعوه على يخاطر بوظيفته كطبيب بالقصر الملكي، وكان البديل المقبول أن يدعوه على بقادرتهم تحقيق أماله تلك.

وكان تلك المشكلة هي السبب في كتابة حاتوسيلي لواحد من أهم رسائله إلى رمسيس(1)، وربما كتب تلك الرسالة تحت إلحاح أطبائه، بالرغم من أنه كان بإمكانه المبادرة إلى ذلك من تلقاء نفسه، فمصر كانت تشتهر وتحظى بسمعة دولية بخبرة أطبائها، وأن أولئك الخبراء من الأطباء المصريين يممكن استدعاؤهم؛ ليقوموا بتحقيق المعجزة التي يطلبها حاتوسيلي، لذلك كتب تلك الرسالة إلى فرعون مصر، ولا يوجد شك في أنه كتبها مرغمًا؛ لأنها تضمنت اعترافًا يخجله بأن شقيقته فشلت في تحقيق أهم مسئولياتها كأميرة، وهي إنجاب وريث، كتب قائلاً:

«سأكون ممتنًا أشد الامتنان إذا أرسلت إلى من يجيد تحضير عقاقير

تجعل شقيقتي تنجب».

وأكمل رسالته معترفًا أن طلبه قد يعد غير طبيعي بشكل ما؛ لأن الأميرة تجاوزت مرحلة شبابها، إلا أن لنيه ثقة كبيرة فيما يمكن أن تنجزه وتحققه علوم الطب المصرى.

فلماذا كانت تلك المشكلة تهم حاترسيلي إلى هذه الدرجة؟ كانت شقيقته زوجة لأحد الحكام الخاضعين للنفوذ الحثيني في غرب الأناضول، وكان اسمه ماستورى، ملك بلاد نهر سيمون، كانت تلك الملكة تدين بالولاء للحثينيين من زمن طويل، وكانت تلعب دوراً استراتيجياً هاماً في تلك المنطقة.

أما في قديم الزمن فقد كان ولاؤها موضع شك، كان أبو ماستوري وسلفه في حكم مملكة بلاد نهر سيمون الملك مانابا – تارحوندا قد خرج عن تحالفه مع الحثينيين في بداية عهد الملك الحثيني مورسيلي الثاني، وتجنب التعرض لضربة قاسمة من القوة الكاملة للجيش الحثيني، بعد أن خرج مورسيلي الثاني بنفسه على رأس الجيش وأصبح على أبواب المدينة، ولم يبق إلا إشارة بدء الاجتياح حين تراجع مانابا – تارحوندا في اللحظة الأخيرة وأعلن خضوعه، وعدل مورسيلي عما اعتزمه من انتقام، وتراجع عن إلحاق أي أذى به بعد أن ضرجت إليه أمه من المدينة المحاصرة، وتضرعت إليه أله من المدينة المحاصرة، وتضرعت إليه ألا يلحق بابنها أي أذي.

قرر مورسيلى أن يعفى عنه، وأن يعطيه فرصة ثانية وثبت مانابا - تارحوندا على عرشه كملك خاضع للحثينيين، ومن حينها ظل وفيًا ووليًا للعرش الحثيني. إلا أنه مع مرور الأعوام قلَّ دوره، وبدأ يتقاعس عن رعاية المصالح الحثينية بالهمة نفسها التي كان عليها في منطقته. ومن وثيقة شهيرة يشار إليها في العادة باسم رسالة منابا - تارحوندا نعلم أنه خلال حكم ميواتاللي خليفة مورسيلي حاول محاولة فاشلة إنقاذ مملكة ويلوسا المجاورة له والخاضعة بدورها للنفوذ الحثيني من غزو عصابة شهيرة يترأسها قاطع طريق شرير(2) اسمه بيامارادو، كان يثير الفوضي

والفرع في كل الممالك الصغرى بغرب الأناضول الضاضعة لنفوذ المشينين، وألحق بيامارادو هزيمة مشينة بمنابا - تارحوندا، فقام ميواتالي بإرسال قوة حثينية للقضاء على عصابات بيامارادو، وأرسل إلى منابا - تارحوندا - الذي كان لابد للقوات الحثينية من المرور ببلاه، حتى تملل إلى ويلوسا - بأن يستعد لدعمهم والانضمام إليهم، إلا أن منابا - تارحوندا كانت همته قد فترت بعد الهزيمة التي مُني بها على أيدى عصابات بيامارادو، ولم تكن لديه الإرادة لخوض مواجهة حربية أخرى، ووجد أن ذلك الوقت هو أنسب فرصة لادعاء المرض، فكتب إلى سيده الكبر ميواتالي مدعيًا المرض، وقال في رسالته:

«لقد مرضت، أنا مريض جدًا، أنا طريح القراش من شدة المرض»(3).

وقامت قوات ميواتالى بطرد عصابات بيامارادو من ويلوس دون معاونة منابا – تارحوندا – المتقاعس فاقد الهمة – عبنًا على المملكة الحتينية، ولا يمكن احتماله أكثر من ذلك، فخلعه ميواتالى عن عرشه ونصب ابنه ماستورى مكانه، وتبين أنه كان قرارًا صائبًا، لذلك كافأره بتزويجه من ابنة الملك، ويعد ذلك نوعًا نادرًا من المكافأة والتقدير لملك تابع إذ أن ابنه الذى سيخلفه على العرش سيكون حقيدًا للملك الأعظم، وبذلك يظل عرش المملكة التابعة محصورا في سلالة حثينية، وهي سلالة ميواتالكي، ولكن لما نشب الصراع بين ابن ميواتالكي، أو رحى – تيشوب وبين عمه حاتوسيللى، انحاز ماستورى إلى حاتوسيلى، ورفض أورحى – تيشوب، لكونه مجرد ابن لزوجة الملك من الدرجة الثانية.

لذلك، لما نجح حاتوسيلى فى انتزاع العرش، كان لديه على الأقل حليف واحد مخلص من بين كل الملوك الخاضعين للنفوذ الحثينى فى غرب الأناضول، كانت المشكلة، فى الوقت الذى كتب فيه حاتوسيلى إلى رمسيس طالبًا أطباء مصريين لشقيقته، أن زوجها كان قد بدأ يطعن فى السن ومازال هو وزوجته دون إنجاب وريث للعرش، وأدى ذلك إلى موقف

خطير يتوقع فيه حدوث صراع على عرش الملكة الخاضعة، خاصة مع وجود تيارات قوية بتلك الملكة مناهضة النفوذ الحثيني، وجاهزة الوثوب على العرش فور موت ماستوري. كانت هناك مشاكل بغرب الأناضول من ملك احياوا، بالإضافة إلى مشاكل بيامارادو، ولم يكن ينقصهم أن يموت ملك خاضع لهم دون وريث، فتضاف إلى المشاكل السابقة مشكلة أخرى أخطر وأكثر استعصاء على الحل، لذلك يعكننا أن نتفهم سعى حاتوسيلي بكل الوسائل في أن يكون لماستوري ابن من زوجته الحثينية، وكذلك بقاضيه عن تعريض نفسه للهوان مع فرعون مصر بتوجيه نداء تضرع والحاح إليه ليحقق له أمنيته.

وانتهز رمسيس تلك الفرصة بأقصى ما أتيح له، رد عليه قائلاً:

«انظر، أنا أخوك، أعلم بمشكلة شقيقتك ماتاناتزى(4). والمشكلة أنها في الضمسين، هذا إن لم تكن في الستين من عصرها، واصرأة في الفسسين تعد امرأة مسئة، إن لم نقل أنها في الستين، ليس في استطاعة أي أحد أن يعد أي عقاقير تمكنها من حمل أطفال حسنًا، يمكن لإله الشمس وإله العواصف أن يأمرا، والأوامر التي سيعطيانها ستنفذ على الدوام لصالح شقيقة أخي، وسوف أرسل أنا الملك، أخوك، أكبر كاهن تعاويذ مع طبيب خبير إذا وجدا وسيلة تعينها على الحمل،(5).

كان ذلك الرد المتعجرف هو تماماً ما توقعه حاتوسيلي من الفرعون. وكان رمسيس على يقين أن أخاه الملك يقلل من عمر شقيقته، ولم يظهر أي قدر من الكياسة في إعلامه بذلك، وفي الحقيقة، وبافتراضه أن شقيقة الملك من المكن أن تكون في الستين من عمرها كان بالفعل قريبًا من الحقيقة، – بل ربما كان كرمًا منه أنه لم يذكر أكثر من ذلك، كان حاتوسيلي وأشقاؤه وشقيقاته أبناء مورسيلي من زوجته الأولى جستُول (ي) ويًا، التي ماتت في العام التاسع من حكم مورسيلي – حوالي 1312 والرسالة تنتمي إلى مجموعة المراسلات المتبادلة بين البلاطين الملكيين، والمصرى بعد إبرام معاهدة السلام بين رمسيس وحاتوسيلي، أي

أن الرسالة كتبت في عام 1258 أو 1257، لذلك يفترض أن عمر ياسنوتزي شقيقة حاتوسيلي كان عند توقيع المعاهدة يشارف الخامسة والخمسين، ومن المكن أن تكون أكبر من ذلك بخمسة أعوام أو أكثر، كان حانوسيلي هو الأصغر بين أربعة إخوة، وكان عمره – على الأقل حين كتب تلك الرسالة إلى رمسيس – خمسة وخمسين عامًا. ويحتمل أن شقيقته تلك في أفضل الأحوال هي الأكبر منه مباشرة، أي أكبر منه بعدة أعوام، كما يحتمل أن الخطاب قد كتب بعد عام 1257، لذلك إذا أخذنا بأشد وجهات النظر تحفظًا، تكون تلك الأميرة على مشارف الستين حين كتب شقيقها تلك الرسالة إلى الفرعون، ومن الواضح أن رمسيس كانت لديه مصادر معلوماته عن أسرة حاتوسيلي، فكيف توصل إليها؟

من المحتمل أنه كان لديه على الأقل ببلاطه الملكى من هو على دراية جيدة بمثل تلك الأمور، فهل كان ذلك المصدر بنت أخيها أو رحى --يتشوب؟

من الصعب استنتاج ما حدث بعد ذلك، كانت مخاوف حاتوسيلي حول مستقبل المملكة التابعة له – والتي يحكمها زوج شقيقته الذي لم ينجب وريثًا – مخاوف حقيقية ولها ما يبررها، كان ماستوري مازال على عرش مملكته بغرب الأناضول حين مات حاتوسيلي وخلف على عرش حاتوسيا ابنه تويحاليا(6). إلا أن ما حدث بعد ذلك هو ظهور اسم جديد على عرش المملكة التابعة وهو تارحانارادو، ويحتمل أنه أزاح ماستوري عن العرش أو اعتبلاه بعد موته، إذ لم يكن له وريث من صلبه، وكان الملك المحديد منقطع القرابة تمامًا بسلفه وعائلته، وانتهز فرصة عدم وجود وريث شرعي للعرش ليبدأ حركة الاستيلاء على الحكم، وهو بالضبط ما تطلع حاتوسيللي إلى تجنبه بأي وسيلة، علاوة على ذلك حظى تارحانارادو بدعم ومساندة احبًاوا ملك المملكة المارقة على الحكم الحثيني والمجاورة له، ولا يدع ذلك مجنالا للشك أن تلك الملكة الضاضيفة أصبحت من التكتل يدع ذلك مجنالا للشك أن تلك الملكة الضاضيفة أصبحت من التكتل

أما من وجهة النظر الحثينية، فإن ذلك الوضع أصبح من المتعذر السكوت عليه أو احتماله، فقام تودحاليا على رأس جيش كبير بحملة عسكرية على تلك المالك المتمردة، واستعاد السيطرة عليها، وأسر الملوك المتمردين وعائلاتهم وكل من يمت لهم بصلة، وسيطر على ممالك نهر سيحون، كما غنم ٥٠٠ طاقم من الخيل، وأعيد عرش المملكة التابعة لعائلة مانابا - تارحوندا وما ستورى(7).

الاستفادة من خبراء الأطباء الأجانب

كان إيمان حاتوسيلى بقدرات الأطباء المصريين، وإن كان ساذجًا فى طلبه السابق ليس قاصرًا عليه وحده، وكان يشاركه الإيمان بقدرات الطب المصري من معاصريه من الملوك ومن خلفوهم على عروشهم.

وطبعًا لما سنجله هوميروس، كانت مصر من أغنى البلاد بالنباتات الطبية، حتى إنه كان يعتبر أن كل مصرى يعد طبيبًا، ويذهل أى امرئ غير مصرى بغزارة معلوماته الطبية(8).

ويعد هوميروس بعدة مئات من السنين، ذكر المؤرخ اليوناني هيرودت أمثلة كثيرة على السمعة الطبية العالمية العظيمة التي كانت تشتهر بها مصر، ومنها علاج أمراض العيون، وسجل هيرودت: أن الملك الفارسي قورش أرسل رسالة من بلاد فارس إلى مصر أثناء حكم الملك أماسيس، أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (أحمس الثاني 570 – 526) ومع الرسالة تعليمات بإرسال أفضل طبيب عيون في كل أنجاء مصر (9).

واستفاد حاتوسيلى هو الآخر من خبرة أطباء العيون المصريين، فقد كان حاتوسيلى فى طفواته طفلاً عليلاً، وبالرغم من ذلك تمكن من اجتياز كل علل الطفولة، ولم يمت على عكس ما كان متوقعًا له، وبدأ فى إحراز نجاح ملحوظ، إلا أن بعض العلل ظلت ملازمة له بعد ذلك، كان منها التهابات مزمنة بالقدمين، ومرض بعيونه، واشتد عليه مرض عينه أثناء إنجاز المراحل الأخيرة من مفاوضات معاهدة السلام التى كانت جارية بينه وبين رمسيس الثاني، ولما علم الفرعون بذلك، أمر على وجه السرعة بإعداد عقاقير أمراض العيون وأرسلها إلى حاتوسيلي مع رسالة قال فيها:

«أمرت ضابط عجلة حربية سريعة بمصاحبة بريحناوا، وأمرتهم بالذهاب إلى بنتشينا، عاصمة بلاد العموريين مع رسولى بريحناوا. وأعطى بنتشينا كل الأدوية التى اصطحبها معه، ومن بنتشينا سافر ضابط آخر بها إلى أخى، بالأدوية التى أعدها الملك، أخوك، وأرسلها على وجه السرعة مع بريحناوا ع(10).

ومن الواضح والثابت أن تلك العقاقير كانت شافية؛ لأن حاتوسيلي طلب بعدها طلبًا أخر مماثل:

«تلك العقاقير التي أرسلتها لعلاج عيني كانت فعالة، من فضلك أرسل لي مزيدًا منها».

ورد عليه رمسيس، بسعادة من له فضل(11):

«أمرت برياماحو أن يحضر إليك مزيدًا من تلك العقاقير الشافية لعيون أشيء.

غير أن رمسيس لم يكن من ذلك الصنف من الناس الذي يفعلون أنصاف الأشياء، ففي رسالة أخرى منه لحاتوسيلي، عدد من ضمن قائمة هداياه التي أرسلها إلى حاتوسيلي «خمس أوان كيوكوبو بمقاقير ممتازة العيون، وعشرون سلة بعقاقير ممتازة العيون» (12) وأعاد رمسيس ذكر تلك المعلومات إلى الملكة بودوحيبا زوجة حاتوسيلي في رسالة منه إليها (13).

وكما علمنا من مراسلات حاتوسيلي لرمسيس عن مشكلة أخته العاقر، كان رمسيس يرسل أطباء مصريين، بناء على طلب أخيه الملك، لعلاج أعضاء آخرين من أسرة حاتوسيلي. وحدث ذلك أيضًا في عهد ابن حاتوسيلي الملك تودحاليا الرابع فقد كان ابن عمه كورونتا حاكم اقطاعية في جنوب الأناضول اسمها تارحونتاسا قد أصيب بمرض فشل أطباء وكهنة القصر الملكي في علاجه. وتطور المرض، بغض النظر عن طبيعته، إلى درجة جعلته مشرفًا على الموت. كان كورونتا شقيقًا لأورحي – تيشوب المخلوع عن العرش، إلا أنه أظهر ولاءً شديدًا لأسرة حاتوسيلي، وحكم تارحونتاسا بكفاءة كحاكم خاضع لنفوذ حاتوسيلي، وكان موته يشكل ضربة خطيرة لمصالح الحثينيين بتلك المنطقة، وكتب تودحاليا إلى فرعون مصر واصفًا أعراض مرض ابن عمه وطلب معونة مصر الطبية. واستجاب رمسيس في الحال، وفي رسالة منه خلت من البلاغة الرسمية، رد عليه قائلاً:

«أتعلم، لقد أرسلت الآن الكاتب والطبيب بارياما حود أرسلته لإعداد المقاقير الشافية لكورونتا ملك منطقة تارجونتاسا، وسوف يعد كل العقاقير اللازمة كما طلبت في رسالتك، وبمجرد أن يصل إليك ، ضع ملك أرض تارجونتاسا في مسئوليته، حتى يعد العقاقير اللازمة له، وأصرف الطيبين الموجوبين معه بكورونتا، ودعهما يعودان إلى مصر، بمجرد أن يصل الكاتب والطبيب بارياما حود يجب إنهاء عمل الطبيبين الآخرين في اليوم نفسه. أترى، لقد وعيت كل ما ذكرته في رسالتك. في هذا الوقت الكاتب والطبيب بارياما حو في الطريق إليك، وسوف يعطيه كل أصناح المقاقير كما طلبت الإراما.

ومن الواضح أن الأطباء المصريين نجحوا في اشفاء الملك كورونتا الموضع على الموت، وهو النجاح الذي ندم عليه تودحاليا بعد ذلك، إذ يبدو أن كورونتا بعد أن شفى تمرد على سيده الأعلى، بل إنه تمكن من احتلال العرش الحثيني ذاته لبعض الوقت قبل أن يختفي اسمه تمامًا ونهائيًا من التسجيلات القديمة.

فى مناسبات كثيرة كان المعالجون المحترفون يقومون بزيارة المراكز الطبية فى بلاد أخرى؛ لتعلم آخر المنجزات الطبية التى تتبع فيها، أو على وجه التحديد كيفية علاج مرض معين. وهو منقوش فى رسالة فى أرشيف مارى كتبها اشمى – داجان، الخاضع للنفوذ الآشورى فى الكالاتوم إلى

أخيه يسمح - عدو، ملك مارى، فبعد أن أنبهر بالعلاج الذى تلقاه من طبيب أخيه، قرر أن يرسل أحد أطبائه إلى بلاط أخيه ليتعلم الوسائل الفعالة في علاج الأمراض، قال في الرسالة:

دأخير يسمع – عنى أخوك إشمى – داجان يرسل الرسالة التالية: المقاقير التى وضعها طبيبك على جسمى في ضماده جيدة إلى أبعد مدى. بدأ الجرح في الاندمال، وقليلاً قليلاً توشك المقاقير أن تشفيه تماما، والآن، أرسل إليك مع كتابي هذا الطبيب شمشى – عدو – توكراتي، دعه يلقى نظرة على تلك المقاقير ثم اتركه يعود في العال»(15).

كانت ممارسة طبية منتشرة إلى حد كبير بين ممارسى الطبابة خاصة من مصر وبابل أي يستأجروا أو يعاروا إلى بلاد أجنبية.

وكتب نيكمادو الثانى، ملك أوجاريت إلى أخناتون طالبًا طبيبًا مصريًا، ومن المدهش أن تلك المملكة الثرية والمتقدمة لم يكن لدى ملكها طبيا خاص به(16)، وكان من الواضح أن الملك نيكمادو كان يطلب تعيين طبيب مصرى مقيم في قصره، ولكن، بوجه عام، كان الأطباء يرسلون في مهام مؤقتة إلى البلاد الأجنبية، كان الغرض الرئيسي من إرسالهم علاج مرض محدد، كما في حالة الطبيب الذي أرسله رمسيس لعلاج كورونتا، وقاموا أيضا بتقديم خدمات استشارية أثناء إقامتهم في الخارج، مما كان يتيح للعاملين بمجال الطب في البلاد الأجنبية الاستفادة بخبراتهم ونصائحهم.

وبالفعل، كانت تظهر قيمة خبراتهم وفوائدها المحققة، حتى إن مضيفيهم من الملوك كانوا يميلون إلى استغلال كرم إخوانهم الملوك الذين أرسلوا إليهم أولئك الخبراء ويحتجزون أولئك الخبراء الطبيين إلى آماد غير محددة.

الأطباء البابليون فى البلاط الحثينى

وصل إلى علمنا حدثان طبيبان وردا في خطاب من حاتوسيلي إلى ملك بابل كاداشمان - إنليل، فقد أرسات بابل من لدنها طبيبين على

سبيل الإعارة المؤقتة من بابل إلى حاتوسا، أحدهما في عهد ميواتاللي بصحبة كاهن معالج، والثاني في عهد حاتوسيلي ذاته، ولم يعد الطبيب ولا الكاهن المعالج إلى وطنهما أبداً.

واحتج كاداشمان – إنليل، وادعى أنهما محتجزان بلا مبرر فى بلاد الحثينيين ورد عليه حاتوسيلى فى كتاب منه منكرًا أى مسئولية من جانبه، وفيما يتعلق بأول اثنين، الطبيب والكاهن، راح يلوم ميواتاللى الحثينى باعتباره السبب فى احتجازهما، وقال فى رسالته: وفي عهد أخى ميواتاللى أرسلت إليه كاهنًا معالجًا وطبيبًا واحتجزهما فى بلاد الحثينيين، وتجادلت معه قائلاً: لماذا تحتجزهما حجز طبيب ليس صوابًاء(17).

اذلك قد نتساءل، ما الذي حدث للمحتجزين؟ لقد أصر حاتوسيلي على أنه ليس لديه أي فكرة عن مكان الكاهن، كما لم يظهر أي اهتمام بذلك، وبرر ذلك قائلاً: «ربما يكون قد مات»، وكان ذلك أضضل ما استطاع تقديمه من تفسير لاختفاء الكاهن، إلا أنه كان يعرف معلومات محددة عن الطبيب، كان الطبيب حياً وفي أحسن حال، وطمأن أخاه الملك قائلاً:

«لقد أصبح الطبيب مالكًا لبيت جميل هنا، واقترن بامرأة من أقريائي» ثم أضاف في مراوغة :

«او قال: أحب أن أعود إلى بلادى، فسوف يعود إلى بلاده، فهل أكون يهذا احتجزت الطبيب رابا – شا – ماردوك؟ «(18)

وما يتضمنه قوله واضع كل الوضوع، أى أن الطبيب البابلى لم يكن محتجزًا رغم إرادته في بلاد الحثينيين، بل عرضت عليه مزايا هامة ليقيم هناك وفي بيت يشبه قصرًا وزوجة من العائلة الملكية الحاكمة، وبالطبع، لم يكن قرار العودة إلى بلاده في حقيقة الأمر في يده هو، ولا يوجد شك أن إبقاءه في بلاد الحثينيين، بموافقته أو بدونها، كان خروجًا من جانب حاتوسيلي، وكذلك أخبه ميواتاللي على الشروط التي اشترطها ملك بابل، عندما وافق ملك بابل على إعارة طبيبه للبلاط الحثيني(19).

لذلك قابه من المدهش أن يطلب حاتوسيلى من كاداشمان – إنايل إرسال طبيب آخر إلى حاتوسا، مع الاشتراط الواضح أنها إعارة مؤقتة، وصدق نية حاتوسيلى على إعادته، ولكن كل مثل تلك النوايا الطيبة كانت تقف عاجزة إذا صادفه حظ عاثر ومات الطبيب في كنف مضيفه، وبعد اعتراضات بابل واحتجاجها على احتجاز الطبيب السابق وعدم عودته طبقا للاتفاق، فإن موت الطبيب الثاني أثناء وجوده ببلاد الحثينيين لا بد أنه قد شكل حرجًا بالفًا لحاتوسيلي، في الوقت الذي كان يود فيه مخلصاً أنه قد شكل حرجًا بالفًا لحاتوسيلي، في الوقت الذي كان يود فيه مخلصاً إظهار صدق نيته لملك بابل كاداشمان – إنليل، وأنه لم تكن لديه أي نوايا للغدر أو العدوان باحتجاز الطبيب الثاني، وقال في رسالة منه إلى كاداشمان – إنليل المالم:

«هين استقبلوا الطبيب، قام بأعمال كثيرة جيدة(20)، وهين مرض الطبيب، تم عمل كل ما يمكن عمله، ولكن حين حانت ساعته، مات».

وقام حاتوسيلى بإعادة خادم الطبيب مع حامل الرسالة، ليشبت لملك بابل صدقه، وكدليل إضافى على التقدير الذى لقيه الطبيب من البلاط الحثيثى قبل موته، قام حاتوسيلى بإرسال كل الهدايا والهبات والعطايا للتى منحت للطبيب فى البلاط الحثينى قبل موته، مع خادمه العائد إلى بلاده، ومعه حامل رسالة الملك الحثينى، وتحسبًا لقيام الخادم، باختلاس بعض الهدايا والهبات لنفسه، قام حاتوسيلى بتسجيلها في قائمة، وقال في رسالته:

«فلينتبه أخى إلى العربة... والخيل، والفضة النقية، والأثواب التى منحتها الطبيب، إنها مسجلة كتابة، وأرسلت اللوح إلى أخى حتى يمكن الأخى أن يسمع ما به.

وأطال حاتوسيلى فى بعض التفاصيل؛ ليبعد عن نفسه أى شبهة أو مسئولية عن موت الطبيب، غير أنه ظل افترة طويلة لا يجرؤ بسبب ذلك الحظ العاثر على طلب مماثل من أخيه ملك بابل، إلا أنه طلب منه إرسال مثال، لينحت له تماثيل لأعضاء الأسرة الحاكمة (21)، وأكد له أن النحات

سيعود إلى بلاده بصفة عاجلة وبسرعة فور انتهاء مهمته، وعلى ضوء الأحداث السابقة يبدو أن ذلك الطلب قوبل بكثير من التشكك في بابل، بالرغم من تذكير حاتوسيلي لهم أنه قد أعاد من قبل مثّالاً بابليًا سليمًا معافى كان قد استعاره في مناسبة سابقة من أبي كاداشمان أنليل، ومن غير المعلوم إن كان كاداشمان إنليل قد ظل يثق في الملك الحثيني ويرسل إلى خزائن الحفظ لديه مزيدًا من المحترفين المهرة أم لا، ولكن، في تلك المرة على الأقل، لا يدهشنا أن نعرف أن حاتوسيلي قد راح يتطلع إلى ممالك أخرى ليحصل منها على نحات مثال.

الجزء الثالث أحداث تاريخية

8

الإ مارات السورية

الصورة العامة(1)

بدأ البروفيسور جوتزيه عرضه لصراع السيطرة على سوريا في القرن الم قرم (2) قائلاً: تقع سوريا في تقاطع طرق الشرق الأدنى بين منطقة ما بين النهرين في الشرق، والأناضول في الشمال ومصر في الجنوب، وكانت منطقة ما بين النهرين والأناضول تعانيان من نقص الموارد والثروات الطبيعية، وكانوا يحصلون عليها عن طريق التجارة والمقايضة، وكانت سوريا بالنسبة لهما هي الطريق والبوابة لتلك التجارة الدولية، فقد كانت سوريا ذات موانى، بحرية ترد إليها منتجات التجارة الدولية ويتم تبادل المنتجات بها، ومن موانى، سوريا تنتقل البضائع عبر الطرق البرية، التي تربط القوى العظمى والمالك الكبرى التي كنانت موجودة بذلك العصر، ويذلك أصبحت سوريا تشكل إغراءً قويًا لكل القوى العظمى، العيمنة على سوريا ولو بالقوة العسكرية إذا تطلب الأمر (3).

وكانت الهيمنة على طرق التجارة من الدوافع الهامة، إلا أن النجاح العسكرى في تلك المنطقة كان هامًا أيضًا لذاته، للهيبة التي يضفيها على من يحققه. كانت عقيدة ترسيخ الملك تتطلب من كبار الملوك أن يظهروا قوتهم في ميادين القتال، وكانت سوريا من أنسب الميادين لإظهار ذلك، كان الافتخار بلقب «داحر الأسيويين» بين اهتمامات كثير من فراعنة مصر. كما كانت قيادة جيش قيادة منتصرة مظفرة حتى نهر الفرات من أعظم الإنجازات التي افتخر بها الملك الحثيني حاتوسيلي الأول، وهو الإنجاز الذي وضعه في مصاف عظماء الملوك الذين يقارنون بالملك سارجون.

وكان من المحتم وما لا يمكن تجنيه لإظهار قدرة ملك واستحقاقه حتى يكون من كبار الملوك أن يتمكن من الهيمنة على منطقة سوريا، أو على الأقل على الجل الأعظم منها، كانت سوريا على الدوام مسرحًا للصراع بين الملكة الحثيثية ومملكة حاب، في سياق الحمالات التي سيرها حاتوسيلي الأول عبر جبال توروس، كما سير كل من تحتمس الأول وتحتمس الثالث حملات عسكرية عبر منطقة سوريا، كانت تشق طريقها بالقوة حتى نهر الفرات، وتمكن مورسيلي الأول من تدمير مملكة حلب، ثم قاد قواته المنتصيرة عبر منطقة سوريا إلى هدفه النهائي وهو غزو بابل والسيطرة عليها، وكان المتانين أسرع من استغلوا انهيار المثينيين بعد اغتيال مورسيلي، وانكماش مصر جنوبًا بعيدًا عن مصالحها الحبوية في سورياء واحتلوا إمارات وممالك شمال سوريا وضموها إلى صميم رقعتها في إمبراطوريتهم التي كانت تتسم بسرعة، ولكن مثلما حدث للإمبراطورية الميتانية السابقة، سرعان ما أنهارت، مع تغير جديد في خريطة كبار عظماء الملوك، فقد انتزع سيبللوليومنا الأول الحثيثي كل الإمارات والممالك السورية الصغرى من توشراتا المبتاني، وفي حملة عسكرية امتدت على مدى عام تقدم حتى قلب الإمبراطورية الميتانية المنهارة. بعد ذلك بسبعة عقود، كان منعود الأسرة التاسعة عشرة في مصر، وتنامي قوتها إلى أقصى قواها سببًا في صدام وصراع عسكريين بين الحثينيين ومصر على منطقة سبوريا، واصطدمت القبوتان مبرتين في منطقة قبادش، في المنطقة الساخنة غير مستقرة الحدود بين قوة الشمال وقوة الجنوب، وكانت قوة جديدة تنتامي وتلوح في الأفق في نفس المرحلة، فقد كان من المحتم على القوة الأشورية الصاعدة أن تمتد أيضًا إلى سوريا في الغرب من القرات، وربما عبر كل سوريا حتى ساحل البحر المتوسط.

قما هي التبعات التي وقعت على سكان سوريا من جراء ذلك الصراع الضاري على أرضها؟

كانت منطقة سوريا - فلسطين مكونة من خليط متداخل من المالك

والإمارات الصغرى، وكانت كل منها تخضع السلطة المباشرة للأسرة التي تحكم كلاً منها(4).

وعلى مدى العصر البرونزى المتأخر خضيعت كل منها لسيطرة ونفوذ أحد الممالك الكبرى، سواء قل ذلك النفوذ أو زاد، وكان تذبذب وتغير نفوذ تلك القوى الكبرى ينعكس على تلك الممالك والإمارات الصغرى.

وبالطبع، لم يكن من الطبيعي تمامًا لأى من تلك الممالك الصغرى ولا من الواقعي أن تتطلع إلى الاستقلال، أى أن تكون حرة دون خضوع لواحدة من الممالك الكبرى لم يتخيل ولم يسبع حاكم محلى ولا مواطن إلى ذلك لاستحالته، كانت التبعية لقوى عظمى حقيقة من حقائق الحياة، كان التحدى الذي يواجهونه هو تأمين حياتهم ووجودهم في عالم معاد ومتغير على الدوام، بعض الممالك استطاعت أن تدير أمورها على هذا النصو بنجاح كبير، خاصة أولئك الذين كان لديهم قدرًا من الذكاء السياسي والدهاء والقسوة، الذين حرصوا على عدم إفلات أي فرصة سانحة لتدعيم قوتهم على حساب سادتهم الكبار، قوتهم على حساب سادتهم الكبار، وهناك المزيد عن ذلك سنذكره في الفصل التالي.

ترددت أسلماء الحكام المحلين كشيراً وبرزت من خلال أرشيف مراسلات تل العمارنة، سلواء كانوا مرسلين لرسائل أو مذكورين في رسائل كتبت عنهم. أحيانا، كانت نسخ الرسائل موجهة إليهم أو الرسائل الأصلية التي لم ترسل بعد كتابتها لأسباب مختلفة. وتختلف الرسائل الواردة من الحكام والملوك التابعين اختلافاً ملحوظاً عن الرسائل التي يرسلها الفرعون إلى أنداده من كبار الملوك، فالأخيرة تحمل قدراً كثيراً من المسطلحات الدبلوماسية الرسمية، وبالرغم من احتوائها أيضاً على كثير من الشكوى إلا أن الغرض من ذلك كان تقوية الروابط القائمة بين ملكين وأسرتهما، كما رأينا، فإن أغلب محتويات الرسائل محصورة في الجوانب المادية من تلك العلاقات – مثل تبادل الهدايا، ومصاهرات التحالف وما مائل ذلك، ونادراً ما كانت تتناول تصورات سياسية لأحداث التحالف وما مائل ذلك، ونادراً ما كانت تتناول تصورات سياسية لأحداث

جارية أو تطورات عسكرية.

أما مراسلات الملوك والأمراء التابعين، فقد كانت مصدراً غنيًا بالمعلومات عن الجوانب السياسية والعسكرية، على الأقل في منطقة سوريا – فلسطين التي تشغلها تلك الممالك الصنغرى التابعة، كانت الصنياغات الرسمية في تلك المراسلات في حدمًا الأدنى، وكمثال على ذلك:

«أقول للملك، سيدى، وشمسى: رسالة من رب – حدا، خادمكم، وأتهب ربة جويلا القوة للملك، سيدى أسجد تحت أقدام سيدى سبعة مرات وسبع مرات أسجد» (5).

وبعد مجاملات التعظيم والإجلال المختصرة، سرعان ما يدخل كاتب الرسالة إلى صلب الموضوع، وهناك نماذج مستكررة من تلك الجوانب العملية: مثل طلب عاجل وملح للفرعون من أجل دعم عسكرى أو مساعدات أخرى لمواجهة أزمة عاجلة، أو شكوى من جار عنوانى متعد على مملكته، أو عملية فساد إدارى قام بها موظف مصرى كبير في الخارج(6)، تقارير عن تواطؤ أحد الحكام الخاضعين وعدو خارجى يمثل تهيداً للأمن المصرى وحدود نفوذ الدولة، تأكيدات بأن أوامر الفرعون قد تم تنفيذها أو ستتغذ بإخلاص، أو أعذار للفشل في أداء مهام وأوامر، من خلال تلك الرسائل نقرأ التاريخ في مراحل الصنع والتشكل، والتطلعات والطموحات والمخاوف لكثير من أولئك الذين صنعوا التاريخ. إن تلك برزى ورؤية لا تقدر بثمن، إلى عالم قطع الرقاب القاسي في داخل، وبين، برزى ورؤية لا تقدر بثمن، إلى عالم قطع الرقاب القاسي في داخل، وبين، من أجل البقاء – بالرغم من أن الحقائق التاريخية تعانى من تشويه لا مكن تجنبه، بسبب الشحذ الشخصي للأسلحة المغرضة.

من القراءة الأولى، تبرز الرسائل المصرية إلى المسالك السورية - القلسطينية التابعة أكثر الصور واقعية بلا تزويق عن الحكام التابعين خلال فترة تل العمارنة، بتعبيراتهم البدائية عن تحقير الذات، وشكاواهم

المستمرة من الظلم الذي يتعرضون له، ومطالب لا تنتهى من الفرعون، غير أن كثيراً من تلك الهموم والمخاوف كان حقيقيًا وله ما يبرره، وكما لاحظنا، كان المناخ السياسى، في أرض سوريا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مناخًا لا يتسم بأدنى درجة من درجات الاستقرار. كان مصير للمالك المعفري معلقًا بالدرجة الأولى على نتائج صراع القوة الدائر بين القوى الكبرى المهيمنة على المنطقة، ورغما عنهم كانوا جزءًا من الصراع ومن ضحاياه في أغلب الأحوال، بدءًا من الصراع المسرى – الميتاني، والحثيني الميتاني، والحثيني المصدى، كان من المستحيل أن تظل مملكة معفري في منطقة سوريا على حالة من الحياد، وكان إعلان تحالف إحدى معفري في منطقة سوريا على حالة من الحياد، وكان إعلان تحالف إحدى أخرى من الممالك الكبرى، كان الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من الحصافة أخرى من الممالك الكبرى، كان الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من الحصافة والذكاء السياسي؛ لتحديد المسار الملائم، وماهية الانحياز السياسي الأكثر ملائمة، لاختياره لخدمة مصالح الملكة الصغرى وبقائها، أو الأكثر ملائمة، لاختياره لخدمة مصالح الملكة الصغرى وبقائها، أو بتحديد أدق مجرد استمرار ملك الملكة الصغيرة على قيد الحياة.

وبالطبع، لا يجد ملك محلى على مملكة صغيرة أي حيلة، حين يجتاح ملك كبير مملكته بجيوشه، ويفرض سلطته وسيطرته وهيمنته على كل الممالك الصغرى التي يمر بها. غير أن حظوظ الممالك الكبرى من القوة كان دائم التبدل والتغير، وكان أي ملك على مملكة صغيرة يتسم بالدهاء السياسي، وتقع مملكته في منطقة تداخل وتقاطع نفوذ مملكتين عظيمتين يسعى إلى استغلال ذلك التضارب لصالحه بتحريك طرف كبير ضد الطرف الثاني، وكان يلجأ أحيانًا إلى التهديد، ولكن بخبث ودهاء، بأنه سيحول ولاءه وانتماءه عن الملك الذي لا يلبي له مطالبه، أو إذا رأى أن فرصة في البقاء والاستمرار ~ أو زيادة قوته – تتحقق بالاستجابة إلى الملك الأكبر خصم الملك الذي يخضع له، كانت لعبة خطرة عند القيام بها، وكان النجاح في أدائها يتطلب قبراً كبيراً من المهارة والصنكة، وكذلك قدراً كبيراً من المهارة والصنكة، وكذلك القوى قدراً كبيراً من المهارة والضعف لتلك القوى

الكبرى في كل لحظة.

كان الخطر الذى تشكله القوى الكبرى على الملوك التابعين لها لا يمكن إغفاله، كان كثير من الملوك التابعين يسعون إلى توسيع رقاع ممالكهم بغزو أجزاء من الممالك الصغرى المجاورة، وكان من أشهر من قاموا بذلك حكام عمورو، مثل: عبدى – عشيرتا، ومن بعده ابنه عزيرو، وكان عدوانهم المتكرر على الممالك المجاورة يبرز بوضوح من خلال رسائل تل العمارنة التي أرسلها من تعرضوا لذلك العدوان، وكان من أكثرهم تعرضاً للعدوان رب – حدا، حاكم جويلا، التي أصبح اسمها بيبلوس في العصر اليوناني وطرايلس في العصور الحديثة. وقام بنفس الأفعال العدوانية في وسط فلسطين الملك لابايا، حاكم معلكة شكيم، وأثار كثيراً من الشكاوى لدى الفرعون من جيرانه الذين تعرضوا للعدوان.

ولكن. كما سنرى فيما بعد، رد كل من لابايا والحكام العموريون على شكاوى جيرانهم وضحاياهم إلى حاكمهم الأعلى فرعون مصر بتأكيدهم على ولائهم الشديد للتاج المصرى، وإعلانهم أن الأعمال التى ترتبت عليها كل تلك الشكاوى لم تكن إلا لصالح التاج المسرى، لا لمسلحتهم الشخصية.

ولم تكن مثل تلك الادعاءات يمكن أن تضفى عن الفرعون الدوافع الحقيقية الكامنة وراء تلك التعديات، إلا أنهم كانوا على يقين من أن خطر الرد المصرى عليهم بكامل قوة الجيش غير محتمل – هذا بافتراض أن ولاءهم الشديد للفرعون جلى وواضح، ومما لا شك فيه أن الفرعون حرص على أن يكون التدخل المصرى في المسائل الشخصية والعسكرية الداخلية في سوريا وفلسطين، في حده الأدنى الضرورى، لاسبت مرار الهيمنة المصرية، خاصة في وجود التهديد العشيني المصوم على الدوام في الشيمال، الملاصق مباشرة لتلك المنطقة، وأدرك أمونه وتيب الثالث وأخناتون إدراكًا تامًا أنهما إذا عمدا إلى اتخاذ أي اجراءات عقابية ضد واحد من أولئك الملوك المحليين المشاغبين فإنهم يخاطرون بدفعه إلى

الارتماء في أحضان المعسكر المعادي، وياارغم من ذلك، كان يحدث أن أحد أولئك الملوك المشاغبين يأتي من الأفعال ما يتجاوز به حدود صبير الفرعون، خاصة أولئك الذين تبنوا سياسة حافة الهاوية ،فإنهم بالفعل يجدون أنه قد فات أوان النجاة من الهاوية.

كانت المسالح الشخصية والحفاظ على الذات هي المبادئ الحاكمة للعلاقة بين الفرعون وملوك سوريا - فلسطين الخاصعين لنفوذه، ولم يكن بالإمكان لوم الملك التابع على انتهاج تلك السياسة، وعلى الجانب المصرى، لم تكن المغامرات العسكرية الإمبريالية من تحتمس الثالث فصاعداً إلا استغلالاً للشعوب، الذين أخضعوهم لمكمهم، وقد يذكر أي امرئ أن الشيء ذاته يحدث مع كل إمبراطورية، فلا توجد أمة لها تطلعات إمبريالية خرجت في غزوات عسكرية لبناء إمبراطورية تقوم على تحقيق مصالح الشعوب الخاضعة، إلا أن مثل تلك الأمم الإمبريالية كانت تسعى على الدوام لخلق ذلك الرهم لدى الشبعوب الضاضيعة لحكمهم، في المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية، ومثل تلك الادعاءات أحبانًا ما تجد مندي معينًا، وتحقق الفائدة منها، على الأقل لبعض الوقت. إذا تذكرنا (على سبيل المثال) الفوائد السياسية والمادية التي ترتبت على سياسة رَوْمَنُهُ (اشتقاقًا من روما) الشعوب العديدة التي أخضعتها روما الإمبريالية لحكمها. الإدعاءات ذاتها، روَّجها في عصبور حديثة بنَّاس الامبراطوريات الأوروبية في أوطان تبعد عنهم بعداً جغرافياً شاسعاً، بعد أن احتلوا تلك الأوطان، وإن كانوا قد أفادوهم بالفعل بعض الفائدة.

إلا أن مصر لم يكن لها تلك البصبيرة، إذ قصرت فوائد مشاريعها الإمبريالية على نفسها فقط، دون أي فائدة الشعوب التي أخضعتها لحكمها(7).

فبعد غزو الهكسوس لمصر، استدعت الاعتبارات الاستراتيجية ضرورة الحفاظ على وجود متميز في سوريا - فلسطين، وزودتها شبكة الممالك الخاضعة بالوسائل اللازمة لتحقيق ذلك التواجد، كانت الهيمنة على تلك

الممالك المسغري تضمن للفرعون اعتباره من كبار الملوك في عصره، ويتأمينه أقصى الحدود والمناطق الشمالية الشرقية لبلاده، درً على خزائن الفرعون عوائد سنوية، وأتاح الفرصة لمصر للحصول على موارد طبيعية مختلفة من البلاد الخاضعة. كانت السياسة المتبعة هي الحصول على أقصى فائدة من الممالك السورية بأقل تكلفة ممكنة، كما لاحظنا، كانت هناك مراكز إدارية وعسكرية مصرية في كل الممالك، في حين تترك للملك المحلي إدارة شئون المملكة الداخلية، وأن يدفع من مصادره تكلفة توفير وسائل حماية مملكته.

ولو حكمنا من سبل المطالب التي كانت تنهال من الملوك التابعين، ومن استجرار شكاواهم أن طلباتهم لا تلقى صدى ولا استجابة من الفرعون، نتبين أن الفرعون كان لا يرى ضرورة في الاستجابة لكل تلك المطالب، إن لم تكن هناك أسباب ملحة ترغمه على الاستجابة لأى منها. على العكس، كان ينتظر أو يطلب من الملوك الخاضعين أن يتخذوا مبادرة حل مشاكلهم بانفسهم – حين بواجهون مثلاً تهديداً أو عدواناً من ملك مجاور،

وكما لاحظنا، لم تظهر أبدًا أي معاهدة بين أي فرعون وأي ملك خاضع للنفوذ المصرى، مثل تلك المعاهدات التي حددت العلاقة بين الحثينيين والملوك الخاضعين لهم، المعاهدات التي لم تقتصر على واجبات الملوك الخاضعين تجاه الملك الحثيني، بل نصت أيضًا على واجبات الملك الحثيني تجاه المالك الصغرى إذا تعرضت لهجوم من قوة مغايرة، حتى إن كانت هناك اتفاقات رسمية هيأت للملوك التابعين توقعات معينة من ملكهم الأعلى الفرعون(8)، فإننا يمكن أن نستنتج من نصوص المراسلات أن تلك التوقعات لم تتحقق في الجل الأعظم منها. كانت سياسة عدم التدخل تلك التي اتبعها فراعنة مصر هي التي أساء (عبدي – عشيرتا) استغلالها، حين راح يهاجم المالك المجاورة، ويستولي على أجزاء منها؛ لتحقيق مطامعه الإقليمية على حساب جيرانه من الملوك الخاضعين الحكم المصري، كما لم يكن لها، أي تأثير رادع على المشاغبين وعلى الصراعات

التى كانت تنشب بين المعالك الصغرى، وربعا كان الفرعون يرى أن تلك الصراعات ليست سيئة فى جانبها العملى، بل ربعا كانت أفضل له، حتى تظل الممالك الصغرى منقسمة ومتشاحنة -- ويتشكون من عدم تدخله أكثر من أن يصبحوا مدركين لفائدة ترك خلافاتهم جانبًا ويتحدون كلهم ضده(9).

في كل الأحوال، قد نتسائل إن كان بعض الشاكين قد غالوا في شكاواهم، وأساليبها البلاغية، خاصة في ظل الإدعاء أن أخناتون أهمل شئون إمبراطوريته، بسبب انشغاله الشديد بإلهه الشخصى وتشييد مدينته الجديدة، ولا ننسى أنه بينما كان أخناتون هو متلقى أغلب رسائل الشكاوي، كان بعضها موجهًا إلى أبيه آمونحوتيب الثالث. وربما عانى آمونحوتيب في أعوامه الأخيرة من مشاكل صحية جمة، إلا أننا لابد أن نتذكر أن سجل عهده الملكي يدل على أنه كان ملكًا قويًا قادرًا ذا مبادئ ويحظى باحترام كبير، وأن مصر وكل البلاد الخاضعة لها نعمت في عصره باستقرار ورخاء شديدين، وباستثناء ذلك، هناك دليل واضح، كما عضري، أنه كان يتخذ قرار المبادرة حين يجد أنه الأنسب في المالك التابع السورية، بحسم وحزم، كما كانت هناك مناسبات يويخ فيها الملك التابع التي يبعث بشكوى لفشله في التصرف طبقاً لأوامر الفرعون ونصيحته التي أرسل إليه بها، ولإحالته إلى الفرعون شئونا من صميم اختصاصاته ومسئولياته في إدارة مملكته الصغري.

من المهم جداً أن تظل كل تلك الاعتبارات السابقة في أذهاننا، في جواتنا في خضم الأنواء والتقلبات السياسية والعسكرية في ممالك سوريا – فلسطين، خلال العصر البرونزي المتأخر، ومن داخل ذلك العالم سنتابع على وجه الخصوص في الفصل التالي، مصير مملكة تابعة أصبحت أقرى مملكة سورية خاضعة، وهي مملكة عمورو، وتفاعلها مع مركب الممالك الصغري المجاورة، ومع القوى التي تكمن خلفها، ولكن قبل أن نخوض ذلك الغمار، من المفيد أن نعيد بناء المشهد، بأن نعرض أهم ممالك سوريا

- فلسطين في ذلك العصر، وحكام تلك الممالك كما عرفوا من خلال رسائل تل العمارية، ومن رسائل أخرى معاصرة أو قريبة من العصر. ولهذا الغرض، سنقسم تلك الممالك إلى أربعة أقسام: تلك التي تقع على الساحل الجنوبي، وتلك التي تقع على الساحل الشمالي، والممالك الداخلية في فلسطين وجنوب سوريا، ثم الممالك الواقعة في شمال سوريا.

المجالك الدغرس المجالك الواقعة جنوب الساحل الشرقس

مملكة جوبلا

كانت جويلا (بيبلوس الإغريقية) مملكة تقع على الساحل الشرقى للبحر المتوسط شمال بيروت، ومن عاصمته جويلا، فرض ملكها رب حدا هيمنته على عدد من المدن الساحلية الصغرى المجاورة لجويلا، ومنها باترونا وشيجاتا وأميًّا وبترا، وتشكل رسائله إلى أخناتون النسبة الأكبر من رسائل الملوك التابعين إلى ملكهم الأعلى، من بين مجموعة رسائل تل العمارنة، كانت أغلب رسائل رب - حدًّا تدور حول عدوان ونهب وتخريب عبدى - عشيرتا وابنه عزيزو، حكام مملكة عمورو الواقعة شمال جوبلا، وفي الفصل التالى سنناقش ببعض التفصيل المعلومات التي زودتنا بها للرسائل.

بيروت

كانت بيروت (بيروتا في رسائل تل العمارنة) الجار الجنوبي لمملكة جوبلا على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وتحتوى رسائل تل العمارنة على بضعة رسائل من حاكمها أمُّونيرا إلى أخناتون(11). وتحالف رب حدا حاكم جويلا مع أمونيرا، في محاولة منه للتصدي للعدوان العموري، وبعد أن فقد عرشه - في انقلاب وقع ضده - لجأ إلى رب - حدا، وظل

منتظرًا بلا طائل وصول الدعم المصرى؛ لاستعادة عرشه،

صيدا وصور

وفي جنوب الساحل الشرقي للبصر المتوسط كانت تقع صديدا (صيدونا) وصور (سورو)، ولجأ أيضًا رب – حدا إلى المدينتين طالبًا دعمهما له ضد عدوان عبدى – عشيرتا العموري، كان حاكم صور في ذلك الوقت ملك يدعي ابي سميلكو. وكان يزود الفرعون بانتظام بالمعلومات السياسية والعسكرية الهامة عن منطقته. والرسائل التي كتبها إلى أخناتون(12). تعد مصدرًا قيمًا للمعلومات عن الانشطة السياسية والعسكرية التي كانت تقع في تلك المنطقة، وعن الصراعات والنزاعات التي كانت تقع بين الملوك الخاضعين لحكم الفرعون في الجنوب الشرقي الساحل المتوسط، وتمتلئ رسائله بالشكوي من حاكم صيدا زيمردًا، حيث اتهمه ابي – ميلكو بأنه يعتدى على مدينته، وأنه يتعاون مع أعداء الفرعون وخاصة عز يرو، كان زيمردًا قبل ذلك من الملوك المخاصين للتاج المصري، واتهمه ابي سميلكو بتزويد عزيرو بمعلومات استخبارتية هامة(13)، كما وحدً قواته البحرية والبرية مع قوات جزيرة اروادا (أرفاد التوراتية)؛ وحدً قواته البحرية والبرية مع قوات جزيرة اروادا (أرفاد التوراتية)؛

الهجالك الواقعة شمال الساخل الشرقي

أوجاريت

كانت أوجاريت تشغل مساحة تصل إلى 2000 كيلو متراً مربعًا، وكانت من أكبر الممالك الصغرى وأكثرها رخاءً وانتعاشًا من ممالك سوريا(16)، كانت مدارج الجبال والسهول الخصبة وجوها المعتدل وأعطارها الغزيرة تضمن لسكانها محاصيل زراعية وفيرة، بما فيها

الكروم وإنتاج النبيذ والزيوت، والحبوب والكتان، بالإضافة إلى أنواع كثيرة من المسوجات الكتانية والصوفية. كذلك عرفت بمراكزها التعدينية التى اشتهرت بمصنوعاتها البرونزية وصياغة الذهب، كانت عاصمتها الملكية تتوسط مدنًا عديدة وقرى كثيرة، كما كانت ملاصقة لميناء طبيعى ممتاز يمتد إلى مسافة 50 كيلو مترًا على الساحل، لذلك كانت أهم ميناء تجارى عالمي، ملىء على الدوام بمراكب وافدة من جميع أنحاء شرق البحر المتوسط، تفرغ بضائعها وتحمل بضائع أخرى، جُلبت عبر اليابسة من جميع أرجاء سوريا والأناضول ومنطقة ما بين النهرين، كما كانت تنوفر في غابات مدارج الجبال بكثرة تغيض عن الاحتياج المحلى، ومطلوبة لباقي أسواق العالم القديم، كذلك كانت جبالها المعشبة مراعي نموذجية لحيوانات الرعي، فكثرت وانتعشت الحيوانات الرعوية بها، كذلك كان القمح والكرم والزيتون يزرع بكثافة في وبيانها الساحلية.

وكان ثراء أوجاريت، ومواردها الطبيعية الكثيرة وموقعها الاستراتيجي الهام سياسيًا وتجاريًا يجعل منها قبلة تطلعات كل القوى الكبرى في عصرها، كانت أوجاريت قد قررت أن تظل مستقلة عن أى من تلك القوى قبل فترة تل العمارنة، بينما كانت تحتفظ بعلاقات ودية دافئة مع الميتانيين، ولكن بعد ذلك حين أصبحت المواجهة الشاملة بين الميتانيين والحثينيين وشيكة، نجد ملك أوجاريت عميشتامرو الأول يعلن ولاء لفرعون مصر، والرسالة التي أعلن فيها ذلك والمصنفة تحت رقم EA45، موجهة إما إلى أمونحوتيب الثالث أو إلى أخناتون في الأعوام المبكرة من موجهة إما إلى أمونحوتيب الثالث أن الواردة من أوجاريت إلى مصر، كما توجد بضع رسائل أخرى تحتوى على تأكيد ولاء عميشتامرو للفرعون(17). ومما لا شك فيه أن ملك أوجاريت رأى في التحالف مع مصر – إن لم يكن في حقيقة الأمر خضوعًا إراديًا كاملاً لها – أنه أنسب وأحكم قرار سياسي، إذا أراد تجنب التورط في الصراع الحثيني –

الميتاني الوشيك. كانت محاولة البقاء على الحياد تحمل قدراً عاليًا من المخاطرة، خاصة مع وجود تلك الجاذبية الشديدة والأهمية الاستراتيجية والغني المادى الذي تمثله أوجاريت لأى غاز، وفي الوقت نفسه، كان إعلان تأييد الميتانيين أو الحثينيين سيعرضه لا محالة اللهجوم من الطرف الأخر. أما مصر، فقد كانت متحالفة مع الميتانيين، إلا أنه كان من المعروف لجميع الأطراف أن الملك الحثيني سبيلوليوما كان يتهلف إلى توثيق علاقات الود والصداقة مع مصر – وكان دافعه إلى ذلك رغبته في إبقاء مصر خارج ذلك الصراع، ولم يكن يحتمل أن يثير سبيلوليوما غضب مصر بمهاجمة أحد حلفائها أو رعاياها.

في إطار تلك الظروف، كان التجالف مع مصد يتيح لأوجاريت أفضل فرص تجنب توريطها في أتون الحرب الحثينية الميتانية الشاملة، ومن المهوم أن عميشتامرو رفض كل محاولات وعروض سبيلوليوما للانضمام إليه، إلا أنه بعد ذلك بفترة قصيرة، مات عميشتامرو، فجدد سبيلوليوما عرضه على ابنه وخليفته نيكمادو الثاني، ونجح في تلك المرة، وتحت حكم نيكمادو الثاني، أصبحت أوجاريت حليفة للحثينين(18).

grgae

كانت أرض عمورو تقع جنوب أوجاريت بين نهر العاصى وساحل البحر المتوسط، وإلى الجنوب منها كانت تقع مملكة جويلا، وفي عصر مراسلات تل العمارنة كانت عمورو تحت حكم عبدى – عشيرتا، وسنخصص الفصل التالى لدور العموريين في تاريخ فترة تل العمارنة، تحت حكم عبدى – عشيرتا أولاً، ثم تحت حكم ابنه عزيرو من بعده، وتزودنا الرسائل التي كتبها كل من عبدى عشيرتا وابنه عزيرو والرسائل المرسلة إليهما، وكذا الرسائل التي كتبت عنهما برؤية عميقة للأجواء السياسية، والتطلعات والطموحات، والخيانات، والمؤامرات، وتغيير الولاء، والانتماء الذي كان يغلب على السياسات المحلية، والمغامرات العسكرية

المحالك الداغلية في فلسطين وجنوب سوريا

شكيم

كانت شكيم مملكة منتعشة اقتصاديًا وقوية في وسط فلسطين، وكانت تقع في منطقة غنية خصبة غرب وادى الأردن، على بعد 70 كيلو مترًا شمال مدينة القدس(19)، وفي عهد العمارنة تحولت شكيم لتصبح مركز أمبراطورية صغرى، وحقق حاكمها لابايا ذلك الوضع لها عن طريق غزو أراضى الممالك المجاورة الواقعة شمال المملكة وغربها، كانت أنشطته العدوانية مماثلة لتلك التي يقوم بها عبدى – عشيرتا، ومثلما فعل عبدى – عشيرتا، أحاط لابايا هو الآخر ملكه الأعلى فرعون مصر علمًا بأقوال كثيرة عن ولائه الشديد وإخلاصه للفرعون حين لامه على أنشطته غير للقبولة(20)، ومثله مثل عبدى – عشيرتا أيضًا، وصلت مغامراته المسكرية إلى توقف مفاجئ، حين نفذ صبر الفرعون والقي الجيش المصرى القبض عليه، وربما يكون قد أعدم.

أوبي / آبينا

كانت أوبى – أبينا (وهى المنطقة الواقعة جنوب سهول حمص حول بمشق بما فيها دمشق) هى آخر حدود جنوبية للحملة العسكرية الحثينية، التى استغرقت عامًا كاملاً بقيادة سبيلوليوما، وكانت تقع فى الجانب المصرى لمناطق النفوذ بسوريا، وأعيدت إلى النفوذ المصرى، بعد غزو سبيلوليوما لها فى فترة لاحقة، ثم أعاد الحثينيون احتلالها بعد الفوضى التى تلت معركة قادش، وأسند الملك الحثيني ميواتاللي حكمها إلى أخيه حاتوسيلي (الذي أصبح بعد ذلك الملك حاتوسيلي الثالث) لفترة من الزمن، وخلال مرحلة تل العمارنة كان حاكمها بيرياوازا متورطًا في صراعات مع

جيرانه، خاصة مع جاره الشمالي أيتاكاما، حاكم قادش الذي كان مازال خاضعًا للنفوذ المصرى، وأرسل كل منهما شكاوى ضد الآخر إلى فرعون مصر، كان بيرياوزا متهمًا بالتعدى والعدوان الصارخ على أيتاكاما، وبغزوه لكل مملكته وإحراق مدنها(21)، واتهمه اتياكاما أيضًا بالتعاون مع عصابات الحابيرو الخارجة على القانون(22)، وما ترتب على ذلك من ضياع تلك المدن على فرعون محسر لصالح تلك العصابات، وادعى بيرياوازا أن الحابيرو كانوا حلفاء له، لخدمة مصالح الفرعون(23).

لم يكن جيران بيرياوازا فقط الذين أرسلوا شكاوى ضده للفرعون، بل كان موضع شكوى واحتجاج الملك البابلى بورنا بورياش، الذي أرسل للفرعون متهما بيرياوازا بنهب قافلة سالمو، أحد أهم مبعوثى بورنابورياش، بينما كانت القافلة في طريقها من بابل إلى جلاط فرعون مصر، مصر(24)، وبالرغم من تأكيد بيرياوازا المستمر على ولائه لفرعون مصر، بعبارات خضوع شديد في رسائله للفرعون منها: «إن سيدى شمس السماء، ومثلما تصدر الكلمات من شمس السماء ينتظر خدمك الكلمات التي تخرج من فم سيدهم»(25)، ثم يدعى بعد ذلك أنه هو الضحية الذي وقع عليه عدوان أعداء الملك، ولا يوجد شك في أنه كان أخر من يمكن الوثوق به من الملوك التابعين للنفوذ المصرى، وكان السبب الرئيسي في الفوضى الزمنة بين كل المالك الداخلية الخاضعة للنفوذ المصرى.

الممالك الداخلية في شمال سهريا

قرقعيش

كانت قرقميش الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات آخر مدينة ميتانية حصينة غزاها سبيلوليوما الحثيني، وكان سقوطها بمثابة انتهاء أكبر عملية عسكرية حثينية، في سياق تدمير الحثينيين للمملكة الميتانية تدميراً كليًا شاملاً، ومن بعد ذلك تحولت قرقميش إلى مملكة محلية،

يحكمها أحد أبناء الملك الحثيني، الأمير شارى - كوشوه (بياسيلي سابقًا)، ابن سبيلوليوما، وكان أول ملك حثيني تابع يعين عليها.

حلب

تقلصت مملكة حلب كثيرًا عما كانت عليه، بعد ما كانت تسيطر على كل أنحاء شمال سوريا، بعد أن أصبحت إحدى المماثك الخاضعة أيضا النفوذ الحثيني، بعد ما كانت مملكة ميتانية. وبالمثل في حلب، تخلى الملك الحثيني عن سياسته المتبعة بتعيين حاكم محلى بأن عين ابنه تبليبينو ملكًا عليها، وبين قرقميش وحلب تحولت كل الأراضى السورية التي احتلها الحثينيون إلى ممارسة كل السلطات الحثينية سياسيًا، وإداريًا ودينيًا وقضاء، وكانها تحت الحكم المباشر الملك الحثيني ذاته.

أشتاتا وإيمار

كانت مملكة أشتاتا تقع إلى الجنوب من قرقميش في المنطقة التي يطلق عليها أحيانًا «الانحناءة الكبرى الفرات». كانت تخضع إلى حد كبير اسلطة قرقميش، عندما تأسست قرقميش كولاية تابعة، وفي عهد مورسيلي الثاني بن سبيلوليوما الحثيني، اكتمل بناء مدينة جديدة باسم إيمار في منطقة أشتاتا، تحت إشراف الحثينيين قريبة من مدينة قديمة، كانت تحمل ذلك الاسم، كما يتضح من سجلات ماري(26)، وسوف نناقش في الفصل العاشر بعض المراسلات المكتشفة حديثًا والتي تبادلها كاهن إيمار مع الملك الحثيني.

موكيش

كانت موكيش تقع شمال أوجاريت، وكانت أول ولاية سورية تقابل القوات العسكرية والنجار والمبعوثين القادمين من الأناضول إلى سوريا، وكانت رسميًا جزءًا من حلب، وخضعت لهيمنة الميتانيين بعد دمار الملكة

الحثينية في عهد مورسيلي الأول، وكانت من ضمن البلاد التي أسند الملك الميتاني باراتارنا إدارتها إلى ملك تابع له يدعي إيدريمي، ثم غزاها سبيلوليوما في حملته العسكرية التي استمرت عامًا على سوريا. وبعد ذلك مالت موكيش إلى التفلص من النفوذ الحثيني بالدخول في تحالف مضاد الحثينيين، مكون من بضع ولايات في شمال سوريا، كانت منها ولايتا نيا وأرض نوحاس، وتم سحق ذلك التمرد على أيدى قوة حثينية، وتم اقتطاع أجزاء كبيرة من موكيش ونيا، وضمت لحكم ملك أوجاريت نيكمادو الثاني، الذي كان قد تحالف مع الحثينيين بعد موت أبيه وارتقائه العرش من بعده، وكان قد رفض الانضمام لذلك التحالف المضاد للحثينيين.

نيسا

كانت نيا واحدة من ولايات شدمال سوريا التى سقطت في يد الحثينيين، خلال حملة سبيلوليوما على سوريا التى استغرقت عامًا كاملاً، وكما لاحظنا أنه أثناء الفوضى التى أعقبت تلك الحملة اقتطع سبيلوليوما جزءًا كبيرًا من نيا، وضعه إلى أوجاريت، أما الملك الذى كان يحكم ما نبقى من نيا، والواقع على الضفة الشرقية لنهر العاصى، فقد كان يخضع للنفوذ المصرى خلال فترة تل العمارنة(27)، وكان هو الأخر من ضحايا جشع عزيرو العمورى، كما ورد في رسائل أبناء مملكة تونيب إلى الفرعون(28).

أرض نوحاس

كانت بلاد نوحاس تقع إلى الجنوب من نيا، محصورة في منطقة تقع بين نهر الفرات في الشرق ونهر العاصى في الغرب، وكان من الواضع أنها كانت مكونة بدورها من عدة ممالك صغرى لكل منها حاكم، يكونون معًا نوعًا من الكونفدرالية التي يجعلون فيها لواحد منهم الكلمة العليا.

كانت بلاد نوحاس متحالفة أو خاضعة للميتانيين، إلا أن سبيللوليوما نجع في عقد اتفاق تحالف مع واحد من ملوك نوحاس، أثناء إعداده

لحملته العسكرية على سوريا التي استمرت عامًا، وهو الملك شاريشي، ورد الملك الميتاني عوشراتا على ذلك بغزو مملكة شارويشي، فوجه شارويشي نداء إلى سبيلوليوما طالبًا عونه، ولسوء حظ شارويشي، قام بعض أعضاء أسرته باغتياله قبل أن تصل المساعدة المطلوبة، وأعادوا المملكة إلى تحالفها السابق مع الميتانيين ويحكم ملك جديد هو عدو نيراري، وظل سبيللوليوما منشغلاً بغزو أرض الميتانيين، ولم يكن لديه وقت للاهتمام بمشكلة نوحاس، حتى تمكن من اجتباح عاصمة الميتانيين واشوجاني والاستيلاء عليها، وعند عودته إلى غرب القرات غزا بلاد نوحاس، وخلع ملكها ورحل كل عائلتها الملكية إلى بلاد الحثينيين، وسيطر سيطرة مباشرة على كل منطقة نوحاس(29).

قطنا

كانت (قطنا) تقع شرق نهر العاصى، على مسافة ٤٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من قادش، كانت في السابق خاضعة للنفوذ الميتاني، وكانت هي الأخرى من الولايات السورية التي سقطت في يد الملك الحثيني سبيللوليوما في حملة العام الكامل على سوريا، وأثناء حقبة تل العمارنة كان يحكمها أحد أفراد عائلة اكيزي المالكة وكانت خاضعة في ذلك الوقت للنفوذ المصري، ويحتوى أرشيف تل العمارنة على بضع رسائل كتبها حاكم (قطفا) لفرعون مصر أخناتون(30)، وتلك الرسائل عبارة عن شكاوى للفرعون من العدوان الواقع عليهم والذي يقوم به عزيرو العموري، وعلى الأخص عدوان (اتياكاما) حاكم قادش، وكان اتياكاما مدعوما من الحثينيين، وهاجم (قطفا) بهدف إجبارها على تغيير ولاءها لتنضم إلى المسكر الحثيني.

تونيب

كانت مملكة تونيب خاضعة لنفوذ مملكة حلب السورية، ثم أصبحت

خاضعة النفود المصرى بعد حملات تحتمس الثالث العسكرية، وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر العاصى، ونتبين من تسجيلات تحتمس عن حملته السابعة عشرة، أن تونيب وقادش كانتا قد تمردتا على الحكم المصرى، وكان ذلك بدعم من الميتانيين، إلا أنهما بقيتا تحت الهيمنة المصرية، وبطول حقبة تل العمارنة أصبحتا من أقوى المدن الحصينة في أقصى شمال منطقة النفوذ المصرى في سوريا، ولما خلا عرشها بعد موت ملكها اكى – يتشوب، كتب مواطنو (قطنا) إلى أخناتون رسالة يطلبون فيها من أخناتون أن يعيد إليهم ابن أكى – يتشوب، ليجلس على عرش أبيه، وكان قد حجز في البلاط المصرى؛ «لإعادة تأهيله»(31)، كما عبروا في الرسالة عن خوفهم من سقوط مدينتهم ضحية لأطماع عزيرو، مثلما حدث لدينة سومور، وهناك ما سنذكره عن سومور في الفصل التالي.

قادش

كانت مدينة قادش(32) (مدينة تل نبع ~ مند حاليًا) تقع على نهر العاصى في المنطقة التي يمكن اعتبارها كجبهة فاصلة بين شمال سوريا وجنوبها، وبرز اسمها كثيرًا في الصدامات العسكرية بين القوى الكبرى في ذلك العصر، وظهرت في البداية في التسجيلات كحليفة للميتانيين، إلا أنها هزمت هي ومدينة مجدو في أولى حملات تحتمس الثالث العسكرية على أسيا، وتأكد خضوعها للنفوذ المصرى بعد حملته العسكرية الثانية.

وترسخ وضعها كمملكة خاضعة للنفوذ المصرى بشكل نهائى بعد الاتفاق الذى عقد بين الميتانيين ومصر فى عهد تحتمس الرابع، ووفى سبيلوليوما بمعاهدة السلام التى عقدها مع مصر أثناء حملته ضد الميتانيين ولم يمسها، إلا أن الميول الموالية للميتانيين داخل المدينة كانت ما تزال على قوتها، وكان على رأس ذلك المسكر الميال للميتانيين ملك المدينة شوتارنا، فشن هجومًا غير مبرر على قوات سبيللوليوما وهى تمر بالقرب من مدينته، ورد سبيللوليوما على ذلك المعدوان بمهاجمة المدينة وغُزْوها،

وأزاح ملكها عن عرشه، ورحل أهلها إلى بلاد الحثينيين كأسرى، وكان ابن الملك شورتانا الأمير ايتاكاما من بين الأسرى الذين سيقوا إلى بلاد الحثينيين، إلا أن سبيالوايوما سمح له بعد ذلك بالعودة، وشغل مكان أبيه على عرش المدينة، في البداية أبدى أيتاكاما كثيراً من مظاهر الولاء لفرعون مصر(33)، ألا أنه أصبح من الواضح جداً أثناء حقبة مراسلات تل العمارنة أنه أصبح هو ومعلكته موالين للمعسكر الحثيني، وبقدر ما نعلم، لم تظهر مصر أي احتجاج ولا رد فعل لخسارتها لقادش، على الأقل في عهد أخناتون، إلا أن التساؤل، من كبار الملوك كان يمكن له أن يدعى السيادة على قادش، ظل تساؤلاً بلا إجابة لفترة زمنية طويلة، وكما سنرى، كان توت عنخ أمون هو أول من وضع تلك المشكلة في موضع الاختبار، وترتب على ذلك الاختبار تداعيات خطيرة، في الوقت ذاته، استغل أيتاكاما الفرصة أقصى استغلال في حماية سبيالوليوما، وتحالف استغل أيتاكاما الفرصة أقصى استغلال في حماية سبيالوليوما، وتحالف مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع معداكته، على حساب الملوك المحليين المجاورين الموالين الموري، وقام بتوسيع مع حكام محليين أخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العموري، وقام بتوسيع معربة مملكته، على حساب الملوك المحليين المجاورين الموالين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموري، وقام بتوسيع رقعة مملكته، على حساب الملوك المحليين المجاورين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين الموانين المورى، وقام بتوسيع رقع معانية ساب المانية المحلية المحل

كان اسم عمورو ~ في نصوص الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد - يشير إلى منطقة واسعة تضم أغلب أرض سوريا الجالية، إلا أن الاسم أصبيح يدل بعد ذلك على معنى أكثر تحديدًا، يغطى في مفهومه العام المناطق المبتدة بين نهر العاصبي ووسط السباحل الشبرقي لليبصر المتوسط، وخلال حملات تحتمس الثالث العسكرية على سوريا تم إخضاع تلك المنطقة وضمها إلى منطقة نفوذ الإمبراطورية المصرية في سوريا، إلا أن ذلك كان اسميًا فقط، كانت بلاد عمورو منطقة خطيرة تسكنها قبائل عدوانية شرسة، يخاطر بحياته من يمر بها من تجار، أو بعثات رسمية، أو مسافرين مرتحلين، فقد كانوا عرضة للهجوم في أي لحظة وهم يقطعون تلك البلاد، وينهب كل ما معهم ويقتلون على أيدى مجموعات همجية من أناس شبه قبليين، كانت تغص بهم جبال المنطقة وغاباتها ويشكلون تهديدًا شديد الخطورة، ليس فقط على من يتحلون بالشجاعة أو يتصفون بالحمق بما يكفي للمرور بأرض عمورو بلا حماية كافية، بل أيضًا على المجتمعات المتحضرة المستقرة في مدن تقع على مدى قريب من متناولهم، كانت قدرتهم على الانقضاض المفاجئ على ضحاياهم دون أي توقع، ثم اختفائهم المفاجئ دون أثر في حنايا الغابات أو تجاويف الجبال، قبل التمكن من اتخاذ أي إجراء ضدهم يجعل من اسم حابيرو الذي اشتهروا به، أحد أكثر الأسماء بنًّا للفزع والرعب في كل أرجاء منطقة سوريا.

كانوا في البداية مكونين من مجموعات كثيرة من عصابات منفردة، تضم الهاربين والمهمشين اجتماعيًا وسياسيًا، كانت أعداد الحابيرو تتزايد بانضمام كل المجرمين إليهم، والقراصنة الجائلين، والمغامرين الساعين إلى الإثارة وأعمال النهب التي توفرها لهم العصابات الجائلة في شمال كنعان الثرية، وأغرى ذلك كثيراً من مجتمعات بأكملها للانضمام إليهم، كما انضم غيرهم بالقوة إلى تلك الأنشطة، فقد كان ذلك البديل الوحيد عن التعرض للذبح أو العيش تحت خوف دائم وفقر بسبب تعرض مدنهم وحقولهم النهب والتدمير.

حتى إن زيميردا ملك صيدا كتب للفرعون قائلاً: «لابد أن تعلم جلالتك أن العداوة ضدى وصلت إلى أقصى مدى، كل المدن التى وضعتها تحت حكمى انضمت للحابيرو»(2).

وكانت الأحوال تصل إلى أسوأها حين تشن عصابات العابيرى غاراتها منفردة فى مجموعات لا تنسق عملياتها، كانوا يشيعون القوضى وعدم الاستقرار بين كل الممالك المحلية والإمارات الخاضعة لنفوذ الفرعون فى أنحاء سوريا، واتضع ذلك بجلاء من خلال المراسلات الواردة لفرعون مصدر من معالك سوريا. فكيف يكرن الحال إذا تم تكمم تشررم تلك العصابات وتم توحيدها تحت قيادة رجل واحد؟!

نشاط عبدس – عشيرتا

في عهد أمونحوتيب الثالث ظهر ذلك الرجل الذي وحد الحابيرو، وهو رجل يدعى عبدى – عشيرتا(3)، برز من بين صفوف زعماء القبائل المحلية، ما ميزه عن أنداده أنه كان ذا بصيرة، ولديه تطلعات وطموحات، وواسع الرؤية وبعيد النظر، في رؤيته لمنطقته موحدة تحت هيمنته، كانت لديه رؤية مدركة للإمكانيات غير المحدودة في استغلال الشعوب، ومصادر الثروات داخل منطقته وخارجها إذا تمكن من توحيد عصابات الحابيرو.

لم تكن الرؤية وحدها كافية لتحقيق ذلك الهدف، فقضافرت معها مهاراته الشخصية وعزيمته وقوة إرادته لتحقيق ذلك.

فى سبيل ذلك لم يكن بحاجة فقط لدعم رفاقه من زعماء القبائل المحلية ورؤساء العصابات والقتلة، بل كان محقاجًا الاستمرارية خضوعهم وطاعاتهم له بلا مجادلة كقائد لهم، ويتطلب تحقيق ذلك قدرًا كبيرًا عنهم

من البطولة، كانت جماعات الحابيرو بطبيعتها فوضوية ولا ترضى بالخضوع لأى سلطة ولا بالانتظام الجماعي والتخلي عن استقالالهم الفردى أو انضوائهم في عصابات صغرى الذي يمليه عليهم طاعتهم لعبدى عشيرتا، ولابد أن المكافئت التي قدمت لهم من نفوذ ومزايا مادية كانت ضخمة جداً، حتى يتمكن من ترويضهم، ولا يوجد شك أن عصابات الحابيرو التي كانت بشمال أرض كنعان شكلت العنصر الأساسي من بين قوات عبدى – عشيرتا التي استخدمها لبناء قوته في أرض عمورو والتي بدأ بها اعتداءاته على جيرانه من المالك الصغرى.

إلا أن النجاح في مثل ذلك المسروع كان يتطلب تغييراً في الاستراتيجية، فقبل ذلك كانت أهم سمة وأنجز سلاح في يد الحابيرو هو عدم ظهورهم، أي الكر المفاجئ والفرار السريع والاختفاء كجماعات صغيرة العدد، وقدرتهم على الاختباء السريع دون ترك أثر يقود إليهم، وكان من الصعب على أي جيش نظامي التعامل مع مثل تلك العصابات، ويمجرد أن تنتظم تلك الجماعات الصغيرة في وحدات عسكرية كبيرة وتشتبك في معارك تقليدية يصبحون أكثر عرضة للهزيمة على أيدي جيش نظامة.

ونمت قوات عبدى ~ عشيرتا، حتى أصبح بإمكانها شن هجمات ناجحة على مدن كبرى، حتى لو كانت بتلك المدن حاميات عسكرية، إلا أنهم لم يكونوا أندادًا يعتد بهم في مواجهة حملة عسكرية مؤلفة من قوة عسكرية كبرى، مكونة من جنود مدربين تدريبًا عاليًا على فنون القتال، ومجهزين بأسلحة قتال مثل قوات الفرعون.

لم يكن لدى عبدى – عشيرتا أى نية لإثارة صداع مع مصد، غير أن استمراريته فى إحكام قبضته على قوات الحابيرو لم تكن لتستمر إلا بالتاويح الدائم لهم بمكافأت أكبر، ولم يكن لك ليتحقق ذلك إلا باستمرار وتكرار شن الهجوم على الممالك المجاورة الخاضعة لنفوذ ملك مصد، والنظرة السطحية تظهر أن الترجهين متعارضان، فقد كان تجنب الدخول

في صدراع مباشر مع مصدر – وفي الوقت نفسه الهجوم على الممالك الصغرى الخاضعة لها – يتطلب توازنًا دقيقًا في إدارة التوجهين باقتدار، كان التحدي الذي واجهه هو كيفية مزج تطلعاته الشخصية وطموحاته وقواته المتعطشة للغزو والنهب والحصول على غنائم – تحت غطاء تمويهي يتظاهر فيه بأنه عين نفسه بطلاً باسم الفرعون في تلك المنطقة، لرعاية مصالح الفرعون، كل مشروعاته التوسعية وهجماته بغرض السلب، كان يقوم بها بصفته وكيلاً للفرعون، وأي اعتراض على أفعاله لدى الفرعون كان يرد على الفور باتهامه بالخيانة وعدم الولاء للفرعون من كبار موظفي الملك في الممالك الخاضعة، أو من الرعايا المطيين، كانت تلك على الأقل هي المفاهيم التي سعى على الدوام إلى التأكيد عليها في كل رسائله إلى المالك المصرى.

كانت سومور القريبة من حدود مصر الشمالية(4) بمثابة حالة اختبار، فبعد أن احتل عبدى - عشيرتا مدن ارداتا وإرقاطه جنوب عمورو، راح يتطلع إلى الحامية الاستراتيجية الواقعة في الشمال، غير أن المفوض المصرى «بحانيت» نائب الفرعون كان يقيم بقصر بها وكان غائبًا في ذلك الوقت.

ووفر غياب باهانيت مندوب الفرعون الفرصة الملائمة التي كان يتطلع إليها عبدى عشيرتا، فقد قاد قوات الحابيرو، وهاجم المدينة واحتلها بعد مقاومة يسيرة، وفي الحقيقة لم يكن للحظ أي دور في اختياره للمدينة ولا في استيالائه عليها، فريما كان قد انتظر حتى سافر باحانيت وهاجم المدينة في غيابه، وبذلك تجنب وقوع مواجهة مباشرة مع المثل الرئيسي للفرعون في تلك المنطقة.

وحتى لو كانت تلك هى حساباته، كان من الصبعب ألا يرد الفرعون على ذلك العدوان السافر.

وانتشرت أنباء احتلال سومور بسرعة، فما الذي يفعله الفرعون إزاء ذلك؟ وأين كانت القوة العسكرية التي يمكنها استرجاع المينة؟ وفي

انزعاج شديد كتب جار عبدى عشيرتا الجنوبى ريب – حدا، ملك جوبلا رسالة عاجلة إلى كبير المسئولين المصريين حايا متسائلاً في رسالته: «لماذا تمجم عن إبلاغ الملك؟ إن أبلغته سيرسل فرق رماة السهام لاسترداد سومور»(5).

(وكان عبدى – عشيرتا قد أقدم على فعل آخر جسور، لا يجرؤ أحد على الاتيان به، لذلك أبلغ ريب ~ حدا في رسالة أخرى عن نوم عبدى – عشيرتا في غرف نوم الملك بقصره المشيد بسومور، وكذلك فتحه للخزائن الملكية الموجودة به)(6) ولم يكن المندوب المصرى الملكي باحانيت أقل انزعاجًا عندما علم بما جرى وهو في مصر، فكتب غاضبًا إلى عبدى – عشيرتا، وأدانه بأنه عدو لمصر(7)، ورد عليه عبدى ~ عشيرتا بلا توان منكرًا كل اتهامات باحانيت.

ورد بأنه على العكس تمامًا مما ذكره باحانيت من اتهامات، وأنه أبعد ما يكون عن ذلك، وأنه لم يكن إلا مدافعًا عن مصالح مصر، وذكر أنه احتل سومور حين وجدها خالية ممن يمكنه الدفاع عنها، وأن القصر الملكى لم يكن به أحد ليحميه، بالرغم من وجود خطر يهدد المدينة بالدمار على أيدى قوات مدينة سحلال، وأنه بالرغم من ذلك لم يبادر باحتلال المدينة لحمايتها إلا استجابة لطلب من الموظفين المصريين الأربعة، الذين كانوا بالقصر مظهرين ولاهم للفرعون حتى آخر لحظة.

وكتب عبدى – عشيرتا إلى الفرعون ذاته ليطمئنه على ولائه وخضوعه للملك، معلنًا أنه – بالنيابة عن سيده الأعلى – المدافع لا فقط عن سومور وأولاسا القريبة منها، بل عن كل أرض عصورو، وفي تلاعب ملحوظ بالحقائق، ادعى أنه أخذ ذلك على عاتقه بناء على طلب باحانيت المندوب الملكى الرسمي، أو على الأقل بموافقته ورضاه:

«أترى، لديك باحانيت، مفوض الملك، قد يسمأله الملك، الشمس إن لم أكن أحمى سومور وأولاسا، وحين كان سيدى المفوض في مهمة لدى الملك، الشمس، أصبحت أنا من يحرس المحاصيل من الحبوب في سومور

وكل أرض الملك، شمسى، وسيدى (8).

كان عبدى – عشيرتا بذلك ينصب نفسه كنوع من كلب حراسة إقليمى، كما لم تكن هجماته منصبة على عديمى الولاء الفرعون، كما كان يدعى، وكما فعل ابنه عزيرو من بعده فى مناسبات مختلفة، كان يتعلل على الدوام بعذر التدخل الأجنبى والتصدى له فى كل هجماته، وقال فى إحدى رسائله: «كل الحكام العوريين الفاضعين الملك يسعون إلى انتزاع أرضك منك»، وأوضع أنه ليس على الملك أن يقلق ولا ينزعج، إذ أكد له: «أنا أحمى أرضك»، كان خوف مصر من عدوان خارجى على منطقة سوريا خوفًا حقيقيًا، وكان من المكن استغلال وجود ذلك الخوف، وقد زود ذلك الخوف حكام عمورو بورقة مفيدة يلعبون بها من أن لآخر، وقد لعبوا بتلك الورقة بنجاح إلى أبعد مدى.

وسمح لعبدى – عشيرتا أن يستمر في احتلاله اسومور، مما أتاح له قاعدة هامة لعملياته العسكرية المستقبلية، ويحتمل أنها أصبحت مقر قيادة أنشطته(9). ولما كانت تقع في أقصى شمال الأراضى السورية الخاضعة للنقوذ المصرى، كان لموقعها كثير من المزايا لحاكمها القعلى لا الاسمى. ولابد أن بعدها عن أرض مصر قد زاد من فرصته مع وجود سيد أعلى لا يرى ضرورة في إرسال قواته في حملات بعيدة في أقصى أطراف البلاد المخاضعة لنفوذه. وحتى لو كان قد أرسل قوات لاسترداد المدينة كما طلب حاكم مدينة جوبلا منه أن يفعل ذلك، كان لدى عبدى – عشيرتا فرص كافية، أتلقى التحذيرات بقدوم تلك القوات، كان قرب سومور من المبتانيين، (وبعد ذلك) من الأراضى الخاضعة للحثينيين يتحول بدوره أرضى الحدود ضد أى تدخل أجنبي تتحول أحيانا لتصبح تهديداً راضى الحدود ضد أى تدخل أجنبي تتحول أحيانا لتصبح تهديداً بالتحالف مع الأعداء والانضمام إليهم، إذا لم يكن لدى الفرعون ما يكفى من الحكمة، وحاول الإضرار به وبوضعه كحامى لمصالح الملك في الشمال، من المدون بعض الباحثين أن عبدى – عشيرتا حاول بالفعل أن ينقل من القد افترض بعض الباحثين أن عبدى – عشيرتا حاول بالفعل أن ينقل من القد افترض بعض الباحثين أن عبدى – عشيرتا حاول بالفعل أن ينقل لقد افترض بعض الباحثين أن عبدى – عشيرتا حاول بالفعل أن ينقل

ولاءه للميتانيين، وكان ذلك الافتراض مبنيًّا على الحملة التي (طبقاً لمَّا ذكره رب - حدا) سيرها الملك الميتاني توشراتا لغزو سومور، ثم إكمال الفزو حتى جويلا على ساحل البحر (10)، وطبقًا لتفسير البروفسير لبيراني لفقرة من الرسالة، رأى توشراتا أن ذلك الإقليم واسم جدًا وفقير جدًا، ولا يجذب اهتمامه، وأنه كان مقتنعًا بتركها خاضعة لمسر(11). ولسوء العظِّ، فإن غموض مفردات الرسالة بجعل من المستحيل تحديد الدلالات التاريخية والسياسية لهذه الحملة المتانية المدعاة، فهناك أسياب قوية للتشكك في أن توشراتا ذاته قد فكر في توسيع رقعة البلاد الخاضعة الميتانيين على حساب المناطق الخاصعة لمصر، أو أنه كان يحث على ذلك من عبدي - عشيرتا، فضبلاً عن ذلك، كانت زيارة توشراتا لسومور - لو كان قد قام بالفعل بزيارتها - تبدو بوجه عام وسيلة سياسية لإظهار قوة ومتانة التحالف الميتاني - المسرى، والمغترض أن ذلك قد حدث لمواجهة المخاطر التي يشكلها الحثينيون العدوانيون على كل من الملكتين المصرية والميتانية، ولا يمكن قبول أن توشراتا قد سعى لإثارة العداوة مع مصر بشن حملة عسكرية على الأراضي الخاضعة لنفوذها، في الوقت الذي كان فيه مضغوطًا داخل بلاده من تحرش قوات سبيلوليوما الحثيثي، وإذلك بيدو أن تقدير سنجر هو الأصوب، حيث اعتبر أن تقرير ربب – حدا الذي ذكر فيه أن توشراتا قاد حملة عسكرية لغزو سومور وجويلا ليس إلا اختلاقًا من حاكم جربلا لكراهته الشديد لعبدي – عشيرتا(12).

فى جميع الأحوال كانت عمليات عبدى — عشيرتا العسكرية فى عمورو ناجحة جدًا، دون احتياج لأى مساعدة خارجية، وفى عدم وجود معارضة مصرية حقيقية، ولا معارضة قوية من المسئولين المصريين فى سوريا، تمكن زعيم سابق لقبيلة محلية من غزو أغلب المدن الهامة فى منطقة سوريا، وجعل من نفسه سيدًا عليها. كانت وسائله لتحقيق ذلك تتفاوت من إكراه إلى تخويف، وكذلك القوة العسكرية مفرطة القسوة، وتدفقت النداءات والشكاوى على بلاط الفرعون من كل أولئك الذين وقعوا تحت

تهديده في بلاد العموريين وعلى رأسهم ريب - حدا حاكم جوبلا .

كانت عصابات الحابيرو تحت إمرة عبدى – عشيرتا قد أصبحت مطلقة السراح في البلاد المجاورة، فاقتحموا واحتلوا القرى الجبلية الخاضعة لريب – حدا، وتركوا المنطقة الصغيرة الباقية التابعة لجويلا على حافة الموت جوعًا، وأرسل ريب – حدا رسالة للفرعون قال فيها: «فقدنا أولاننا وبناتنا، تم بيعهم في إياريموتا الشراء أقوات لنا حتى لا نفني جوعًا، ولعدم وجود من يزرع الأرض أصبحت أرضنا كامرأة بلا زوجه (13). كان كل نجاح عسكرى لعبدى – عشيرتا، وكل تخريب لمنطقة تجتاحها عصابات تدفع بأعداد كبيرة من البشر للالتحاق بقواته والانضمام إليه. أما من قاوموا فقد كانوا يبادون بلا رحمة، تحت زعم عبدى – عشيرتا بالمحافظة على السلام والوحدة، أما من التحقوا به فقد أصبحوا مثل الحابيرو.

باقى الخطابات التى أرسلها ريب – حدا تحمل الطابع ذاته، وكلها تتهم عبدى - عشيرتا بالعدوان بلا رحمة، والتوسع على حساب الممالك الصغرى المجاورة، وكلها تناشد الفرعون إرسال دعم عسكرى، وكلها تعلن للفرعون أن مملكة جوبلا على شفا الانهيار، وقدم حاكمها نفسه كخط الدفاع الأخير ضد ملك الحرب الذي يتطلع إلى الاستيلاء على ممتلكات الفرعون، وأن على الفرعون أن يحذر، وأن تحقيق طموحات عبدى - عشيرتا لا بد أن يكون على حساب الفرعون، وقال في إحدى رسائله:

«عدا ذلك، من يكون عبدى - عشيرتا، الكلب، الذي يسعى إلى الاستيلاء على كل مدن الملك، الشعس، لنفسه؟ هل هو ملك ميتان؟ أم ملك قسيطى، حتى يسعى إلى الاستيلاء على أرض الملك (المصرى) لنفسه (14)»؟

إلا أن مصر صمت عن الاستجابة لكل ذلك، على الأرجع نتيجة سياسة مقصودة، لا عن لامبالاة أو إهمال وتقاعس من جانب الفرعون،

كانت عموري مساحة شاسعة ويصعب السيطرة عليها، من الجانب الطوبوغرافي ومن الجانب الديم وغرافي، وكما لاحظنا، كان موقعها المغرافي يجعل منها سهلة المنال على أي قوة تهيمن على شمال سوريا، ونجع عبدى - عشيرتا في ترحيد المنطقة تحت سيطرته وهيمنته، وحقق ذلك بمبادرته الشخصية دون السعى لنيل مباركة أحد أو تبنيه لأفكاره أو دعم من الفرعون، لقد قام ببساطة بإحراز القوة في المنطقة، ثم قدم مشروعه إلى الفرعون كعمل منجز تم تحقيقه. إلا أنه حقق ذلك في إطار من قبول الفرعون له بلا تحفظ بصفته سيده الأعلى، وهي أهم نقطة في الأمر كله، وعلى أي حال حقق القوة التي أرادها .

ولم يكن لدى الفرعون أى شك أن تحقيق ذلك انطوى على قهر وإرهاب وتخويف وترويع، وأن ادعاءه أنه حرر سومور (مثلاً) من تهديدات جار عدواني إدعاء تفوح منه روائح الشك، إلا أنه أثبت أنه رصيد مفيد للإدارة المصرية، كحاكم محلى قوى وقادر، أعلن دون تكليف من أحد أنه سيكرس نفسه لحماية المصالح المصرية في المنطقة، لذلك لا يوجد تعجب أن نداءات ريب - حدا وتحذيراته لم تلق إلا آذانا صماء، على الأقل حتى تلك المرحلة من أنشطة عبدى - عشيرتا العدوانية.

وكان ذلك في صالح عبدى – عشيرتا، الذي زادت جرأته بعد استيلائه السهل على سومور، وراح يتطلع إلى عمليات غزو أخرى، وربما جال في ذهنه غزو ولاية أوجاريت الغنية الواقعة بالشمال على ساحل البحر، ولكن بالرغم مما تعد به من غنائم، كان غزوها يترتب عليه مخاطر لا حدود لها، مع عدم التيقن من نجاحه في غزوها، فقد كانت أوجاريت في ذلك الوقت متحالفة مع الحثينيين مما يجلب عليه نقمة الحثينيين بكامل ثقلها. كان من الأفضل له أن يحول دفة عدوانه إلى انجاه آخر.

كان غزو المناطق الجنوبية يعد باحتمالات أكبر النجاح مع تبعات أقل خطورة، وباستخدام قوات الحابيرو، انغمس عبدى - عشيرتا في حملات من بث الرعب والخوف ضد عدد من المدن والناطق الواقعة إلى جنوب عمورو.

وكان حكام تلك المدن هم هدفه وغايته، فبينما قامت قوات الصابيرو بقتل وذبح بعضهم(15)، سقط بقيتهم على أيدى مواطنيهم، بتحريض من عبدى – عشيرتا. وكان ذلك ما ذكره ريب – حدا الفرعون في رسالة منه إليه: «بعد ما استولى على شيجاتا لنفسه، قال عبدى – عشيرتا اشعب عميًا، اقتلوا سيدكم حتى تصبحوا مثلنا ويسود السلام، ونقنوا ما قال، أصبحوا مثل الحابيرو»(16). ولا يمكن أن يراودنا أى شك أن المدن التي تأرت على حكامها وقتلتهم ثم انضمت إلى الحابيرو قد فعلوا ذلك في أغلب الأحوال، خوفا من تبعات رفض اقتراحات عبدى – عشيرتا،

وأعلن ريب – حدا أن والمتمردين سيتخلون عن عبدى – عشيرتا، او أن الفرعون أرسل قواته لتأديب عبدى – عشيرتا، حتى في عمورو ذاتها لم يعد الشعب يطيق عبد – عشيرتا... ويتطلعون ليلاً ونهارًا إلى وصول الرماة، ويقولون: فلننضم إلى الرماة، كل حكام المدن ينتظرون أن يتخذ هذا الإجراء ضد عبدى عشيرتا،(17).

أما الموقف بالنسبة إلى ريب - حدا ذاته فقد أصبح ميئوساً منه، فقد راحت المدن التي كانت خاضعة لحكمه تسقط واحدة بعد أخرى في يد عبدى - عشيرتا، وسرعان ما لم يعد باقيًا تحت حكمه، إلا مدينة باترونا ومدينة جوبلا التي تعد عاصمة ملكه، وأخيرًا، سقطت باترونا(18)، وبقيت جوبلا وحدها.

وأرسل وقداً عن لدنه إلى مصر لتناشد الفرعون إرسال دعم عسكرى، إلا أن الوقد عاد خالى الوقاض دون دعم ودون وعد، ولم يتبق إلا أمل شاحب، ويعد وقت طويل، كتب الفرعون إلى حكام بيروت وصيدا وصور بتعليمات كان منها: «سيكتب إليكم ريب — حدا لطلب قوات دعم، ويجب عليكم جميعًا الذهاب لدعمه»(19)، وكانت تلك المدن تقع إلى الجنوب الأبعد بعيدًا عن متناول عبدى — عشيرتا، ومن المكن الاعتماد على دعمها، خاصة مع وجود أمر مباشر من الفرعون للقيام بذلك.

بدت صور على وجه الخصوص بصفتها أقصى مدينة إلى الجنوب من

بين المسألك الثلاث كمكان أمن من عدوان العموريين. ولما تصركت قوات عبدى -- عشيرتا إلى جوار جويلا، أرسل ريب - حدا شقيقته وأبناها إلى صور كمأوى آمن لهم، بعد أن بث الفرعون لديه بعض الطمأنينة، وأخبره أنه أمر حكام المدن الثلاث بدعمه، إلا أن سرعة ومهارة عبدى - عشيرتا كانت أكثر مما قدروا، فقد سقطت المدن الثلاث في أبدى مناصري العموريين. وقام إيباح - حدا وزيمردا، حاكما بيروت وصيدا بالاستسلام، ويحتمل بعد نداءات منتالية للفرعون لمعاونتهم بلا استجابة منه(20)، فاستسلموا ونجوا بجلودهم(21). ثم وردت إلى ريب - حدا من صور على أيدى أبناء مدينته لرفضه الانضمام إلى عبدى - عشيرتا، كذلك صور على أيدى أبناء مدينته لرفضه الانضمام إلى عبدى - عشيرتا، كذلك متابت شقيقة ريب - حدا وأبنائها، الذين أرسلهم إلى صور كملاذ آمن لهم(22)، فقد ذبحوا هم أيضا، ويحتمل بأوامر مباشرة من عبدى - عشيرتا.

في ذلك الوقت بدأت جويلا عاصمة ريب – حدا تماني من الحصار الذي فرضه عبدي – عشيرتا عليها، فعلى مدى عامين كانت محاصيلها تغتصب، مما دفع المدينة إلى حافة المجاعة، كما زادت الهجمات التي تتعرض لها، ووصلت إلى ثلاث هجمات ضارية في العام الأخير، واشتدت قسوة المجاعة، وكتب ريب – حدا إلى الفرعون، وقال له إن شعبه ومزارعيه بدأوا يبيعون أدواتهم المنزلية، بل حتى أطفالهم لإنقاذ أنفسهم من الموت جوعًا(23). وحان الوقت الذي يشن فيه عبدى – عشيرتا هجومه النهائي على عاصمة ريب – حدا، التي أصبحت على وشك الانهيار جوعًا. وأرسل عبدى – عشيرتا رسالة إلى كل قواته، قال فيها: «تجمعوا في معبد نينورتا، ثم نهاجم جويلا، لن ينقذها أحد منا (24) وكتب ريب – حدا إلى الفرعون: «أنا خانف جدًا جدًا، لا يوجد من ينقنني منهم، كما حدا إلى الفرعون: «أنا خانف جدًا جدًا، لا يوجد من ينقنني منهم، كما حدا إلى الفرعون: «أنا في جويلا، لا يوجد من ينقنني منهم، كما حدا إلى الفرعون: «أنا في جويلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة حدا إلى الفرعون: «أنا في جويلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة حدا إلى الفرعون: أصبحت أنا في جويلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة حدا إلى الفرعون: أصبحت أنا في جويلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة حدا إلى الفرعون: أحدا أنا في جويلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة عدا إلى الفرعون: أمين أبيت أبين المناه المناه

مماثلة إلى كبار رجال القصر الملكي، إلا أنك لم تول كلامي أي انتباه».

كان كبير رجال الفرعون (امان آبا) موجود في ذلك الوقت بالقصر الملكي في مصر، وكان خير من يعلم بحقيقة تطورات الموقف، لذلك أردف ريب حدا في رسالته قائلاً: «إن لم تكن تصدقني، سله، هو يعرف، وهو يدرك الموقف اليائس الذي وصلت إليه»، وحتى داخل مدينته كان عرضة للخيانة وعدم الولاء، فقد تخلى عنه الرجال الذين عينهم الفرعون لمعاونته، وقال: «كل الرجال الذين خصصتهم لي، قروا»، وراح عبدى – عشيرتا يحرض شعب جوبلا على سيدهم: «اقتلوا سيدكم وانضموا إلى الحابيرو»، وقال ريب – حدا : «بهذه الطريقة، يتحول شعبي إلى خونة»(25)، ونجا من محاولة اغتيال تعرض لها: «طعنني رجل بخنجر برونزي تصع طعنات، إلا أنني تمكنت من قتله»(26). وكان عرضه لمحاولات أخرى لاغتياله. وبدا أن أنام ريب – حدا باتت معدودة،

لم يكن يرى أمامه إلا احتمالين: ذلك الحل الحاسم الذي أرسل في طلبه من الفرعون: «أرسل إلى بما يفيد أنك بعثت بحامية وفرسان، وإلا سأهجر المدينة وأصحب معى حلفائي المخلصين، أو أفعل كما فعل حاكما بيروت وصيدا وأتحالف مع عبدى – عشيرتا»(27)، وكان من الواضح أن تلك كانت أخر محاولة لرجل ظل على ولائه لسيده الأعلى حتى آخر لحظة – في الوقت الذي خضع فيه الآخرون للمعتدى – حتى تلاشت كل الأمال، لم يبق إلا اختيار أخير، فلو ظل الفرعن متقاعسًا عن إرسال قوات لإنقاذ ريب – حدا، فريما يمكنه على الأقل رشوة المعتدى لسحب قواته، فبعث إلى الفرعون في رسالته بذلك الاختيار: «لماذا لا تدفع له ألفًا من القضة أو الى الفرعون في رسالته بذلك الاختيار: «لماذا لا تدفع له ألفًا من القضة أو

ولما بدا الموقف أبعد عن أى علاج ووصل اليأس إلى مداه، قام الفرعون فجأة باتخاذ القرار العاسم، فما الذى دفعه فجأة إلى ذلك؟ بكل تأكيد لم يكن تغير موقفه يرجع إلى تعاطفه مع المأزق الذى يعانى منه ريب حدا، فقد ثبت أن كل تضرعاته السابقة طلبًا للمساعدة ذهبت أدراج الرياح.

الجانب الوحيد في رسائل ريب – حدا الذي أصاب وتراً حساساً هو التهديد الذي سيشكله عبدى – عشيرتا على الطرق الموصلة بين كل الولايات التابعة في سوريا، بمجرد أن يحكم قبضته على كل ولايات الساحل من سومور في الشمال حتى صور في الجنوب، كان استيلاؤه على جويلا سيغلق آخر فجوة باقية على الساحل، وقد فسر سنجر ذلك الأمر ذاكراً: «لقد بلغ تعاظم شأن عبدى – عشيرتا، حتى وصل إلى مرحلة أصبح فيها كل ساحل فينيقيا تحت سيطرته المباشرة أو غير المباشرة، وتخطى بذلك كل قدر يمكن لحكمة مصر احتماله، دون أن تخاطر بنفوذها وهيمنتها على لاقطاع الشمالي من إمبراطوريتها الأسبوية»(29).

وفيما بعد، كأن رب- حدا يشير في رسائله إلى إخناتون إلى الإجراءات الحاسمة التي اتخذها أبوه أمونحوتيب الثالث ضد عبدي - عشرتا:

«اقد بعثت رسولاً إلى أبيك. وحين جاء (أمان آبا) على رأس قوة صغيرة، كتبت إلى القصر بأن على الملك أن يرسل قوات أكبر، ألم يعتقل عبدى – عشيرتا وجرده من كل ما يملك، كما كنت أؤكد له من قبل؟ (30).

أدى اعتقال الحملة العسكرية المصرية لعبدى – عشيرتا إلى إنهاء كل الأعمال العسكرية العدوانية، ووصل بأنشطته إلى نهاية مفاجئة، وفي رسالة أخرى يحتمل أن كاتبها ريب – حدا إلى أخناتون، نجد إشارة تفيد موت عبدى – عشيرتا (31)، إلا أن التفسيرات الأخرى لتلك الحملة تذهب إلى أن المصير النهائي لعبدى – عشيرتا موضع كثير من التفسيرات والشكوك(32)،

ويشير أحد الاحتمالات إلى أنه اغتيل على أيدى بعض المعارضين له، من أبناء موطنه أو من المنضمين له من الأجانب، ويشير احتمال غيره إلى أنه أعدم على أيدى القوات المصرية التى اعتقلته، إما مباشرة بعد اعتقاله، أو بعد الرجوع به إلى مصر، وكان موته سببًا في إقامة احتفالات عظمى في جويلا، واحتفالات أوسع انتشارًا في المناطق التي أخضعها لنفوذه.

ابناء عبدس – عشيرتا

تبين أن المهلة التي أتيحت لريب - حيا وحكام المبالك الأخبري الصغيرة في سوريا من تهديدات العموريين لم تكن إلا مهلة قمبيرة العمر لم يهنأوا بها كثيرا، فبينما نجحت مصر في إزاحة عبدي – عشيرتا والتخلص منه، إلا أنها لم يكن لديها نظام بديل لتحله محله، وكان ذلك يرجع إلى حد كبير لطبيعة الإقليم، كان الإقليم غابات شاسعة ومناطق جبلية ومساحات صغيرة من الأرض المنبسطة الصالحة للزراعة الرعوية، مما يهيئ تلك المناطق لأنماط الحياة الرعوية وشبه القبلية، وكانت الطبيعة القبلية غالبة على العموريين، وكان عيدى - عشيرتا بدوره زعيمًا محليًا قبلياً، نجح في تجميع باقي القبائل تحت قيادته، مضافًا إليهم عصابات المنطقة وقاطعو طرقها، لم يشر إلى نفسه أبدًا، كما لم يوجه الخطاب إليه أبدا بصفته ملكًا، كانت «مملكته» تفتقد أية مقومات مملكة تابعة أو خاضعة، وكانت سلطته التي توصل إليها سلطة غير قانونية، ولم يكن ذلك يماثل بأي حال من الأحوال سلطة بلاط رسمي دائم مستقر ومعترف به، وكان من الواضح أيضًا أنه لم يكن له أبدًا عاصمة ثابتة مستديمة، بل كان يستخدم مدنًا مختلفة كمقار للقيادة حسب مكان تواجده، كانت سومور واحدة من تلك المدن، ويحتمل أنها كانت أهم مقر لديه.

كان الحثينيون وملوك الشرق الأدنى الأخرين يدركون أنه من العسير فرض هيمنة وسيطرة دائمة على مثل تلك المناطق، التى ليس لها جيش نظامى يمكن إلحاق الهزيمة به فى ميدان المعارك النظامية، ولا نظام سياسى وإدارى ثابت ومسمتديم، من ذلك النوع الموجود فى الممالك المعيرة الأخرى الخاضعة لنفوذ القوى الكبرى، وربما يفسر ذلك تأخر الفرعون لوقت طويل قبل اتخاذ قرار التصدى لعبدى – عشيرتا، بعد الاعتداءات الصارخة التى شنها على الممالك التابعة للهيمنة المصرية.

والأقرب إلى الاحتمال أن الخلاص منه تم بعمليات سرية من المسريين أو عملائهم، أكثر من كونه عن طريق جبش عسكري نظامي،

إلا أن الضلاص منه لم يحل مشكلة العموريين، فسرعان ما شغل أبناءه القراغ الذي خلفه موت أبيهم، وفيما بينهم معًا، استصروا في ممارسة هيمنتهم على كل منطقة العموريين، كانت تلك المنطقة قد أصبح فيها سلالة قبلية حاكمة من أبناء عبدى – عشيرتا، ولم يكن ذلك ليبعث أي نوع من الراحة في نفوس الممالك المجاورة، كما أدى إلى موقف أصبعب على الفرعون في كيفية معالجة ذلك، وأكد له ذلك بداية تدفق جديد، للشكاوى من ريب – حدا حاكم جوبلا، كل الممالك التي تم تحريرها من سطوة قوات عبدى – عشيرتا أصبحت في خطر من جديد، ولكن هذه المرة على أيدي أبناء عبدى – عشيرتا.

كانت سلسلة رسبائل الشكاوى الجديدة موجهة إلى أخناتون الذى اعتلى عرش مصر، خلفًا لأبيه أمونحتيب الثالث، وذكر له ريب - حدا في رسالة:

«إن عداوة أبناء عبدى - عشيرتا لى عداوة شديدة، لقد استلوا كل بالد عدور وأصبحت المنطقة كلها تحت سيطرتهم (34).

وراحت المدن التي تحررت من قبضة عبدى - عشيرتا تسقط واحدة بعد أخرى من جديد في أيدى أبنائه، فستقطت مدن أولاسا، وأرداتا، وواهليا، وأمبى، وشيجانا، وأرقاد(35)، واستخدم الأبناء تكتيكات أبيهم ذاتها، لتحقيق ذلك، وهي تحريض الزعماء المحليين على الانضمام إليهم، فإن رفضوا، يحرضون رعيتهم على اغتيالهم والاستيلاء على الحصون المحلية وفتح أبوابها لقوات العموريين.

وصمدت مدينة سومور ومدينة إرقاطة الواقعة جنوبها، كانت سومور قد وضعت من جديد تحت إمرة مندوب الفرعون بعد موت عبدى - عشيرتا، وخصصت قوات لحمايتها، ولكن مع السقوط المتتالى المدن المجاورة في أيدى أبناء عبدى – عشيرتا أو انضمام بعضها طواعية

إليهم، أصبحت سومور معرضة لفطر شديد مرة أخرى، وكتب الفرعون بتعليماته إلى ريب -- حدا يأمره بمعاونة مدينة سومور على التصدى العموريين، وأن يظل هناك حتى وصول التعزيزات العسكرية المصرية(36).

ويبدو أن ريب — حدا كان بالفعل قد توجه إلى سومور، ولكن يحتمل أن ذلك قد حدث قبل أن تصل المدينة إلى ذلك الوضع اليائس، ولذلك رد متضرعًا للفرعون أنه ليس بإمكانه تنفيذ أمر الفرعون، وقدم أسبابًا عديدة لعدم قدرته تنفيذ ذلك، كان أهم الأسباب وأولها: أن عاصمته ذاتها أصبحت معرضة لعدوان عمورى في أى لحظة، وقال: «العداوة لي أصبحت شديدة جداً، ولم يعد باستطاعتى الذهاب»(37)، وفشل في الحصول على دعم حاكمى صيدا (الملك زيمردا) وبيروت (الملك يابحا حدا) لزيارته السريعة لسومور، ولم يكن ذلك غريبًا، فقد كانوا قد رفضوا قبل ذلك نداءً مباشرًا من المفوض المصرى في سومور، كان أيضًا منزعجًا من فكرة أنه حتى لو تمكن من دخول مدينة سومور فإنه سيظل حبيسًا بها، ولن يستطيع مغادرتها بسبب محاصرة قوات الأعداء لها، وسيتيع بها، ولن يستطيع مغادرتها بسبب محاصرة قوات الأعداء لها، وسيتيع ذلك إن حدث الفرصة لرعبته هو للتخلى عنه والتحالف مع الحابيرو(38).

كان نقص الطعام يضاعف من سوء الموقف داخل مدينته جوبلا، كانت عصابات الحابيرو قد استعادت نشاطها في شن الغارات على الحقول المحيطة بجوبلا، كما فشلت محاولات جلب الطعام للمدينة عن طريق البحر بسبب إغلاق جزيرة ارقادا الطريق البحري أمام المراكب البحرية(39)، (وللسبب ذاته عجز ريب - حدا عن إرسال مراكبه البحرية إلى سومور أو العودة منها). كانت جزيرة ارقادا تقع على مسافة تقترب من ثلاثة كيلو مترات من الساحل إلى الشحمال من سومور، وكانت قد تحالفت مع الأعداء، وزاد من حدة أزمة الغذاء في جوبلا التضخم المفاجئ في إعداد المهيمين بها، بعد لجوء كل المصريين الفارين من أولاسا قبل سقوطها مباشرة إلى مدينة جوبلا بصفتها ملاذًا أمنًا، وذكر ريب - حدا ذلك السبب أيضًا في رسالته إلى أخناتون:

«المصريون الذين فيروا من أولاسا أتوا إلى عندى، ولكن لا يوجد حيوب تكفي لفذائهم (40).

ويحتمل جدًا أن جوبلا اعتبرت أيضنا ملاذًا آمنًا للفارين من المدن الأخرى اكان لعنصر توقع المجاعة أثره كحافز قوى لسكان جوبلا والفارين من المدن الأخرى ودفعهم للانضمام للحابيرو.

راح وضع سومور يزداد سوءًا بعد أن أصبحت محاصرة براً ويحراً، وبتناسى ريب – حدا مشاكله الخاصة به، وراح يحث الفرعون على إرسال قوات تفك الحصار عن سومور بأسرع وقت، وقال: «سومور مثل طائر في شرك. أنها تتعرض للهجوم نهاراً وأيلاً من أبناء عبدى – عشيرتا من البر، ومن أبناء ارقادا من البحره (41)، كما أخبره أن المندوب المصرى طلب من حاكمى بيروت وصيدا دعم سومور، إلا أنهما لم يستجيبا: «وبالرغم من أن النهاية بدأت تلوح أمام الأنظار، قامت أغلب حامية سومور بالفرار منها خوفًا من المصير المنتظر، ولم يبق إلا قوة ضيئيلة العبد من المخلصين، ولم يكن في مقدورهم عمل أي شيء. ومرة أخرى يناشد ريب المخلصين، ولم يكن في مقدورهم عمل أي شيء. ومرة أخرى يناشد ريب المخلصين إلى سومور، لحمايتها حتى وصول رماة قوات إضافية على جناح السرعة إلى سومور، لحمايتها حتى وصول رماة الملك» (44). كانت حياة المندوب الفرعوني ذاته المقيم في سومور في خطر داهم، لذلك أضاف ريب – حدا في رسالته: «إن لم تفعل شيئًا لمواجهة ذلك الموقف، سيستوارن على سومور، ويقتلون المندوب وقوة التعزيز داكم، لذلك أضاف ريب – حدا في رسالته: «إن لم تفعل شيئًا لمواجهة ذلك الموقف، سيستوارن على سومور، ويقتلون المندوب وقوة التعزيز المصرية الموجودة بالمينة «(44).

ويبدو أن تلك المناشدة أيضًا لم تلق اهتمامًا، كانت كل المناطق المحيطة بسومور قد سقطت، ولم يبق إلا المدينة ذاتها، فقال عن ذلك: «احتلت كل ولاية سومور حتى أبواب المدينة» (45)، كما حملت رسالته أنباء سيئة أخرى، كان المندوب الفرعوني الذي صمد طويلاً على أمل أن يرسل الحكام المحليين من بيروت وصيدا دعمهما، أو أن تصل قوة مصرية عاجلة لفك الحصار، أولاً، قد لقى حتفه، ومن المرجع جداً أنه اغتيل على

أيدى أحد مواطنيه المصريين، وأزاح موته آخرالعوائق أمام استسلام الدينة، فسرعان ما خضعت أو ما تبقى منها في قبضة المحاصرين لها.

أنشطة عزيرو

برن من بين أبناء عبدي عشيرتا أثناء حصار مدينة سومور حتى الاستيلاء عليها ابنه عزيرو، كان هو مخطط حملة سومور الناجحة، لذلك يرز يصفته العيق الرئيسي في رسائل ربب – حداً . كان قد اكتبيب مكانة أعلى من بين إخوته، دون أن يكون رئيسًا عليهم أو أن يترتب على ذلك خضوعهم له، ومن ذلك الوقت ارتبط مصير بلاد عمورو بمصير عزيرو، كانت سباساته ومشروعاته وطموحاته العسكرية لا تختلف عن تلك التي كانت لأبيه، أي حملات عسكرية على جيرانه لزيادة سيطرته وتوسيع رقعة تفوذه، في الوقت الذي يظهر نفسه للفرعون في صورة المخلص للملك ومندويه وصامى الصالح المصرية في منطقته، ولكنه كان أكثر من أبيه حرصاً على الحصول على اعتراف رسمي به كملك محلي مثل باقي ملوك الولايات المحلية. ولم يكن يرى أي تناقض في انتهاج سياسة الاتجاهين المتعارضين، فقد رأى أن بإمكانه الحصول على اعتراف الفرعون به إذا طلب ذلك وهو في مركز قوة، كان من المكن أن برفض الفرعون التعامل في أي مصالح مع ممثل أسرة لها مثل ذلك السجل الدافل بالذيانة والاعتداء على رعايا مصر ، إلا إذا تمكن من إغرائه أن ذلك سيكون في صالحة وصالح مصير إلى أبعد مدي،

ويحتمل أن عروض ودعوات عزيرو للفرعون وكبار موظفيه، للتواجد في سوريا أو زيارتها، كانت تعرض في الوقت الذي كان يعد فيه مخططاته لحملته العسكرية على سومور، على أمل أن تنجز الوسائل الدبلوماسية ما تعجز الوسائل العسكرية العنيفة عن إنجازه في السيطرة على سومور بالا حرب، كان تعامله الأول مع سلطات المدينة قد اندرج في إطار دبلوماسي، كما ذكر الفرعون في رسالة بعث بها إليه وقال فيها:

«من مبدأ الأمر، يا سيدى، سعيت إلى تكريس نفسى لخدمة الملك، سيدى، إلا أن كبار مسئولى سومور لم يستجيبوا لى. إلا أننى أبرأ من المتدون أمر أف أنني أبرأ من المتدون أن أبرأ من هم المعتدون المدى، ويطم الملك، سيدى، من هم المعتدون الملك المدين الملك المدين الملك المدين الملك مديد (46).

وكبرهان ودليل على صدق مزاعمه وعميق إخلاصه، جعل اثنين من أبنائه يذهبون إلى بلاط الفرعون بصحبة حامل الرسالة(47). ويحتمل أنه لم يلجأ إلى القوة إلا بعد فشل مبادرته الدبلوماسية، بالرغم من أنه لم يتوان عن التأكيد للفرعون أن هجومه على سومور يجب ألا ينظر إليه على أنه عمل من أعمال العدوان ضد سيده الأعلى(48).

ومن جهة أخرى، لم يندهش عزيرو من العداوة التي قوبل بها من كبار المسئولين المصربين المقيمين في بلاد سوريا، فمن خلال رسائل عديدة نتبين إحباطه وخيبة أمله فيهم في سوريا في نيل اعترافهم به، قال في واحدة من تلك الرسائل:

«أريد أن أوظف لخدمة الملك، الإله، الشمس، سيدى، إلا أن إيانهامو لم يسمع لى بذلك»(49).

ومن تلك الرسالة، وغيرها يتضع أنه بذل مساعى كثيرة فى مناسبات عديدة لتأسيس مصداقية لدى الملك، باتباع التدرج المنطقى بنيل ثقة كبار مسئوليه فى سوريا أولاً، وهكذا، كتب فى البداية إلى المسئول المصرى توبو بأكثر العبارات تملقًا ومداهنة: «أنت أبي وسيدى، وأنا ابنك، وبلاد عمورو هى بلادك، وبيتى هو بيتك، اكتب إلى بما ترغب وتشتهى، وسأتفذ رغباتك بكل إخلاص،(50).

وعلى الأقل، كانت استجابة توتو في البداية مماثلة لاستجابة إيانحامو (51). لم تكن الوسيلة الدبلوماسية سهلة ولا ممهدة بأي حال.

غير أنه في محاولاته كسب اعترافًا رسميًا مصريًا به، وجد أن الظروف الدولية السائدة تهيئ له أوراقًا رابحة للمساومة بها، لم يكن

هناك شك فى أن الميتانيين قد انهاروا انهياراً كليًا، لا قائمة لهم بعده كقوة كبرى وإمبراطورية مستقلة، وأنها مسائة وقت ليس إلا، ليصبح سبيللوليوما ملك الحثينيين، القوة المهيمنة على شمال سوريا بلا منازع، وبمجرد أن ينتهى من ذلك، ان يوجد من يستطيع إيقاف تقدمه إلى الجنوب باتجاه مناطق النفوذ المصرى بسوريا، إذا عن له ذلك، إلا إذا كان هناك ملك تابع مخلص للتاج المصرى، ولتنبيه الفرعون إلى التهديد المشيني القادم، لم يترك عزيرو مجالاً للشك في دوافعه الشخصية: «إذا قام الملك المثيني بأي عمل عنواني ضدى، هل يتقضل الملك، سيدى، بإرسال... قوات وعجلات حربية لمساندتى، وساقوم بالدفاع عن أرض اللك، سيدى، الملك، سيدى،

لم يكن عزيرو يسعى فقط للحصول على اعتراف رسمى مصرى به كملك تابع، بل قام بالفعل بممارسة كل ما يطلب من ملك تابع بالفعل: «كل ما يقوم به الملوك والحكام الخاضعين للملك، ساقوم أنا أيضا بأدائه للملك، سيدى، وإلهى وشمسى للأبد»(53)». أذلك لم يتوان عن طلب إرسال دعم مصرى عسكرى، وفي الحقيقة، كانت الاستجابة بإرسال دعم عسكرى مصرى له يحقق دعمًا قريًا لتطلعاته، فأولاً: كأن الدعم العسكرى المصرى له يعد دليلاً عمليًا ملموسًا على تبنى الفرعون لوضعه، ثانيًا: ستؤدى القوات العسكرية المصرية إلى تقليل اعتماد عزيرو على عصابات الحابيرو غير المنظمة وغير المنضبطة، والتي لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تقدم عليه، والتي تشكل الكتلة الرئيسية في قواته.

كان أبوه عبدى – عشيرتا قد سعى إلى بناء قوة عسكرية داخل الأراضى السورية الخاضعة لنفوذ الفرعون بتوحيد الجماعات شبه القبلية تحت قيادته واستخدامهم في غزو أراضي الممالك الصغرى المجاورة. وزاد عليه عزيرو بسعيه إلى إضفاء شرعية على تلك القوة، والفوز بمباركة الملك الأعظم لنظام حكمه، في الوقت الذي يطلق فيها العنان لغريزة النهب والغذم والغزو التي غرست فيه وراثة عن أسلافه، كأن التحدى الذي

يواجبهه هو الحصول على الشرعية، في الرقت الذي يظل فيه ممارسًا لغريزة النهب والغنم.

ولا بد أن الفرعون كان يعى كل الوعى أبعاد اللعبة التى يلعبها عزيرو، وأنه فى الوقت الذى يظهر فيه الاخلاص كان يقوم بأعمال العدوان على الممالك الخاضعة للنفوذ المصرى بكل صفاقة، وأكدت التقارير التى لم تنقطع من كبار المسئولين المصريين فى سوريا، إذا نحينا جانبًا تيار الشكاوى الذى لم يتوقف من ريب – حدا ونظرائه من الملوك التابعين أن مشكلة العموريين كما كان يتصورها تمامًا، ولكن، إذا كان إضفاء الفرعون على عزيرو صفة ملك تابع التى يطلبها بإلحاح، من المكن أن تضمن أنه سيعمل بعدها على الحفاظ فقط على مصالح سيده الأعلى والتفانى فى خدمته، فإنه يصبح بلا أى شك أكفأ عميل المصالح المصرية فى المنطقة أكثر من كثير غيره من الملوك التابعين، فضلاً عن ذلك، لم يكن هناك أى اختيار آخر قائم بشكل عملى.

كان عزيرو شخصية بارزة من بين زعماء القبائل في تلك المنطقة، وموضع تبجيل كل سكانها من عامة الناس، وأثبت جدارة واستحقاقًا في ميادين القتال، وكان سياسيًا أريبًا، ولو وثق به الفرعون فمن المكن أن يصبح الدرع الواقى ضد تهديدات الحثينيين لمناطق النفوذ المصرى في سوريا، ولكن، إلى أي مدى كان يمكن الوثوق به؟

كانت التقارير التي ترد إلى الفرعون من مندوبيه في سوريا تتحدث عنه بطريقة سلبية، وفي أفضل الأحوال كاتت متضاربة.

ومن الواضح أن الفرعون كان مجبراً على اتخاذ قرار لحسم الأمر، ولم يكن أمامه إلا عقد مقابلة شخصية، والمحتمل جداً أنها كانت المناسبة التي قام فيها عزيرو بزيارته الشهيرة إلى مصر – وكانت بكل تأكيد بناء على رغبة الفرعون(54)، وقياسًا على الوقت الذي يستغرقه الطريق في الذهاب والعودة، بالإضافة إلى الوقت الذي مكثه عزيرو بمصر نستنتج أنه قضى عددًا من الشهور بعيدًا عن بلاده، ويحتمل عامًا أو أزيد، خلال تلك

الفترة، قام شقيقه بعلويا وابنه بيتى – إليو بإدارة شدّون الحكم في مملكة الأمر الواقع التي خلقوها، أما الفرعون، فطالمًا كان عزيرو متواجدًا في البلاط الملكي في مصر، لم يشعر بأي تعجل التوصل إلى اتفاق مع الجانح الذي عين نفسه ملكًا تابعًا بقرة فرض الأمر الواقع.

لم تمض الإقامة المطولة التي قضاها عزيرو بمصر بلا فائدة لعزيرو، لأنه لم يدع أي فرصة تمر دون أن يحصل فيها على معلومات مفيدة، خاصة المعلومات التي لم يكن من المتيسر أن يحصل عليها من المسادر الرسمية، كانت الإصلاحات الدينية الجذرية التي قادها أخناتون قد ذاع صبيتها في أنحاء الشرق الأدنى القديم، وكان بإمكان المرء أن يعرف الكثير بوجوده في موقع الحدث، خاصة ما قد يترتب على تلك الإصلاحات الدينية على السياسة المصرية الخارجية، وكذلك مدى الرغبة والجاهزية المصرية في إرسال حملات عسكرية جديدة على سورياء ورجب عزيرو بفرصة زيارته لمسر لكي يحصل على الاعتراف الرسمي الذي تاق إليه -ومن القرعون نفسه -- بوضعه كحاكم شرعي معترف به على مناطق خاصِّعة لنفوذ مصر. إلا أنه احتفظ سراً باختيارات مفتوحة، مستفيداً بالوقت الذي قضاه في مصر مختبراً نوع الاستجابة الذي يمكن أن يلقاه ويجعله يلغى اختياره المصرى، وبالفعل، إذا كان يمكن أن نصدق ما ورد في رسالة إلى الفرعون من ايليرابح شقيق ريب ~ حدا وخليفته على مدينة جوبلا، كان عزيرو بالفعل يتأمر سرًا أثناء إقامته بمصر مع ايتاكاما حاكم قادش، التي كانت قد أصبحت منطقة نفوذ حثينية من وقت قريب(55).

أما من وجهة النظر المصرية، كانت زيارة عزيرو لبلاط الفرعون بمثابة فرصة ملائمة لتقييم مدى ملائمة عزيرو لأن يصبح ملكًا تابعًا، خاصة على ضوء سجل سلوكه السابق وخلفيته العائلية.

وفى عالم لا يعرف معنى لحصانة دبلوماسية، كان بإمكان الفرعون أن ينهى المشاكل التى يثيرها عزيرو بحجزه فى مصر إلى المدى الذى يريده، وكما لاحظنا، فإن تلك العقوبة كانت تطبق على المبعوثين الأجانب، ليظهر بها الملك عدم رضائه عن ملوكهم الذين أرسلوهم، كما لم تكن هناك أى غضاضة في أن يحبس لديه أى ملك من الملوك الخاضعين للهيمنة المصرية، وبالفعل، كان أخناتون يميل إلى تلك الفكرة، ولذلك ظهرت شائعات مفادها أن الفرعون لن يسمح لعزيرو بمغادرة مصر، إلا أنه كان من الصعب تبين كيف يمكن أن يكون لنفي عزيرو الإجباري بمصر أي تداعيات نصو الأفضل في أرض عمورو، حيث لا يبدو أي اختيار آخر ملائم لتزعمه للمنطقة.

أما في بلاد عمورو، فقد زاد انزعاج عائلة عزيرو؛ بسبب غيابه الطويل بمصر، وكتب ابنه – ويحتمل أنه كان دوبي – تيشوب – رسالة إلى أحد كبار المسئولين المصريين ويدعى توتو، مخبراً إياه عن الشائعات التي تذكر أن عزيرو ان يسمح له أبداً بالعودة إلى بلاده، بالإضافة إلى شائعة أنه باع أباه إلى مصسر مقابل ذهب(56)، وخلقت الشائعات قالاقل واضطرابات خطيرة في منطقة عمورو، كان من المكن أن تغرى أعداء مصر بغزوها وخاصة ملوك نوحاس، وطلب دوبي – تيشوب في نهاية رسالته أن يسمح لأبيه بالعودة فوراً إلى موطنه.

ومع الرسالة السابقة، كانت هناك رسالة أخرى مرسلة إلى عزيرو ذاته(57)، من أقاربه المباشرين بعلويا وبيتى – إليو، وتحتوى على أخبار مقلقة، تغيد أن القوات الحثينية تحت قيادة قائد الجيش لوباكو قد احتلوا مدنًا في أرض أمكا(58)، كما ورد تقرير أخر يفيد أن القائد الحثيني زيتانا قد وصل إلى منطقة نوحاس على رأس قوة قوامها 90000 من الشاة، وكان الخبر الأخير بحاجة إلى مزيد من التيقن، كما أفادت الرسالة بأن بيتي إليو كان سيتوجه إلى القائد الحثيني للتأكد من صحة تلك المعلومات، ولو صحت تلك المعلومة فلا يوجد شك أن الإعداد كان يتم لاجتياح وغزو كل مناطق النفوذ المصرى الواقعة غرب نهر العاصي.

كان المقصود بتلك الرسالة فرعون مصر بنفس القدر مع عزيرو(59)، وكان التقرير المرفق شديد المبالغة، فرقم 90000 جندى – وهو ضعف عدد

الجنود العثينيين الذين واجهو الجيش المصرى في موقعة قادش – لا يمكن قبوله ولا تخيله، إلا أن أشقاء عزيرو أقروا أن ما سمعوا به مازال بحاجة إلى تأكيد وتيقن. وربما كانت هناك تحركات عسكرية حثينية بالفعل في منطقة نوحاس، وقد كانت خاضعة للنفوذ الحثيني في ذلك الوقت، كما يفترض أنه كانت هناك بعض العمليات العسكرية الحثينية في منطقة أمكا، التي لم تكن خاضعة للنفوذ الحثيني (60)، إلا أن التقرير غير المؤكد بتلك الإشاعة عن توقع غزو حثيني واسع النطاق، كان يهدف إلى تحقيق هدف آخر. وبالفعل، من المحتمل جداً أن يكون عزيرو، قبل مغادرته بلاده إلى مصدر، قد رتب مع إخوته اللجوء إلى تلك الحيلة في حالة غيابه في مصدر لزمن يبدو بلا مبرر واضح.

ومهما كانت حقيقة الأمر، كانت رسالة إخر[عزيرو دافعًا قويًا لسرعة أتضاد قرار من الفرعون، ليضفى على عزيرو الصفة الرسمية التي ينشدها (61)، وأن يأذن له بالعودة إلى بلاده، ويحتمل أن تلك كانت المناسبية التي فرض فيها أخناتون عدداً من الشروط على العموري، والتي راح يذكره بها بعد ذاك، كان أحد الشروط يجبر عزيرو الخضوع إلى تفتيش منتظم من السفير المصرى المتجول حاني، والذي سيرسل بدوره تقاريره إلى القرعون ليخبره إن كان عزيرو ملتزمًا أم غير ملتزم بشروط الاتفاق في خدمة مصدر بإخلاص وتفان، كان من الواضع أن حاني أصبحت تربطه علاقة ودية طيبة بعزيرو في الفترة التي قضاها بمصر. فكما أعلن عزيرو بنفسه بعد ذلك، عامله رجل الدولة المتميز حانى بكرم ضيافة فائق، ورعاه «رعاية الأم والأب»(62). وعلى ذلك فإذا أرسل حاني تقريراً ينتقد فيه عزيرو، لن بكون بمقدور عزيرو التعلل بأن كاتب التقرير من أعدائه، وهو الإدعاء الذي دأب عزيرو على اتهام المستولين المصريين به، وسنواء كنان لدى عزيرو نية حقيقية في الحفاظ على ولائه لمسر والقرعون – وما علمه عن خبايا النظام المصرى أثناء وجوده بمصر كان له دورًا في اتخاذ قرار في هذا الشائن – فإنه لم يدع مجالاً للشك بعد عودته إلى بلاده أن سياساته وأفعاله ستحددها فقط طموحاته ومصالحه، لا الاتفاقات التى عقدها مع سيده فى مصر، لقد أصبحت المسألة أوضح بالنسبة إليه وهى أن الملك الحثينى لديه عروض أفضل، إذا تحالف معه على مستوى أمانه الشخصى ومستوى تحقيق طموحاته أكثر من انضوائه تحت هيمنة الفرعون المصرى، وظل لفترة يظهر ولاءه للفرعون، إلا أنه فى ذات الوقت بدأ فى بناء تصالفات مع ممالك صبغرى ضاضيعة للنفوذ الحثينى، وعلى وجه الخصوص مع اتياكاما ملك قادش ونيكمادو ملك أوجاريت، بالإضافة إلى بدء الحوار مع الملك الحثينى ذاته، كان قد أصبح من الواضح أيضا أنه لن يقى بالشروط التى فرضها عليه سيده، وراح قلق الفرعون يتزايد، وكتب إليه طالبًا منه تفسير فشله فى تحقيق وعوده له.

ولدينا رسالتان يدلان على انزعاج الفرعون(63)، كان عزيرو قد وعد بإعادة بناء مدينة سومور، والتي كانت على حالة سيئة بعد حصاره لها، واقتحامها في بداية تزعمه للحابيرو بعد موت أبيه، وبافتراض أن سومور كانت أقوى مدينة حصينة خاضعة لمصر في الشمال، فقد كان من المحتم إعادة بناؤها وتقوية أسوارها وحصونها، فلماذا لم يف عزيرو بوعوده التي قطعها على نفسه للفرعون؟ كان لدى عزيرو عذر جاهز، فقد وضع الذنب في أعناق المسئولين المصريين، وأكد الفرعون أنه سيعيد بناها في أسرع فرصة:

«تعدث الملك، سيدى، عن إعادة بناء سومور، كان ملك نوهاس يشن حربًا شدى، واستولى على مدنى بناء على تحريض من حاتيب (مسئول مصرى) لذلك لم أعد بناء سومور، والآن، ويكل سرعة ممكنة سوف أعيد بناحاء(64).

ولا يوجد أى دليل على أن عزيرو وفَّى بذلك الالتزام أبدًا.

كما قام بتجاهل السفير المصرى حانى، عندما زار عمورو بعد ذلك، كانت الزيارات الدورية التفتيشية التي يقرم بها السفير المسرى حانى، لتفقد أوضاع وأحوال معلكة عزيرو تتضمن لقاء مباشراً بين حانى وعزيرو، لتقييم مدى التزامه بأداء مهامه، إلا أن حانى لم يجد عزيرو في استقباله عندما وصل إلى عمورو، وبدلاً من ذلك ترك أفراداً آخرين من الأسرة يجتمعون بحانى، وكان ذلك بكل تأكيد خرقًا مباشراً لبنود الاتفاق الذى التزم به أمام أخناتون، فبالإضافة إلى أن ذلك كان إهانة للسفير والمفوض الملكي حانى، كان إهانة أيضنًا للملك الذى يمثله ذلك السفير، واتهم أخناتون عزيرو «بالتهرب» من مقابلة السفير، إلا أن عزيرو كان لديه العذر الذى أعده، ورد قائلاً:

«سيدى، كنت مقيمًا في تونيب (في الوقت الذي وصل فيه حانى إلى بلادى) ولم أكن أعلم بوصوله، وفي اللحظة التي علمت فيها، جئت لألحق به، واكنى عدت بعد رحيله»(65).

كان عذرًا واضع الاختلاق، وكان القرعون على يقين من ذلك، ولم يرض عن ادعاءات عزيرو بتأكيده أن حانى لقى من عائلته عناية فائقة أثناء غيابه فى تونيب، وأنهم أمدوا حانى بالخيول والبغال اللازمة لعودته إلى مصر، وتشير كل الاحتمالات إلى أن عزيرو تجنب عامدًا الالتقاء بالسفير المصرى، فقد أقدم بعد عودته إلى عمورو على كثير من الأفعال التي يصعب تبريرها.

كان احتلاله لتونيب في حد ذاته يحتاج إلى تفسير. فكما علمنا (من الفصل 8)، ظلت تونيب دون قيادة بعد موت ملكها أكى – تيشوب، وظلت نداءات أهالى تونيب ورسائلهم المتواصلة لفرعون مصر، ليسمح بعودة ابن لكي – تيشوب من مصر ليحل محل أبيه على عرشه، بالا أدنى استجابة من البلاط المصرى، وذكسرت إحدى الرسسائل الواردة من تونيب إلى الماصمة المصرية:

«داومنا على الكتابة إلى الملك، سيبنا، ملك مصر، على مدى عشرين عامًا، ولم يرد علينا سيبنا بكلمة واحدة حتى الآن، (66).

كان ابن اكى - تيشوب محتجزًا في مصر، منذ أن كان أبوه على

عرش تونيب. كانت تونيب تقع على الحافة الشمالية الشرقية لإقليم عمورو، على الضفة الغربية لنهر العاصى، وأغرى عزيرو خلو عرشها ولا مبالاة الفرعون الواضحة بمصير تونيب إغراءً لم يستطع دفعه ولا مقاومته، وكان ذلك بالضبط ما يخشاه أهل تونيب، فبعد اقتطاع ما تبقى من إقليم نيا (بمجرد أن ضم سبيللوليوما الحثيني أغلب مساحة نيا إلى أوجاريت)، قام عزيرو بالفعل باحتلال المدينة، وبالتالي راح يستخدمها كأحد مقاره.

وأتاحت له تونيب قاعدة قريبة من الأقاليم الخاضعة للملك الحثيني، بل قريبة من الملك الحثيني ذاته الذي كان في ذلك الوقت في إقليم نوحاس، الواقعة شمال تونيب على مسيرة يومين(67)، وأقر عزيرو للقرعون بلا مواربة بالاتصالات التي يجريها بالملك المثيني سبيللوليوما، كانت العلاقات المصرية الحثينية في حالة استقرار، وأعلن الملك الحثيني عن عدم وجود أي نوايا لديه بالاعتداء على الأقاليم الخاضعة لمصر بجنوب سوريا، وحتى على ضوء ذلك، فمن المدهش أن أخناتون قد قبل قيام ملك تابع له بإجراء اتصالات مباشرة مع مملكة أجنبية، بالرغم من أي ادعاءات من عزيرو أنه كان يسعى من خلال المحادثات الودية مع ملك أجنبي لحماية إقليم – وبالتالي حماية مصالح – سيده الأعلى من أي تدخل أجنبي، أو إقليم من المحادث بين الفرعون وأخيه الملك الحثيني، فقد كانت نقرم بدور الوسيط بين الفرعون وأخيه الملك الحثيني، فقد كانت تلك المهام من اختصاص المبعوثين الملكيين.

لقد افترضنا أن عزيرو احتفظ باختيارات مفتوحة منذ أن أمسك بزمام إقليم عمورو، ليختار الجهة التي يكرس لها ولاؤه، وفي الواقع لم يكن أمامه إلا اختياران لا ثالث لهما: إما أن يخضع لفرعون مصر أو للملك الحثيني، لم يكن هناك أي احتمال أن يكون زعيم مملكة مستقلة عن القوتين الكبيريتين، بالرغم من اتهام (ريب - حدا) له أنه يسمى لتحقيق ذلك.

وربما كان يشعر أثناء وجوده بمصر يومًا بعد يوم بميل أشد إلى الانضواء تحت جناح الحثينيين. إلا أنه لم يكن أمامه حتى تحين تلك اللحظة التي ينتقل فيها من الانضواء تحت جناح ملك كبير إلى ملك كبير آخر، إلا أن يظل على ولائه المعلن لمصر.

وباستثناء بضعة اعتبارات أخرى، لم يكن بإمكانه التيقن تمامًا إن كانت كان الملك الحثيني الكبير سيقبل به إذا تمرد على الحكم المصرى، لو كانت لديه رغبة حقيقية في الحفاظ على العلاقات الطيبة التي تربطه بمصر في ذلك الوقت، كما لم يكن على يقين أيضاً إن قبله سبيللوليوما هل سيحتفظ له بوضعه كملك تابع أم لا.. على الأقل كان قد ضمن ذلك من الفرعون .

كان بحاجة إلى إجراء مباحثات دقيقة ومفاوضات مفصلة مع الحثينيين، ومن الأفضل أن تكون من القاعدة التي استولى عليها بالقرب من حدودهم، وكان لاستيلائه على تونيب ميزة تحقق له ذلك – تحت تمويهه المعلن أن اتصالاته بالملك الحثيني إنما هي لصالح سيده الأعلى ملك مصر. وفي الوقت الذي استغرقته تلك المفاوضات كان عزيرو يحسن ويقوي موقفه على الأرض، بتوسيع دائرة نفوذه في المنطقة بالتنسيق مع ابتاكاما ملك قادش على حساب ولاية نايا، ومدنها نايا وقطنا وتونيب، وكذلك مدن ولاية أمكا، وكما يذكر الباحث سنجر، كان يرسل في الوقت ذاته برسائل استرضاء إلى البلاط المصري.

كان عدوه اللدود وضحيته في الوقت ذاته ريب - حدا ملك جوبلا الذي يصل بنا إلى الأزمة النهائية وفصل الختام في علاقة عزيرو بمصر، إذ تذكر رسالة من ريب - حدا إلى أخناتون:

«احتل عزيرو كل مننى، لم يعد تحت سيطرتى إلا جوبلا لا تنس خادمك المخلص، إذا قدم بقواته إلى جوبلا سيستواون عليها، وبالفعل حرض عزيزو كل المدن حتى يستولى عليها فأين أنا من كل ذلك»(68)؟

كان (ريب – حدا) قد توسل كثيرًا عبر كثير من الرسائل إلى أخناتون، ليدعمه ضد عدوان خصمه وجاره القاسى، وكتب في واحدة من تلك المناسبات إلى الفرعون قائلا: «إذا كان الملك، مولاي، يود المحافظة على جوبلا، فليرسل مولاي 300 جندي، و30 عجلة حربية، و100 رجل من

كاشى (النوبة / كوش) لحماية جوبلا، مدينة مولاى»(69).

من كثرة وغزارة اعتراضات ريب - حدا وتوسلاته، بدأ أخناتون منله مثل أبيه آمونحتيب الثائث يشعر بالانزعاج، وكتب أخناتون رسالة إلى أحد كبار موظفيه خارج مصر: «لماذا بداوم (ريب - حد) على إرسال ألواح الرسائل بهذا القدر إلى القصر؟» كان أخناتون يوجه ذلك التساؤل في الوقت الذي كانت فيه رسائل جديدة ترد إلى القصر من ملكه السوري العاجز عن التصرف(70)، وأرسل إليه رسائل مبتشرة قال فيها: «أنت تكب إلى أكثر من كل باقى حكام الأقاليم مجتمعين» (71).

وما يمكن ذكره في صالح (ريب – حدا) بالرغم من تهديداته بالتخلي عن المدينة أو الانضمام إلى عبدى – عشيرتا، أو عزيرو، كما فعل كثير من جيرانه ملوك الولايات، إلا أنه ظل على ولائه المتاج المصرى حتى آخر لعظة في حياته، وكان ذلك في حد ذاته إظهاراً مشهوداً لشجاعة نادرة أمام عقبات لا يمكن تخطيها. وليس من العدل أن يتهم بأنه كان ضعيفاً أو متخاذلاً في مواجهة تلك العقبات، فقد كانت عائلته ذاتها تحرضه وتدفعه أن يساير عزيرو ويهادنه، وذكر ذلك في إحدى رسائله للفرعون:

«شعب جويلا، وأهل بيتى، وزوجتى، يكررون على الدوام: «انضم إلى ابن عبدى عشيرتا ودعنا نعش في سالام»، إلا أننى رفضت. ولم أعرهم انتباهًا»(72).

وأخيرًا، حين بدا أن وضعه ميؤسا منه تمامًا، بذل آخر محاولة لكسب تأييد ودعم محلى في غياب أى استجابة محسوسة من الفرعون، ذهب إلى بيروت وعقد اجتماعًا مع حاكمها عمونيرا(73)، كان عمونيرا متعاطفًا معه، إلا أنه لم يرد أو لم يكن بقدرته أن يمده بأى معاونة ذات قيمة، وربما كانت تلك القشة الأخيرة التي كانت تخشاها أسرة ريب — حدا. وبعد إن لم يعد أمام ريب — حدا أي أمل أو احتمال لوصول مساعدة خارجية، تمرد عليه أخوه الأصغر إيلى رابح، لم يكن لدى إيلى رابح نية الاستشهاد مع أخيه، فأمسك بمقاليد الحكم في جويلا ونحي أخاه، وسلَّم أبناء أخيه

إلى المتمردين العموريين، وقد وصلت تلك التفاصيل إلينا من خلال رسالة بعث بها عمونيرا حاكم بيروت إلى أخناتون بعد عودة ريب – حدا مرة ثانية إلى بيروت كلاجي(74).

ومرة أخرى يكتب (ريب – حدا) إلى مصر، بطلب أخير الفرعون، ليدعمه ويعاونه على استرداد عرشه، والقبض على الخونة، والحياولة دون وقوع المدينة في أيدى أبناء عبدى – عشيرتا، متعللًا بأن كبر سنه واعتلال صحته هما ما يمنعانه من القدوم بنفسه إلى مصر، وأنه عهد بالرسالة إلى أحد أبنائه الذي تمكن من الفرار من براثن عزيرو وكلف بمهمة شرح الوضم الذي أصبح عليه والده لفرعون مصر، وقال في ثلك الرسالة:

ولا أستطيع القدوم بنفسى إلى مصدر، أصبحت مسنًا وأنهكت العلل بدنيء(75).

إلا أن تلك البعثة والرسالة لم يسفرا عن شيء، ومع تحريم عودته إلى مدينته، وعدم وجود مدينة أخرى يذهب إليها، فقد كانت المدن إما واقعة في أيدى العموريين، كما أن وجوده في أيدى العموريين مدينة لم تقع بعد في أيدى العموريين سيجعل منها هدفًا لانتقام العموريين، اتخذ ريب — حدا آخر خطوة مذلة، فقد وجد مسكنًا متواضعًا في إحدى مدن ولاية صبيدا، وأضحى وكأنه يضع نفسه تحت رحمة ألد أعدائه، وعرض على عزيرو رشوة ضخمة لاسترداد مدينته، ليصبح تابعًا لاكبر معذبيه في حياته بأجمعها (76).

أما رد عزيرو على ذلك العرض فنعلم به من رسالة بعث بها أخناتون إلى عزيرو(77)، وقد تضاربت التفسيرات حولها، فوجهة النظر التقليدية السائدة تذهب إلى أن عزيرو لم يظهر أى قدر من الشفقة ولا الرحمة تجاه الرجل الذى رفضه على الدوام (ورفض أباه من قبله). وأنه سلمه إلى الحكام المحليين في صيدا، واعتمدوا في ذلك على الجملة التي وردت في رسالة أخناتون (أنت سلمته إلى (بعض) المحافظين – وهو تفسير موران)، والمفترض أنه لقى حتفه على أيديهم.

إلا أن هناك تفسيراً حديثًا لإسرائيل فسر المفردات على أن عزيرو استجاب إيجابيًا لذلك العرض، بأن عينه محافظًا كتفسير لمفردات (أنت عينته (سلمته) محافظًا)(78). وعلى أساس ذلك التفسير، يعلق سنجر أن أخناتون، الذي لم يكن لديه أي نية لمعاقبة عزيرو على معاملته القاسية لريب – حدا، إلا أنه كلفه بتعيينه محافظًا، وهو حق مقصور على الفرعون وحده الأمر يه (79).

وبذلك نجد أن لدينا تفسيرين لنهاية ريب — حدا ، نهاية قاسية وبلا طقوس رسمية لملك جوبلا السابق، على أيدى حكام محليين في ولاية صيدا، والنهاية الأخرى ترى أنه خضع في نهاية حياته لعدو عمره اللدود في وظيفة شرفية مريحة حتى آخر أيامه، وليس هذا إلا أحد الأمثلة على المصاعب المتضمنة في ترجمة فقرات كثيرة وردت في رسائل تل العمارنة، فالقراءات المختلفة وكذلك التفسيرات المختلفة لفقرة بعينها، من المكن أن ينتج عنه في أحيان كثيرة ترجمات متضادة المعنى تمامًا.

واسبوء حظ ريب - حدا، لم يكن من المتوقع أن تنتهى قصبته تلك النهاية المؤسفة، كان يمكن أن نفضل له بعد تلك الحياة من المقاومة العنيدة للعدوان العمورى أن يموت ميتة الشهداء على أيدى أعدائه، معلنًا حتى آخر لحظة من حياته ولاءه لسيده الأعلى، إلا أن هناك احتمالاً أنه خضع خضوعًا مشيئًا في النهاية تحت رحمة عدوه اللدود، الذي من عليه بعد خضوعه.

ومهما كانت الطريقة التي عامل بها عزيرو ريب – حدا بعد انهياره، بدأ أخناتون بعدها إجراءات صارمة متشددة، فأعلن أن العموريين قد تجاوزوا كل العدود المسموح لهم بالتجرك في إطارها، ولم يكن ذلك إلا تجاوزا واحدًا ضمن قائمة مطولة من التجاوزات سجلها الفرعون في رسالة غاضبة إلى عزيرو، وبالرغم من ادعاء عزيرو المستمر بالولاء، إلا أنه لم بعد يحظى بأى قدر من ثقة الفرعون، وأعلن الفرعون في رسالته: «كل ما كتبت به إلى ليس إلا أكانيب» (80). وأكثر ما أثار غيظ الفرعون تعاون

وتعامل عزيرو مع أتياكاما حاكم قادش، الذي لم يكف عن توسيع حدود ولايته بالعدوان على الولايات الخاضعة لمصر، لذلك أفصح الفرعون عن غضبه في تلك الرسالة: «أنت في حالة وئام مع حاكم قادش، أنتما تأكلان معًا وتشريان الخمر معًا، لماذا تسلك ذلك السلوك ولماذا تصادق حاكم بيتنا وبينه حروب»(81)؟ وربما كان ذلك السلوك الاحتفالي للذي أشار إليه الفرعون، لم يكن إلا احتفاء بمعاهدة أبرمها عزيرو مع أتياكاما(82)، الذي كان عدوًا لمصر.

ثم وجه الفرعون أقوى تهديد إلى عزيرو: «إذا كنت تقترف الشرور لأية أسباب مهما كانت، وإذا كنت تحيك مؤامرات شريرة وخيانات، فسوف تعوت أنت وكل عائلتك بفأس الملك (83).

وطلب منه الفرعون إما أن يأتي بنفسه إلى مصير، أو يرسل ابنه الذي يمثله ولا يوجد شك في أن الغرض من تلك الزيارة كان مواجهة التهم التي تراكمت ضده، وهي التهم التي اتهمه بها الملوك المطبين في سوريا الذين عانوا أشد المعاناة من العدوان العموري المتكرر والتهم التي يتهمه بها كبار رجال الفرعون وموظفوه، أو كان عزيرو قد استجاب لأمر سيده الأعلى(84). لكان قد تعرض إلى عقوبة قد تكون في أفضل الأحوال احتجازه في مصر لفترة غير محددة، أو حجز ابنه ضمانًا لحسن سلوك أبيه، كان أخناتون قد أوضح بجلاء أن ذلك إنذارًا نهائيًا، وكان تلقيه ذلك الإنذار بتحد أو استخفاف يترتب عليه رد فوري وعاجل من الفرعون، وتذكر عزيرو مصير أبيه، كان يعلم علم اليقين أن الفرعون قد عقد العزم النهائي، وأنه في نهاية الأمر في متناول يد مصر أكثر حتى مما كان أبوه، وفكر في اكتساب بعض الوقت وطلب مهلة من الفرعون عامًا، حتى يرد على الاتهامات الموجهة إليه، وقبل الفرعون، ومضى العام، ولم يكن الفرعون لبوافق على أية تمديدات جديدة المهلة، ويعث إليه قائلاً: «لا تفكر؛ هل يعطيني مهلة عامًا آخر، لو كان من المستحيل عليك أن تأتي أمام الملك، سيدك، لابد أن ترسل ابنك إلى ملكك، سيدك، عوضنًا عنك (85). ويبدو شبه مؤكد، أن عزيرو لم يذهب إلى مصر استجابة لأمر الغرعون ولم يرسل أبنه عوضاً عنه، وحان الوقت الذى يحسم فيه موقفه، وكان من زمن طويل يعد لتلك اللحظة، ومنذ زيارته السابقة لمصر التى ظل من حينها يظهر ولاءه للفرعون، لم يضع لحظة في تقوية موقفه في سوريا، بعد نقوذه وبعقد تحالفات مع ملوك محليين مثل نيكمادو ملك أوجاريت وأتياكاما ملك قادش الخاضعين للنفوذ الحثيني، ومع إحساسه بالأمان في ظل تلك التحالفات، جاء إنذار الفرعون، وبعد أن كان قد أجرى اتصالات بالملك الحثيني (والمفترض أنه حصل على تأكيدات بدعمه)، أعلن عزيرو نقل ولاءه إلى الحثينيين، وقام بإبرام معاهدة خضوع وتبعية مع الملك الحثيني الكبير.

ولا بد أن أخناتين قد انزعج انزعاجاً شديداً من ذلك التحول، خاصة أن عزيرو نقل معه إلى المعسكر المشينى كل أرض بلاد عمورو، وهو مكسب إقليمى ضخم لسبيللوليوما، على حساب أخيه الملك المسرى، وأصبحت مناطق النفوذ المسرية الأخرى في المنطقة في خطر داهم.

وأدى ذلك الموقف إلى جر مصر والمملكة الحثينية إلى حافة الحرب الشاملة، وهناك أدلة تظهر أن أخناتون بدأ في الإعداد لحملة عسكرية شاملة موسعة، لاستعادة الأقاليم السورية التي فقدها (87). إلا أن ذلك الإعداد توقف فحجاة بموت أخناتون عام 1663، وأدى ضعف مصر والاضطرابات والقلاقل التي حلت بها فيما تلي ذلك وهي الفترة التي شهدت انهيار الأسرة الثامنة عشرة، التي كانت من أعظم الأسر، أكدت أنه لن يمكن الإعداد للحرب الموسعة في سوريا، على الأقل في تلك المرحلة. إلا أن فقدان كل من قادش وعمورو لصالح الحثينيين ظل يعتمل في صدور أسيادهم الأوائل، وظلت الولايتان موضع نزاع بين القوتين العظميين على مدى عقود طويلة تالية، كما كانتا الدافع وراء ذلك الصدام المشهود بين قوات الحثينيين والقوات المصرية في معركة قادش، التي وقعت بعد موت أخناتون بستين عامًا.

10

مراسلات الجبهة الحثية

سجرات المحفوظات الإقليمية

من أهم ماكشفت عنه أعمال الحفر في منطقة الحثينيين في الأعوام الماضية، مواقع سجلات المحفوظات في مراكز إقليمية عديدة بتلك المنطقة، وداخل حدود المملكة القديمة ذاتها، اكتشفت سجلات المحفوظات الحثينية المكتوية بالمسمارية في أورتاكوي (سابينيوا قديماً)، وكوزاكلي (ساريسا قديماً)، وماسات (تابيكا قديماً). وتنوعت محتويات تلك السجلات تنوعاً والسعاً، من صكوك ملكية أراضي، إلى فواتير بضائع وأفراد إلى تنويعات من نصوص دينية وعقائدية.

كما كانت مواضع إغلاق الرسائل ما تزال بادية بوضوح على كثير منها، أما أكبر مجموعة من النصوص، فهى عبارة عن رسائل كتبها الملك إلى موظفيه المحليين وحكام الولايات، أو من الموظفين المحليين وحكام الولايات إلى الملك، أو من مسئولي الحاميات إلى المسئولين المحليين، أو من مسئولين محليين إلى زملاء لهم في مناطق أخرى. على مجالات عديدة احتوت الرسائل، وكأنها سجل يومي للشئون الإدارية في المراكز الحضرية للمحلكة، ووفرت رؤية واضحة للأحوال التي كانت سائدة، والمشاكل والمخاطر التي تواجه كلاً من المسئولين المدنيين والعسكريين المعينين على المناطق الخاصعة، كما أتاحت لنا تأمل جوانب هامة في العلاقات الشخصية، التي كانت تبدر في بعضها ودية وحميمة، وفي بعضها الآخر

وتعد سابينيوا أهم موقّع بين المواقع الثلاث السابق ذكرها، وتقع على مسافة 55 كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من مدينة سورام، وكانت مدينة كبيرة وجميلة في فترة ازدهارها وتشغل مساحة تسعة كيلو مترات مربعة،

وأثناء إجراء أعمال الحفر التي بدأت عام 1990، تم الكشف عن مبنيين أثريين، تم التعرف على أحدهما كقصر قديم (المبني أ (A))، وعثر به على 3000 لوح من الطين، موزعة بين ثلاث قاعات الحفظ، ومازالت نصوصها قيد البحث والنشر، إلا أن التقرير الأول عن محتوياتها، وتكرار ذكر اسم سابينيوا في سجلات العاصمة، يظهر أن المدينة لم تكن مجرد مركز ديني وحضري الحثينيين، بل كانت أيضًا أحد مقار إقامة الملك الحشيني الأكبر(1)، على الأقل خلال الفترة السابقة على كارثة الغزو الداخلي، كما كانت قاعدة عسكرية هامة، حيث كانت تتجمع بها القوات من المناطق المجاورة للدفاع عن المناطق الشمالية للمملكة(2).

وشهد عام 1993 بداية التنقيب في مواقع كوزاكلي 1، الذي يقع علي بعد 200 كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من حاتوسا عاصمة الملكة، وفي العام التالي بدأت الألواح الطينية التي كانت بذلك الموقع تظهر إلى الوجود، مما أكد أن ذلك الموقع هو موقع مدينة ساريسا القديمة، والتي كان اسمها يذكر مراراً في النصوص الحثية كمركز ديني. كانت ساريسا مدينة منيعة متوسطة المساحة تقدر بحوالي 18 هكتارا، والنصوص التي عثر عليها بسجلاتها الصغيرة كانت نصوصاً دينية وطقسية، كما أزيل الركام عن خمسة وستين خاتماً، لختم الرسائل من ذلك الموقع(3).

وسوف يثرى فض أسرار تلك النصوص التي ذكرناها من معرفتنا عن تفاصيل الحياة والشئون الإدارية في الدولة الحثينية، إلا أن تركيزنا الرئيسي في هذ الفصل سيكون على سجل الألواح المكتشفة في ماسات، وهو موقع مدينة تابيكا القديمة(4)، التي تقع على بعد 50 كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من موقع مدينة حاتوسا القديمة.

مراسلات تابیکا (5)

كانت مدينة تابيكا القديمة مركزاً إدارياً وعسكرياً على منطقة الحدود

الشمالية الشرقية، خلال القرن الخامس عشر وبدايات القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كانت المنسآت تشغل مساحة تربو على عشرة هكتارات، وتم اكتشاف موقعها في بداية السبعينيات من القرن العشرين. كانت مدينة صغيرة وأقل أهمية من مدينة سابينيوا القديمة التي تقع على مسيرة يومين منها إلى الغرب. إلا أن سجل مراسلاتها كان أول سجل يتم التوصل إليه بعد سجلات العاصمة حاتوسا، وأمدنا بفيض من المعلومات عن مرحلة لم يكن متوفراً عنها أية وثائق تاريخية، وعثر على سجل محفوظاتها الذي احتوى ضمن محتوياته على ست وتسعين رسالة (من بين إجمالي 116 نصاً)، وقد تم اكتشافها في مبنى يعد بوجة عام قصراً في المستوى الطبقي الثالث من بين مستويات الحفر الخمس، ويمكن تحديد زمنه بدقة في عهد تودحاليا الثالث، أبو سبيللوليوما، الذي حكم في العقود الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد(6).

وكانت تلك الفترة من الفترات الصرجة في التاريخ الحشى، ففي أثناء حكم تودحاليا وصلت المملكة الحثية إلى شفا الدمار والهلاك، كانت قوات الأعداء قد اخترقت حدود المملكة من كل الاتجاهات، وشنت سلاسل من الهجمات على قلب المملكة وهو ما يسمى الآن بالغزو المركزي الداخلي، وكما عرفنا (من الفصل الأول)، تم اجتياح كل أنحاء البلاد، واضطر البلاط الملكي إلى الفرار من العاصمة ولجاً إلى منطقة ساموحا في طرف البلاد الشمالي الشرقي، وتشير رسائل تابيكا إلى وقت يقدر بحوالي بضعة أعوام قبل تلك الكارثة، ولا بد أن الكارثة قد حلت بالمنطقة قبل آخر الرسائل المكتشفة بذلك السجل، وكانت بانتظار إرسالها إلى حاتوسا العاصمة، فهل تحتوي الرسائل ذاتها على أي دليل يشير إلى الكارثة المتوقعة والمحتملة في ذلك الوقت؟ سنعود إلى ذلك التساؤل في موضع الخر.

لنولى اهتمامنا أولاً إلى كاتبى تلك الرسائل ومتلقيها، الجل الأعظم من تلك الرسائل مرسل من الملك الأكبر ذاته إلى المسئولين المحليين في تابيكا، داوم الملك على المحافظة على الاتصال المباشر بأولتك المسئولين، مهتماً بنفسه بشئون تلك المنطقة ومرسلاً أوامره وتعليماته المنتظمة وكيفية تنفيذ تلك الأوامر. كانت أوامره تنقل في رسائل مكتوبة صادرة من القصر (وأحياناً كرد على رسائل واردة من المسئولين بتلك المنطقة)، وكذلك الأوامر المباشرة وجهًا لوجه، حين كان المسئولون يفدون إلى حاتوسا لهذا الغرض. ويبدو أن أولئك الذين كانت تصدر لهم أوامر تفصيلية لم يكن متاحاً لهم ممارسة أي قدر من الاجتهاد الشخصي، ويعكس ذلك بالطبع عدم استقرار السئطة الحثية في منطقة تابيكا التي تقع على حافة منطقة كاسكا، وكانت معرضة على وجه الخصوص لهجمات قوات كاسكا المعادية، كان الملك مهتماً بالتأكد أن كل الإجراءات المكثة قد تم اتخاذها لضمان سلامة المنطقة، وتدخل بنفسه مباشرة في شئون تلك المنطقة أكثر من غيرها من المناطق التي لم تكن تتعرض لمثل التهديد.

وغطت مراسلات الملك موضوعات كثيرة مختلفة، فقد اشتملت على طلبات منه بكتابة تقارير دقيقة عن تحركات العدو (وأرسل أعداداً من الحثيين إلى المنطقة للاستكشاف والتجسس)، كما كان فيها رداً على طلبات بإرسال قوات إضافية، لتقوية الدفاعات الموجودة، واحتوت أيضاً على تعليمات خاصة بإعادة توطين السكان في المناطق المهددة من قبل العدو، كما اشتملت على الوسائل الواجب اتباعها مع الفارين من الجيش وأسرى الأعداء الذين يستسلمون والذين يؤسرون أثناء المعارك.

كانت تلك الاتصالات تتم بصورة مباشرة وتدخل مباشرة إلى صميم المواضيع المعنية وتنتمى إلى شكل يختلف عن المراسلات الدبلوماسية التى كان الإخوة الملوك يتبادلونها، أو تلك التي ترسل من ملك كبير إلى ملوك صغار تابعين وخاضعين لهيمنته. فحين كتب كاسو من تابيكا إلى سيده الأكبر طالباً تعزيزات عسكرية، لم يتضمن الرد عليه أي رسميات ولا صياغات بلاغية لا ضرورة لها: «هكذا يقول جلالته لكاسو: فيما يختص

بما كتبته إلى عن العجلات الحربية فلتعلم: أننى بعثت بالعجلات الحربية. انتظر وصواها»(7)، أما المراسلات بين المستولين فكانت أقل تركيزاً واختصاراً، فقد كان من المتعارف عليه أن يخاطب أى مسئول مسئولاً آخر بالبدء بكلمة: «أخى»، أو الأكثر ملاحة: «ابنى»، ثم يضيف تمنياته له بموفور الصحة والسعادة، وكانت تلك البداية بالفعل طريقة موحدة على كافة المستويات الاجتماعية في مخاطبة الأنداد(8)، وقد لاحظنا ذلك في الرسائل المطولة التي كان كبار الملوك يرسلونها إلى أندادهم من كبار الملوك.

كان كاسو أكثر من ذكر اسمه في رسائل تابيكا، وكان هو متلقى كثيرًا من الرسائل من كل من الملك الأكبر ومن كثير من المسئولين في للعاصمة حاتوسا. بالرغم من أنه لم تكن عادة متبعة في المراسلات أن يوجه الكلام لمتلقى الرسالة بذكر ألقابه المهنية الرسمية، ويمكن إدراك أن كاسو كان رتبة عسكرية عظمى وله صلاحيات واسعة في تلك المنطقة(9)، وكان عبء الدفاع عنها يقع على عاتقه بصفة أولية(10)، ويبرر ذلك كثرة اتصاله بسيده الأعلى في حاتوسا حول شئون الأمن والدفاع وتحركات للأعداء. لم يكن كاسو ولا زملاؤه يحتفظون بنسخ من الرسائل التي يبعثون بها إلى حاتوسا، إلا أنه يمكننا أن نخمن ما كانوا يكتبونه من خلال الردود التي تلقوها على رسائلهم.

فنجد أن جلالته بعد أن يطلع على تقرير عن تحركات قوات الأعداء، يرسل إلى كاسو تعليمات بألا يسمح للأعداء بتجاوزوا الحدود، وأن يعمل على أن يبقوا داخل مناطقهم(11)، وفي رسالة أخرى يشير الملك الأعظم إلى رسالة تلقاها من كاسو يعلمه فيها باستسلام عدد كبير من قوات الكاسكا، وقال في رده: «وعما كتبته إلى: جات أعداء كبيرة من الكاسكا طلباً للسلام، أبعث بهم أمام الملك أولئك الكاسكا الذين جاوا طالبين السلام» (12)، أما معاملة أسرى الأعداد فهي مشروحة في عديد من الرسائل، على الأقل من بداية عهد سبيللوليوما الأول، وكان أولئك الأسرى

ينقلون إلى الداخل، ويسخرون فى الأعمال الشاقة التى لا تقوم بها العمالة الوطنية، كان نقلهم إلى داخل البلاد يتطلب قوات حراسة كافية؛ لمنعهم من الفرار والعودة إلى بلادهم، إلا أنهم كانوا يحتفظون ببعض الأسرى بالقرب من جبهة المواجهة، وكان ذلك يتطلب قدراً أكبر من حراستهم، الضمان خضوعهم وطاعتهم.

ويبرز ذلك الاحتمال من خلال نصوص عديدة في سجلات تابيكا تشير إلى أسرى مكفوفين، أو الذين سملت أعينهم حتى لا يتمكنوا من القرار، واحد من تلك النصوص (وهو ليس من الرسائل) عبارة عن قائمة بأسماء الأسرى الذين يمكن افتدائهم بالمال، ليعودوا إلى أهلهم، كان الأسرى يقسمون إلى قسمين: قسم العميان وقسم المبصرين(13) ولا يوجد ما يثبت بيقين كيف فقد العميان أبصارهم، ويحتمل أن عيونهم قد سملت عمداً، بعد وقوعهم في الأسر، حتى لا يتمكنوا من الفرار أو كعبرة لمن يفكرون في محاولة الفرار، والبديل المحتمل أنهم فقدوا بصرهم نتيجة إصابات أعمال القتال، أي إصابة حرب، إلا أن البروفيسور هوفز يعلق على ذلك بأن نسبة عدد الأفراد المسجلين من فاقدى البصر تبدو نسبة على ذلك بأن نسبة عدد الأفراد المسجلين من فاقدى البصر تبدو نسبة عالية، مما لا يمكن معه عزوها إلى إصابات حروب، ويحتمل كما يفترض عوفز، أن سمل العيون كان من العقوبات التي تقتصر على قادة التمرد والبارزين من بينهم(14).

وهناك رسالة من مسئول يدعى كيكارسا تحتوى على مزيد من المعلومات عن الأسرى فأقدى البصر، ففى محاولة للتوصل إلى شخص معين بين فأقدى البصر، كتب كيكارسا إلى زميل له يدعى تاحازيللى، وهو مسئول أخر، ربما كان مقيماً في تابيكا، وردً تاحازيللى عليه بالنص التالى:

وبخصوص موضوع فاقدى البصر الذي أرسلت به إليّ: لقد ساقوا كل فاقدى البصر إلى سابينيو، ولم يتركوا هنا إلا عشرة منهم (للعمل) في الطواحين، واستفسرت عن أسمائهم، ولا يوجد بينهم الاسم الذي تسال عنه، يجب أن تكتب إلى ساريا في سابينيوا كل فاقدى البصر (الأخرين) هناكم(15).

وكما توضح تلك الرسالة بجلاء تام، كان للأسرى فاقدى الأبصار أيضاً ما يمكن أن يسخروا فيه من أعمال، وفي الحالة السابقة تم تسخير الأسرى. فاقدى البصر العمل في طواحين الفلال، ونعلم من نص رسالة أضرى أن بعضيهم حاول الفرار من العمل في طواحين الغلال في سابينيوا(16). كما تثبت صعوبة توصل تاحازيللي إلى فرد بعينه (والمحتمل أنه كان يبحث عنه ليفتدى بمال) صحة الافتراض أن أعداد الأسرى الذين سملت عيونهم عمداً، افتراض جوهرى، وأن ما حلَّ بهم قد خلَّ بهم على أيدى آسريهم.

وعلى ضدوء وجود رسالة من بين رسائل سجل المحفوظات من الملك الحثينى يهدد فيها بسمل أبصار اثنين من كبار المسئولين إذا فشلوا في تتفيذ أوامره بدقة، ندرك أن الأسرين الحثينيين لم يكن لديهم أي رادع تجاه سمل عيون من يقع من المتمردين في الأسر، إما كنوع من العقوية، أو كعبرة وتحذير الباقين، أو للسببين معاً.

ولاحظنا مماسبق تلك الرسالة من الملك إلى كاسب التي تدور حول استسلام أعداء من الكاسكا للسلطات العثينية في إحدى المناطق المحلية، والرسالة طويلة نسبياً، سجل فيها الملك أوامره بخصوص موضوعات عديدة رداً على رسالة تلقاها من كاسو. وبعد أن تملى الكاتب ما يصل إلى واحد وأربعين سطراً من الملك، أقفل النص بخطين متوازيين أسفل آخر سطر، وهما علامة اكتمال النص الرسمى، إلا أنه كتب أسفل الخطين إحدى عشر سطراً جديداً، ليس لها علاقة بالنص الملكى أعلى الخطين، بل كانت عبارة عن رسالة أخرى، عن لسان كاتب آخر، وموجهة إلى شخص مختلف:

«قل لأخى الحبيب حميويلى هكذا ذكر أخوك حاتوسيلى: أتمنى أن يكون كل شيء على أفضل حال. وأن تشمك الآلهة بعنايتها وتصفعك سالماً. وعما كتبته إلى بخصوص زوج ابنتك، أن أنسى أمره، وسأتحدث عنه في القصر، وسأعرض موضوعه على جلالته (17).

وهكذا، نعرف شخصيتين برزا كثيراً من بين ثنايا مراسلات تابيكا. كان حميويلي من أبرز الشخصيات في تلك المراسلات بعد كاسو، كان يتقك منصب الحاكم المحلى، مع صلاحيات عسكرية وقضائية وإدارية واسعة(18).

وكان حاتوسيلى (ولا يجب الخلط بينه وبين الملوك الحيثيين الذين حملوا هذا الاسم) صديقاً حميماً لحميويلى الذي يتمتع بصلات ونفوذ في البلاط الملكي.

وأخذ على عاتقه استخدام نفوذه في البلاط الملكي في أمر يخص زوج ابنة حميويلي، ويبدو أن حميويلي طلب من صديقه السعى لترقية زوج ابنته ردًا لخدماته الجليلة التي يقدمها إليه، حتى يسعى الأخير للحصول على ترقية لزوج الابنة من القصر الملكي.

كان من الشائع أن يقوم الموظفون القائمون على خدمة الملك بإلحاق رسائلهم إلى زملائهم وأصدقائهم بعد رسالة الملك، وبوجه عام، كان يلحق بالرسالة الاساسية رسالة واحدة في الغالب وأحيانا رسالتين، ويحتوى سبجل محفوظات تابيكا على بعض الأمثلة لتلك العادة التي تعد وسيلة تواصل غير رسمية بين كبار المسئولين (كما في المثال السابق). وأيضاً بين صغار الكتبة، كانت وسيلة فعالة في نقل المعلومات والمطالب الشخصية، وأحياناً في أمور تافهة وشخصية بين الموظفين والمسئولين المعينين في مختلف أرجاء الدوائر الإدارية في أنحاء المملكة، وكانت الرسائل الملحقة المتعلقة بأمور شخصية مبتذلة، تضفي أحياناً شكلاً من التفاهة على الرسالة الأساسية التي تتناول أموراً في غاية الجدية والخطورة. إلا أن شيوع تلك المارسة كان يشي بأنها تتم بعلم الملك، أو على الأقل يتغاضي عنها، مثلما يسمح في عصرنا لموظفي السفارات على الأقل يتغاضي عنها، مثلما يسمح في عصرنا لموظفي السفارات

كان على كثير من الكتبة والموظفين الطامحين إلى الترقى في مجال خدمة الملك الأعظم العمل بعض الوقت في المراكز الإقليمية مثل تابيكا حتى ينالوا ترقية وظيفية، بل إن صغار أعضاء العائلة المالكة كانوا يرسلون أيضًا لقضاء بعض الوقت في الأقاليم، لتوسيع مجالات خبراتهم وتنمية قدراتهم كوسيلة من وسائل إعدادهم لشغل المناصب المهامة في المملكة، وبينما كانوا يقضون المدة المقررة لهم في الأقاليم، كانوا يوضعون تحت إشراف ومراقبة موظفين مسئولين عن أمنهم وسلامتهم، وهناك رسالتان صادرتان من تابيكا من أولئك المسئولين إلى الملك يطمئنونه فيها بأن كل شيء على ما يرام فيما يخص ابنه (في إحدى الرسائل) وبناته بأن كل شيء على ما يرام فيما يخص ابنه (في إحدى الرسائل) وبناته (في رسالة أخرى)، وألا يشغل باله بهذا الأمر(19).

وفيما كان على موظفى حاتوسا العمل بعض الوقت فى الأقاليم، كان العكس يطبق على الوظفين الإقليميين، فنصرف مشلاً أن كاتباً يدعى تارحونميا توجد ممتلكاته فى تابيكا، بينما كان يعمل فى العاصمة(20)، ويدل ذلك على أنه ينتمى فى الأصل إلى تابيكا، بينما نقل للعمل مؤقتاً فى حاتوسا، وتوجد بضع رسائل أخرى من كتبة فى حاتوسا يطلبون فيها من زملائهم فى تابيكا رعاية ممتلكاتهم هناك.

وحيث إن الموظفين الذين يرسلون لقعمل بعض الوقت في الأقاليم لم يكونوا ليصحبوا عائلاتهم معهم، كان كثيرون منهم قلقين على شئون أسرهم وأحوالها، وتوجد عدة رسائل ملحقة من موظفى حاتوسا يطمئنون فيها زملاءهم في تابيكا على أسرهم، فمثلاً، بعد كتابة نص رسالة من الملك تحمل تعليماته وأوامره إلى كاسو عن الإجراءات التي يقوم بها بخصصوص تحركات الأعداء(21)، أفساف الكاتب شورحيللي رسالة شخصية من عنده إلى زميله وصديقه عوزو الكاتب بإدارة ولاية تابيكا، كان شورحيللي يعلم أن تلك الرسالة ستمر أولاً على زميله عوزو الكاتب بإدارة عوزو الكاتب بإدارة عوزو الكاتب بإدارة ولاية تابيكا، كان شورحيللي يعلم أن تلك الرسالة ستمر أولاً على زميله عوزو الكاتب بإدارة تابيكا، أن تلك الرسالة ملحقة برسالة الملك إلى كاسو:

أتمنى أن تكون كل أمورك على ما يرام، لتحفظك الآلهة وإله الحكمة، كل شيء بخير في بيتك، وكل أمور زوجتك على ما يرام، لا يوجد ما يستحق أن تشغل ذهنك به، أخى الحبيب، الرجال الرد بإرسال تحياتك إلىّ» (22).

وهناك رسائل أخرى مرسلة إلى عوزو من كاتب في جاتوسا يدعى ميرسير، إحدى تلك ألرسائل ملحقة برسالة من الملك إلى الحاكم حميويلى، وبعض جر خطين تحت نص رسالة الملك، أضاف ميرسير ملحوظة إلى عوزو يبلغه فيها أن حميويلى كان قد وعده بثور، ويطلب من عوزو أن يعاونه على إرسال الثور إلى حاتوسا(23)، وفي رسالة أخرى طلب ميرسير من عوزو إرسال طهاة ،لو كان لديه طهاة مهرة في تابيكا، كما طلب إرسال بعض الأسلحة(24)، وفي وقت آخر كان فيه حميويلى في العاصمة حاتوسا، بعث بطلب مماثل إلى حميويلى، وهو أحد زملائه في تابيكا، بعد أن وبخه لعدم كتابته إليه(25)، وكذلك توجد رسالة من مسئول يدعى إليتوكولتي يشكر فيها إلى كاتب تابيكا المدعو عدد بيلي تقاصمه عن الرد على رسائله، قال فيها:

وإلى أخى العبيب أرسات إليك تعياتي مراراً، ولم ترد أبداً على تحياتي بمثلها م(26).

وكان التوبيخ القاسى يظهر أحياناً فى مراسلات المسئولين بين حاتوسا وتابيكا، فنجد أن قائداً عسكريًا متمركزًا فى تابيكا يكتب رسالة شكوى إلى بالأنا وزارتومانى، وهما من كبار المسئولين فى حاتوسا، يلقى عليهما بمسئولية المعاملة غير العادلة التى تعرض لها وعانى من جرائها، ومن أخطاء وجرائم، كان بريئاً منها أو كان يدعى ذلك(27)، وهدد برفع المشكلة كلها إلى حضرة الملك، وأعلن أن ذلك سيؤدى إلى إجراء تحقيق شامل فى تابيكا، ويفضى إلى القبض على الجناة الحقيقيين، ثم يرسلون إلى حاتوسا ويحاكمون فى محكمة الملك، كانت الجرائم، كما يبدو من الرسالة مجرائم خطيرة، بغض النظر عن معرفتها على وجه الدقة، فقد الرسالة مجرائم خطيرة، بغض النظر عن معرفتها على وجه الدقة، فقد

شمات قائد عسكريًا كبيرًا ربما كان كاسو ذاته (28)، واسوء الحظ لم يصل إلينا مزيد من التفاصيل، ولكن بدت المشكلة على درجة من الخطورة تصل إلى حد إجراء تحقيق ملكى في تابيكا، ينتهى بمحاكمة المتهمين في محكمة الملك.

كذلك كانت درجة التوتر تزداد أحياناً في المراسلات بين المستواين الرئيسيين عن تابيكا كاسو وحميويلي، ولا يدهشنا ذلك، إذ يحتمل أنه كانت توجد تداخلات كثيرة بين اختصاصاتهما ومسئولياتهما، ومنها تسلسل المسئولية في تلقى الرسائل والرد عليها وعلى الأوامر الواردة من حاتوسا، ولذلك وبخ كاسو حميويلي ومساعديه لإهمالهم وتقاعسهم عن إرسال رسل الملك إليه، وقال في رسالة التوبيخ: «هل من المعروف أنهم خدم عندك؟ ألا ينتمي أوائك الرسل إلى سيدنا، كما تنتمي كل البلاد إليه»(29)

كما ظهر أن كاسو كان يتبادل رسائل لاذعة مع كاهن كيزوادنا في جنوب شرق الأناضول(30)، واسمه كانتوزيللي (وعرف من مصادر أخرى على أنه الكاهن الأكبر ليتشوب وحببات)، وكانت منزلته في كيزوادنا تضارع منزلة الملك المحلي(31)، كان الكاهن قد بعث قبل ذلك برسالة إلى كاسو يطلب فيها إعادة عشرين فرداً من التابعين له، دخلوا لسبب مجهول في المنطقة الخاضعة لمسئولية كاسو، وكتب إليه كاسو رافضاً تسليم أولئك الأفراد، وقال له: «أحل الأمر إلى القصر»، ورد الكاهن في غضب قائلاً: «إنه بالفعل سيحيل الأمر إلى القصر، وحذر كاسو من أنه سيقوم هو الأخر بحجز أي أفراد من منطقة كاسو إذا دخلوا منطقة نفوذه».

كانت المشاحنات والنزاعات من ذلك النوع بين الولايات الخاضعة للنفوذ الحيثي كثيرة الحدوث، وكانت الجهات المختصة في البلاط الملكي متخمة بالمشاكل والمشاحنات، وتعارض المسئوليات الذي يرد إليها للفصل فيه. وفي مراسلات تابيكا وحدها، ظهرت تهديدات في عدد من المشاكل برفع المشاكل الحق برمتها إلى الملك مباشرة، الفصل فيها وكان للشاكن الحق

في اللجوء إلى القصر، للفصل في المشاكل والقضايا، إذ كان القانون الحيثي بوفر للجميم ذلك الحق.

ويؤكد ذلك رسالة أخرى أرسلها المسئول الكبير حاتوسيلى من العاصمة حاتوسا إلى الحاكم المحلى حميويلى(32). في تلك الرسالة تأنيب رسمى لحميويلى لفشله في حماية ممتلكات الكاتب تارحونميا الكائنة في تابيكا، وكماعرفنا مما سبق أن تارحونميا ينتمى إلى تابيكا، إلا أنه كان يعمل في العاصمة. وأثناء غيابه أدعت السلطات المحلية في تابيكا أنه متأخر عن دفع الضرائب ومقابل خدمات الولاية (سابان ولوتزي) عن ممتلكاته هناك، بالرغم من أنه محمقي من دفع تلك الضرائب، وحين اعترض، قامت السلطات المحلية بالحجز على مقتنياته المنزلية، إما لبيعها أو كرهن حتى يدفع ما عليه، وبصفة حميويلي حاكم المنطقة، فقد كانت له كل الصلاحيات المعالجة تلك المشكلة.

ومن المعروف من خلال عدد من فقرات القانون الحيثى أن بعض موظفى الإدارة كانوا معفين من أداء تلك الضريبة(33)، وكان منهم تارحونميا وسالة ملحقة منه إلى الرسالة التي كتبها المسئول حاتوسيلي إلى حميويلي، بصفتها رسالة من ابن إلى أبيه، للحفاظ على حقوقه وحماية ممتلكاته، قال له في رسالته الملحقة:

«سيدى، اشعل منزلى برعايتك، وتيقن من أنهم لم يلحقوا به أى ضر، عدا ذلك فلتفصل متكرما في النزاع القانونى الذي أواجهه، فلتعد الحق إلى نصابه، ولتضع حارساً أمام بيتى، لا تسمع لموظفى ضرائب الأرض وموظفى المدينة بإلصاق أى ضر ببيتى، عدا ذلك (فلتعلم) أن ضرائب الأرض والعقبارات لم تطبق أبداً على، والآن، طبق موظفو المدينة تلك الضرائب على. سيدى، سل موظفى الأراضى إن كانوا قد تقاضوا منى أية ضرائب عن أرض أو عقارات فيما سبق»(34).

ولم تكن تلك أول رسالة ببعث بها الكاتب إلى حميويلي بخصوص تلك

المشكلة (35)، إلا أن رسائله السابقة لم تلق إلا آذاناً صبحاء، ومع ذلك أصد وداوم على الكتابة، خاصة بعد أن وجد دعماً قوياً من حاتوسيلى الذى ازداد غيظه، كان ذلك المسئول الكبير والبارز في إدارة شئون الدولة قد كتب عدة مرات إلى حميويلي بخصوص مشكلة الكاتب، وربعا كان قد امتنع عن كتابة تقرير ضده إلى الملك بسبب علاقة الود التي تربطهما، إلا أن صبره على صديقه أخذ في النفاذ، لذلك أرسل رسالة غضب أخيرة إلى حميويلي، وهو ما كان متوقعاً منه:

«في نطاق منطقتك الإدارية لا يوجد إلا بيت واحد لكاتب يضغط عليه موظفوك كثيراً، هل تحصل ضرائب أرض وعقارات من الكتبة الرسميين؟ لماذا يقوم هو بدفعها في منطقتك؟ الآن انتبه جيداً، لن يضطهدوه بعد ذلك. إذا لم تحل هذه المشكلة، سأثيرها في القصر الملكية(36).

كانت الرسبالة واضحة بلا لبث، فترحونميا لا بدأ ن يعفى من الضرائب وأن يبقى بمنأى على تجاهله ولم يحل المشكلة، سبحال الأمر كله إلى الملك.

فهل كان من المعقول أن يشغل الملك نفسه بمشكلة ضرائب أحد الكتبة، مع كل المستوليات والمشاكل الكبرى التى تشغل باله؟ لو حكمنا بتدخل الملك المباشر فى موقف مماثل تماماً، فإن الإجابة تكون: بلى، الموقف المماثل كان فى مدينة إيمار التى أعيد بناؤها فى عهدى سبيلوليوما الأول ومورسيلى الثانى، وكانت تابعة إداريًا لحاكم مدينة قرقميش، وكانت مسئولية الإدارة مقسمة بالتشارك بين الحاكم ومجلس من الشيوخ، وفى عهد مورسيلى أو من تلاه، كإن يوجد كاهن بمدينة إيمار يدعى ذو بعل تلقى فجأة إنذاراً بأن بيت آبائه وأجداده وكذلك حقل الكروم سوف تنزع ملكيتها وتخصص لشخص أخر(37)، وأنه سوف يخضع للضريبة ورسوم خدمات الولاية التى كان معفياً منها.

ولجاً ذو بعل مباشرة إلى الملك الأكبر(38)، وادعى أنه ضحية لظلم وقع عليه من مسئول حيثى يدعى الزياموا(39). واستجاب الملك لدعواه وبعث برسالة مباشرة إلى الزياموا:

هكذا (يتحدث) شمسى، يقول الأزياءوا: انظر، ذا بعل هذا كاهن، من أشتاتا، وضع أمامى: «بيت أبى آن دامالى، وحقل الكروم أخذهم الزياموا وأعطاهم إلى باليوا، وفيما يخص ضريبة الأراضى لم أكن أدفعها أبداً، والآن يقرضون على ضريبة الأراضى وضريبة الخدمات، ومطلوب منى دفعها.

وحكم جلالته بما يلى :

البيت وحقل الكروم لا يؤخذان منه، ضريبة الأراضى لم يكن يدفعها قبل ذلك، لماذا تفرض عليه الآن ضريبة أراضى وضريبة خدمات (سابان ولوتزى)؟ ما كان ينفعه قبل ذلك سيستمر في نفعه، ولا يطفى عليه أحد(40).

ومن رسالة ثانية عثر عليها بعدينة إيمار وأصبحت الآن في متحف أرض الكتاب المقدس بالقدس، نعلم أن قضية (ذو بعل) أحيلت أيضاً إلى حاكم قرقميش، وكتب حاكم قرقميش هو الآخر إلى ألزياموا. وكانت رسالته في الحقيقة مماثلة لرسالة الملك الأكبر، ويحتمل أن نسخة من رسالة الملك الأكبر، ويا

بل إنه زاد عن الملك الأكبر باعفاء ذو بعل حتى مما اعتاد أن يدفعه قبل ذلك، ويعلق البروفيسور سنجر على تلك الحقيقة: وهى أن رجل دين محلى من ولاية نائية كان بإمكانه ليس فقط اللجوء إلى الملك الأكبر والملك المحلى، بل إن الملك الأكبر ونائبه المحلى تناولا المشكلة بتفسيهما وأعادا الحق لصاحبه (42).

ونعود إلى تابيكا، ونتعرض إلى مذكرة بسيطة تحتوى على شكوى من حاسميلى، وهو كاتب من حاتوسا أرسل بها إلى الكاتب عوزو فى تابيكا. الجزء الرسمى من الوثيقة رسالة إلى حاكم المدينة حميويلى من الملك، يعده فيها بإرسال خيول وعربات، ويحثه على اليقظة ورصد تحركات الأعداء فى منطقته (43). وبعد انتهاء نص رسالة الملك كتب حاسميلى

رسالة من لدنه إلى عوزو الذى ستمر كل الرسالة عليه، وقد دخل مباشرة إلى صدميم الموضوع: «أنت مستمر في الكتابة إلى عن ذلك الموضوع الفساص بخدامتي، لا أحب أن أسدمع أى شيء بعد الأن عن هذا الموضوع»، ويبدو أن حاسميلي كان قد بعث بإحدى خادماته للعمل في خدمة عوزو في تابيكا، إلا أن كرمه انقلب وبالا عليه حين راح عوزو يكتب إليه مراراً وتكراراً متهما الفتاة بالسرقة، ومهدداً بأنه سيقوم بعقابها بنفسه، ولم يكن حاسميلي سعيداً بذلك التطور، لم يكن يرضى بأن تعود إليه الفتاة مصابة بعد أن أعارها لزميله الكاتب كعلاقة ود وصداقة، لذلك حذر عوزو من إلحاق أي أذي بالفتاة بأي وسيلة، وقال له: «احرص على أن تسلمها إلى الرسؤل في أفضل حال، وسوف يحضرها إلى، ومهما كان الذي سرقته الفتاة فسوف أرده ثلاثة أضعافه». والمثال السابق حالة لافتة لنصين في رسالة واحدة بينهما هذا القدر من التناقض على لوح طيني واحد: نص منهما تحذير عاجل من الملك الأكبر، بخصوص سلامة طيني واحد: نص منهما تحذير عاجل من الملك الأكبر، بخصوص سلامة.

كانت الأمور والمشاكل البسيطة الشخصية المضافة إلى المراسلات الرسمية، وكذلك الاهتمامات بالأمور الخاصة تخلق انطباعاً بالاعتياد، وأن الأمور العملية المعتادة في تابيكا تمضى كالمعتاد، إلا أن ذلك الانطباع يحتوى على قدر من التضليل، فالمراسلات المتبادلة كرسائل إضافية تحت النصوص الأساسية تخدم في التحول باختصار من الأمور الخطيرة التي تظهر من خلال النصوص الرسمية الأساسية، والتي تعكس المخاطر والتهديدات التي يواجهها السكان في تلك المناطق دائمة التعرض للخطر، وأهمها التهديد المستمر من الكاسكان، وراح ذلك الخطر يتزايد كما راح للخطر القادم من جميع المناطق الحدودية الأخرى يتزايد أيضاً.

ومن أن لآخر كانت الرسائل تسجل نجاحًا للحيثيين في مواجهة الأعداء. إلا أن تلك التقارير لم تفلع في إخفاء ضعف وهشاشة السلطة الحثية في تلك المنطقة، وتذكر رسالة: «اخترق العدو موضعين من الحدود

بأعداد كبيرة (44). وتسجل رسالة أخرى غارة من قطعان مواشى الكاسكان عبرت الحدود، كما نجع الكاسكان في الهيمنة على الطرق المؤدية إلى تابيكا منتهزين فرصة وجود كاسو واثنين من زملائه في حاتوسا (45). كانت الغارات التي تشن على المحاصيل الزراعية من المشاكل المتكررة، ففي رسالة من مدينة كاسبورا أبلغ بسيني الملك أن: «الأعداء أتوا بأعداد كبيرة أثناء الليل، 600 في موضع، وفي موضع آخر 400، وقاموا بحصد الحبوب والاستبلاء عليها «(46).

فأمر الملك كلاً من تاتًا وهولّى من مسئولى تابيكا بالمضى فوراً إلى كاسبورا، والعمل على حصد الحبوب ونقلها إلى مخازن الحبوب مع الحرص ألا تقع في يد الأعداء، كان من الممكن أن يترتب على غارات الأعداء على الأراضى المنتجة للحبوب نتائج في غاية الخطورة، فقد كانت البلاد نعتمد على تلك الحبوب في غذائها، كان النقص الحاد في الماشية أو الحبوب، سواء بسبب عوامل طبيعية أو نتيجة لغارات الأعداء، من الممكن أن تترتب عليه مجاعات شديدة القسوة، كان من المحتم تأمين المنتجات الزراعية من الحبوب من هجمات الأعداء مهما تكلف الأمر، كما كان الخطي والطاعون من المخاطر الأخرى التي يتعرض لها السكان الحليون في تابيكا (47).

وفى رسائل عديدة أصدر الملك أوامر قاطعة إلى قادة المنطقة العسكريين بالحضور مع قواتهم المثول أمامه، وأحيانًا ما كان يهددهم بأرخم العواقب إذا لم يمتثلوا الأوامره بدقة: «أقول الكاسو وزيلابيا: بمجرد أن تصل هذه الرسالة إليكما، احضرا خلال ثلاثة أيام المثول أمام جلالته بالقوات المتمركزة عندكما وكذلك العجلات الحربية التي بحوزتكما» (48). وفي رسالة أخرى: «أقول لكاسو وزيلابيا: بمجرد أن تصل هذه الرسالة إليكما احضرا باقصى سرعة ممكنة لدى جلالته، وإن لم تفعلا (رجالي) يأتون إليكما ويسلمون عيونكم في مكانكم» (49)، وفي أخرى: «أنت يأبيبابًا، أحضر قوات «أوكو أوس» بأسرع ما يمكنك، وأحضرهم هنا مع

الجيش، إن لم تفعل سنتى بك وتقتل»(50)، لم يكن جلالته يتوانى عن الشاكيد على ضرورة إطاعة أوامره بلا أى تردد أو تأخر، وكان كل ذلك يظهر الأزمة التى كانت تواجه الملكة.

كان من الممكن أن تترتب أوخم العواقب على أدنى تأخر في الاستجابة لأوامر الملك، لذلك كان يشمل أوامره بالتهديدات اضمان الطاعة القورية والكاملة. في رسالة أخرى، أمر الملك كاسو وبيبابًا بتحريك 1700 من قوات المشاة من مدينة إيشوبيتا بكل سرعة ونقلهم في ظرف يومين إلى مدينة سابينيوا، حيث سيكون الملك بنفسه هناك(51)، كانت سابينيوا أكبر مدينة في المنطقة، وتعد مركزًا لتجمع القوات الحثينية من الأقاليم الصغرى المجاورة، ويوضعون هناك تحت القيادة المباشرة للملك، ولا يوجد شك أن مسئولي المدن الأخرى تلقوا رسائل مماثلة لتلك التي تلقاها كاسو وبيبابًا. وربعا تمثل تلك الرسائل العاجلة من الملك إلى القادة العسكريين المندق الأخير الحدود الشمالية ضد أعداء الملكة. ولكن مهما كانت النجاحات المرحلية أحرزها في تلك المنطقة، إلا أن مصير الملكة كان قد أصبح منتهيًا، فسرعان ما كانت قوات الأعداء تخترقها من كل الأنحاء، وورد في أحد نصوص تابيكا:

«أتى الأعداء من الكاسكا، وغزوا كل أرض الحيثيين حتى ننياسا، ومن المناطق الدنيا أتت قوات ارزاوا المعادية، واجتاحت هي الأخرى بلاد الحيثيين، وأصبحت تيوانيا وأودا حدودهم، ومن الحدود الأبعد، أتى أراونان المعادين واحتلوا حتى جاسيًا. ومن العدود القصوى، جاء أزيان الأعداء واجتاحوا كل البلاد العليا حتى ساموحا. وجاء الإسيوان واجتاحوا منطقة تيجاراما، ومن بعيد، جاء الأرماتانان الأعداء، واجتاحوا أيضًا أراضي الحيثيين حتى ومعلوا إلى مدينة كيزوادانا وجعلوها حدودهم، وحاتوسا المدينة العاصمة، أحرقت بأجمعها، (52).

ألقت رسائل تابيكا بظلال قاتمة وكانها تتنبأ بما هو آت، وزودتنا بأدلة موثقة معاصدة للأحداث في آخر أعوام تلك المرحلة، بل ربما آخر أشهر

تلك المرحلة عن الحياة في المستوطنات الحيثية في شمال البلاد بالقرب من الحدود الشمالية، وربما تعد أيضا صورة مصغرة لأحداث عالم ذلك الزمن السابق مباشرة لانهيار الامبراطورية الحثينية الأولى، تحت وطأة هجوم الأعداء على البلاد من كل الاتجاهات، وكما لاحظنا، فإن الملك الجثيني الذي يبرز اسمه عبر تلك الأحداث وهو تودحاليا الثالث، كان قد أجبر على هجر عاصمته وأقام بلاطا في المنفى، وظل البلاط هناك حتى تمكن من تجميع قواه هو وابنه سبيلوليوما، وتمكن الحثينيون من الانتصار والعودة إلى وطنهم مظفرين، ومع صعود سبيلوليوما إلى عرش الحثينيين، شهدت البلاد طفرة صعدت بها إلى أفاق تاريضية جديدة، فتحت قيادة سبيلوليوما، بدأت البلاد بداية قوية جديدة مكنتها أن تظل على مدى قرن بعد ذلك، أقوى مملكة في عالم الشرق الأدنى القديم.

رسائل من القائد العسكرس الميداني في سوريا

من أهم الملامح المميزة الرسائل التي عثر عليها في مواقع ماسات، وأورتاكوي وكوزاكل \ سمة الفورية والأنية، ففي وقت كتابة الرسائل، كانت الأحداث التي تسجلها الرسائل مازالت في زمن تشكلها، وكل موقع حفظ يزودنا بمعلومات يومية عن الحياة والأحوال التي عايشها كاتبوا الرسائل في المراكز الإدارية الإقليمية في المملكة الحثينية. ولا تقل قيمة عن ذلك، الرسائل التي أرسلها القادة العسكريون من جبهات القتال البعيدة عن الوطن، ولسوء الحظ، فإن كم الرسائل العسكرية الذي بقى حتى عصرنا قليل للغاية.

ونعلم من خلال قائمة تعليمات أصدرها الملك الحثيني الأكبر مجموعة الواجبات والمسئوليات الملقاة على عاتق القادة الميدانيين(53). كذلك تعدنا الرسائل التي كتبها أولئك القادة بصبور انطباعية عن الحياة اليومية، والأمور الشخصية، والتحديات والمخاطر التي كانت تواجههم هم ورجالهم في المناطق البعيدة عن مملكتهم.

وعلى ضوء قلة تلك الرسائل العسكرية التى أتيحت، كان لاكتشاف رسالة فى دار سجلات حفظ الرسائل فى أوجاريت عام 1956، كتبها قائد عسكرى ميدانى، ما جذب اهتمام الباحثين(54). كانت أجزاء الرسالة المحطمة بين مجموع رسائل عددها 335، تدور حول مختلف الموضوعات، وكبشف عنها مطمورة داخل بقايا منزل خاص قديم كان ملكًا لأهم شخصية فى أوجاريت، ولم يكن يبعد كثيرًا عن قصر المدينة(55). وكان القائد العسكرى الذى كتب (أو أملى) الرسالة يدعى سومى [—](66)، ولما وعلى الأقل لم يعرف اسم الملك الحثيني الذى كانت الرسالة موجهة إليه، أو على الأقل لم يكن مسجلاً فى الأجزاء التي عثر عليها من الرسالة، وفي الوقت الذى كتبت فيه تلك الرسالة، كان سومى [—] والقوات التي تحت قيادته قد قضوا خمسة أشهر فى ميادين العمليات بصفتها قوات أمامية، قيادت مهمتهم الدفاع عن الجبهة الاستراتيجية الهامة فى المنطقة الواقعة جنوب عمورو، بين جبل لبنان والبحر المتوسط، لحمايتها من القوات المصرية.

كان التوتر في المنطقة على أشده، فقد كانت مصر قد اتخذت قرارًا باستعادة المناطق العمورية (السورية) التي فقدتها لصالح الحثينيين، عندما نقل قائدها المحلى عزيرو ولاءه من مصر إلى الحثينيين في عهد سبيلوليوما، ولأنه كان مسئولاً عن خط المواجهة الأول، كان رجاله قد خاضوا مواجهات عديدة ضد العدو، إلا أن الخسائر التي منيت بها قواته والشتاء القاسي تجمعا معًا ضده ووضعاه في مأزق، كان سومي [---) قد كتب قبل ذلك بضع مرات إلى الملك طالبًا إرسال تعزيزات عسكرية وإمدادات، لكن كان من الواضح أنه لم تكن هناك أية استجابة، وكتب من جديد، وهي تلك الرسالة التي نعرضها، وشدد على طلبه بإلحاح، قال: حبيدي، ماهي المخارج المتاحة أمامي؛ لضمسة أشهر والبرد يجمعنا، عجلاتي الحربية تحطمت، خيولي نفقت، وقواتي فقدت، (57).

كان العدو يشن هجمات ليلية لا تنقطع، تمكن خلالها من اختراق الدفاعات الحثينية، ولم يتم صدهم إلا بعد معركة شرسة داخل الحصن ذاته:

«هوجمنا مرة بعد مرة في منتصف الليل، واشتبكنا في معركة شديدة معهم، قام رجالي بصدهم، وغنمنا معداتهم وأسلحتهم، كانت المعركة داخل الحصن ذاته».

وتم أسر أحد جنود الأعداء، وتحت وطأة تعذيبه واستجوابه أفضى بمعلومات مقلقة: الفرعون ذاته كان يتأهب المجىء بنفسه المنطقة، ويدل ذاك دلالة قاطعة أن حملة عسكرية مصرية كبرى تعد الآن، تحت قيادة الفرعون ذاته. فإن صدق ذلك، فإن أي مقاومة يقودها سومي [---] وقواته تصبح بلا قيمة، لذا كتب في رسالته: «لا قدر الله أن يأتي ملك مصر سريعًا، لأننا لن نتمكن من التصدي له بالقوة، لا قدر الله أن يأتي ملك مصر إلى هناه. كان سومي [---] يتمنى أن تكون تلك المعلومات غير حقيقية، أو أن يبدل الفرعون رأبه ويرسل قوات استكشافية فقط يمكنه التصدي لها، بافتراض أن فرق العجلات الحربية وفرق المشاة التي طلبها تصل إليه بسرعة، وأضاف: «هل يرسل الملك القوات والعجلات الحربية، حتى يتسنى لنا أن نقاتلهم ونهزمهم بالقوة، ضرية قوية ونفنيهمه وإلا دإذا حتى يتسنى لنا أن نقاتلهم ونهزمهم بالقوة، ضرية قوية ونفنيهمه وإلا دإذا لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم نحاريهم، ليكن معلومًا لسيدي سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف لم (الفرعون) على إرسال (قوات) ضعنا».

من كان متلقى تلك الرسالة؟ بينما يصدق احتمال أنه كان حاكم محلى سورى، تابع للملك الحشينى، إلا أن الأقرب للاحشمال أنه كان ملك المثينين الأكبر، والسؤال الذي يطرح نفسه هو، أي ملك منهم؟

على وجه التقريب تشبر كل رسائل الأرشيف إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولا يدع ذلك مجالاً لشك أن ذلك الأرشيف كان معاصراً أواحد أو أكثر من أسرة الرعامسة في مصر، وتاريخيًا، يتناسب ما ورد في تلك الرسيالة مع التبوتر الذي وقع بين المشتنيين ومصير، بسبب المناطق الفاصلة المتنازع عليها، وهو التوتر الذي تحول إلى صراع عسكرى في البداية بين سيتى الأول وميه إتاللي (58)، ثم بين متواتاللي وابن سيتى الأول، الملك رمسيس الثاني في قادش عام 1247 قبل الميلاد، ولكن على

خلفية لغوية ذهب البعض إلى أن تلك الرسالة لا تمت إلى تلك المرحلة، وأنها تتلائم وتتوافق مع عصر العمارنة، وأن أحد نصوص المجموعة على الأقل تعود مفرداته إلى الفترة ذاته، أي إلى مرحلة العمارنة(59)، لو صدق ذلك، فإن الرسالة تكون موجهة إلى سبيلوليوما(60).

وبذلك تكون الأحداث التي تشير إليها الرسالة قد وقعت مباشرة بعد نقل عزيرو لولائه من التاج المصرى إلى التاج الحثينى، وبالتالى انتقال كل منطقة عمورو من منطقة نفوذ مصرى إلى منطقة نفوذ حثينى. وبناء على ذلك نستنتج أن أخناتون كان قد قام برد فعل فورى في محاولة لاستعادة على الأقل بعض أجزاء المناطق المفقودة – بالأمر بشن غارات متتابعة من قواته المتمركزة هناك على القوات الحثينية المتمركزة حديثًا بالمنطقة كأعمال عسكرية تمهيدية قبل وصول الحملة العظمى، التي كان قد انتوى أن يرأسها بنفسه، وكان ذلك يعنى نشوب حرب شاملة بين مصر والحثينيين، ولكن، إن كانت مثل تلك الحملة الكبرى قد أعد لها فعلاً، فإن كل مخططاتها قد أجهضت بموت الفرعون.

في إطار ذلك السيناريو يبدو أن ذلك الخطاب لا يثير أي اهتمام لدى سبيلوليوما – أو على الأقل التأخر في الاستجابة – في ضرورة تلبية طلبات القائد الميداني الذي عهد إليه بحماية الجبهة الجديدة للولايات، التي نقلت ولاحها إليهم في سوريا، والتي كان من المرجح أن تكون مهددة أو أن يخسروها.

أما تقاعس الذي كان الخطاب موجهًا إليه في الاستجابة العاجلة والحاسمة فلا يتفق مع ما هو معروف عن سبيلوليوا، فكل المصادر الأخرى تشير إلى أنه كان على درجة كبيرة من الالتزام وأحادى التركيز على مهمة الاستحواذ على منطقة سوريا وفرض هيمنته عليها، أما الانطباع الذي يفرضه نص الرسالة فيختلف تماما. ربما بالغ سومي [-] في إلحاحه بسبب المضاطر التي تواجهه، مقابل تباطؤ سيده الأعلى في الاستجابة، كما كان يفعل كثير من الملوك الخاضعين لحكم الفرعون

المصرى فى رسائلهم إليه، ومن جهة ثانية، كانت كل مصادر القوة العسكرية الحيثية توظف بشكل كامل، وربعا كانت تأتى مناسبات وأوقات يجد فيها الملك الأكبر نفسه غير قادر على تلبية سريعة لطلبات من القادة الميدانيين بإرسال تعزيزات سريعة، مهما كانت خطورة الموقف الذى يواجهونه، إن كانت كل القوات مرتبطة بحملات عسكرية في أماكن أخرى من الملكة.

وظلت النتائج التى ترتبت على رسالة سومى [--]، وكذلك الأحداث التى تلتها غير معروفة حتى الآن، إلا أن عدم اليقين لم يقتصر على ذلك، وبينما كانت هناك كثير من القرائن التى تدفع إلى نسب تلك الرسالة إلى مرحلة العمارنة، وانطباقها إلى حد بعيد، وتوافقها مع الأحداث التى ترتبت على تغيير عزيرو لولائه ونقله من فرعون مصر إلى لللك الحثيني، والتعرف على الملك الدثيني، والتعرف على الملك الذي كانت الرسالة موجهة إليه على أنه سبيلوليوما، حين كان من يشغل عرش مصر حورمحب(١٦)، ولو أخذنا في اعتبارنا التوتر الذي ساد العلاقة المصرية – الحثينية في تلك المرحلة (كما يستدل عليها على سبيل المثال من حكايات مورسيلي) فإن الاحتمال المقبول أن حورمحب قام بالفعل بحملة عسكرية على سرريا، وهو افتراض له رصيده من الوجهة التاريخية. والاحتمال الآخر أن الرسالة كانت موجهة إلى ملك سورى محلى تابع للهيمنة الحثينية، والاقرب إلى الاحتمال أنه كان ابن سبيلوليوما(٢٢).

والأحداث التى تشير إليها رسالة سومى [---]، من المكن أن تكون قد وقعت بعد تنصيب الملوك التابعين للحثينيين على قرقميش وحلب، ولو صدق ذلك، فإن المسئوليات الملقاة على عائق الملوك الخاضعين في سوريا كنواب للملك الحثينيي تجعل من المنطقى أن يوجه قائد ميداني رسالته التي يطلب فيها تعزيزات عسكرية وإمدادات إلى واحد من الملوك التابعين بالدرجة الأولى(٦٣).

11

كان ذلك في عام 1327. والمشهد الذي نعود إليه كان خارج الأسوار المصينة لمدينة قرقميش على الضيفة الغربية لنهر الفرات، كانت الإمبراطورية الميتانية العظمي قد انهارت وتداعت تحت وطأة الهجمات الضارية المتتالية التي شنها سيبللوليوما عليها. إلا أن قرقميش التي كانت قوية التحصينات ظلت منيعة على الحثينيين، وجاء سبيالوليوما بنفسه ليرأس الجيش في هجومه النهائي على الدينة، وفي غمرة انشخاله بالإعداد للهجوم، أبلغ أن هناك رسولاً قد أتى على وجه السرعة من مصر برسالة عاجلة من زوجة الفرعون، وبرغم انهماكه في التخطيط لتدمير قرقميش، إلا أن فضوله غلبه للعرفة ما تريده زوجة ملك مصر. وسرعان ما أمر أحد الكتبة بترجمة الرسالة التي كانت مكتوبة بالأكادية، كانت الرسالة تبدأ بحقيقة بسيطة وهي: «مات زوجي».. ثم تبعت تلك الحقيقة بطلب عجيب، أصاب الملك بالذهول، وتعجب قائلاً: «لم أصادف مثل هذا الشيء في حياتي»، وسرعان ما تحولت دهشته إلى شكوك، وطلب أحد أبررُ مستشاريه وصرح له بما يدور في نفسه: «ربما كان ذلك خدعة»، هل بمكن الوثوق بزوجة الملك المصرى؟ هل هي مكيدة؟ وقررا إجراء مزيد من التحري حول صدق الرسالة، وأوكل سبيللوليوما تلك المهمة إلى هاتو --رْيتي، أحد كبيار رجال البيلاط، وقال له: «تُوجِيه إلى منصر، وعد إليّ بالحقيقة».

أمدتنا قصة رسالة الأرملة الملكية وسلسلة الأحداث التي ترتبت عليها بواحدة من أشهر الحوادث في تاريخ الشرق الأدنى القديم، وأكثرها إثارة للجدل. وتطرح الرسالة تساؤلات كثيرة، لم يتفق الباحثون على إجاباتها حتى الآن. فمن كانت كاتبة الرسالة؟ ومن كان زوجها الذي مات؟ ومتى مات؟ وما المدة التي انقضت ما بين موته ودفنه؟ ومن كان مسئولاً عن النهاية المأساوية التي انتهت إليها الواقعة؟ وما هي الآثار بعيدة المدى التي ترتبت عليها؟ كل مكونات القصة سنعرضها وهي من أكثر القصص البحثية إثارة للجدل، إلا أن الصفحة الأخيرة منها اختفت وضاعت.

ومصدرنا الرئيسى للمعلومات عن تلك الرسالة وما تلاها من حوادث غامضة ليس أرشيف تل العمارنة، بل ولا حتى من أى مصدر مصدى، مصدر القصة موجود فى فقرة من بين الفقرات التى سجلت قصة حياة سبيلوليوما، والتى كتبها ابنه الملك مورطيلى(1)، وعبارات الرسالة الهامة مذكورة على أجزاء من لوح طينى ما زال بحالة جيدة عن حياة سبيلوليوما، وهى تحتوى على المناشدة بالطلب الذى أثار ذهول ودهشة متلقى الرسالة، يذكر نص الرسالة:

«مات زوجى، ليس لى ابن، وعلمت أن لديك كثيرًا من الأبناء الذكور، لو أعطيتني أحد أبنائك سنجعله زوجًا لى، أن أخذ أبدًا واحدًا من خدمى وأجعله زوجي(2). ويمكن أن نشعر بقوة الاعتداد بالذات والتصميم البادي في كلمات الرسالة، إلا أن الملكة كانت على حافة البئس، مات زوجها دون أن ينجب وريئًا، ويموته أصبح الخط الوراثي منقطعاً، ولم يكن للزوجة الثكلي أسرة يمكنها أن تعتمد عليها، فماذا يكون مصيرها في مثل ذلك الموقف؟ لقد خانتها مشاعرها في آخر كلمات الرسالة: «أنا خائفة».

هوية الملكة المصرية

من كانت تلك الملكة التى أصبحت أرملة فرعون مصرى مات لتوه؟ تذكر قصة حياة سبيلوليوما أن اسمها كان «داهامانزو» ولسوء الحظ، لا يعاون ذلك الاسم كثيرًا في معرفة هويتها، لأن ذلك الاسم لم يكن إلا الوسيلة الحثينية في كتابة اللقب المصرى الذي يعنى «زوجة الملك»، كل ما يمكننا التيقن منه هو أن الرسالة كتبت في الأعوام الأخيرة للأسرة الثامنة عشرة المصرية الشهيرة، ويمكننا أن نضيق الفجوة لنحدد بيقين أنها كتبت في أحد عهود آخر ثلاثة ملوك من الأسرة ١٨ المصرية، وهم أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون، واحد من أولئك الثلاثة أدى موته إلى كتابة تلك الرسالة، ولكل واحد منهم مؤيدوه بين الباحثين المعاصرين كزوج للأرملة التي كتبت تلك الرسالة.

إلا أن هناك مفاتيحًا تؤدى إلى الاستدلال الأكثر دقة، أولها: أن قصة حياة سبيلوليوها ذكرت اسم الفرعون الميت، وأسعته باللغة المسمارية الحثينية نيفوروريا أو نهبوروريا، وهي الوسيلة التي كان الحثينيون يسبطون بها الاسم الأول للملك، وهو أحد الأسلماء الملكية المصدرية الرسمية، ولنقارته بالأسماء الأولى للملوك الثلاثة وكانت على التتابع: أخناتون - نفرخبرورى، سمنخ كارع - أنخ خبرورى، توت عنخ أمون - نب خبرورى، ومن الواضح أن المدون في النص الحثيني وهو نب بحروريا يماثل تماما الاسم الأول لتوت عنخ آموت.

ثانيًا: النقطة الهامة جدًا في رسالة الأرملة أن زوجها مات دون أن يترك وريئًا. كانت الأسرة الشامنة عشرة تتارجح على شفا الزوال والانقراض، في الوقت الذي مات فيه أخناتون، إلا أنه كان مازال لديه سمنخ كارع؛ كولى العهد ليخلفه على عرش مصر، وكذلك خليفة آخر محتمل وهو توت عنخ آمون (والذي يحتمل أنه ابنه، ولكن من امرأة غير نفرتيتي)، وبموت توت عنخ آموم أصبح الخط الوراثي العائلي منقطعًا.

بددت أرملة الفرعون أى شك برفضها إحياء خط وراثى جديد بزواجها واحدًا من العامة، لقد كانت بحاجة إلى أمير تجرى فى عروقه دماء ملكية، حتى تعيد الهيبة والسلطة لعرش مصر، حتى لو كان أميرًا من دماء أجنبية، فلو تعرفنا على الفرعون الميت بأنه كان توت عنخ أمون، فإن داهامانزو المذكورة فى السيرة الذاتية الحثينية لابد أن تكون زوجة توت عنخ أمون الملكة أنخسن أموت والتى كان اسمها أنخسن أتون فى عهد أخناتون فى مرحلة تل العمارنة، كانت الثالثة فى الترتيب العمرى بين بنات أخناتون ونفرتيتى، وربما الأخت غير الشقيقة لزوجها توت عنخ أمون،

وكانت تكبره بعامين أن ثلاثة، وأصبحت أرملة في بدايات العشرينيات من عمرها، وهي المرأة، كما أعتقد، صاحبة الرسالة الى أذهلت ملك الحرب العثيني الشديد.

وهناك أدلة أخرى كثيرة تدعم هذا التخمين(3)، غير أن عددًا من الساحثين مبازال لا يقبل أن توت عنخ أمون وأنخسن أمون همنا الشخصيتان المصريتان المعنيتان في تلك القصة الشهيرة(4)، وعلى القراء الذين يرغبون في الحصول على تفاصيل أكثر بشأن هوية الملك ألميت وزوجه الرجوع إلى الفرضيات الأخرى المحتملة، فنفرتيتي، زوجة أخنانون الرئيسية، وميريت أتون إحدى بناته تعدان من الاحتمالات الأخرى المطروحة في حالة ما كان الملك الميت هو أخناتون أو سمنخ كارع.

إلا أننى أظل مقتنعًا أن الأرملة التى أرسلت عرضا بالزواج إلى الملك الحشيني لم تكن إلا أرملة توت عنخ أصون، انخسس با أتون / أنخسس أمون(5)، ومن الأفضل أن نقر بذلك بوضوح، لأنه الافتراض الجوهري في بحثنا حول التداعيات العجيبة للأحداث التي نجمت عن تلك الرسالة.

تاريخ موت ال*ولڪ*

إن تحديد تاريخ موت الملك على غاية قصوى من الأهمية لحسم انجدل المثار حول تلك الرسالة. وكما الاحظنا، تلقى سبيللوليوما نبآ موت الملك المصرى حين كان ضاريًا حصاره حول مدينة قرقميش، وكان موسم الأعمال العسكرية قد انقضت منه شهور طويلة، ونعلم من سيرته الذاتية أن الأمر استغرق منه ثمانية أيام، حتى تمكن من غزو قرقميش، ثم قضى بعض الوقت في المدينة لتنظيم توزيع الغنائم ولتنظيم عملية نقل اسرى الحرب إلى عاصمته حاتوسا، ثم نصب أبنه شارى -- كوشوه ملكًا نائبنا عنه على عرش قرقميش، بعد ذلك عاد إلى حاتوسا على وجه التقريب عى نهاية أكتوبر أو بداية نوفمبر، قبل هطول الثلج.

وانجعل ذلك الوقت نقطة بداية ننطلق منها إنى ما هو ممابق عليها

استغرفت رحلة عودة الجيش العثيني بالعربات المحملة بغنائم المعارك خمسة أو ستة أسابيع على الأقل، وهذا يجعلنا نقدر أنهم غادروا قرقميش في نهاية شهر سبتمبر.

وإذا قدرنا ثلاثة أسابيع لترتيبات ما بعد الانتصار على قرقميش، فإن ذلك يصل بنا إلى بدايات سبتمبر. ولابد أن حصار قرقميش حدث في ذلك الوقت، وهو الوقت ذاته الذي تلقى فيه سبيلئولبوما الرسالة القادمة من مصر.

وجلب تلك الرسالة ،التي تضم نباً موت الفرعون، رسول أتى من مصر حتى قرقميش، والرسول الذي يسافر بأقصى سرعة من معفيس التي أصبحت من جديد العاصمة الملكية المصرية، يمكن أن يقطع تلك الرحلة في حوالي أسبوعين. ولابد أن الفرعون قد مات قبل ذلك بفترة قصيرة، وأحد الأسباب الرئيسية لذلك الاستنتاج أنه قبل حصار قرقميش بفترة قصيرة، كان الجيش المصري قد شن هجومًا على مدينة قادش، والتي أصبحت في ذلك الوقت من المدن المفاضعة للنفوذ العثيني، ولم يكن من ألمكن أن يقدم الجيش المصري على مثل ذلك الهجوم إذا كان ملكه قد مثل أزمة كتلك الأزمة لا يبدو من المعقول أن يقدم الجيش المصري على مثل أرمة كتلك الأزمة لا يبدو من المعقول أن يقدم الجيش المصري على معاركهم ضد الميتانيين وتواجدهم على أطراف سورياً.

لو أخذنا كل تلك الحقائق بعين الاعتبار، يمكننا أن نقول بقدر كبير من الثقة أن الفرعون المعنى في الرسالة قد مات في شهر يوليو أو أغسطس من عام 1327.

إلا أن ذلك التاريخ يمثل مشكلة كبرى بالنسبة لأغلب عنماء المصريات، لو كان الملك المعنى هو توت عنخ آمون، والسبب فى ذلك يعود إلى دليل نباتي عثر عليه بمقبرته، فكما سبجل مكتشف المقبرة هاوارد كارتر الحالة التي وجد عليها المقبرة، قال:

«من أكاليل الزهور والفاكهة التي عثر عليها بالمقبرة، من المكن أن نستدل على الفصل من العام الذي سجى فيه جثمان توت عنخ آمون في تلك المقبرة، فالزهور الموجودة في إبان إيناعها في شهري مارس وأبريل، وكذلك فاكهة عنب الثعلب وغيرها تنضج في البرك الراكدة في مصر الدنيا في الفترة من يوليو حتى نوفمبر، إلا أنه من المحتمل أنها كانت مزروعة في خزانات مائية في طيبة، مما يجعلها تزهر مبكرة عن موعدها، لذلك يمكننا أن نقرر ونحن مطمئنون أن الموسم من العام الذي دفن فيه توت عنخ أمون كان يقع ما بين منتصف مارس حتى نهاية ابريل(6).

وبالاستناد إلى تلك المعلومات، توصل علماء المصريات إلى أن توت عنخ أمون مات في شهر ديسمبر أو يناير، ولا يوجد دايل مسجل يثبت ذلك في أي مصدر مصري، أي أن الأمر كله استدلال، اعتمد على ما هو معروف من طقوس دفن الموتى الثابتة في مصر، فطبقاً لتلك الطقوس، لا يتم الدفن إلا بعد سبعين يومًا من الوفاة، لا يوم واحد أقل ولا يوم واحد أزيد، وأثناء تلك المدة، تعد كل التجهيزات اللازمة ليوم الدفن(7)، ومن هنا جاء افتراض أن الوفاة حدثت عند نهاية ديسمبر أو بداية يناير.

ويبدو أن ذلك الافتراض يرتكز على أسباب موضوعية مقبولة، فخلال كل تاريخ مصر الفرعونية، لم يُخل المصريون أبدًا بتلك الطقوس إلا مرة واحدة ترجع إلى الأسرة الرابعة(8). وهكذا، إذا تعرفنا على فرعون الرسالة على أنه توت عنخ آمون، وأن موته حدث في يوليو أو أغسطس السابقين على الدفن في مارس أو أبريل، فإن ذلك يجعل الفترة الفاصلة بين الموت والدفن تصل إلى سبعة أشهر على الأقل، ومثل ذلك الخروج على التقاليد المصرية الصارمة لا يمكن قبوله، إلا إذا كان الدافع إليه ظروفًا استثنائية جدًا.

الظروف الاستثنائية

لقد مرت مصر بظروف استثنائية اضطرت معها إلى اتخاذ تدابير

استثنائية بعد موت توت عنخ آمون، ومهما كان السبب الذي أدى إلى موته(9) للفاجئ وغير المتوقع وهو في آخر العقد الثاني من عمره ترتب على موته وقوع مصر في أزمة، لم يكن توت عنخ آمون قد أنجب وريئًا للعرش، كما لم يكن هناك فرد من السلالة الحاكمة ليليه على عرش مصر ولا حتى طفل صغير كما حدث معه هو حين ورث عرش مصر وهو طفل صغير، وبدون وجود عائلة ملكية قوية، وفي ألوقت الذي كانت فيه مصر مازالت تحاول التعافي من أثار مرحلة تل العمارنة، كان يمكن أن تنهار مصر وتنقسم من جديد على نفسها، وتصبح مرة أخرى فريسة للأجانب، كما حدث في ذلك العهد المظلم قبل ظهور الأسرة الثامنة عشر، كان التوتر بين مصر والحثينيين على أشده، ويتزايد مع الوقت، فهل تخضع مصر من جديد لفزاة من الشمال؟.

تلك المصاعب هي ما شغل الملكة الشابة، ودفعتها تلك الاعتبارات إلى اختيار أحد الحلول المتطرفة - حتى ولو كان على حساب التقاليد المصرية العريقة - كملاذ أخير لاستعادة ثبات العرش واستقرار المملكة، في محاولة منها لتحقيق تحالف دائم مع القرة العظمى الشمالية التي كانت تشكل أكبر خطراً على مملكتها.

لو كان سبيللوليوما قد استجاب بالموافقة وبالسرعة اللازمة وحقق ما طلبته ملكة مصر الشابة، لكان الوقت المتاح كافيًا، أى خلال السبعين يومًا قبل الدفن، للأمير الحثينى ليصل إلى مصر، مختصراً المفاوضات التمهيدية والرسميات التى غالبًا ما تصاحب الزيجات الدولية الملكية، ثم يصعد إلى العرش ثم يقوم بأداء طقوس الدفن النهائية للملك الميت، كان من أركان شرعية الدفن أن يقوم بها الملك الجديد بذاته، وفي الظروف العادية كان الملك الجديد لا يكتسب شرعية هو الآخر، إلا إذا أدى بنفسه طقوس دفن الملك السابق، وكان لذلك أهمية أشد في الحالة التي نتحدث عنها؛ إذ كان الذي سيعتلى العرش أمير أجنبي، ولابد أن الملكة كانت تنظر استجابة أفضل مما لقت دون أدنى تأخير، كان عنصر الوقت هامًا

ولا يترك لها مساحة زمنية كافية، وكان الموقف يتطلب التصرف بأقصى سرعة.

أما سبيللوليوما فقد كان فى حيرة ودهشة، كان العرض المقدم له عرضاً مغرباً لا يجود به الزمن، كانت أمامه فرصة نادرة لفرض هيمنته ونفوذه على سائر أرجاء الشرق الأدنى، إذا اعتلى ابنه عرش مصر، دون إراقة قطرة دم حثينية واحدة، كانت الزيجات بين بيوت كبار الملوك شائعة ومعروفة، إلا أن الفرق هنا أن أرملة توت عنخ آمون لم تكن لتعرض فقط زواج تحالف، بل كانت تعرض على ابن سبيللوليوما عرش مصر، وبذلك يصبح سبيللوليوما وابنه ملوكًا على أكبر إمبراطوريتين فى الشرق الأدنى يصبح سبيللوليوما أذن كان سبيللوليوما متشككًا إلى هذا الحد من جدية المرض؟

لابد أن نعود إلى الخلف قليالاً للإجابة على ذلك السبؤال، ففى عهد أخناتون قامت علاقات ودية بين مصر والمثينيين، وبالرغم من ذلك ظل التهديد الحثيني على مصالح مصر فى سوريا قائمًا، بل إن الحثينيين اكتسبوا ولايات عديدة فى سوريا كانت خاضعة النفوذ المصرى، بعد نقل الحكام المدسن للولايات السورية ولاهم من مصر إلى سبيللوليوما، وكانت عملكة قادش الصغيرة واحدة من تلك المالك، إلا أن قادش كانت ذات موقع استراتيجي هام، وعلمنا أن أخناتون كان قد شرع فى الإعداد لحملة كبرى على سبوريا الاسترداد الولايات التي فقدها، إلا أن التجهيز لتلك الحملة توقف فجأة بموت أخناتون، واستمر «السلام» المتوتر مع الحد ينيين طوال الاعوام التي حكمها توت عنخ آمون، وحين كان المبيللوليوما منهمكا في آخر عملياته العسكرية ضد الامبراطورية الميتنية المهارة، وردت إليه أخبار مزعجة، وهي أن قوة عسكرية مصرية شنت المهارة، وردت إليه أخبار مزعجة، وهي أن قوة عسكرية مصرية شنت هجوماً على مدينة قادش، ورأى سبيللوليوما في تلك الغارة عملاً واضحاً من أعمال العدوان، واستجاب إلى ذلك استجابة فورية، أرسل قوة عسكرية من قواته إلى قادش، هاجمت القوات المصرية وطاردتها وقامت عسكرية من قواته إلى قادش، هاجمت القوات المصرية وطاردتها وقامت

بهجوم مضاد على مناطق النفوذ المصدى في جنوب سوريا، وأصبحت الملكتان في حالة حرب.

ومن شبه المؤكد أن توت عنخ آمون كان من أمر بشن ذلك الهجوم المصري، بناء على مشورة مستشاريه، إلا أنها كانت حملة دونكيشوتية إلى حد بعيد، وربعا كان وضع الفرعون الصغير داخل ممنكته كان قد أصبح في خطر متزايد، وأن أحوج ما يحتاجه لمواجهة حرج موقفه الداخلي تحقيق انتصاراً عسكرياً خارجيًا، ليثبت أنه هو الآخر «قاهر الأسيويين» مثل أسلافه الذين سبقوه، وكان إدماء أنف سبيللوليوما العظيم بالانتصار عليه سيصبح عيداً وحدثاً يسجل على جدران المعابد المصرية، إلا أن الهجوم المصري على قادش انتهى بكارثة، كان الهجوم بمثابة مقامرة يائسة إلا أنها فشلت، وبعدها بفترة قصيرة مات الملك. ومن غير للعروف إن كان الحدثين علاقة ببعضهما أم لا.

على أى حال، كانت مصدر بتلك الحملة قد أعلنت الحدب على الحثينين، وبعدها بزمن قصير يجد سبيللوليوما زوجة الملك الذي أعلن الحرب عليهم تطلب الوحدة معه عن طريق الزواج بأمير من أبنائه يرتقي عرش مصر، لذلك كانت شكوك سبيللوليوما منطقية.

قمن وجهة نظره كان الهجوم المصرى على قادش عملاً من أعمال الخيانة السافرة، فهل يمكنه الآن أن يخاطر بوضع ابنه فى أيدى مقترفى تلك الخيانة؟ فضلاً عن ذلك، وحتى لو أمن بصدق طلب الملكة الشابة الأرملة، فهل يمكنه الإيمان بأنها تملك من السلطة ما يجعلها قادرة على الوقاء بوعدها، أى أن يرتقى ابنه إلى عرش مصر؟

كان سبيللوليوما يدرك أنه لابد أن تكون هناك معارضة شديدة في مصر لذلك القرار المتطرف من الملكة الشابة، وكما كانت الحقيقة المجردة أن عرض الملكة كان آخر محاولة يائسة؛ لدعم أسرتها الملكية المنقرضة إلا أنها لم تكن على يقين من قدرتها على فرض إرادتها على رعيتها، لذلك لم يجد سبيللوليوما أمامه إلا أن يتقصى حقائق وجوانب وأبعاد ما يحدث

عن طريق إيفاد شخصيات كبيرة من بلاطه، ولذلك أرسل حاتوسا - زيتي إلى بلاد النيل.

زيارة مصر ونتائجها

كانت أنخسن آمون تنتظر رد الملك الصثيني بفارغ الصبر، وأخيراً وردت أنباء بأن وفداً رفيع المستوى قد جاء من لدن الملك الأكبر، ولكن لم يكن الوفد يضم الأمير الذي تنتظره، لم يكن على رأسه إلا مبعوباً ملكياً جاء لتحري الأمر، وبلا شك كان رد فعل الأرملة الشابة يمور بالغضب والغيظ، فلن يؤدي وصول ذلك الموفد إلى إتمام طقوس دفن زوجها، ما لم يكن معهم الأمير الحثيني الذي يتزوجها ويعتلى العرش، ليقوم بطقوس دفن الملك بانتهاء السبعين يوماً التي تلى الوفاة، بل حتى بالرغم من ذلك، لم تكن قد توصلت إلى اتفاق نهائي مع الملك الصثيني، فمع أن الملك الحثيني كان مهتماً بعرضها، إلا أنه ما زال بحاجة للاطمئنان من صدق وعودها وقدرتها على تنفيذها، وأن ابنه لن يكون عرضة لأي خطر في حال مجيئه إلى مصر حسب رغبتها. وطبقاً للأعراف الدبلوماسية المتبعة، سجل مجيئه إلى مصر حسب رغبتها. وطبقاً للأعراف الدبلوماسية المتبعة، سجل مجيئه إلى مصر حسب رغبتها. وطبقاً للأعراف الدبلوماسية المتبعة، سجل مفاهية أبلغها لها بالنيابة عن ملكه سبيللوليوما.

ووجدت أنخسن آمون نفسها في ورطة، كان أمام حاتوسا – زيتي وقت طويل يتم فيه تقصيه للأحوال والظروف، ولم يكن بإمكانه العودة إلى حاتوسا قبل الربيع التالى – أي بعد بضعة شهور. وهكذا، حتى لو وأفق سبيللوليوما في النهاية على مطلبها فإنه ما زال أمامها أشهر أخرى عديدة قبل أن يصل الأصير الذي يختاره سبيللوليوما من بين أبنائه كعريس لها إلى مصر، فهل بإمكانها الانتظار كل هذا الزمن، دون أن نتوصل إلى حل المأزق الذي وجدت نفسها فيه بموت زوجها دون وجود وريث للعرش؟ كلما طال الانتظار، كلما زادت فرصة معارضيها في إفساد خططها، وكلما زاد أيضًا تعرضها هي المخاطر، كانت تلك هي الجوانب

التى ظلت تؤرقها أثناء وجود المبعوث الحثيني في مصر.

إلا أن عزيمتها لم تلن أبدًا فيما يخص أمرًا واحدا سجلته في رسالتها: «لن آخذ أبدًا واحداً من خدمي وأجعل منه زوجًا لي»، فلكي تتجنب الزواج من واحد من العامة غير منحدر من سلالة ودماء ملكية أصرت على المرور بتلك المخاطرة حتى النهاية، أصبح الأمر حرجًا بالنسبة لها، وكان على سبيللوليوما أن يستجيب لطلبها في النهاية ويرسل أميراً حثينيًا إلى مصر.

فى الربيع التالى، عاد حاتوسا – زيتى إلى بلاده، وكان بصحبته الدبلوماسى المسرى رفيع الستوى السفير حانى، والذى قام بمهام كثيرة كما يظهر من خلال رسائل تل العمارنة، وعقد لقاءً مع الملك الحثينى فى القاعة الكبرى من القصر الملكى فى حاتوسا، وسلمه حانى رسالة أخرى من الملكة، وفيما كانت الرسالة تترجم عن الأكادية، تسلم سبيللوليوما تقريرًا من مبعوثه عن نتائج بعثته إلى مصر، لذلك كان متأهبًا الفضب الطاغى على نص رسالة الملكة إليه:

«لماذا قلت هم يخدعوننى بتلك الطريقة؟ هل لى ابن، هل كان يمكن أن أكتب عن خزيى وخزى بلدى إلى ملك أجنبى؟ أنت لم تصدقنى بل وذكرت ذلك لى، الذى كان روجى مات، ليس لى ابن، ولن أخذ أبدًا واحدًا من خدمى وأجعل منه زوجًا لى، أنا لم أكتب بذلك إلى أى بلد آخر، إليك وحدك كتبت، يقولون أن لديك كثيرًا من الأبناء، هب لى واحداً منهم، سيكون زوجًا لى، وسوف يكون ملكًا على مصره (10).

والمقتطف السابق من رسالة انخسن أمون الثانية إلى سبياوليوما التى ورد نصبها فى السيرة الذاتية لسبيللوليوما، كما سجلها ابنه مورسيلى، وقد عثر بالفعل على أجزاء من رسالتها أظهرت أن مورسيلى قد نقل ما جاء بها بأمانة، وفى نص الرسالة الأصلى التي عثر على أجزاء منها أشارت أنخسن أمون إلى موت زوجها وأكدت على عدم وجود أبناء له يرثوا عرش مصر.

كذلك لامت سبيللوليوما على شكه في رسالتها الأولى، وإرساله مبعوثه حاتوسا – زيتى إنى مصر التيقن من صدق ما ذكرته وتقييم الأمر(11). (من الواضيح أن مورسيلي قد أمر بإخراج رسالتها من دار المحفوظات، ليكون نصبها أمامهم وهو يعلى ذلك الجزء من سيرة أبيه على الكتبة).

ولم يكن سبيللوليوما في حال تسمح له يقبول التأنيب. كان الهجوم المصرى السابق على قادش مازال عالقاً بذهنه، وقد ذكر ذلك في رده، ألم يكن لديه أسباب قوية للشك في نوايا المصريين؟ ألم تقم القوات العسكرية في وقت قريب سابق بشن هجوم غادر بلا سبب على واحدة من مدنه؟ فلماذا يجب عليه الوثوق في النوايا المصرية هكذا فجأة؟ قال في رده على رسالتها:

«لقد كنت أنا نفسى أكن لكم الود والصداقة، ولكن أنتم اقترفتم شراً فى حقى، جئتم وهاجمتم قادش، ولما علمت بذلك، أرسلت قواتى وعجلاتى ونبلائى، وهاجموا مناطقكم، منطقة أمكا، ولما هاجموا أمكا، خفتم، وبعد ذلك طلبتم أحد أبنائى، كما لو كان واجبًا على، من المكن أن يصبح أسيرًا، أنتم لن تجعلوه ملكًا ع(12).

ولم تبدأ أى بوادر للتوصل إلى حل ناجح يرضى الطرفين، فتدخل المبعوث المصرى رفيع المستوى هائى بمهاراته النبيوماسية الرفيعة:

«سيدى الملك، هذا خزى لبلادنا، ولو كان لدينا أي ابن للملك المتوقى هل كتا تحضر إلى بلد أجنبية ونطلب سيدًا علينا؟ لقد مات نبحوروريا الذى كان سيدنا. وليس له ابن، وزوجته بمفردها وحيدة، ونطلب أحد أبنائك ليكون ملكًا على مصر ونطلبه ليكون زوجًا لملكتنا، فضلاً عن ذلك، لم نذهب إلى أي بلد أخرى، لم نأت إلا إليك، والآن يا سيدى، هبنا أحد أبنائك» (13).

وكان يدعم ذلك الشرح الودى تقرير مطمئن من المبعوث العثيني، مما حسم الأمر بالنسبة إلى سبيللوليوما، وقلل مورسيلي في سيرة أبيه الذاتية من وزن وقيمة الإنجاز النبلوماسي المصدري ونسب الفضل إلى أبيه

بأجمعه، وقال: «لأن أبي كان طيب القلب، استجاب لكلمة المرأة وأخذ على عاتقه إرسال أحد أبنائه إليها».

إلا أن صفات الفروسية وطيبة القلب التى أدعاها مورسيلى عن أبيه كانت من أبعد الصفات عن شخصيته، كما أن رأى ابنه عنه يبعد بنا عن صنفات الإباء والشجاعة والإصرار الذى يعيز الأرملة الملكية المصرية، كانت أسباب سبيالوليوما فى استجابته لما طلبته المرأة مصلحة شخصية بحتة، كما كانت تلك هى دوافعه على الدوام، كان هدف ذلك الملك المحارب القاسى الطموح بعد أن خرج مظفرًا من معاركه ضد الميتانيين، هو مد هيمنته وسيطرته على مصر وعلى ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية المنهارة، لم يكن إلا هذا الدافع القوى الذى حدا به إلى الموافقة عنى إرسال أحد أبنائه إلى مصر.

لغز زانانزا

من من أولاده؟ كان لدى سبيللوليوما خمسة أبناء، إلا أن أكبر ثلاثة كانوا قد تولوا مهام كبرى، كان أرنو واندا قد أعلن وليًا للعهد، أما تليبينو وشارى – كوشوه فقد عينا ملوكًا على حلب وقرقميش على التوالى، أما مورسيلى، الابن الخامس فقد كان مازال طفلاً ولم يبق إلا زانانزا، الابن الرابع، وكان زانانزا هو من هيئ على عجل للتوجه إلى مصر،

وانتظر سبيللوليوما وصول التقارير عن تقدم ابنه في مهمته، وجاعه الأخبار عن طريق مبعوث ملكي، كانت أسوأ ما يمكن أن يتلقاه من أنباء، مات زانانزا، أسوأ ما في الأمر أن الفقرة التي تسجل موته في السيرة الذاتية تالفة وغير واضحة، كل ما توصلنا إليه أن الأمير قتل وهو في طريقه إلى مصر، إلا أن النص محطم، فيما يلى ذلك، مخفيًا هوية من قاموا بقتله، ولم يجد سبيللوليوما المفجوع إلا اتهام المصريين بالمسئولية المباشرة عن مصرع ابنه: «أيتها الآلهة، لم اقترف إثمًا، إلا أن المصريين فعلوا ذلك ضديء (14)

ولم يكن هناك مفر من الانتقام، وأضفى التهديد، بنشوب حرب شاملة، أبعادًا جديدة إلى أزمة وراثة العرش في مصر، كان تعيين خليفة لعرش مصدر لا يمكن أن يتأخر أكثر من ذلك، وتمت إجراءات وطقوس الدفن بعجلة، حتى إن طلاء حوائط المقبرة لم يكن قد جف بعد، أحد تلك الرسومات الجدارية يظهر الرجل الذي خلف توت عنغ آمون على العرش يرتدي ملابس كهنوبية، وهو يقوم بإجراء طقس فتح الفم المقدس المتوفي، وهو الطقس الذي يعيد الميت إلى الحياة في العالم الآخر، كما يضفي الشرعية على من يؤديه للميت بصفته الخليفة الشرعي على العرش، وكان اسم من أدى ذلك الطقس (أي) لم يكن (أي) ذاته من السلالة الملكية، ولكن المحتمل أنه يمت بالمساهرة إلى الأسرة اللكية، ويفترض كثير من الباحثين أنه أبو نفرتيتي زوجة أخناتون، وفي كل الأحوال، كان (أي) من الشخصيات البارزة المرموقة في البلاط المصرى على مدى زمن طويل، كان من أخلص وأقرب المستشارين إلى أخناتون، واستمر في أداء دوره المتميز كمستشار أول للملك طول عهد توت عنغ أمون، كان في ذلك الوقت قد أصبح طاعنًا في السن، في السبعينيات من عمره، وأصبح ملكًا بالصادقة، حين لم يكن هذاك غيره مناسبًا الجلوس على عرش مصر.

ولابد أن تحوم الشكوك حول (أي) بصفته من دبر اغتيال الأمير الحثيني، قد يدفع ذلك بأي امرئ إلى تكوين صورة ميلودرامية عن ذلك المستشار الملكي القوى، ذلك الذي يظهر في خلفيات الرسوم الجدارية في منزلة سامية حميمة مظهرًا ولاءً نادرًا للملك، بينما يكتم بين جوانحه تطلعاته لارتقاء العرش. وفي إطار ذلك المفهوم الشخصيته يصبح موت توت عنخ أمون بمثابة تمهيد للطريق لتحقيق طموحاته وتطلعاته، ولا يلبث أن يجد خططه على وشك الانهيار برفض أرملة الملك الميت له وبطلبها الزواج من أمير حثيني.

هل يعطى إصرارها، وتأكيدها المتكرر على رفضها الزواج بواحد من العامة انطباعًا أن (أي) عرض عليها الزواج؟ وبالرغم من جاذبية ذلك

التصور، إلا أنه لا يوجد على الإطلاق ما يدل على أن (أى) قد لعب أى دور في صنع تلك الأحداث أو توجيهها إلى الوجهة التي اتخذتها، أو على وجه التخصيص أن يكون له أى علاقة بمصرع الأمير الحثيني وهو في طريقه إلى مصر، ومثل كل قصيص التحريات الشيقة، فإن الشخصية التي ينصب عليها الاتهام بوضوح يتضع في النهاية أنها ليست الجاني.

إن التوصل إلى ترجيحات لا يعدو كونه مسالة لجوء إلى المنطق والمعقول. فلنفترض للحظة أنه كان لدى (أى) تطلعات إلى عرش مصر بعد موت توت عنخ آمون. في هذه الحالة كان سيظهر نيته تلك أثناء وجود المبعوث الحديث ينى حاتوسا – زيتى في مصر، كان من دواعي قلق سبيللوليوما الرئيسة التأكد من أن ابنه إذا ذهب إلى مصر لن يكون في خطر من خصوم مطالبين بالعرش.

وكان أفضل وقت لتخريب مشروع الزواج المزمع من أمير حثينى أثناء وجود المبعوث الحثينى في مصر، وهو يقوم بتحرياته حول وجود قوى مناوئة أو خصوم يطالبون بعرش مصر، كان ذلك أنسب وقت لأي، لإظهار ذلك، حتى يضعن أن التقرير الذي سيصل لسبيللوليوما سينهى أي احتمال لنجاح زواج التحالف.

لم يكن لدى (أي) الكثير الذي يمكن كسبه - بينما كان هناك الكثير الذي يمكن أن يخسره - في تأخير أي مطالبة له بعرش الملكة قبل أن يقبل سبيللوليوما بزواج التحالف، الأقرب للاحتمال أن (أي) لم يكن لديه أبدًا أي تطلعات لأن يصبح فرعونا، وأن تصعيده إلى سدة الحكم لم يكن إلا ترتيبًا متعجلاً من قبل قرارات الساعة الحادية عشرة، أي قرارات اللحظة الأخيرة التي تم اتخاذها بعد وصول أنباء مصرع الأمير الحثيني زانانزا، وهو في طريقه إلى مصر.

ولا يوجد شك في أن (أي) بعد أن أصبح فرعونًا سعى بكل عزيمة إلى إقرار السلام مع سبيللوليوما، ونفى بكل عزم وصدق أي علاقة له بمصرع ابنه، وكتب مرة، ويحتمل مرات إلى سبيللوليوما لاثنائه عن اللجوء للحرب،

ونعلم ذلك من نص رسالة مهشمة أرسلها سبيللوليوما إلى (أي) رداً على إحدى رسائله، وكالعادة المتبعة كان رد سبيللوليوما يتضمن فقرات من رسالة (أي)، واتضح من تلك الفقرات أن (أي) قال في رسالته: «اتهاماتك لا مسوغ لها.. أنت تسعى إلى حرب ضدنا.. أنا أطلب السلام والإخوة. فيما يخص موت ابنك – أنا برىء منه تمامًا »(15) إلا أن ذلك لم يرض سبيلوليوما. فبناء على أوامره، عبر الجيش الحثيني إلى مناطق النفوذ المصرى في شمال سوريا وشن هجمات شديدة على المن الواقعة بالمنطقة، وأسروا بضعة آلاف عادوا بهم إلى العاصمة الحثينية، وكان لذلك عاقبة وخيمة تعد من سخريات الأقدار، فالأسرى جلبوا معهم وباء الطاعون، الذي ظل يحصد أرواح الحثينيين على مدى عشرين عامًا، وقضى على أعداد هائلة منهم.

وحتى اليوم مازال موت الأمير الحثينى لغزًا غامضًا، هل كان ضحية لقوى مصرية قررت الحيلولة دون اعتلاء أمير أجنبى لعرش بلادهم؟ هل كانت هناك توجهات لفئة من بين بنى جنسه كانت على استعداد لفعل أى شيء لضمان عدم إتمام التحالف مع مصر؟ أم أنه وقع في كمين أعده رجال قبائل معادية لهم في جنوب سوريا؟ هل كان ضحية لمؤامرة لم تكتشف أبعادها ولا خباياها حتى الآن؟ ظلت هذه الافتراضات مع افتراضات أخرى غيرها تطرح من أن لآخر، وإن نجد لدينا إلا الاستمرار في التخمين حتى تظهر أدلة وبراهين جديدة.

إن الأحداث عاثرة الحظ، التي أدت إلى موت الأمير الحثيني، تضعنا في الموقف الجدلي التاريخي الذي يدور حول «ماذا لو». أي ما الذي كان يصبح عليه التاريخ لو كان زانانزا قد وميل أمنا إلى مصير، وتزوج من انخسن أمون واعتلى عرش مصر؟ هل كان يمكن أن ينجم عن ذلك الزواج اتحاد بين أكبر مملكتين في تاريخ الشرق الأدني؟ هل كان لذلك «لو» كان قد حدث أن يغير مسار التاريخ؟ يحتمل لا، فمهما كانت أسباب موت الأمير الحثيني، كانت هناك بلا أدني شك قوى مصرية شديدة تعارض

ذلك، كما يجب ألا ننسى أن سعى الأرملة الشابة للحصول على أمير ملكى حثينى لم يكن إلا أخر حل يائس من أخر فرد حى فى سلالة ملكية بالت جميعها، كان طلب زواج التحالف ذاك مقضيًا عليه بالفشل المؤكد من بدايته.

ماذا كان مصير أنضس أمون؟ هل وجدت نفسها في النهاية مجبرة على الزواج من أحد العامة – ويحتمل أنه جدها (لو كان أي بالفعل أبا نفرتيتي) حتى يصعد إلى العرش؟ بعد فشل زواج التحالف مع الحثينيين، لا نعرف أي شيء عن أنخسن أمون بعد ذلك، ولا توجد إلا شدرة بسيطة من المعلومات. ففي عام 1931 عرض، على عالم المصريات الإنجليزي بيرسي نيوبيري، خاتم قديم من أحد تجار العاديات المصريين، وجد على فصه الزجاجي خرطوشين ملكين إلى جانب بعضهما، يحتوي أحدهما على الاسم الأول لآي، ويحتوى الآخر على اسم أنخسن أمون، ويبدو أنهما توصلا إلى أحد الحلول التوافقية، ويحتمل أنه كان عن طريق الزواج، ففي النهاية وجدت أنخسن أمون نفسها مجبرة على قبول المصير الذي ظلت ترفضه قائلة: (لن أتزوج أبداً من أحد خدمي)، قبل أن تختفي نهائياً من السجلات.

12

الاتصالات الهيسنية بالشرق الأدنى

كان الشرق الأننى بمثابة سوق رائجة ومنفذ حيوى لأنواع كثيرة من منتجات الجزر المتناثرة في بحر إيجه، وحملت المراكب البحرية - التي تجوب أرجاء شرق البحر المتوسط - منتجات جزيرة كريت المنوانية وجزر إيجه إلى كل الموانئ الكبرى ومناطق التجارة على طول سواحل البحر المتوسط، وبذلك شقت للنتجات القادمة من جزر إيجه طريقها، عبر مسالك قوافل التجارة والطرق البحرية إلى قصور وبيوت الصفوة في منطقة ما بين النهرين، والأناضول، ومصر .

وفى عالم يدرك مزايا وفوائد التجارة العالمية والتبادل الثقافى، من الصعب أن نتخيل عائلة ملكية، أو أى عائلة ثرية لم يكن لديها منتجات متعيزة من صنع جزر بحر إيجه، أو لم تتذوق النبيذ الفاخر المنتج فى منطقة رائعة وغنية تدعى كريت، وبالفعل، تظهر جدازيات المقابر المصرية فى المملكة الحديثة الهدايا والهبات التى يحملها زوار بحر إيجه إلى بلاد الفرعون المصرى، وهم بالتأكيد من الوفود التجارية، ولكن عدا ذلك الجانب الذي منله التبادل التجاري، كانت الروابط بين ممالك الشرق الأدنى وحضارات جزر بحر إيجه وبلاد اليونان علاقات طفيفة غير ملموسة. فمن الجهة نظر استراتيجية أو سياسية، كانت البلاد الواقعة في ما وراء البحر وحضى باهتمام كبار ملوك الشرق الأدنى، باستثناء حالات قليلة نادرة أشبر فبها أحيانًا في المراسلات إلى تلك الأماكن، أما عسكريًا، لم يكن أدى أي من كبار ملوك الشرق الأدنى من المصادر والقوى ما يمكنه من فرض هيمنته على تلك الجزر أو بلاد ما وراء البحر – كما لم يكن لديهم فرض هيمنته على السعى التحقيق ذلك، أما استراتيجيًا، فقد كانت

التحالفات الدبلوماسية مع تلك المناطق لا تحقق أي فائدة أو منفعة.

ماعدا استثناء واحدأ

أدى انتشار الجزر الصغيرة في بحر إيجه إلى سهولة وصول أهل جزيرة كريت واليونان إلى الساحل الغربي لمنطقة الاناضول بحثًا عن أسواق جديدة، وإلى أماكن جديدة للاستقرار بها، وعند بدايات القرن السادس عشر قبل الميلاد أسس المهاجرون من جزيرة كريت مستوطنة ميلتوس، والتي أطلق عليها في التسجيلات الحثينية(1) ميلاواتا أو ميلاواندا، ومن أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما تلى ذلك، زادت الاهتمامات الميسينية بمنطقة غرب الاناضول، مع زيادة حجم التجارة الميسينية، وزيادة عدد وحجم مستوطناتهم في شبه جبزيرة هاليكارناسوس، وإياسوس، وميلتوس، وايفسوس، وكلازومينيا، وسيمرنا ومنطقة لاريسا(2).

والدايل على ذلك يلاحظ بوضوح في منطقة ميلتوس (وسنستخدم من الآن الاسم الحثيني وهو ميلاواتا)، حيث تبدو بوضوح آثار المستوطئات المسينية من حوالي 1400 ق.م(3)، وكان من المحتم أن تتصادم المصالح المبينية بالمصالح الحثينية، ففي عام 1400 امتد النفوذ الحثيني إلى مناطق أوسع من غرب الأناضول، وعلى مدى القرن الرابع عشر ق.م (إن لم يكن قبل ذلك) ادعى الحثينيون أن ميلاواتا من ممتلكاتهم، وقد علمنا ذلك من المعلومات الواردة في النصوص الحثينية، فما هي المعلومات التي وصلتنا من التسجيلات الحثينية المدونة عن التدخل الميسيني في شئون غرب الأناضول؟

تساؤل أحياوا

فى عام 1920، أعلن الباحث السويسرى إميل فوريه إلى الباحثين المهتمين بالتاريخ الحثيني أنه عثر على نصوص ميسينية إغريقية بين النصوص الحثينية، ودعم إعلانه بلغت الأنظار إلى وجود إشارات في تلك النصوص إلى منطقة تدعى أحياوا وإلى ملك أحياوا، وكان ذلك الاسم قد ظهر قبل ذلك في شكل أكثر اختصاراً هو أحيًا، وكان فوريه من توصل إلى الاسم المقابل باليونانية القديمة وهو اكبيا، المذكور في ملحمة هوميروس والذي اعتاد اليونانيون الإشارة إليه عمومًا باسم أكايوى. وأدى تعرفه على تلك المقابلات للاسم إلى كثير من الجدل، ولم يقبل المشككون بصحة ذلك الاستدلال، وخاصة الباحث الألماني فرديناند سومر، ورفض قبول ذلك وعزاه إلى مجرد مصادفة زمنية، وأن كل الأمر لم يعد ضحة عابرة في عالم الاتيمولوجي، وعاد الباحثون في الأعوام الأخيرة ليزداد قبولهم لفرضية (فورية) وأصبحت كل إضافة جديدة – مهما قلت – تدعم تلك النظرية (4).

ومن وجهة نظر المؤرخين، من الصعب أن نقلل من أهمية ذلك التعرف، فذلك التعرف فذلك التعرف يقدم خدمة جليلة للسجلات الأثارية، وهو يزودنا بالمعلومات الوحيدة المسجلة عن العالم الميسيني، أو على الأقل عن جانب من العالم القديم.

فضلاً عن ذلك، يقدم ذلك التعرف برهانًا ودليلاً واضحين أن الاهتمام الميسيني بغرب الاناضول امتد إلى ما هو أبعد من الصلات التجارية، وكان هناك ملوك ميسينيون، مساهمين سياسيًا وعسكريًا فيما يحدث في غرب الأناضول، وهذا ثابت على الأقل بدءًا من 1320(5)، وهي الأعوام الأولى من حكم مورسيلي الثاني للحثينيين، حين فكر الملوك المتمردون بغرب الأناضول في التحالف مع ملك أحياوا(6). غير أننا سنركز هنا على مرحلة تاريخية لاحقة، وهي منتصف القرن الثالث عشر ق.م، حين اعتلى العرش الحثيني حاتوسيلي الثالث أثناء حكمه رسالة لسبب ما إلى ملك أحياوا، والرسالة الأصلية تمتد على ثلاثة ألواح طينية، لم يتبق منها لسوء الحظ إلا اللوح الأخير، وقد عرفت تلك الرسالة واشتهرت باسم تاواجالاوا(7) وهو اسم مضلل كما سنتبين فيما يلي، إلا

أن شيوع استعماله يجبرنا على استعماله نحن أيضًا، ولابد أن اسعى كاتب الرسالة ومتلقيها مدونان في اللوح الأول المفقود، وبينما يمكننا أن نتوصل بسهولة إلى أن كاتب الرسالة هو حاتوسيلي الثالث(8)، إلا أن اسم ملك أحياوا الذي أرسلت إليه يظل مجهولاً، غير أن زمن كتابتها وإشارة إلى ناقلها في الجزء الموجود — يثير جدلاً كثيراً حول اسم متلقيها.

ولنعد بناء المشهد، ولكى نشرع فى ذلك، لا بد أن نبدأ بمحاولة تعريف مدى وحدود مصطلح (أحياوا) كمصطلح يشير إلى العالم الميسيني الإغريقي.

وفي المعنى العام، نجد أن الحضارة اليسينية قد امتدت من القرن السابع عشر حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهو الزمن الذي يعرف أثاريا بالمرحلة الهيلينية المتأخرة، وهي بذلك تتزامن بشكل عام مع الملكة الحثينية التي اتخذت من حاتوسا عاصمة لها، والملوك القسيطيين في بابل والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في مصر، ويستخدم مصطلح «ميسيئي» اليوم للدلالة على كل العصر الهيليثي المتأخر، وهو يعكس أيضنًا يروز الحضارة المسينية بين كل المكونات الهيلينية لتلك المرحلة في المكون الآثاري المعماري، كما في المكون الثقافي الإغريقي، والتفكير السائد عن العالم الميسيني، الذي يضم أرض اليونان والجزر الإغريقية، يظهر أنه بينما كانت هناك درجة عالية من التمازج الثقافي، إلا أنه كان عالمًا ممزقًا: سياسبًا، مكونًا من عديد من المالك المستقلة، تخضع كل منها لحاكمها فقط، إلا أن نظام الحكم الملكي كان نظامًا أسبريًا راسخًا، وتوفّرت لها: مقومات الممالك من مساحة وشعب وثروة وقوة، كانت مسينا، وتايرنس، وأرجوس وبايلوس من أهم المراكز المضرية في العالم المسيني، وبالرغم من أنها كانت ممالك مستقلة سياسيًا وإداريًا عن بعضها البعض، إلا أنه من المحتمل أن تلك الممالك كانت تتكتل في تحالفات مؤقتة لأسباب حربية أو لأهداف عظمي مشتركة، وقد صور هوميروس ذلك في الإلياذة.

كيف تتفق الإشارات الحثينية إلى (أحياوا) مع ما سبق ذكره؟ إن عدد المرات التي أشارت فيها النصوص الحثينية إلى (أحياوا) ليست إلا مرات قليلة (حوالي عشرين مرة أو نحو ذلك)، وأغلبها عثر عليها في فقرات في ألواح مهشمة، ولكن بقدر ما يمكننا أن نحكم على ما ورد في تلك الفقرات، يبدو أن الاسم كان يذكر في بعض تلك النصوص كإشارة إلى الفقرات، ببدو أن الاسم كان يذكر في بعض تلك النصوص كإشارة إلى جنس بشرى للإشارة إلى العالم الإغريقي المعاصر لهم بوجه عام، بالضبط كما كان الحثينيون يستخدمون مصطلح حوري كإشارة عامة لكل من يتحدثون اللغة الحورية، بما فيها المملكة الميتانية، من جهة أخري، ربما كان الاسم يستخدم الدلالة على مملكة إغريقية معينة، خاصة حين يشار به إلى ملك معين من ملوك (أحياوا)، في تلك الحالة، كان الملك المعنى بشكل شبه مؤكد هو ملك دولة كبرى من الدول الإغريقية، وربما ميسينا بأتها، ولكن، حتى المالك الميسينية الكبرى كانت ممالك متواضعة إذا شورنت بالمالك الكبرى في الشرق الأدنى المعاصرة لها. إلا أنه من المحتمل أن موقف الحثينيين من ملوك أحياوا كان مساويًا لموقفهم من إخوتهم ملوك الشرق الأدنى.

أنشطة بيا مارادو

ونعود إلى الرسالة التى نتحدث عنها – والتى قد يكون من الأنسب تسميتها «رسالة بيامارادو»، والأحوال التى يعكسها نص الرسالة، كما يلى: على مدى أعوام طويلة كان هناك أحد المتمردين المرتدين على السلطة العثينية يدعى بيامارادو، وكان يشن غارات شرسة على المدن والقرى الحثينية في غرب الأناضول، ويثير الاضطرابات المستمرة والعصيان المسلح ضد الملك الحثيني، وبالرغم من الحملات العسكرية المثينية التى شنت ضده وأوقفت نشاطه إلى حين، إلا أنه استعاد نشاطه بحجم أكبر واستمر في التحرش بالمناطق الحثينية وسكانها المقيمين بها، وما زاد من خطورة الموقف أنه كان يقوم بذلك النشاط بدعم أو على الأقل بتشجيع من

ملك أحياوا، ووصلت معلومات إلى حاتوسيلى أن أخا ملك أحياوا ويدعى تاواجالاوا قد وصل إلى ميلاواتا، وأشيع أنه جاء ليصطحب معه في عودته إلى أرض اليونان آلاف الرعايا الحثينيين: بعضهم بإرادته الحرة، وبعضهم بالقوة الجبرية، وشبه مؤكد أن ملك أحياوا كان بحاجة إلى عمالة كثيفة لمشاريعه المعمارية العظمى وعلى رأسها تقوية وتدعيم كل القلاع والحصون، وكان ذلك التوقيت بالفعل وقتًا اشتهر بإقامة المشروعات المعمارية العديدة في أرض اليونان، ويبدو أن بيامارادو كان يقوم بدور مورد العمال للملك المسيني.

وبوجه عام كان ملوك العثينيين يفضلون إسناد قيادة العملات العسكرية في غرب الأناضول لنوابهم على تلك المناطق. إلا أن هذه الحالة أو الأزمة التي نجمت عن نوايا بيامارادو اعتبرت على درجة من الفطورة، تستلزم قيادة الملك بنفسه للقوات للتصدى لبيامارادو الذي كان بمثابة شوكة في خاصرة الحثينيين، كان وقت الحسم قد حان ولكن حتى حين كان حاتوسيلى في طريقه إلى مكان عدوه، ترك الباب مواربًا لإتاحة الفرصة للتوصل إلى حل سلمى. كان على استعداد أن يغفر له ما تقدم إذا أظهر بيامارادو أية نية للعودة إلى تبعيته للملك الحثيني، كان حاتوسيلى قد خطط لذلك إذ كتب في رسالته إلى ملك أحياوا: «الآن، حين وصلت إلى سلابا(9)، بيامارادو أرسل من لدنه رجلا لمقابلتي وقال: «أعود وسلت إلى سلابا(9)، بيامارادو أرسل من لدنه رجلا لمقابلتي وقال: «أعود مناك في الأفق حلاً دبلوماسيًا، وأرسل حاتوسيلي إليه مسئولاً يدعى تارتينيو، ليصحب بيامارادو إلى الملك(11)، ولما وصل إليه تجاهله. ثم راح بيامارادو يزيد من اشتراطاته، مصراً على تعيينه فورًا: «هب لي مككا بيامارادو يزيد من اشتراطاته، مصراً على تعيينه فورًا: «هب لي مككا الأن، وهنا، وإلا أن أتي للقائك».

فوجه له حاتوسيلى إنذاراً بأن يسحب كل قواته من آيالاندا للحصنة، وربعا تكون هي المدينة التي تحول اسمها إلى البندا بعد ذلك، والتي تقع على حوالي 60 كيلو متراً شرق ميلتوس – ميلاواتا، وقال في رسالته: «لو

كنت تود العودة إلى طاعتى، حين أصل إلى ليالاندا، لا أجد واحدًا من رجالك بها، ويجب ألا تدع أيًا منهم يعود إليها، ولا تطأ قدمك أي مكان خاضم اسلطتى».

وتجاهل بيامارادو الإنذار، وحين اقترب حاتوسيلي من المدينة الحصينة قويل بهجوم شديد الوطأة، إلا أن المدينة سقطت في النهاية في أيدي المثينيين، ولكن بعد معارك ضيارية، مما حيال دون تحقيق الملك الحشني لهدفه وهو استعادة رعبته الذبن ساقهم بيامارادو عنوة، وتمكن بيامارادو من النجاة ولجأ إلى ميلاراتا التي كانت خاصعة في ذلك الوقت اسيطرة ملك أحياوا(12)، وكتب حاتوسيلي مرة أخرى إلى بيامارادو طالبًا منه تسليم نفسه. إلا أن بيامارادو الذي كانت تعلأه الثقة بحماية ملك أحياوا له رفض تسليم نفسه. وكتب حاتوسيلي أيضًا إلى ملك أحياوا رسالة مليئة بالشكوي التي وقفت على أعتاب لتهامه بدعم وتأييد بيامارادو في هجومه على البلاد الحثينية، وذكر في رسالته: «هل يعلم أخي حقيقة هجوم بيامارادو المتكرر على بلادي، أم لا يعلم هذه الحقيقة؟»، وواضح أن السؤال قد صبيع في بلاغة لا تنتظر إجابة، إلا أن رد ملك أحياوا جاء جافًا ومختصرًا إلى حد الوقاحة، كما خلا من مجاملات بيلوماسية، قال: «حين وسال رسواك إلى بلاطي لم يحمل معه أية تحية، كما لم يحضر هدية، ولم يقع مثل ذلك في عالم دبلوماسية الشرق الأدنى القديم، إلا أن إجابة تساؤله هو ما كان يهمه، إذ كتب ملك أحياوا على أثر ذلك إلى حاكم مدينة ميلادواتا الخاصم له (والذي كان أبا رُوجة بيامارادو) طالبًا منه تسليم بيامارادو إلى الملك الحثيني، وقال له: «ضبع بيامارادو تحت تصرف الملك الحشنيء،

وكان ذلك بمثابة الإذن الذى كان يحتاجه الملك الحثيني لمهاجمة ميلاواتا، كانت مهاجمة حاتوسيلي للمدينة دون ذلك الإذن يعد بمثابة إعلان الحرب على أحياوا ذاتها، ولم يكن لدى حاتوسيلي أية نوايا لإثارة العداوة بينه وبين ملك أحياوا، أما برضي ملك أحياوا فقد أصبح لديه

الفرصة لدخول المدينة بقواته وأسر بيامارادو، كان أسر ذلك المتمرد يعد عظة وغيرة لكل من تسول له نفسه تحدي حاتوسيلي، وكان إنذارًا أيضًا اسكان مبلاواتا بأن من بهاجم البلاد الحشنية أن يكون بمنأي عن متناول العدالة الحثينية، وكتب حاتوسيلي: «سأكلم بيامارانو، وسوف تسمع رعية أهي الملك ما أقوله إليه، ولكن لسوء حظ حاتوسيلي، لم تمض الأمور كما خطط لها، فقد تمخضت مسيرته إلى ميلاواتا عن مزيد من الخزي، فحين وصلها لم يكن بنامارادو بها، فقد فر منها بحراً، ولا يوجد شك أن ذلك التدبير كان على يدى رعية ملك أحياوا، فقد ظهر بعد ذلك في بلاد اليونان، حيث أصبح بمنأى عن يدى حاتوسيلي. في الوقت الذي ظل فيه طليقًا وبإمكانه العودة إلى غرب الأناضول، ليعاود هجومه على البلاد الحثينية حين تواتيه الفرصة، كان الخزى الأكبر لحاتوسيلي فشله في الحؤول دون ترحيل الآلاف من رعيته إلى أحياوا الذي دبره بيامارادو. ومثيت حملة حاترسيلي بأجمعها بفشل ذريع، لم يلق حاتوسيلي قبل ذلك أية هزائم، أو على الأقل لم يلق هزائم كبرى في سيادين القتال، إلا أن فشل تلك الحملة أظهر مدى هشاشة السلطة الحثينية في منطقة غرب الأناضول، ولم يعد بيامارادو وحده من يثير قلقه، فقد كان عليه الآن أن يواجه ما يستجد من ملك أحياو! الذي توقع منه أن تزداد جرأته وصلافته بعد تلك التطورات، وفشله في ردع المتمردين عليه، وتوقعه أن ينازعه ملك أحياوا على النفوذ في غرب الأناضول، وكان من الواضح أنه هو ومن يدعمهم قد ربحوا الجولة الأولى في تلك المواجهات.

مبادرات حاتوسيلى السلهية

حين تفشل القوة، قد تنجع الدبلوماسية، لجأ حاتوسيلى بعد ذلك إلى لعب دور المفاوض الساعي إلى التصالح، وفي نهاية رسالته اتضبح هدفه النهائي، والرسالة في مبدأها رسالة شكوى يقوم فيها حاتوسيلى بدور المضار، لقد ألم الباحث دنيس بيج بروح الرسالة وقال: إن الملك الحثيني

«يتذمر شاكيًا بالمسمارية عبر البحر الداكن»(13) إلا أن الانطباع الكلى عن الرسالة يظهر أنها رسالة مهادنة. كان الملك الحثيني يتلهف إلى التوصل إلى حل دبلوماسي سلمي يفتح به الطريق المسدود بينه وبين أحياوا، وطالب بتعاون نظيره في استعادة الاستقرار إلى المنطقة، وفوق كل ذلك، تكبيل حركة بيامارادو.

وكانت هناك أيضا مشكلة الرعايا الحثينيين الذين رحلوا عنوة إلى الحياوا، بالرغم من أن ترحيلهم كان قد أصبح أمرًا واقعيًا منتهيًا، إلا أن حاتوسيلى كان يريد استرجاعهم، أو على الأقل الجل الأعظم منهم، لذلك اقترح حلاً وسطًا يرى أن من انتقل من رعاياه بإرادته إلى أحياوا فيمكنه أن يظل هناك، أما الذين أخذوا عنوة رغم إرادتهم فيجب أن يعادوا إلى وطنهم.

إلا أن القضية الأكبر كانت تدور حول بيامارادو، فقد سرت شائعات أنه كان ينوى العودة إلى غرب الأناضول، وسوف يترتب على عودته استهادته لأنشطته المعادية للحثينيين، وطالب حاتوسيلي ملك أحياوا بإعلان موقفه من ذلك:

«طَبقًا الشائعات، فإن بيامارادو إذا عاد سيترك لديكم زوجته وأطفاله وآل بيته، بلادكم بذلك تقدم له الحماية، ولكنه يغير باستمرار على بلادى، وكلما تصديت له لمنعه، يعود إلى بلادكم، فهل تحبذ يا أخى هذا السلوك؟، وقدم حاتوسيلي إلى أخيه الملك ثلاثة حلول بديلة:

«والأن يا أخى، اكتب بما يلى على الأقل [إلى بيامارانو]: انهض، توجه إلى بلاد الحثينيين، سيدك سيتوصل معك إلى حل، أو تعال إلى بلاد أحياوا، وفي أي مكان منها تختاره سأدعك تستقر، (ويجب أن تظل به). أو قم وخذ أسراك وزوجاتك وأطفائك وارحل إلى مكان آخر، فطالما أنت على عداء مع الملك الحثيثي، مارس عداوتك من بلد أخرى، من بلدى أن أدعك تمارس عوانك ضده».

ويظهر هذا العرض تراجعًا كبيرًا في السياسة الحثينية عما عرف

عنها فيما يخص الرعايا المتمردين والفارين من عقاب الملك باللجوء إلى بلد أخرى. كانت السياسة المعتادة هي المطالبة بطرد المتمرد أو التهديد بشن الحرب على كل من يرفض تسليم المتمردين. أما في هذه الحالة، لم يكن بإمكان حاتوسيلي توجيه إنذار إلى أخيه ملك أحياوا، لذلك قدم الطول الثلاث التي رآها ملائمة:

- * إقناع بيامارادو بالخضوع مرة أخرى السيادة الحثينية.
- تخصيص مأوى أمن له في أحياوا مع التأكيد عليه بالبقاء في مقر إقامته وألا يتورط من جديد في أنشطة معادية للحثينيين.
- * إجباره على الرحيل إلى بلد أخرى، مصطحبًا أسرته وكل ما يقصه.

كانت هناك قبل ذلك خلافات كبرى بين حاتوسيلى وأحياوا وصلت بهما فى مرحلة ما إلى شفا إعلان الحرب، إلا أن تلك المرحلة أصبحت ماضيًا. ولو كانت سلوكيات حاتوسيلى فى ذلك الماضى عدوانية ومهينة، فإنه بررها بعدم نضج مرحلة الشباب. صحيح أنه كانت هناك مراسلات حادة لاذعة بينهما، إلا أنه بررها بسوء تفسير وفهم المبعوثين، وأن من تسببوا فى ذلك سيقدمون للمحاكمة، وإن تبين أنهم مذنبون، سيعدمون بسبب جريمتهم. كل تلك التبريرات قدمها حاتوسيلى بروح النوايا الحسنة والتعاون المشترك، على الأقل من جانبه هو.

ومضى حاتوسيلى إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد خاطب متلقى رسالته ليس فقط بصفة الأخ والنظير، بل أيضًا بصفة «ملك عظيم» وبذلك أدخله في زمرة عظماء الملوك الذين حكموا الشرق الأدنى القديم، أى أدخله إلى زمرة النخبة ونادى العظماء.. لا بد أنها كانت إشارة دبلوماسية غير مسبوقة اتصفت بالكرم والإسراف في الوصف، وبغض النظر عن وضع ملك أحياوا في عالم الدول الإغريقية الميسينية - فريما كان ملكًا هامًا من ملوكها، بل ربعا أهم ملوك تلك المنطقة - إلا أنه لم يكن يجروء على نسب نفسه إلى عظماء ملوك الشرق الأدنى - حتى لو كانوا يعون وجوده - في

إطار أنشطتهم الدبلوماسية والعسكرية والتحالفات المتبادلة،

وبإدراك الغيرة الشديدة التي كان يظهرها عظماء الملوك على تلك الصفة، وسرعتهم في نبذ أولئك الذين يسعون لنيلها دون أن تتوفر لهم أسباب العظمة، ولو كانوا قد أدركوا أن حاتوسيلي خاطب بتلك الصفة بلد غربية نائية لكانوا قد استهزأوا وسخروا من ذلك ولم يصدقوه.

الأقرب إلى الاحتمال أن حاتوسيلى برسالته تلك إلى ملك أحياوا، كان يسعى عن طريق إظهار الود الشديد إلى تأمين مناطق بلاده الغربية، بعد أن فشل في تحقيق ذلك بالقوة العسكرية، وكان التحالف مع مستقل يتطلب وجود مساواة دبلوماسية كاملة بين الطرفين. وقد أظهر حاتوسيلى ذلك للملك في الصفات التي خاطبه بها، في سياق توقه الشديد إلى الحصول على تعاونه معه، لقد ظهرت صفات المساواة والراوبط الشخصية المتينة بين المفردات الدبلوماسية التي ميزت المعاهدة التي أبرمها حاتوسيلي مع الملك رمسيس الثاني. ومن بين التداعيات الكثيرة التي ترتبت على تلك المعاهدة استتباب الأمن والاستقرار في منطقة سوريا وهي منطقة الحدود المشتركة بينهما، وأمل حاتوسيلي أن يحقق استقراراً مماثلاً في غرب الأناضول. ويجب أن ينظر إلى رسالة حاتوسيلي لنظيره ملك أحياوا من تلك الزاوية كخطوة أولى على طريق تحقيق تحالف ودي كامل، مع ضمان قيام تعاون مشترك، لإرساء استقرار ذائم في المنطقة التي تشكل حدوداً فاصلة بينهما.

هوية متلقى رسائل حاتوسيلى

سنعرض بعد ذلك ما ترتب على الرسالة السابقة، ولكن قبل ذلك علينا أن نبحث عن هوية متلقى رسائل الملك الحثيني في مملكة أحياوا، وسنبدأ بحثنا بعرض جانبين سلبيين لا يعينانا كثيرًا ولا يعول عليهما، أولهما: المحدودية الشديدة للمعلومات الواردة بالمصادر الوحيدة المتاحة لنا، من العالم الميسيني في تلك الفترة – وهي الألواح المكتوبة بالخط اللاتيني B ~

فهى لا تذكر أى أسماء لملوك ذلك العصر، والمصدر الوحيد المتاح لنا عن أسماء الملوك هو هوميروس، ويجب ألا نغفل أبداً أن هوميروس كان يكتب شعرًا لا تاريخًا، ثانيهما: في حين تعزى كتابة تلك الرسائل بكل يقين إلى حاتوسيلي، إلا أنه لا يمكننا تحديد الوقت الذي كتبت فيه بدقة أثناء عهده، وباغتراض أنه اعتلى العرش الحثيني حوالي عام 1267 ومات حوالي 1237، يمكن القول إن تلك الرسائل قد كتبت في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد على وجه التقريب.

تلك التواريخ المحتملة لكتابة الرسائل يضعها في الفترة التي دمرت فيها مدينة طروادة، والتي ينسب إليها اسم طروادة بريام، أو طروادة حرب طروادة المعروفة – بالطبع – بافتراض أن الملحمة مستمدة من حقائق ووقائع تاريخية(14)، وتدل قطع السيراميك المستخرجة من ذلك الموقع أنها تعرضت للدمار خلال السبعين عامًا الأولى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد(15)، والاحتمال الأقوى في منتصف القرن الثالث عشر، فهل يمكننا التوصل إلى أي نوع من الروابط بين وقائع ملحمة هوميروس وما ورد في رسائل الملك الحثيني حاتوسيلي، وهي الرسائل التي توصلنا إلى أنها كتبت إلى حاكم هام من حكام العالم الميسيني؟ هناك احتمال صْنيل في إمكان التوصل إلى ذلك، ذلك الاحتمال الصِّيل يتمثَّل في عبارة عارضة، ذكر فيها حاتوسيلي أنه هو ونظيره ملك أحياوا كانا على شفا حرب شناملة، بسبب الصبراع على مكان يدعى ويلوسنا، وقبال في تلك الفقرة: (والآن بعد أن توصلنا إلى اتفاق حول مسالة ويلوسنا والتي كننا نشتبك في حرب بسببها - ٥٠٠٠) كان يعلم مخاطر تجدد الحرب التي يعمل بيامارادو على إثارتها، وحتى يتجنب ذلك، حث حاتوسيلي أخاه الملك أن يقول لبيامارادو: «لقد اتفقت مع ملك الحثينيين على مشكلة ويلوسنا التي أثارت عدارة بيننا وأصبحنا أصدقاء... المرب أن تكون قرارًا مسائبًا لكليناء.

ويحتمل أن ويلوسا هي الرابط بين التسجيلات التاريخية والمعلومات الهومرية، فاسعها وموقعها يوحيان بذلك، وترتب على اكتشاف نص مزدوج اللغة في ثمانينيات القرن العشرين(16)، وأمكن التعرف على المنطقة / المدينة التي تحمل هذا الاسم في النصوص الحثينية، وتبين أنها نقع بشكل مؤكد في شمال غرب الأناضول. في منطقة يطلق عليها ترواد في الأزمنة القديمة(17)، والاسم ذاته قد يكون المقابل الحثيني لإليون الإغريقية، وهو الاسم الذي كان يستعمل بالتبادل في الفكر الكلاسيكي مع طروادة (18)، أي أن ويلوسا هي أصل طروادة الهومرية.

ويبرز اسم ويلوسا في مناسبات عديدة في النصوص الحثينية كاسم ولاية أو منطقة تابعة للنفوذ الحثيني. وبدا أنها تعرضت لاضطرابات كثيرة في منتصف القرن التالث عشر، تعرضت لغزو بنامارادو لها، وكانت سببًا رئيسيًا للحرب بين الحثينيين وملوك أحياوا، وفي عهد ابن حاتوسيلي الملك تود حاليا أزيح ملك وبلوسيا عن عرشه، ربما على أيدي أعداء من الغزاة واضطروه إلى الفرار من بلاده. ويبدو من خلال السياق الذي ذكرت فيه منطقة وبلوسنا في الرسالة المعروفة باسم تاواجالاوا تورط احيوي / مبسبيني على الأقل في جوانب من المشكلة، بالرغم من أن العدوان قد وقع بشكل ظاهر من قبل حليف أو عميل لملكة أحياوا مثل بيامارادو، الذي كان يقوم بذلك بالنيابة عن ملك أحياوا أو على الأقل بدعمه، ويفسر ذلك لماذا دفع حاتوسيلي ملك أهياوا أن يخبر بيامارادو أنهما توصلا إلى اتفاق يحلان به مشكلة ويلوسا، ومن الثابت أن الإغريق الميسينيين كان لهم علاقات تجارية قوية بطروادة، بسبب موقعها الفريد استراتنجمًا المشرف على المياه، التي يطلق عليها قدامي اليونانيين المعير الهيليني، ومن المفهوم أن ملك أحياوا - ميسينيا سمعي إلى توسيع ومد مناطق هيمنته إلى منطقة شمال غرب الأناضول التي تضم مدينة طروادة، وتقدم تلك الحقيقة سبينًا تاريخيًا معقولاً للصراعات التي نشبت غرب الأناضول بين الإغريق الدخلاء، أو من قام بذلك بالنيابة عنهم، والمالك المحلية

الخاضعة للنفوذ الحثيني.

وتتفق تلك الرؤية مع الأحداث التي تبرزها رسالة تاواجالاوا، وعبر الأجيال التالية حفظت الذاكرة الجمعية للشعوب تلك الصور من الصراع، ويبدو أن الأجيال المتنالية من الشعراء أضفت عليها لمسات عاطفية، وتجمعت في شكل ملحمي انتهي بارتباطه باسم هوميروس ككاتب لتلك الملحمة، النص الملحمي يجعل من اجاممنون ملكًا ميسينيًا وقائدًا للجيوش الإغريقية المهاجمة لطروادة.

فهل شخصية اجامعتون مجرد شخصية ابتدعها خيال الشعراء الخصب؟ ولو كان في الحقيقة تطور عن شخصية تاريخية حقيقية، لملك ميسيني ينتمي إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فإن متلقى رسائل حاتوسيلي يعد النموذج الأولى الأصلى الذي تطورت عنه شخصية أجامعنون الهومرية.

الاتصالات بين الحثينيين والعالم الميسينس

هناك سؤال أخر لابد أن نضعه في اعتبارنا، وهو ما هي أليات التواصل الكتابي التي كانت تكتب بها الرسائل بين الحثينيين وملوك أحياوا؟

لقد وجدت الرسالة التي قدمناها في موقع حفظ الرسائل مكتوبة باللغة المثينية، وهذا ما يمكن أن نتوقعه، لو كانت تلك الرسالة نسخة محفوظة للعودة إليها إذا استلزم الأمر بعد إرسال النسخة الأصلية، كانت النسخ الحثينية تنقل عن النسخ الأصلية التي كانت تكتب عادة باللغة الأكادية إذا كانت مرسلة لملوك الشرق الأدنى، ولكن ما هي اللغة التي استخدمت للكتابة إلى الملوك الميسينيين الإغريق؛ لقد دخلت الكتابة إلى العالم الميسيني على الأقل في القرن الرابع عشر قم، ولكن بقدر ما هو معروف كانت الحروف المستخدمة في الكتابة والتي يطلق عليها النمط الخطي B، والمستخدم من قبل الكتبة الميسينيين مقصور على كتابة أسماء البضائع والمستخدم من قبل الكتبة الميسينيين مقصور على كتابة أسماء البضائع

أو أعمال جرد البضائع، ولا يوجد أى دليل أنها كانت تستخدم فيما هو أكثر من ذلك، ومن الصعب أن نتخيل أن استخدام اللغة الأكادية كلغة أجنبية قد وصل إلى بلاد بعيدة جدًا عن الشرق الأدنى ولا تربطها به إلا علاقات وروابط وإهبة.

الأقرب للاحتسال أن أصل رسالة تاواجالاوا وكذلك النسخية التي حفظت عنها للاحتفاظ بها في حاتوساً قد كتبا بالحثينية، فمن كان إذن يقرأ الرسالة على متلقيها؟ لا يحتمل أبدًا أنه كان هناك كتبة ميسينيون يجيدون اللغة المسمارية المقدة، ويجيدون في الوقت ذاته لغة أخرى أو أكثر التي تكتب بها نصوص المراسلات، وتدل على ذلك قلة - إن لم تكن ندرة - المراسلات بين البلاطين الميسيني والحثيني، والغياب المطلق لأي مراسلات بين الميسينيين وأية دولة من دول الشرق الأدني. لا يوجد شك أن ملوك ميسينيا كانوا يحتفظون في خدمتهم بأشخاص يمكنهم قراءة الرسائل التي ترد من الخارج، وكذلك كتابة الردود على تلك الرسائل كما تملى عليهم وترجمتها إلى اللغة المطلوبة، ومن رسالة تاواجالاوا نعلم أن ملك أحياوا قد أرسل تعليمات مدونة إلى ملكه التابع له والمتحدث بالليوية، الملك أنبا الذي يحكم مبلاواتا وأمره بتسليم بيامارادو إلى الحثينيين، وكما عرفنا مما سبق، حث الملك الحثيني أذاه الملك المسبئي على أن يكتب إلى بيامارادو باختيارات ثلاث، يختار واحدًا منها. والأقرب إلى الاحتمال أن أية مراسلات صادرة عن ملك ميسيني كانت تكتب إما بالحثينية أو بالليوبة، وهي لغة وثيقة الصلة بالحثينية، وكانت اللغة الأوسم انتشاراً في غرب الأناضول، وكانت الصلات الوثيقة التي تربط ملوك أحياوا بشعوب غرب الأناضول قد استلزمت وجود بعض أبناء تلك اللغة لذي ملوك أحياوا، ليعملوا كمترجمين ومفسرين، بما فيهم بعضهم الذين تم تدريبهم ككتبة، ولا يوجد شك أنه كان هناك ميسينيون إغريق الذين اتقنوا اللغة الليوية، ويحتمل أيضًا الحثينية، إلا أن عب، صياغة الرسائل كان يقم على عاتق كتبة مستقدمين من الأناضول، الذبن بتقنون اللبوية والحثينية تحدثًا وكتابة، ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كل مراسلات الملوك الحثينيين إلى الملوك الخاضعين لهم بغرب الأناضول كانت تكتب بالحثينية، كما كانت هي اللغة التي كتبوا بها إلى ملوك أحياوا.

ولا يوجد لدينا أى دليل إن كان حاتوسيلى قد تلقى أى رد على رسالته التى صبيغت بعناية فائقة إلى ملك أحياوا، وبالرغم من أننا لم نسمع بعد ذلك عن بيامارادو، إلا أن المحتمل جداً أنه داوم على شن الغارات على المناطق الخاضعة للملك الحثيني، كلما كان قادراً على ذلك.

وورث ابن حاتوسيلي وخليفته تودحاليا الرابع عن أبيه كثيراً من المشاكل المزمنة التي لم تحل في غرب الأناضول.

نَهَايَةُ التَّدِخُلُ التَّحِيوِسُ / الميسينِسُ فِس غَرِبِ الْأَنَاضُولُ

ظلت منطقة ومدينة ويلوسا تبرز في مراسلات تودهاليا الرابع، ابن هاتوسيلي، وكانت هذه المرة في رسالة مرسلة من تودهاليا إلى أحد الملك الخاضعين له بغرب الأناضول، ولاحتواء الرسالة على تحديد لحدود ميلاواتا وأرضها أطلق عليها اسم رسالة ميلاواتا، ولسوء الحظ عثر على تلك الرسالة في حالة سيئة جداً، وبذلك قلت المعلومات التي يمكن استخراجها منها، إلا أن اكتشاف جزء آخر من الرسالة في بداية ثمانينيات القرن العشرين مكننا من إعادة تركيب بعض أجزائها (19)، والمعلومات الدقيقة ما تزال غير واضحة، ولكن يتضح منها أن الحثينيين كانوا في تلك الفترة قد استعادوا سيطرتهم على ميلاواتا، بدعم من الذي كانت الرسالة موجهة إليه، وأن كل منطقتها قد وضعت تحت سيطرة ملكها المحلي بتكليف من تودحاليا.

واسم ملك ميلاواتا مفقود، إلا أننا يمكننا أن نخمن هويته. اقترح الباحثون احتمالات شتى، أما أحدث الاحتمالات وأكثرها قبولاً أن ذلك لللك يدعى تاركاسناوا، الذي يبرز في نقش منحوت يصدحب نص بالهيروغليفية في ممر جبلي اسمه كارابيل على مبعدة 28 كيلو متراً من

مدينة أزمير(20)، كان تاركاسناوا حاكمًا على مملكة ميرا التى كانت فى ذلك الوقت أكبر وأقوى الممالك الخاضعة للحكم الحثينى بغرب الأناضول، ويبدو من رسالة ميلاواتا أن تورحاليا كان قد عين متلقى الرسالة كملك بصلاحيات كبرى على كل غرب الأناضول، وكان تاركاسناوا أفضل من يسند إليه مثل ذلك المنصب وبمثل تلك الصلاحيات، ومن الأجزاء المجمعة للرسالة نعلم أن والمو ملك ويلوسا كان قد نحى عن عرشه وهرب من مملكته، إلا أنه كان فى ذلك الوقت فى حماية متلقى رسالة ميلاواتا، التى طلب تورحاليا فيها إرسال والمو إلى العاصمة حاتوسا، كخطوة تمهيدية لإرجاعه لاستعادة عرشه المفقود، كانت الرسالة قد أرسلت بصحبة المبعوث كيوالانازاتى، الذى اصطحب معه وثائق تثبت أحقية والمو بعرش ويلوسا.

لو كان تاركانساوا هو فعلاً متلقى رسالة ميلاواتا، فإن السلطات الواسعة التى أسندت إليه، بالإضافة إلى سلطاته كملك على ميرا كانت تخول له الاستحواذ على سلطات عظمى في غرب الأناضول، تمتد على مساحة من ميلاواتا حتى مملكة ويلوسا في أقصى الحدود الشمالية الغربية.

وهي سلطات غير مسبوقة لأى ملك خاضع، وكانت تماثل سلطة نائب الملك، ويبدو أن تودحاليا كان قد غير السياسات السابقة تغييراً جذريا فيما يخص غرب الأناضول، وكان إسناده سلطات أوسع وأشمل إلى حاكم محلى، بغرض إحراز استقرار دائم في المنطقة، مع الاحتفاظ بها تحت الهيمنة الحثينية، بأقل تدخل من جانبه.

وتحتوى رسالة تودحاليا على آخر إشارة إلى ملك أحياوا أو مملكة أحياوا، ففي الوقت الذي كتبت فيه تلك الرسالة، كانت ميلاواتا تذكر على أنها خاضعة لأحياوا، أما في رسالة ميلاواتا ذاتها فإن الحال لم يعد كذلك، فالرسالة تتكلم عن قلاقل واضطرابات في المنطقة، وتأسيس سلطة جديدة بها مدعومة من قبل الحثينيين، ويبدو أن الاضطرابات كانت قد

بدأت بعد محاولة حاتوسيلى التوصل إلى حاول ودية مع ملك أحياوا حول السيادة على غرب الأناضول، وأدى ذلك إلى إصرار ابنه وخليفته تودحاليا إلى بذل جهود ناجحة، لتخليص المنطقة بحسم وللأبد من التدخل الإغريقي، ويبدو أن الجانب الأكبر من النجاح في تحقيق ذلك يعود إلى ذلك الرجل الذي كوفئ بمنحه سيادة أكبر على تلك المنطقة، وافترضنا أنه ملك مملكة ميراتاركاسناوا، الرجل الذي مازالت صورته محفورة على الممر الجبلي في منطقة كارابيل.

وهناك هامش مثير لابد من إضافته، ففي نسخة مسودة معاهدة تودحاليا التي عقدها مع شوشجاميوا، أحد الملوك الخاضعين في منطقة سوريا، هناك قائمة بأسماء الملوك الذين اعتبرهم تودحاليا على درجة مساوية لعظمته، وهم ملك مصر، وبابل، وأشور (21).

وكان اسم ملك أحياوا مذكوراً في المسودة، إلا أنه مشطوب عليه، فكيف نفسر ذلك؟ حقيقة أن اسمه قد كتب في القائمة يدل على أنه حتى كتابتها كان ملك أحياوا، يعتبر أحد عظماء الملوك في عالم العصر البرونزي المتأخر، على الأقل من قبل الحثينيين، وكانت تلك الصفة قد أصبغت عليه، ربما من قبيل العمل الدبلوماسي، ولتأثيره البالغ على أمن منطقة غرب الأناضول، انطلاقاً من قاعدته القوية في مدينة ميلاواتا، ولكن بمجرد أن فقد تلك القاعدة لم يعد قوة يمكن الاعتداد بها، ولذلك تم شطب اسمه، وبذلك أعلن عن خروجه الصامت من كل سجلات منطقة الشرق الأدنى في العصر الرونزي المتأخر.

13

أورحي – تيشوب المراوغ

مات الملك الحثينى ميواتاللى الثانى، ولم يكن له وريث ذكر من زوجته الرسمية، وبسبب ذلك انتقل حق وراثة العرش إلى ابنه من زوجة ثانوية اسمها بابورزى بالحثينية، وبالرغم من أن الوريث لم يكن إلا ابناً من زوجة ثانوية، إلا أنه كان ملائمًا تمامًا لتبوأ العرش، طبقًا للقواعد التى تحكم ارتقاء العرش الحثيني، وقد صادفنا شخصيته في أجزاء سابقة من هذا الكتاب وكان اسمه أورجى – تيشوب، وبعد تبوئه سدة الملك، أسمى نفسه اسمًا ملكيًا هو مورسيلي، وهو من أعظم الأسماء في السلالة الحاكمة، وكان أخر من تسمّى به جده لأبيه الملك مورسيلي الثاني، كان ميواتاللي قد أعلن بوضوح قبل موته أن ابنه أورجى – تيشوب هو من يخلفه على عرش البلاد، في البداية، حظى الملك الشاب بمساندة عمه عاتوسيلي، وكان في ذلك الوقت أقوى شخصية في الإمبراطورية الحثينية، وكان ها نفي نلك الوقت أقوى شخصية في الإمبراطورية الحثينية، ولان ها العرش(1).

الخلع والنغس

في البداية عمل ابن الأخ والعم في تناسق وتناغم، إلا أن قلق أورحى

- تيشوب بدأ يتزايد من السلطات والصلاحيات الواسعة التي كان أبوه
قد أسندها إلى عمه، ربما رأى في ذلك تهديدًا خطيرًا لسلطته كملك.
وليس من المستبعد أيضًا أن يكون حاتوسيلي قد سعى لاستغلال صغر
سن ابن أخيه وعدم خبرته لزيادة سيطرته ونفوذه على المملكة.

وراح التوتر يزداد ويتصاعد بينهما، وعمد أورحى -- تيشوب إلى إضعاف نفوذ عمه بإقصائه عن بعض المناصب، وظل حاتوسيلي وفيًا لابن

أخبه، أو تظاهر بذلك، احترامًا لأخبه الميت والتزامًا منه بالسلوك القويم. كان على أي حال مازال مسيطرًا على النصف الشمالي للمملكة، والذي كان يحكمه حكمًا فعليًا كملك عليه من مدينة هاكبيس، كما كانت مدينة خيريك، وهي من أقدس المدن الدينية لدى الحثينيين أيضًا تحت سيطرته.

وظل الصال على ذلك إلى أن صاول أورحى – تيسسوب أن ينزع منه المدينتين، فانفجر الصراع بينهما بشكل علنى، أعلن حاتوسيلى الحرب على ابن أخيه، وقال إن الآلهة بيدها تحديد نتائج الصراع، وفي صراع دموى لم يدم طويلاً ظلت فيه رعية أورحى – تيسوب داخل البلاد وفي المناطق الخاصعة وفية الملك الشرعى، إلا أنه فقد تأييد الجل الأكبر من النبلاء، وأدى ذلك بالإضافة إلى فشله في كسب تأييد بعض المناطق الحيوية إلى خسارته لعرشه ووجد نفسه محاصراً في أخر بقعة له الحيوية إلى خسارته لعرشه ووجد المقدسة، عند المجرى الأعلى الفر مارسانتيا.

ومن هناك نقل مكبلاً بالأصفاد إلى العاصمة حاتوسيا. تبوأ حاتوسيا، في حاتوسيلي العرش الحثيثي، وبذلك انتقل الخط الوراثي إلى أسرته، في حين يحرم أبناء أورحي - تيشوب من حقهم الشرعي في وراثة العرش.

لم يكن لدى المطالبين والساعين إلى العرش أى غضاضة فى إقصاء شاغل العرش ولو باغتياله، إلا أنهم كانوا فى موقف أكثر حساسية تجاه أورحى – تيشوب بصفته الملك الشرعى من جهة، ولكونه ابن أخى الملك الجديد من جهة ثانية، وكان البديل العملى الوحيد نفيه وتقييد حرية انتقاله فى مكان بعيد عن العاصمة وعن مؤيديه؛ لتثبيط عزيمته عن محاولة استرداد عرضه. واختار حاتوسيلى أن ينفيه إلى منطقة نوحاس فى سوريا، وعينه حاكمًا على بضع مدن فى تلك المنطقة، ورجح أنه بإسناد تلك الوظائف الإدارية إليه، سيجعل تحركاته واضحة، ويشتت تركيزه عن محاولة التفكير فى استعادة عرشه، كان لتعيينه حاكمًا على بضعة، مدن فى توحاس بسوريا فائدة أخرى إذ أن ذلك يجعله خاضعًا لملكين آخرين

بسوريا، خاصَعين النفوذ الحثيني، وأوصاهما الملك بألا يغفلا عنه لحظة ولحدة، وبعراقبة أي أنشطة يقوم بها.

ومهما كانت وجهة نظر حاتوسيلي في اختيار تلك المنطقة لينفي ابن أخيه إليها، تبين أن ذلك الاختيار كان اختيارًا كارثيًا. لم يكن لدى أورحى - تيشوب أقل نية للاستسلام لمبيره، وكان يتحين أقل فرمنة بنال فيها دعمًا اقضيته في استعادة حقه الشرعي في العرش، وأجرى مفاوضات سرية مع مفوضين بابليين عن ملكهم كاداشمان – تورجي، وأعدوا الترتيبات لزيارة يقوم بها أورحى - تيشوب إلى بابل(2)، وكتب إلى شالما نمس الأول الذي أصبح ملكًا على أشنور بعد استبلاء حاتوسيلي على العرش الحثيني بفترة قصيرة(3)، ولم تتوفر لدينا أية معلومات عن الموضوعات التي فأوض حولها البابليين، ولا محتوى رسالته إلى شالمانمبر، ولكنه بشكل يقيني كان بيحث عن دعم من كلا الملكين، كجزء من سبعيه إلى نيل معونة خارجية في مساعيه لاستعادة عرشه(4). ويدل مخول البابليين في تلك المفاوضيات على أن ملك بابل لم يكن قد قرر حتى تلك اللحظة إن كان يعترف بحاتوسيلي ملكًا على الحثينيين أم لا، وكان أورجي - تيشوب يرى أنه بإمكانه الاعتماد مبدئيًا على دعم الأشوريين وتأييدهم، خاصة بعد رسالة شالمًا نصر الأشوري، الموبخة لحاتوسيلي، والتي قال له فيها إنه ليس حتى تلك اللحظة من عظماء الملوك، وإنه مجرد بديل لملك عظيم.

ولحسن حظ حاتوسيلى، نمى إلى علمه أن ابن أخيه يجرى محادثات سرية مع البابليين، ويحتمل أيضًا نبأ مراسلاته مع الملك الآشورى. وسرعان ما اتخذ قرارًا بنفيه إلى منطقة «على ساحل البحر» أو «ورا» البحر»، وكلا الترجمتين يصلحان للنص الحثينى «تا – بو – سا»، فلو كانت الأولى هى الأصح، فلابد أنه نقله إلى منطقة على ساحل الأناضول خاضعة للحكم الحثيني، ولو كانت الثانية هى الأصح، فلا بد أنها كانت ألاسيا بقبرص، بالرغم من أنه من المؤكد أن الحثينيين لم يكن لهم أى

نفوذ على جزيرة قبرص في ذلك الوقت.

الفرار إلى مصر

ومهما كان الموضع الجديد الذي نفي إليه أورحي – تيشوب، لم يبق به طويلاً، فقد تمكن من الفرار في أول فرصة سنحت له، وظهر في مصر، أصبح الآن بعيدًا عن متناول عمه، أو هذا ما أعتقده، وكتب حاتوسيلي إلى رمسيس يطلب منه إبعاده عن مصر وطرده منها، ولم يستجب رمسيس، فكتب حاتوسيلي إلى كاداشمان – تورجو ملك بابل يشتكي إليه عدم تعاون رمسيس، وأظهر كاداشمان – تورجو تعاطفًا مع حاتوسيلي، كان في ذلك الوقت قد قرر أن يعترف بمغتصب العرش الحثيني، ووعده على الأقل بقطع علاقته الدبلوماسية مع الفرعون علامة على تضامنه، وهي معلومات مؤكدة توصلنا إليها من نص الرسالة الشهيرة، التي أرسلها حاتوسيلي بعد ذلك بأعوام طويلة إلى ابن كاداشمان – تورجو وخليفته كاداشمان – تورجو وخليفته كاداشمان – تورجو وخليفته

«عدوى الذى قر إلى بلدة آخرى لجاً إلى ملك مصر. ولما كتبت إلى ملك مصر: «ابعث بعدوى إلى»، لم يفعل ذلك، لذلك أصبحت أنا وملك مصر على عداء لبعضنا، وكتبت إلى أبيك: «ملك مصر يعاون عدوى». لذلك منع أبوك مبعوثيه من التوجه إلى مصره(5).

وبالرغم من أن اسم «العدو» الذي لجأ إلى مصير غير مذكور في تلك الرسالة، إلا أنه لا يوجد شك أنه كان أورجى – تيشوب.

إلى أى مدى ذهب حاتوسيلى فى محاولاته استعادة ابن أخيه الهارب؟ إن كلمات رسالته التى قال فيها: «أصبحت أنا وملك مصر على عداء لبعضنا»، أدت ببابل إلى إدراك أن الموقف بين الحثينيين ومصر وصل إلى مرحلة حرجة تصل إلى حالة الحرب، وكتب كاداشمان – تورجر فى حينها إلى حاتوسيلى قائلاً له: «إذا توجهت جيوشك إلى مصر سوف أتوجه معك. إذا هاجمت مصر، سأبعث إليك بكل ما هو متاح عندى من مشاة

وراكبي عجلات (6)، لقد تكرر ذلك المشهد أكثر من مرة في ماضى تلك المنطقة في حالة رفض أي ملك أجنبي إعادة فارين من الحثينيين، إذ كان يؤدى دومًا إلى إعلان الحرب، إلا أنه يبدو أن كاداشمان -- تورجو في تلك المرة كان يبالغ في رد فعله، فقد كان حاتوسيلي ملتزمًا تمام الالتزام بما كتبه (7)، فبعد موقعة قادش، كانت احتمالات نشوب حرب عظمى بين الحثينيين ومصر احتمالات منعدمة (بالرغم من أن رمسيس بنفسه كان قد اتهم حاتوسيلي بالقيام ببعض التحرشات العسكرية: ارجع إلى الفصل الرابع)، إلا أن حاتوسيلي وجد من الملائم له أن يذكّر كاداشمان - إنليل بدعم أبيه، وأن ذلك الدعم لابد أن يستمر من الابن الذي جلس على عرش بالل بعد وفاة أبيه.

على كل الأحوال لا يوجد أي شك في أن أورحي - تيشوب كان قد فر إلى منصبر وأنه قنضني زمنًا بها، والسنؤال الذي يطرح نفسته في هذا الموضع هو: متى وقع هذا الفرار - قبل أو بعد المعاهدة الشبهيرة التي عقدها عمه مم رمسيس؟ اختلف الباحثون في تحديد ذلك، فلا يوجد دليل قطعي على تحديد وقوع الفرار إلى مصبر قبل المعاهدة أم بعدها، إلا أن الأقرب إلى الاحتمال أن أورحي - تيشوب لجأ إلى مصر في فترة توتر. العلاقات بين الجثيئيين ومصر التي سبقت التوصل إلى معاهدة السلام، أي قبل عام 1259، خاصة أن المعاهدة كانت تحتوي على بنود تنص على تسليم وإعادة الفارين من كل طرف إلى الطرف الآخار، أو كانت وأقعة الفرار إلى مصر قد حدثت بعد ترقيع المعاهدة، لكان أورحى - تيشوب لم بجازف بالفرار إلى مصدر، مع علمه بأن هناك بنودًا تنص على إعادة اللاجئين السياسيين إلى الطرف الذي فرَّ منه، أما وصول أورحي -تيشوب قبل توقيع المعاهدة، فإنه كان يتيح لرمسيس فرصة التعلل بأن بنودها لا تنطبق على ما هو سابق عليها، وبافتراض أن الفرعون كانت لديه إرادة حقيقية في للحافظة على سبلام حقيقي ودائم مع الملك الحثيني، فمن الصعب جدًا الاعتقاد أنه كان يقبل بلجوء أورحى – تيشوب إلى

مصر بعد توقيع المعاهدة.

وبعيدًا عن الزمن الذي وصل فيه أورجي – تيشوب إلى مصر، كان مجرد وجوده بها يسبب انزعاجًا شديدًا لعمه. لم يكن حاتوسيلي بشعر بأي أمان على عرشه في الوقت الذي يظل فيه من أزيح عن العرش حراً ا طليقًا بعيداً عن يده، ويثير ذلك بدوره سؤالاً عن المدة التي بقي فيها أورحى – تيشوب بمصر في ضيافة فرعون مصر، الشيء المؤكد أنه بعد أنْ قضي زمنًا بمصر توجه بعد ذلك إلى مكان غير معروف، ولا يوجد شك أن الفرعون احتفظ به الزمن الكافي ليستخلص منه كل المعلومات التي أراد استخلاصها منه عن بلاده التي نفي منها، وعن الرجل الذي اغتصب عرشه وعن العائلة الملكية الحثيثية، لم بكن من المكن أن تتاح فرصة المصول على مصدر استخباراتي أفضل من أورجي – تيشوب عن كل الشئون الحثينية، زود أورهي - تيشوب فرعون مصر بمعلومات غزيرة عن مملكة أخيه الملك المثيني، معلومات تم تخزينها للرجوع إليها عند الضرورة، ومن المحتمل جدًا أن أورحى - تيشوب هو الذي أعلم الفرعون بسن عمته - أخت حاتوسيلي - ماسانوتزي، كما أبلغ مضيفه المصري بمعلومات مفصلة عن زوجة حاتوسيلي القوية بودوحيبا وقوة نفوذها في مملكة أخيه، ومن أهمية تلك المعلومات كان الفرعون يتراسل مع الملك وزوجته، لا مع الملك الحثيني وحده.

رحيل أوردس – تيشوب عن مصر

جاء وقت انعدمت فيه أية فائدة من وجود أورحى - تيشوب بمصر، ووجد رمسيس أن مشاكل بقائه بمصر أكثر من الفوائد، كذلك، بدأ أورحى -- تيشوب يوقن أن احتمالات دعم الفرعون له لاستعادة عرشه أصبحت معدومة لذلك قرر أن يغادر مصر في أقرب فرصة، بمعرفة ورضاء مضيفه أو بدونهما، فإلى أين توجه؟ هناك لغز يحيط بالأماكن التي توجه إليها بعد مغادرته أرض مصر، وتظهر الخطابات المتبادلة بين

البلاطين الملكيين حول أورحى – تيشوب مجرى الأحداث في ذلك الوقت، كان حاتوسيلي يطالب قبل ذلك بطرد أورحى – تيشوب من مصر، وكان رمسيس يرفض، بعد ذلك، بدا من الواضح أن أورحى – تيشوب لم يعد بمصر، وأصبح حاتوسيلي يطالب الفرعون بالبحث عنه وإرجاعه:

ديتوجب على الملك العظيم، ملك مصر، تكليف مشاتة وراكبي عجلاته ببذل كل جهد، وألا تضن بذهبك وفضتك ولا خيلك ولا نحاسك ولا أربيتك حتى تعيد أورحى - تيشوب إلى مصر، أن تسمح له أن يصير قويًا أيشن المرب على بلاد المثنيين،(8).

كان يحث ملك مصر ألا يضن بجهد أو مال في العثور على أورحى تيشوب والتحفظ عليه، ورشوة مؤيديه إن لزم الأمر(9)، كان حاتوسيلي يوجه نداءً رسميًا الفرعون طالبًا منه تعاونه، وعلى ضوء التزاماته ببنود المعاهدة، كان من المنتظر من رمسيس أن يتخذ موقفًا مضادًا لأورحى تيشوب، إذا أظهر تهديدًا عسكريًا على مملكة شريك المعاهدة، خاصة إذا أظهر أورحى – تيشوب ذلك التهديد من مناطق خاضعة النفوذ المصرى. أطهر أورحى – تيشوب ذلك التهديد من مناطق خاضعة النفوذ المصرى. لم يعد حاتوسيلي مصراً على إعادته إليه، فقد أثبت أنه كان أشد خطراً ثناء تواجده في البلاد الحثينية أكثر مما كان عليه بعد هربه منها. ولم يكن وادى النيل يعد مكانًا غير ملائم لبقائه هناك، وبعد أن اعترف رمسيس بشرعية حاتوسيلي كملك عظيم وارتباطهما بمعاهدة سلام، أدرك العم أن هناك أماكن أخرى قد تكون أسوأ وأخطر من مصر في حال وجود أورحى – تيشوب بها.

كان أهم هدف لديه أن يلقى القبض على ابن أخيه قبل أى شىء آخر، ولم يكن ذلك هدفًا سهل التحقيق، وكتبت بودوحيبا إلى رمسيس تذكره بما طلبه زوجها وتحرضه هى الأخرى ألا يدخر جهدًا ولا مالاً فى القبض على الهارب، وكان طلبها ذاك ينطلق من فرضية أن أورحى - تيشوب كان مازال فى أرض مصرية أو فى مناطق خاضعة للنقوذ المصرى، وربما فى جنوب سوريا. وإن كانت هى وزوجها يؤمنان بذلك فعلاً، فإن رد رمسيس

عليهما كان له وقع الصناعقة. قال لهما في رده أنه كان يتمنى أن يكون بقدرته تحقيق مطلبهما، إلا أن كل جهوده – لسوء الحظ – لم تسفر عن شيء، والسبب أن أورحى – تيشوب لم يعد موجودًا بأرض مصبر ولا بالبلاد الخاضعة لنفوذه، وأنه عاد إلى بلاد حاتوسيلي، والأدهى من ذلك، كما قال لهما رمسيس، أنه كان قد قبض عليه على يد ابن الملك حاتوسيلي، إلا أنه تمكن من الفرار بعد أن رشا الحراس.

كان هذا ما ادعاه رمسيس في رسائل مزدوجة كتبها لحاتوسيلي وبودوحيبا(10)، ولسوء الحظ أصبح النصان في حالة سيئة عند نقاط هامة من حكاية الفرعون، إلا أنه يمكن إعادة تركيب تلك الأحداث المفقودة أو التالفة من النص في الشكل التالي: يبدو أن حاتوسيلي كان قد أمر ابنه الأمير نيريكايلي بالتعاون مع الفرعون في اقتفاء أثر أورحي تيشوب، وكان نيريكايلي متزوجًا من ابنة ملك عمورو، وكان ممثلاً لأبيه في سوريا. وضلل أورحي – تيشوب الباحثين عنه، وتوجه إلى مناطق خاضعة للحثينيين، وهناك سقط في أيدي ابن عمه نيريكايلي، ولكن لحسن حظ الأسير ، مات نيريكايلي حتى قبل أن يتمكن من إبلاغ والده بإلقائه القبض على أورحي – تيشوب، وتمكن أورحي – تيشوب من رشوة الحراس فأطلقوا سراحه، ومرة أخرى أصبح الهارب مطلق السراح(11).

واحتج رمسيس قائلاً: «إنه سبق له إبلاغ البلاط الحثيني بكل تلك التطورات، وأنه لم يدخر جهداً ولا مالاً في سعيه للقبض على أورحى -- تيشوب، استجابة لمطلب أخيه الملك الحثيني، ولكن الهارب خرج من البلاد التي يسيطر عليها الفرعون، ولذلك لم يتمكن رمسيس من إعادته إلى مصر»(12)، وأنه سبق أن شرح ذلك مرات كثيرة لأخيه الملك، وأن مصر مازالت مكاناً متاحاً لنفي أورحى -- تيشوب، إلا أن ذلك يتوقف على قدرة حاتوسيلي في العثور على الهارب، وترتيب أمر نقله إلى مصر.

وذهب رمسيس إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد راح يقترح على حاتوسيلي الأماكن المتوقع أن يعثر على أورحى - تيشوب بها والخاضعة للنفوذ الحثيني، ربما كان في شمال سوريا، في حلب أوقادش، وربما كان في جنوب الأناضول، في منطقة كيزوادنا.

ورفض حاتوسيلى كل تلك الافتراضات ورد فى تأكيد غاضب «من غير المعقول أن يذهب إلى قادش، ولا أن يذهب إلى حلب، ولا إلى كيزوادنا»، وأكمل حاتوسيلى معلنًا أن الهارب لو كان قد تواجد فى أى من تلك المناطق لكان رعية الملك المخلصون قد سلموه إليه، وكانت إجابة الفرعون «لا تثق برعيتك» (13).

وبعد أن قام بكل ما في وسعه (أو أن هذا ما أظهره)، أحس رمسيس بالأسي لعدم تصديق أخيه الملك له، وتقمص دور الجريح البريء.

وكتب مرة أخرى إلى حاتوسيلى فى احتجاج؛ لأنه لا يعرف المكان الذى فر إليه أورحى - تيشوب: «انظر، أنا لا أفهم ما تكتبه حول هذا الموضوع الخاص بأورحى - تيشوب، وذلك الكلام الكثير الذى تكتبه لا يستحق مجرد الاستماع إليه، أنت تداوم على القول: «احضره إلى مصر»، ولكنى لا أعرف فعلاً أين هو، لقد طار كما يطير العمنفور (14).

لم يكن ما أثار غضب حاتوسيلى يرجع إلى عدم معرفة رمسيس بمكان أورحى - تبشوب، بقدر ما أثار غيظه أن رمسيس أخبره بوجود أورحى - تيشوب داخل بلاده هو وأنه لا يعرف بذلك، أى أن من يبحث عنه أصبح في عقر داره وهو لا يدرى، وأن ذلك يعنى أن رعاياه كانوا يعاونون خصمه ويتسترون عليه، ويرفضون تسليمه للملك.

وكونه يعرف ذلك من ملك أجنبي، حتى لو كان أخًا ملكيًا يكن له الحب والود، فقد كان ذلك مدعاة لضيقه وحرجه، وكان رمسيس أيضًا يدرك ذلك، وكان تظاهره بالبراءة يخفى دهاءً ومكرًا.

لغز أماكن اختفاء أورجس تيشوب

مازال التاريخ المؤكد لبعض جوانب تلك الأحداث ينقصه الدليل الموثق، فلا نعرف بدقة متى فر أورحى تيشوب إلى مصر ولا متى رحل عنها. ادعت بودوحيبا زوجة حاتوسيلى في مسودة رسالتها الشهيرة إلى رمسيس أنه كان مازال ضيفًا على فرعون مصر، خلال كل الفترة التى جرت فيها مفاوضات زواج الفرعون بإحدى بنات حاتوسيلى ويودوحيبا، وحيث إن ذلك الزواج تم حين كان رمسيس في الرابعة والثلاثين من عمره (حوالي 1246)، فإن أورحى – تيشوب – طبقًا لهذا التاريخ – كان في مصر بعد إزاحته عن عرشه بعشرين عامًا، أو نحو ذلك هذا إذا صدق اتهام بودوحيبا، ولكن كما لاحظنا في الفصل السادس، يمكننا اعتبار أن ما كتبته لم يكن إلا من قبيل رد الفعل على ادعاء رمسيس المستمر أن أورحى – تيشوب لم يعد له وجود بمصر، وكانت أيضًا غاضبة من شكاوى الأخ الملكي (رمسيس) من طول زمن إعداد العروس للسفر إلى مصر.

لقد بررت تأخر العروس، وقالت للعريس المتعجل أن يتأكد من صدق الأسباب التي تذكرها من أورحى – تيشوب، الذي مازال يعيش عنده، وبالتأكيد كانت تسخر، ولو أخذنا بعين الاعتبار السياق الذي ذكرت فيه تلك العبارة، لابد أن نكون على أشد الحذر من استخدامها كمعلومة تاريخية مؤكدة. وبالفعل، هناك من الأسباب ما يجعلنا نؤكد أن رمسيس كان يذكر الحقيقة، وهي أن أورحي – تيشوب لم يعد موجوداً بمصر (15). فأين كان إذن؟ قليل من البحث والتحرى قد يفضي بنا إلى إجابة ذلك السؤال، فقد كشف في منطقة قونيا بجنوب تركيا عن مجموعة من النقوش النصية الهيروغليفية، في مقبرة على قمة جبل كاراداج، وفي موقع اسمه

كيزيلداج عثر على بقايا مدينة قديمة (16)، والنصوص الهيروغليفية التى كتبت فى الفترة التالية مباشرة لانهيار الإمبراطورية الحثينية، كتبها رجل يدعى حرتابو، والذى يصحب اسمه فى النقش علاقة «ملك عظيم»، ذكر لنا حرتابو فى ذلك النص اسم أبيه وكان مورسيلى الذى أردف اسمه هو الآخر بعلامة ملك عظيم، وظهر الأب والابن مرة أخرى فى نصوص أخرى اكتشفت على تل اسمه بورونكايا (ويقع على بعد 18 كيلو متراً إلى

الشمال الشرقى من مدينة أكسراي الحالية)، وظهرا في هذه النصوص أيضًا بصفة ملوك عظماء(17)، واسم مورسيلي معروف لنا بالطبع، فهل للظهور، في تلك النقوش أي دلالة لانتماء عائلي بين حرابو والعائلة المالكة في حاتوسا؟ من المكن جدًا بالطبع، لقد افترض أن حرابو وأباه كانا ينحدران من نسل كورونتا، وكان كورونتا شقيقًا لأورحي – تيشوب، والحاكم السابق لتارحونتاسا، وهي مملكة تأسست في جنوب الأناضول على أيدي الملك ميواتاللي في بدليات القرن الثالث عشر(18)، وبذلك يكون أبا حرثابو قد ورث عن العائلة المالكة السابقة أحد أهم أسمائها.

ملک فی المنفی؟

وهناك احتمال أخر، فكما لاحظنا، فقد نسبت نصوص حرتابو الهيروغليفية إلى زمن تال استقوط الإمبراطورية الحثينية في القرن الثاني عشر، ومبدئيًا على ضوء أنه لا يمكن لحاكم محلى في الأناضول أن يصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، في الوقت الذي كانت فيه العاصمة الحثينية محتلة، يرد الباحث سنجر – بعكس ذلك – بأن تلك النصوص تنتعي بشكل أدق بأدلة زمنية ولغوية إلى زمن سابق على سقوط العاصمة حاتوسا في أيدى الغزاة (19).

وعلى ضوء ذلك، لو صح افتراض سنجر، فإن حرتابو وأباه ينتميان إلى العصر البرونزى المتأخر، ويعنى ذلك أن ملكين متتاليين كانا يتمتعان بصفة ملك عظيم كانا موجودين بجنوب الأناضول، في الوقت نفسه الذي كان يوجد فيه ملك آخر عظيم في العاصمة حاتوسا على العرش الحثيني. فهل يعقل ذلك تاريخيًا؟

نعلم من خلال أختام الرسائل أن أورحى - تيشوب أطلق على نفسه اسم مورسيلي، بمجرد أن اعتلى العرش الحثيني قبل أن يطيح به عمه حاتوسيلي، وعلى وجه الدقة فإن اسمه أصبح مورسيلي الثالث، غير أن حاتوسيلي لم يسم ابن أخيه أبدًا باسم التتويج على العرش، ومن الواضح

أن ذلك يعود إلى رفضه الاعتراف بالصفة الشرعية لابن أخيه بعد أن اغتصب عرشه، كان مغتصب العرش يطلق عليه اسمه الأول، أورحى -تيشوب، وكان آخرون يشيرون إليه باسمه الأول، ومنهم رمسيس بعد أن أطبح به عن العرش الحثيني، غير أن أورجي – تيشوب لم يتخل أبدًا عن طموحه لاستعادة عرشه، وكان لديه من الأبناء ما يجعله مصرًا على استمرار خط وراثة العرش في نسله(20). والنتيجة لما أسلفنا في شرجه قد تبدو واضحة الآن، وهي أن أبا حرتابو، مورسيلي المذكور في النقش الهيروغليفي، لم يكن إلا الملك الذي أطيح به عن عرشه، أي أورحي -تيشوب(21)، ،هي حقيقة لا تقبل الشك أنه لا يوجد ملك محلي في جميع أرجاء الإمبراطورية المثينية كان يجرق على وصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، في الوقت الذي يشغل فيه العرش الحثيني ملك عظيم أخر (22)، إلا أن ذلك لا ينطبق على من كان يؤمن أنه مساحب الحق الشرعي في العرش، والذي ظل مصراً على استعادته، وفي الافتراضيات التي افترضيها رمسيس على حاتوسيلي بالأماكن التي يحتمل تواجد أورهي – تيشوب بها بعد فراره من مصر، كان رمسيس أقرب كثيرًا إلى الحقيقة، فقد كان أورجي - تيشوب قد توجه فعلاً إلى داخل البلاد الحثينية.

وبمجرد أن أصبح داخل البلاد، بدأ في جمع شمل مؤيديه من شمال سوريا وجنوب الأناضول، وأدت جمهوده إلى تكوين مملكة بالمنفي امتدت على مساحة معقولة من جنوب الأناضول، كانت مملكة تارحوبتاسا جزءًا منها، وهي المملكة التي كان يحكمها كورونتا شقيق أورحي – تيشوب، وبمجرد أن استقر في تلك المملكة الوليدة، بدأ يستخدم السمه الملكي مورسيلي الثالث، ووصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، كتأكيد لحقه وكتحد لمغتصب عرشه في حاتوسا، ذلك العرش الذي لم يغفل لحظة عن أحقيته لم يعشى حرتابو على خطى أبيه من بعده.

واجه آخر ملوك الحثينيين تمرداً كبيراً من جنوب الأناضول، ووجد نفسه مضطراً لتسبير حملات عسكرية إلى تلك المنطقة التي ظهرت

كمنطقة قلاقل واضطرابات فى آخر أعوام الملكة الحثينية، ومن الممكن أن يكون أورحى – تيشوب وابنه حرتابو قد أشعلا نيران التمرد في جنوب الأناضول ضد الإمبراطورية المتداعية، لاستعادة حقهم فى العرش، الذى لم يتمكنا من استعادته أبدًا. بل إن المملكة التي أسسها أورحى – تيشوب في جنوب الأناضول والتي ورثها عنه ابنه حرتابو كتب عليها هى الأخرى أن تختفى وتنهار بسرعة، فقد ابتلعتها هى الأخرى الأحداث العظمى التي أودت بالإمبراطورية الحثينية الكبرى ذاتها.

14

أدت موجات الجفاف الطويلة، والمجاعات، والزلازل، وانهيار الانساق الحاكمة، وانتشار وتفشى جماعات الغزو والنهب الجوالة، وانتفاض السكان المحليين في أماكن كثيرة وتمردهم على الإمبراطوريات العظمى، إلى انتشار الفوضى، من بلاد اليونان القديمة حتى منطقة ما بين النهرين، ومن شمال الأناضول حتى سواحل مصر الشمالية والتي أدت إلى اضمحلال وانهيار مراكز عديدة من مراكز القوة، وانهيار مدن عظمى وممالك كبرى في العقود الأخيرة من العصر البرواتري المتأخر.

لذلك لا يثير دهشتنا أن تكون مصادر المعلومات عن تلك العقود شحيحة ونادرة، بسبب الاضطرابات التي سادتها وندرة ما دون خلالها. فقد كانت البني الإدارية تنهار يوماً بعد أخر، كما كانت منظومة الممالك التابعة والخاضعة لنفوذ قوة كبرى ينفرط عقدها والإمبراطوريات تتداعي،

لذلك لا يوجد إلا القليل من التسجيلات عن أحداث تلك الأيام الأخيرة، إلا أن تلك الأيام الأخيرة تركت لنا أيضًا تسجيلات عن الانتصارات على العسكرية لكبار الملوك، انتصارات على سواحل قبرص، وانتصارات على السواحل الجنوبية لمنطقة الأناضول حتى غربها الأقصى: وهي انتصارات أعلن عنها بغضر الحكام الحشينيون في نهايات العصر البرونزي المتأخر(1). أحرز أولئك الحكام انتصارات بحرية وبرية على الأقوام الذين أطلق عليهم اسم شعوب البحر، وهم جحافل بشرية تدفقوا على أطراف الشرق الأدنى، حتى وصلوا إلى سواحل مصر الشمالية: وكان الانتصار المصري عليهم من بين الأعمال التي توجت إنجازات آخر عظماء الفراعنة المصريين، الملك رمسيس الثالث(2).

ولا يمكننا بالطبم التوصل إلى مدى الصدق التاريخي لتلك الإعلانات

الملكية عن انتصاراتها العظمى، ولا كم المبالغة الدعائية، وتشويه المقائق الذي لجأ إليه كبار الملوك، الذين أصبحت سيطرتهم على الأوضاع في الداخل وسلمعتهم في الضارج في ملهب الرياح، وينطبق ذلك على وجه التحديد على الملك سبيللوليوما الثاني، أخر سلالة أسرته الحاكمة ممن شغلوا العرش في حاتوسا، ولحسن الحظ توصل البحث إلى العثور على بضع رسائل تنتمي إلى تلك العقود الأخيرة من العصر البرونزي المتأخر، تصلحح بعض مبالغات الدعايات الملكية والبيانات الرسمية البلاغية المسجلة على صخور وألواح سجلات المحفوظات الملكية. وتقدم تلك الرسائل التي عثر عليها أيضا بعض الملامح المثيرة عن الحياة والأحوال التي سادت تلك المرحلة، كما تكشف لنا عن بعض المواقف الشخصية، والمحاوف والأمال التي كانت تعتمل في نفوس من كتبوها في غاروف والمال التي كانت تعتمل في نفوس من كتبوها في غاروف تزايدت فيها الاضطرابات، وغاب عنها الاستقرار والأمن.

رسائل أورجاريت

تبين أن موقع أوجاريت على وجه الخصوص من أغنى المواقع التي احتوت على كثير من نصوص مراسلات آخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الثانى عشر، وسوف نركز البحث على تلك المنطقة المحدودة، والتي تلقى الضوء رغم محدوديتها على كثير من مراسلات العصر البرونزى المتأخر.

ف منذ أن تصولت أوجاريت لتنضم إلى منظومة الدول الصفرى الخاضعة لنفوذ الحثينيين في عهد سبيللوليوما الأول، أصبحت جوهرة التاج الحثيني ودرته الثمينة، وكانت من أكثر الولايات انتعاشًا لموقعها الاستراتيجي الهام على شمال الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وظلت على ولائها للإمبراطورية الحثينية على مدى قرن كامل.

ولما بدأت قبضة الإمبراطورية على ولاياتها التابعة لها في الضعف، كانت أوجاريت واحدة من تلك الممالك التي بدأ التزامها يقل تجاه سيدها

الأعلى الجالس على عرش حاتوسا، وأول دليل على ذلك ظهر في عهد ثالث وأخر ملوك أوجاريت، وهو الملك ايبيرانو (1230 – 1210) الذي اعتلى عرش بلاده على وجه التقريب في عهد الملك الحثيني الثالث والأخير تودحاليا الرابع، فبعد الانتهاء من طقوس تتويجه ملكًا على أوجاريت، لم يقم أيبيرانو بمراعاة الإجراءات الواجب اتباعها تجاه سيده الأعلى الحثيني، واستدعى ذلك أن يرسل إليه «الأمير» الحثيني بيحاوالوي(3) الحثيني، وتوبيغ: «منذ أن توايت السلطة في أوجاريت، لماذا لم تعثل رسالة تأنيب وتوبيغ: «منذ أن توايت السلطة في أوجاريت، لماذا لم تعثل بانتظام؟ ذلك يثير غضب الملك الشديد، أرسل مبعوثيك إلى جلالته بأقصى سرعة، واحرص على إرسال الهدايا إلى الملك ومعها الهدايا التي ترسلها إلى (4).

لقد كانت هناك أمور على المحك أكثر من كونه إهمالاً من ملك أوجاريت، تقاعس فيه عن اتباع الإجراءات المرعية في علاقته بسيده الأعلى، وعلى ضوء أن معاهدات التبعية كانت معاهدات شخصية بين السيد الأعلى والحاكم المحلى، كان من الضرورى الاتفاق مجدداً على تلك الالتزامات بين الطرفين كلما تبوأ العرش حاكم جديد – سواء كان سيداً أعلى أو حاكما محلياً – وأدى ذلك التقاعس بطبيعة الحال إلى إثارة مخاوف الإدارة الحثينية عن مستقبل ولاء أوجاريت.

وهناك أسباب معقولة تظهر أن تقاعس ايبيرانو لم يكن مجرد تقاعس دبلوماسي، كما تظهر ذلك رسائل سجل محفوظات أوجاريت تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ظهرت أثناء أعمال الحفر في أوجاريت عام 1973، وعثر على 120 لوحًا وبعض حطام الألواح، اثنى عشر منها مكتوبة باللغة الأوجاريتية، والباقى باللغة الأكادية، وأمكن ترجمة الاثنى عشر رسالة ونشرها بعد العثور عليها، أما باقى الرسائل فلم تترجم وتنشر إلا عام 1980(5)، وأظهرت أعمال الصفر التي بدأت من جديد عام 1980

ألواحًا أخرى وصلت إلى 300 لوح وكسور ألواح(6)، كان صاحب دار حفظ تلك المراسالات يدعى أورتينو، وهو من أحد كبار رجال بلاط أوجاريت في ذلك العصر(7).

بالإضافة إلى الوثائق الإدارية والدينية، احتوت الرسائل التي عثر عليها عام 1973 على رسائل واردة إلى ملك أوجاريت من نائب الملك الحثيني على قرقميش، وكان حاكم قرقميش هو المسئول المياشر عن شئون تبعية أوجاريت للحكم الحثيني(8)، ولو حكمنا من نصوص الرسائل التي عثر عليها عام 1973، يتضع أن العلاقة بين نائب الملك الحثيني على قرقميش وحاكم أوجاريت لم تكن على ما يرام، وتعكس الرسائل صورة حاكم محلى في أوجاريت لا يقوم بما يجب عليه من التزامات، أو على أفضل الأحوال يقوم بها بلا حماس ولا اقتناع.

كان أحد أسباب ازدياد التوتر نوعية الهدايا التي يرسلها الصاكم المحلي في أوجاريت إلى حاتوسا، وقد رأينا من خلال بعض مراسلات تل العمارنة أن نوعية الهدايا كان من أهم الوسائل التي تظهر تقدير المرسل إليه بين كبار الملوك، كذلك أبضًا تظهر قدر ولاء الملك التابع السيده الأعلى، وكان ذلك أحد أسباب تأنيب وتوبيخ نائب الملك الحثيني على قرقميش لملك أوجاريت الجديد، بسبب تفاهة الهدايا التي أرسلها إلى كار رجال بلاط الملك الحثيني في حاتوسا:

«رسواك الذي أرسلته إلى المملكة، وهداياك التي أرسلتها إلى كبار رجال البلاط كلها دون المستوى اللائق... ألم أكتب إليك بالمطلوب وقلت: «أرسل إلى كبير الكتبة هدية فاخرة؟ فلماذا لم تظهر له الاحترام الذي يستحقه بإرسال هدية فاخرة؟ لماذا أقدمت على ذلك السلوك؟»(9)

وأنهى نائب الملك رسالته بتذكير ملك أوجاريت المتقاعس بالعقوبات التى أوقعت برسله في مناسبة سابقة، حين أرسلهم إلى الملك بهدايا أقل قيمة مما هو متوقع، وكان التحذير مباشراً وواضحاً: «لا تحاول أن تفكر في الإقدام على ذلك مرة أخرى».

وكان هناك سبب أكبر لعدم الرضى، وهو تقاعس الملك الخاصع عن أداء التزاماته العسكرية، لم تكن أوجاريت أبداً من المالك القوية عسكرياً، بالرغم من ثرائها المادى، وكانت تبحث عن أسباب تتعلل بها في مناسبات سابقة لتجنب إمداد جيش الملك الأكبر بقوات عسكرية، لذلك قام أبو ايبيرانو، الملك عميشتامرو الثاني (1260 – 1230) بدفع 50 جعلاً من الذهب إلى الملك الحثيني تودحاليا الرابع؛ لإعفائه من إمداد جيشه بأفراد مقاتلين وعجلات حربية مساهمة في الحملة العسكرية الحثينية ضد أشور (10).

وفي عهد ايبيرانو، تلقى أمراً بإرسال قوات معاونة، وأدى تقاعس الملك المجديد عن إرسالها(11) إلى تفتيش عاجل على كل قواته العسكرية الدفاعية، قام به قادة عسكريون من قرقميش، وظهر ذلك من نص رسالة بعث بها إليه نائب الملك الأعظم على قرقميش(12).

وبعد ذلك بفترة، تلقى إيبيرانو طلبًا جديدًا لإرسال قوات من لدنه، فاستجاب، ولكن استجابته كانت في شكل رمزى هزيل، وكتب إليه نائب الملك وهو غاضب، واتهمه بتقديم معلومات زائفة وإرسال قوات من الدرجة الثانية وخيول هزيلة للعجلات الحربية:

دادعيت في رسالتك أن قواتك العسكرية موجودة في موكيش، والمقيقة أنها ليست هناك، بل في سدينة ابسونا(13). أما بالنسبة للمجلات المربية التي أرسلتها فجنودها من الدرجة الثانية وشيولها هزيلة،(14).

ومضى نائب الملك في رسالته متهماً إياه بالإبقاء على أفضل القوات العسكرية لديه، وربما كانت اتهاماته مبررة، ولم تكن أوجاريت الملكة السورية الوحيدة التي تبقى أفضل قواتها العسكرية داخل المملكة، حفاظًا على أمنها المباشر، رغم طلبات الملك الأعظم بإرسال أفضل القوات، وربما يعكس تصرف ملك أوجاريت في الحفاظ على أفضل القوات العسكرية المتقدد الثقة منه ومن حكام الممالك السورية الأخرى في الملك الأعظم أو

في نائبه في المحافظة على تلك القوات والحرص عليها في المعارك ضد الأعداء القادمين من الأرض والبحر، وحول ذلك الأمر تلقي ملك أوجاريت رسالة من الملك الأشوري تيكولتي – نينورتا الأول، يبلغه فيها بانتصارهم الساحق على الجيش الحثيني في شمال منطقة ما بين النهرين(15)، ويبدو أن الغرض من تلك الرسمالة كان دفع أوجاريت على الانسلاخ عن المثينيين، بعد أن أصبحت مملكة ضعيفة منهكة وتنضم إلى أشور، القوة الجديدة المتنامية في المنطقة(16).

إلا أنه كان هناك وجه آخر للرسائل التي عثر عليها في أوجاريت، فعدد من تلك الرسائل لا يتعلق بالجوانب العسكرية ولا السياسية، ويظهر نشاطًا سلميًا من التبادل التجاري المنتظم بين المالك السررية المحلية، وهي أنشطة كانت تمتد أحيانًا حتى منطقة الأناضول، وهكذا، نجد في رسالة واردة إلى عمورابي، آخر ملك عرف لأوجاريت، يشير فيها مرسلها حاكم مملكة تارحونتاسا بجنوب الأناضول إلى بضائع أرسلها إلى أوجاريت، وطلب منه إرسال بضائع أخرى مقابلها (17). وفي رسالة أخرى نجد ملك عمورو يشتكي إلى نظيره ملك أوجاريت من تأخر تسليم شحنة من الحجر الصابوني بعد الاتفاق على ذلك:

«لماذا تؤخرون الحجر الصابوني ولا تمكنون عدو - ماشير من استلامه؟ هل يتم نقله على عاتق رجالكم؟ لن يقوم رجالي ولا مراكبي البحرية بنقله، والآن يا سيدى اترك عدو مأشير يعضى: دعه يستلم الحجر الصابوني، حتى يمكن ترميم بيوت أخيك الملك، والبيوت حتى الآن بدون الحجر الصابوني، (18).

وتشهد الرسائل المتبادلة بين ملوك أوجاريت وصيدا وملك بيروت وكبار مسئولى أوجاريت على العلاقات الوثيقة التي ربطت بين الممالك الواقعة على الساحل الفينيقي، في العقود الأخيرة للعصر البرونزي(19).

كذلك ظهر أن أوجاريت كانت تربطها روابط تجارية قوية بمملكة إيمار الواقعة على نهر الفرات. فالتبادل التجاري النشط بين الولايتين المملكتين

أدى إلى وجود مكتب التصنيل التجارى لأوجاريت في مملكة إيمار في بدليات القرن الثاني عشر، كان داجان – بيلو يقوم فيه بوظيفة الممثل التجارى لأوجاريت، والمدير لأنشطتها التجارية، وقد كتب من إيمار إلى شيبتي بعل، وكيل أعمال وزوج ابنة ملك أوجاريت عمورابي، مطمئنًا إياه أن كل شيء يمضى على ما برام، ويساله عن الأحوال في الوطن، كما أرفق مع رسالته بعض النباتات إلى شيبتي بعل، وفي المقابل طلب من أرفق مع رسالته بعض النباتات إلى شيبتي من قبله سيكون ممتنًا إذا أرسل شيبتي بعل إن كان هناك مبعوث سيأتي من قبله سيكون ممتنًا إذا أرسل له معه بعض الزيت ورداء كتانيًا واسع من أجود الأنواع لاستعمال داجان – بيلو الشخصي(20). كما كتب داجان – بيلو أيضًا إلى أورتينو، وهو رجل بلاط أوجاريت المرموق، الذي كان بيته سجل الرسائل المحفوظة، وطلب منه في تلك الرسالة إيفاد ابنه عزيلتو إلى إيمار ومعه مواد أخرى من مواد الكتابة من حجر الألنيوم، والصوف الأزرق ورداء من الكتان

ويعلق الباحث بوردرويل قائلاً: «إن الرسائل تظهر بوضوح درجة «العالمية» التي ميزت عالم أوجاريت وجيرانها في تلك العقود الأخيرة للعصر البرويزي. كانت هناك شبكة من العلاقات والأنشطة التجارية تريط بين جميع أرجاء مناطق سوريا – فاسطين، مع وجود طرق تجارية تمر بأسواق كثير من المن والمراكز العضرية الكبرى»(22).

وفى الوقت الذى يعد فيه التعميم من المخاطر البحثية، إلا أن مستوى الأنشطة التجارية بدا على درجة عالية كما كان عليه فى عقود سابقة، إن لم يكن أعلى، فضلاً عن ذلك، لا نقرأ فى تلك الرسائل عن أية مخاطر تواجه انتقال التجار سواء كانت مخاطر بشرية أو طبيعية، ويثير ذلك الدهشة مقارنة بما يظهر فى رسائل تل العمارنة السابقة على ذلك العصر، والتى تظهر أن تلك المخاطر كانت كثيرة ومتوطنة بتلك المنطقة. على أى حال، لا بد أننا كنا نتوقع زيادة فى النشاط الإجرامى ضد الأنشطة التجارية فى تلك المفترة المعصر البرونزى، والمرافقة

لضعف سيطرة القوى العظمى المتداعية على المنطقة الخاضعة لنفوذهم.

ما يستحق الملاحظة والذكر أيضًا غياب كلى في سجل محفوظات أورتينو لأية إشارة تدل على كوارث قادمة، ويعلق الباحث أرنود على ذلك قائلاً: «إنه لا يوجد بالرسائل ما يحذرنا بثنا نقرأ رسائل عالم يقترب من فنائه (23). لا يطفى على النصوص إلا العمل والسعى للربح كالعادة، بالطريقة ذاتها التي تظهر من خلال الرسائل الميسينية المكتوبة بالحروف الخطية B في بايلوس، والتي تعطى انطباعًا به «أنه العمل كالمعتاد»، حتى أخر لحظة في حياة تلك القصور، بالكاد كانت تظهر في أحيان قليلة في نصوص الرسائل إشارة عابرة للتهديدات الخطيرة القادمة مع الأيام، ففي رسائة من الملك الحثيني لأحد ملوك أوجاريت، ويحتمل أنه كان عمورابي، يعرب فيها عن قلقه من جماعات أطلق عليها اسم «شعب شيكيلا الذي يعرب فيها عن قلقه من جماعات أطلق عليها اسم «شعب شيكيلا الذي

ومواطن أوجاريتي اسمه عبداندوشو، وقع في أيدى أولئك الشيكيلا، وأطلق سراحه بعد ذلك أو تمكن من الفرار، وطلب الملك الحشيني في رسالته أن يرسل عبداندوشو على الفور إلى العاصمة الحثينية؛ لاستجوابه حول ما عرفه وما رآه عن أولئك الناس، مع وعد بإعادته سالًا إلى أوجاريت(24).

وبالتأكيد يمكن المتعرف على أن الشبكيلا هم الشبكيل، وهم الجحافل البشرية الذين أشار إليهم رمسيس الثالث باسم شعوب البحر، ولو صبح ذلك، فإن تلك الرسالة تمدنا بأول إشارة إلى إحدى قوى الأعداء الذين هاجموا ودمروا مدن مملكة أوجاريت، وكانوا سببًا في انهيار تلك المملكة للأبد(25)، وكان قلق حاتوسا من ظهور قوارب شعوب الشيكيلا على سواحل شرق البحر المتوسط له ما يبرره، إلا أنه لم يكن لدى الملك الأعظم ولا نوابه على الولايات ما يفعلونه لمواجهة التهديدات والمخاطر التي يمثلها اقتراب شعوب البحر على الممالك الخاضعة لنفوذهم، كان عمورابي يتلقى اقتراب شعوب البحر على الممالك الخاضعة لنفوذهم، كان عمورابي يتلقى تقارير منذرة من مراقبي السواحل، تفيد أن مراكب كثيرة تظهر في

الأفق، وبلا شك بنوايا عدائية، فقام بإرسال رسالة عاجلة إلى نائب الملك الأعظم على قرقميش مناشدًا مساعدته لصد غزو بحرى هائل، ولم يكن لدى نائب الملك على قرقميش ما يقدمه إليه، إلا أنه نصحه قائلاً:

«فيما يخص ما كتبته إلى": «سفن الأعداء ظهرت في البحر»، حسنًا، يجب أن تظل صامدًا، أين تعسكر قواتك وعجلاتك الحربية؟ أليست متمركزة بالقرب منك؟ كلا؟ أم خلف العدو الضاغط عليك؟ أحط مدنك بالاستحكامات، اجعل قواتك وعجلاتك متمركزة بالمدن، وانتظر وصول العدو بعزيمة وتصميم (26).

وترك عمورابى وحده بعد أن أيقن أن عليه أنّ يعتمد على قواته وحدها لحماية مملكته، وقد كان يعى تلك المقيقة من البداية، ويمكننا هنا فهم لماذا قررت أوجاريت الحفاظ على صفوة وخيرة قواتها العسكرية قبل ذلك بالرغم من تأنيب وتوبيخ نائب الملك الأعظم لملك أوجاريت حين تقاعس عن الوفاء بالتزاماته العسكرية تجاه سيده الأعظم. إلا أن ذلك لم يغده بشكل واضح، فلو صدقنا ادعاء عمورابى في رسالة منه إلى ملك ألاسيا في قبرص. فإن الدفاع عن خليج أوجاريت قد أخل به وجود جزء كبير من قواتها في مكان أخر من المملكة الحثينية، مما تركها بلا دفاع قوى لصد الأعداء وسرعان ما استغل الأعداء ذلك الموقف، وهكذا حين كتب ملك ألاسيا إلى عمورابي يرجوه مساندته حربيًا ضد شعوب البحر التي كانت تهاجم مملكته، لم يكن ملك أوجاريت في وضع يسمح له باستجابة أفضل، ورد قائلاً:

«أبي، أترى، جات سفن الأعداء (هنا) إلى مدنى (؟) وأحرقتها، وارتكبوا أفعالاً مشيئة ضد بلادى، ألا يعلم أبى أن كل قواتى وعجلاتى (؟) في بلاد الحثينين، وكل سفنى في منطقة لوكا؟... هكنت، تركت البلاد لنفسها، هل لأبى أن يعلم أن : السبع مراكب البحرية التي أتى عليها العدو سببت دمارًا كثيرًا «(27).

عشر على تلك الرسالة في بيت رابانو، أصبح الموقف في ذاك الوقت

واضحًا، على كل مملكة أن تتولى شئون الدفاع عن نفسها من الممالك المنفرى الخاضعة لنفوذ المالك العظمى.

ومرت الممالك بأزمة نقص خطير فى المواد الغذائية، إما بسبب حلول المحفاف، أو بسبب نقص القوى البشرية التى تزرع الأرض، أو تدمير العدو للمحاصيل والأراضى المزروعة، وهكذائجد أن رسالة أخرى من سجلات رابانو تذكر:

«أبواب البيت مغلقة؛ لأن هناك مجاعة في بيتك، سنجوع حتى الموت، لو لم تسرع بالمجىء سنجوع حتى الموت، لن ترى أبدًا بعد ذلك روحًا حية في بلادك:(28).

وضاعف من سوء الموقف طلبات الحثينيين، فقد كانت بلاد الحثينيين ذاتها في ذلك الوقت تعانى من مجاعة شديدة، ولم تجد أمامها إلا طلب شحنات من الحبوب من الولايات السورية الضاضعة لها، والأقرب إلى الاحتمال تعويضًا عن عدم وصول شحنات الحبوب المعتادة من مصر، بسبب نشاط الأعداء البحرى في شرق البحر المتوسط، وحملت رسالة من الملك الحثيني إلى ملك أوجاريت ملحوظة استعجال خاصة، وربما كان ملك أوجاريت الموجهة إليه تلك الرسالة نيكمادو الثالث أو عمورابي (فالاسم مفقود من الرسالة)، بطلب فيها إرسال سفينة بطاقمها البحرى لنقل

2000 وزنة من الحبوب (حوالى 450 طناً) من موكيش إلى أورا: «وهكذا (المدينة) أورا (تصرفت(٢)) بهذه الطريقة.. والخروا الطعام لجلالته، وأخبرهم جلالته عن 2000 وزنة من الحبوب قائمة من موكيش، يجب أن تهيئ لهم سفينة بطاقمها، وأن ينقلوا تلك الحبوب إلى بلادهم. سينقلونها في نقلة أو نقلتين يجب ألا تحجز تلك السفينة (29).

وأكدت الرسالة على ملك أوجاريت العمل بسرعة دون تأخير.

نهاية عصر

وتصل بنا آخر رسائل أوجاريت إلى نهاية بحثنا بين ثنايا مراسلات المصر البرونزى المتأخر، والصورة التي تقدمها تلك الرسائل تقدم لنا صورة مصغرة عن الأحوال التي سادت بوجه عام في مناطق عديدة من الشرق الأدنى، وعوالم بحر إيجه في نهايات القرن الثالث عشر إلى بدايات القرن الثاني عشير، وهي العوالم التي عانت من تداعي الأمن وزيادة الاضطرابات، أصبحت القصور العظمي والقصور المطية والمراكز الإدارية، وممالك بأجمعها كبيرها وصغيرها، والمجتمعات المدنية والزراعية عرضة بشكل متزايد لهجوم جحافل قوات معادية، بعضها قادم براً، وغيرها قادم من البحر،

وذهبت مناشدات طلب العون والمساعدة التصدى الأولئك الأعداء سواء كانت تلك المناشدات معوجهة للملك الأعظم، أو إلى الولايات والممالك الصغرى المجاورة، ذهبت جميعًا أدراج الرياح، إما بتجاهلها أو برفضها، فلم يكن لديهم خيار آخر، إذ كانوا هم أنفسهم يتعرضون في الوقت ذاته لهجوم ذلك العدو وكانوا أيضًا من ضحاياه، وانقطعت طرق نقل الإمدادات، وتزايدت حدة نقص الطعام، وهام كل سكان تلك الممالك على وجوههم.

ومثل كل مراكز الحضارة التي تنتمي إلى العصر البرونزي المتأخر، لم تصمد أوجاريت أمام قوى الفوضى والدمار، التي لمحنا إشارات عابرة منذرة بحلولها في آخر رسائل الأرشيف، ونهبت عاصمتها وهجرت وكانت تقع في الموقع الذي توجد فيه مدينة راس شمرا الحالية، وكان ذلك «الخراب النهائي لأوجاريت، وتلاشى واختفاء تركيبها الاجتماعي والسياسي ولم تعد توجد ولاية / مملكة في موضعها على الساحل السوري»(30).

وخنض عن مملكة الأناضول المركزية للقوى ذاتها التي أدت إلى انهيارها، وهجرت العاصمة الحثينية ودمرت، وانهارت كل أرجاء

الإمبراطورية التى كانت تبسط نفوذها عليها، وفقدت مصر هى الأخرى إمبراطوريتها الآسيوية، وبالرغم من صمود مصر أمام الكوارث التى أدت إلى انهيار ودمار الممالك المعاصرة، فإن المملكة الفرعونية لم تستعد أبداً بعد ذلك وضعها كقوة دولية عظمى، أما في سوريا فقد ظلت بقايا الإمبراطورية الحثينية متواجدة بشكل آخر على مدى 500 عام، فيما أطلق عليه الممالك الحثينية الحديثة.

وصعد عدد أخر من ولايات الساحل الفينيقى ضد الدمار الشامل الذي لحق بالإمبراطوريات في نهاية العصر البروبزي المتأخر، وكان من تلك الولايات التي نجت الولايات الفينيقية في طرابلس وصور وصيدا، وبدأت في الانتعاش من جديد في بدايات العصر الحديدي المبكر، إلا أن الوجه السكاني السياسي (الچيوبولتيكي) لكل منطقة غرب الفرات قد تغير في عديد من النواحي تغيراً جذرياً، في القرون التي تلت انهيار ممالك العصر البروبزي المتأخر.

أما شرق الفرات، فقد كانت هناك مملكتان تنتميان إلى العصير البرونزى، ولم يكن تاريخهما قد شق مجراه بعد، ونجيتا من الكوارث إلى حد كبير، هي الكوارث التي ابتلعت جيرانهما في غرب الفرات، فأشور سوف تنهض مرة أخرى من كبوتها لتصبح قوة عظمى في منطقة الشرق الأدنى، وسوف تنهض بابل أيضًا من جديد، وسوف تصل إلى أعلى مراتب وذرى العظمة والقوة في الشرق الأدنى، بمجرد أن تصل الهيمنة الأشورية الذكية والقاسية على المنطقة إلى منتهاها، وتنهار فجأة وتسقط بلاعودة.

إلا أن تلك القصة تنتمي إلى عصر أخر.

ملحق : رسائل العمارنة

أتاحت لنا فترة العمارنة معرفة القوى العظمى في أرجاء الشرق الأدنى بأجمعه لأول مرة، من البحر المتوسط حتى الخليج الفارسى، في تفاعلاتها فيما بينها، وفي علاقات أسرها الحاكمة وعلاقاتها الاستراتيجية والتجارية، وكانت أليات الإدارة السياسية في تلك العلاقات المتشابكة تتمحور حول دبلوماسية تل العمارنة، وهو نظام دبلوماسي له قواعده، وأعرافه، وخطواته وإجراءاته، وقواعد تحكم التمثيل الدبلوماسي والتواصل والمفاوضات بين كبار الملوك(1).

يقع الموقع المعروف حاليًا باسم العمارية على الضفة الشرقية انهر النيل، على مبعدة حوالى 300 كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة القاهرة، وفي ذلك الموقع عثرت فلاحة على كمية من الألواح الطينية المنقوشة في عام 1887 بينما كانت تحفر بين انقاض تلك المنطقة التي تبين بعد ذلك أنها بقايا مدينة إختياتون التي بناها أخناتون، وأدى الحفر خلسة الذي قام به السكان المحليون إلى ظهور ألواح جديدة، مع ظهور مكتشفات عديدة بالمنطقة مع بدايات أعمال الكشف المنظم التي جرت في ذلك الموقع، والرقم الكلي للألواح التي عثر عليها بذلك الموقع مجهول بسبب بيع أعداد منها سرًا إلى هواة جمع التحف بعد العثور عليها مباشرة، والمعروف حاليًا إلى هواة جمع التحف بعد العثور عليها مباشرة، والمعروف البقعة التي عثر بها على أكبر عدد من الألواح حاليًا باسم المبنى 19، أما البقعة التي عثر بها على أكبر عدد من الألواح حاليًا باسم المبنى 19، أما الاسم الأصلى فقد كان أكثر إيجاء وهو: «دار رسائل الفرعون – حياة، انتعاش، صحة»، كانت تلك البقعة هي موقع دار حفظ مراسلات الملك الأحنية.

ومن بين تلك الألواح يوجد 350 منها تحتوي على رسائل، إما واردة

إلى الفرعون أو نسخًا من رسائل أملاها بالتعاون مع كبار مستشاريه(2)، كما تضم بضع قوائم عن هدايا مرسلة إلى أخرين(3)، والرسائل مقسمة إلى قسمين رئيسين:

- الرسائل التي تبادلها الفرعون مع حكام أجانب، ملوك الحثينيين،
 وبابل، والمبتانيين، والأشوريين، وارزاوا، وألاسيا بقبرص.
- الرسائل الواردة من (وأحيانًا أقل إلى) الحكام الخاضعين للنفوذ
 المصرى في سوريا فلسطين، وهي الكم الأكبر من بين الرسائل.

ويصل عدد أولئك الحكام الذين تظهر أسماؤهم في الرسائل إلى أربعين. أما الاثنان وثلاثون رسالة الباقية فتتكون من مقاطع لفظية معجمية، وقوائم نحوية لغوية ونمعوص دينية، وتظهر خواصها الأدبية واللغوية أنه كانت توجد مدرسة متخصصة لتعليم اللغة المسمارية للكتبة المصريين (إيدوبا) في العاصمة الملكية(4).

وباستثناء لوحين من المراسلات، مكتوبان بالحثينية (2-31 EA)، يوجد واحد بالأشورية (EA 24)، وواحد باللغة الحورية (EA 24)، فإن باقى رسائل العمارنة مكتوبة بالأكادية (أو أحد أشكالها)،، بصفتها اللغة الأجنبية الدولية السائدة في العصر البرونزي المتأخر. ولسوء الحظ، كانت الرسائل مكتوبة بأحد الأشكال الصعبة للغة الأكادية، وعلق ريقراني على ذلك: بأن لغة الرسائل مليئة بالصور البلاغية، والكنايات وباقى الألوان البلاغية في الكتابة، والتي يمكن أن تؤدي إلى ترجمات متناقضة (5). ويعيداً عن تلك الإشكالية، فهناك المشاكل التي وقعت نتيجة ترجمة النصوص إلى لغات ليست لغة من قام بالترجمة، وقد يظهر غموض وحيرة في نصوص الرسائل، يعود ببساطة إلى أن الكاتب الذي كتبها في تلك العصور ليس من أبناء اللغة الأكادية (باستثناء واضح للرسائل الواردة من المالك التي تتحدث الأكادية (باستثناء واضح للرسائل الواردة من المالك التي تتحدث الأكادية مثل بابل وأشور) وكانت تظهر مصاعب أحياناً في نقل معاني دقيقة بتلك اللغة كما أملاها ملوكهم.

فنضلاً عن ذلك، هناك صنعوبة في فنهم المراسلات السورية -

الفلسطينية وترجمتها ترجمة صحيحة، وذلك للجوء الكتبة الذين كتبوها إلى استعمال مفردات مهجورة، ومفردات محلية، ومصطلحات محلية كنعائدة.

لقد طور الكتبة المحليون في سوريا – فلسطين ما يمكن تسميته باللغة الهجينة(7) التي يغلب عليها الكنعانية(7)، والتي طرحت تحديات أخرى من نوع خاص عدا التحديات التي تفرضها ترجمة اللغات المهجنة، ولا يد أن يظل كل ذلك ماثلاً بأذهاننا في محاولاتنا إعادة بناء تاريخ مرحلة الممارنة من خلال نصوص الرسائل، هذا عدا أن كثير من المعلومات مبتسرة، بسبب تهشم أجزاء من الألواح.

وتغطى الرسائل المحفوظة فى الحد الأقصى أحداث ثلاثين عامًا (8)، أو أقصر من ذلك اعتمادًا على حدوث فترة حكم مشترك من عدمه بين امينحوتيب الثالث وابنه امينحوتيب الرابع – أخناتون وطول فترة ذلك الحكم المشترك، الخطابات المبكرة تعود إلى أخر أعوام حكم أمينحوتيب الثالث (أى من العام الثلاثين من حكمه حتى نهايته) ويفترض أن تلك الرسائل نقلت من طيبة إلى إخبتاتون بعد نقل مقر الحكم إليها، وأخر الرسائل يعود إلى الأعوام المبكرة لحكم ترت عنخ آمون، ولا تزيد عن العام الثالث من حكمه حين هجرت مدينة إختياتون وانتقل الفرعون الجديد إلى مدينة منف – ممفيس، ومن إجمالي 350 رسالة، كلها واردة إلى الفرعون باستثناء إحدى عشرة رسالة، من نظرائه الملوك، أو من الحكام الماضعين باستثناء إحدى عشرة رسالة الصادرة المادي عيد رسالة الصادرة المادي في سوريا فلسطين، أما الإحدى عشرة رسالة الصادرة في عبارة عن رسالة مبوجهة إلى ملك ارزاوا في غرب الأناضول، ورسالتين وقائمة بالهدايا لملك بابل، وسبعة رسائل إلى مختلف الحكام المحليين في أرجاء سوريا – فلسطين.

ولابد أن نفترض أن كثير من الرسائل الواردة للفرعون من أشقائه الملوك، أو من الحكام الخاضعين لنفوذه هي النسخ الأصلية التي ترجعت إلى المصرية على أيدى الكتبة في البلاط الملكي، غير أن د، ريقز يرى أن

التحليل الحديث لتلك الألواح يثبت أن النسبة الغالبة من رسائل العمارية ليست الأمسول، ولكنها نسخ صنعت في منصسر للأغسراض الإدارية المحلية(9). ولابد أنه كانت توجد دار حفظ أخرى للترجمة المصرية (على الأقل للرسائل الهامة)؛ للرجوع إليها عند الضرورة، وقد أشرنا إلى المبنى رقم 19 باسم «دار رسائل الفرعون»، حيث وجدت أغلب رسائل العمارنة، ولابد أن ذلك المبنى لم يكن إلا جزءًا صغيرًا من مبنى أكبر كثيرًا يضم هيئة الدولة الاستشبارية. وهكذا، «كانت هناك لقناءات يومنية بين حضارتين، الكتابة المبرية من جانب، والكتابة السمارية الأكادية لنطقة ما بين النهرين على الجانب الأخر»(10) يجب أيضا أن نفسر وجود رسائل صادرة من الفرعون بين رسائل العمارنة إلى ملوك أجانب وحكام خاصْعين للنفوذ المسرى، فلماذا ظلت تلك الرسائل موجودة بمصر؟ وهناك ثلاثة احتمالات تفرض نفسها: أنها كانت مسودات للنسخ النهائية للرسبائل، أو نسخًا من الرسبائل التي تم إرسبالها (مثل EA 162)، وهي نسخة من الإنذار المرسل إلى الحاكم العموري عزيرو)، أو أنها أصبول لم ترسل لسبب أن لآخر إلا أنه يتبقى أمامنا أكثر الأسئلة إثارة للحيرة، لماذا حفظت تلك الرسائل بالذات التي عثر عليها بون غيرها بدار حفظ تل العمارنة؟ وما الذي أضفى على ثلك المجموعة من الرسائل من الأهمية ما جعلها تستحق الحفظ دون غيرها؟ من المؤكد أنها جزء بسيط من كم هائل من الرسبائل المتابالة بين الفارعون وكالبنار الملوك والحكام المطلبين الخَاصْعِينَ لِنَفُودُهِ، في عهد نشط ديلوماسيًّا مثل عهد العماريّة.

ولا نجد إجابات على تلك التساؤلات من دار الحفظ ذاتها، بعض تلك الرسائل الواردة من كبار الملوك الأجانب، ربما اعتبرت من المراسلات الهامة، مما أهلها لحفظها في دار الحفظ، إلا أن هناك رسائل كثيرة لا تقل أهمية عن ذلك، إلا أنها اختفت ولم تحفظ في دار حفظ الوثائق، وبعض الرسائل الواردة أيضاً من الحكام الخاضعين كانت تستحق أيضاً أن تحفظ، مبدئيًا، بسبب التقارير الاستخباراتية التي تضمها (11)، إلا أن

هناك رسائل غيرها وجدت بدار الحفظ ولا تحمل أية أهمية وبتعلق بأمور تافهة، كما لا توجد علاقة بين عدد الرسائل الواردة من حاكم محلى خاضع للنفوذ المصرى وأهمية الولاية التي يحكمها في المنطقة ككل، وحقيقة، فإن أهم رسالة صادرة من ريب – حدا، وهو حاكم مملكة جوبلا الضاضعة للنفوذ المصرى، الذي أسرف في إزعاج الفرعون بعطالب لا تنتهى وشكاوى متتابعة(12). ولو حكمنا بما اعتقده ريب – حدا ذاته، فإنه رأى أن كل رسائل الفرعون قد تم تجاهلها، وأن الفرعون لم يستجب لأية مشكلة بعث بها إليه، غير أن تلك الرسائل قد حفظت في دار حفظ مراسلات الفرعون في أخيتاترن – بل إن عددها فاق باقي الرسائل المتبادلة بين الفرعون مع أشقائه الملوك، ولو كان أخناتون قد ضاق ذراعًا بشكاوى وطلبات ريب – حدا التي لا تنتهي، لماذا إذن اهتم بالاحتفاظ بكل بشكاوى وطلبات ريب – حدا التي لا تنتهي، لماذا إذن اهتم بالاحتفاظ بكل حتى الرد عليها، في الوقت الذي لم يحفظ فيه رسائل أخرى كثيرة وردت حتى الرد عليها، في الوقت الذي لم يحفظ فيه رسائل أخرى كثيرة وردت

يحتمل أن المكان الذي عثر به على تلك المجموعة من رسائل العمارنة كان مستودعًا مؤقتًا للرسائل الواردة من الخارج، حتى يتم ترجمتها إلى المسرية، ثم تنقل بعد ذلك إلى مخزن مستديم أكبر مع ترجمة كل منها جنبًا إلى جنب، وربما كانت بعض تلك الرسائل التي عثر عليها كانت بانتظار القيام بترجمتها(13).

كما أن تنوع وتفرق موضوعات تلك الرسائل ينفى أن تكون قد جمعت معًا بالقصد في تلك الدار، من الواضح أنه لا يوجد نمط يجمع بينها. وربما يدفعنا ذلك إلى البحث عن سيناريو أخر يفسر ليس فقط بقاء تلك المجموعة وحدها حتى عصورنا الصالية بل أيضا اختلاف وتفرق مضامينها، والافتراض التخيلي التالي يتيح واحدًا من الاحتمالات الصحيحة: فكما لاحظنا، في العام الثالث من حكم توت عنخ آمون هجرت مدينة أخيتاتون للأبد، وفي آخر أيام حياة تلك المدينة وقع اجتياح لدار

محفوظات الفرعون، وكان ذلك الاجتياح من قبل موظفى تفتيش، معادين لأختاتون، وكان الغرض هو استخراج الرسائل التى ما زال لها علاقة بأحداث جارية لحفظها، خاصة الرسائل المتصلة بالعلاقات الدولية الخارجية، بعض الرسائل المتبادلة مع كبار ملوك منطقة الشرق الأدنى قد تم الاحتفاظ بها، مع نقلها إلى مدينة منف، بعد انتقال توت عنغ آمون إليها، وهي رسائل تعد مفقودة حتى الآن، كما تم انتقاء الرسائل الأخرى التي انتهت أية قيمة لها للتخلص منها، كذلك تم التعامل مع رسائل الملوك الخاضعين للنفوذ المصرى، وتم التخلص من كل ما لا قيمة له منها أو ما انتهى موضوعه، وعن طريق صدف بحتة، ظلت الرسائل المراد التخلص منها الحالي، وهي ما تمثل اليوم آهم مجموعة مراسلات دولية على الإطلاق من العصر البرونزي، والتي ظلت مخفية على مدى يزيد عن ألفي عام، حتى طهرت للوجود على يد أكثر المكتشفين تواضعًا. فلاحة كانت تحفر مصادفة بين أنقاض ما كانت ذات يوم مدينة أتون العظيمة.

Notes:

Introduction

- 1 For a more detailed discussion of the 'Great Powers club', see Liverani (2000).
- Bryce (1998).
- 3 Bryce (2002).
- 4 See Gasche et al. (1998).

Part I Setting the scene

1 The main players: the five Great Kingdoms

- 1 For a relatively detailed account of these kingdoms, see Kuhrt (1995: vol. I). Roux (1980) is a still useful source of reference on the Mesopotamian kingdoms, though his treatment of them is fairly cursory and now somewhat out of date.
- 2 The Assyrian royal inscriptions of the second millennium provide the most important source material for Assyrian history in this period; see Grayson (1972).
- 3 For a still very useful treatment of the Assyrian colony period, see Larsen (1976).
- 4 Note that this and all other dates below are approximate. For the reigns of Shamshi-Adad and his sons, see also Villard (1995).
- 5 Thus Villard (1995: 875).
- 6 The letters have most recently been published in 3 vols by Durand (1997, 1998, 2000).
- 7 The document appears in Dussin (1938: 117). The translation given here is by Charpin (1995: 816).
- 8 EA 9: 31-5.
- 9 Which, as Kuhet (1995: 109) points our, gave him at one stroke control over Isin, Uruk, Ur and Nippur, as well as the sizable dominions of Larsa.
- 10 Sealand territory was reincorporated into the Babylonian kingdom in the subsequent century under the Kassite dynasty.
- 11 For other suggested locations for their homeland, see Kuhrt (1995: 333).
- 12 For accounts of the Kassite dynasty, see Outes (1986: 83-104), Kuhrt (1995: 332-48) and Sommerfeld (1995).
- 13 For the most recent comprehensive treatment of Egyptian history, see Shaw (2000).
- 14 On the evidence indicating Asiatic settlement in Egypt already during the Middle Kingdom, see Bourriau (2000: 187-8).
- 15 See Tubb (1998: 62).
- 16 'Hyksos' is a Greek vocalization (adopted by Manetho, Aegyptiana, frag. 42, 1.75-79.2, quoted by Josephus in the late 1st century CE) of the Egyptian term 'hekan khasu', which means 'rulers of foreign countries'. For a comprehensive treatment of the period of Hyksos rule in Egypt, see Redford (1992: 98-122).
- 17 The name by which Upper Nubia was commonly designated, and sometimes used in reference to Nubia as a whole.
- 18 Its minerals included substantial deposits of gold, copper, amerhyst and diorice.
- 19 He was the son of Isis, a secondary wife of Tuthmosis II.

- 20 He was the son of Moternwiya, a secondary wife of Tuthmosis IV. For an overview of his reign, see Berman (1998).
- 21 The likely dates of his sole reign, leaving aside the question of whether he had a period of co-regency with his father, Amenhorep III.
- 22 See Murnane's summary of views (1995: 1-2). For general accounts of Akhenaten and his reign, see Redford (1984) and Reeves (2001).
- 23 For a survey of Egypt's relations with the Near Eastern world in general during the last century of the Late Bronze Age, see Redford (2000).
- 24 For general accounts of the pharaoh Ramesses II, who will figure prominently in this book, see Kitchen (1982, 1995), Tyldesley (2001).
- 25 For the most recent edition of the treaty, see Edel (1997).
- 26 For the most recent comprehensive treatments of Hittite history, see Bryce (1998) and Klengel (1999).
- 27 CTH 19, most recently ed. Hoffmann (1984).
- 28 Scholars are still undecided as to whether he was preceded by one or two kings called Tudhaliya. To avoid confusion, the convention is to assume that there were two.
- 29 For more detailed treatments of the Hurrian kingdom of Mitanni, see Wilhelm (1989) and Kuhrt (1995: 289–300).
- 30 See Kuhrt (1995: 297).
- 31 A possible identification between the former and the site of mod. Tell Feherije has been suggested; see Klengel (1999: 96, n. 6) with refs cited therein.
- 32 See Wilhelm (1989: 24).
- 33 EA 29: 16-18.
- 2 The interaction of the players: imperial administration and international relationships
 - 1 Though, as we noted in Chapter 1, the ethnic origin of the Mitannian ruling elite is still open to debate.
 - For a representative collection of Hittite treaties, see Beckman (1996: 11-118).
 - 3 Cf. the comments of Westbrook (2000: 38), Murnane (2000: 104-5), James (2000: 113), Na'aman (2000: 137-8).
 - 4 The number suggested ranges from two to four; see Moran (1992: xxvi with n. 70). In general on Egypt's administration of its Syro-Palestinian territories, see Redford (1992: 192-213), Murnane (1998: 178-81), Weinstein (1998: 226-9).
 - 5 In marked contrast to Egyptian rule in Nubia, where the old political structures were disbanded and the region was placed under the direct administration of an Egyptian viceroy; see below (pp. 46).
 - 6 See Weinstein (1998: 226-7).
 - 7 In general on the use of garrison troops and archers in the Syro-Palestinian territories, see Gálan (1994: 91–5).
 - 8 EA 55, 10-13, trans. Moran.
 - 9 See Redford (1984: 25; 1992: 198-9). But note Murnane (2000: 107), who comments that 'this figurative description reflects only a partial truth, namely, the vassals' subordinate position under Egyptian control and not ... their independence in most areas of community government (unlike their Egyptian counterparts). Cf. Na aman (2000: 131) 'Egypt and Canaan were separate entities and the vassals were never considered mayors in the full meaning of the term. The court administration reared them as Egyptian mayors in one important aspect: they held full responsibility for everything that happened in the town (or rather city-state) in their charge.'

10 Urk IV, 690, trans. Redford (1992: 198).

- 11 Most of our information about Ideimi comes from his well-known inscription, most recently trans. by Diecrich and Loretz (1985).
- 12 Further on the contrast between Egyptian administration in Nubia and western Asia, see Murnane (1998: 178-9).
- 13 There were, however, large parts of western Anatolia over which the Hittites never exercised more than tenuous authority, or any authority at all.
- 14 As evidenced by the enormous force of 47,500 troops which Muwatalli allegedly put into the field at Kadesh.

Part II The letters and their themes

3 Letters and messengers

1 They may have been used for a variety of purposes, including brief, informal letters whose contents could be erased when the recipient had read them and a reply sent back on the same tables. They perhaps also served as notebooks for temporary records of administrative details. (On both possibilities, see Bryce 2002: 69-70.) And they apparently were also used for recording royal grants (see Houwink cen Cate 1994: 231). On the use of wooden tablets in general, see Symingron (1991).

2 See Otten (1956).

- 3 For more decailed treatments of the scribal profession in Egypt, see Wente (1995); in Mesopotamia, see Pearce (1995); in Anatolia, see Bryce (2002: 56-71).
- 4 Babylonian is one of the two varieties in which the Akkadian language appears. The other is Assyrian. Of the 'provincial' features of the Babylonian used in the Amarna letters, see Moran (1992; xin-xx).

5 EA 11: 16-17.

- 6 These letters have most recently been edited by Edel (1994), and will be discussed at some length in subsequent chapters.
- 7 The name of the Late Bronze Age kingdom on the island of Cyprus.

8 EA 39, 40.

- 9 ÄHK 105: 216-23, trans. Beckman (1996: 126-9). On the identities of the correspondents, see Beckman (1996: 125-6).
- 10 On messengers and 'ambassadors' in general, see Oller (1995), Liverani (2001: 71-6).
- 11 ÄHK 53 15'~16': 138-9.

12 EA 1: 1-9.

13 Kuhrt (1995: 343) remarks that, while it was usual for several envoys to be sent to a foreign court, apparently only one of their number had an audience with the king at the receiving court.

14 EA 32: 1-6.

- 15 KUB XIV 3 (CTH 181) (the so-called 'Tawagalawa Letter', to be discussed in Chapter 12) iv 46-50, after Gurney in Garstang and Gurney (1959: 114).
- 16 Though a messenger of the Hittite queen, he was probably a native Egyptian; see most recently Singer (1988: 331).
- 17 AllK 43 obv. 11-18: 106-7, after Beckman (1996: 130).

18 ÄHK 48: 128-9.

- 19 Cohen (1996: 257-8) argues in favour of the possibility of resident embassies; against this, see Berridge (2000: 244-17).
- 20 EA 7: 49-50.
- 21 EA 3: 13-14.
- 22 EA 59: 13-14. But as Moran in his commentary on this letter notes, the period of twenty years should be regarded as a round number rather than a precise figure, indicating a considerable passage of time.
- 23 EA 15: 16-22. The addressee's identity is uncertain.
- 24 EA 17: 46-9, trans. Moran.
- 25 EA 20: 64-70 (condensed).
- 26 EA 28: 16-22, trans. Moran.
- 27 EA 38: 7-12.
- 28 Extracts from KBo I 10 and KUB III 72 (CTH 172), based on trans. by Beckman (1996: 134).
- 29 The queen says: 'If you should say: "The King of Babylonia is not a Great King", then my brother does not know the rank of Babylonia' (trans. Beckman 1996: 128).
- 30 EA 16: 43-5. We are reminded of the experience suffered by the envoys sent from Babylon to Egypt during Ramesses II's reign, as reported to the Hitcite queen Pudohepa by the Babylonian envoy Ellil-bel-nishe (referred to above, pp. 61-2).
- 31 EA 16: 46-9. On the letter as a whole, see Artzi (1997).
- 32 Redford (1984: 235). Cf. Westbrook (2000: 34).
- 33 XHK 39: 96-7.
- 34 EA 29: 173-81.
- 35 EA 11: 14-15.
- 36 EA 24: II 95-6.
- 37 EA 24: IV 54-7.
- 38 EA 7: 53-4.
- 39 From a series of satisfical texts from ancient Egypt, trans. J. A. Wilson in Pritchard (1969; 433).
- 40 See Liverani (2000: 22).
- 41 On the Habiru, see Chapter 9.
- 42 EA 7: 73-7. The mayor of Damascus seems to have been notorious for this kind of activity.
- 43 See Oller (1995: 1,467).
- 44 EA 29: 26.
- 45 For the time-scales involved, see Liverani (2000: 21-2).
- 46 E.g. EA 39 and 40.
- 47 EA 30, after Oppenheim (1967: no. 77: 134).

4 The club of royal brothers

- 1 Thus Moran (1992: xxiv, n. 59), with refs.
- 2 In general on Amenhotep's relations with Mitaini, see Kitchen (1998).
- 3 Mimmureya and Naphurreya (and variations) are the prenomens, respectively, of Amenhotep III and Amenhotep IV/Akhenaten.
- 4 EA 26: 25-9, after Moran.
- 5 EA 27: 9-12, trans. Motan.
- 6 Another variant form of Amenhorep III's prenomen.
- 7 EA 29: 55-9, after Moran.
- 8 KBa I 10 and KUB III 72 (CTH 172) obv. 7 ff., trans. Beckman (1996: 133).

- 9 In fact, Alchenaten was the second son of Amenhotep III by his chief wife Tive. The succession passed to him only after he was predeceased by an elder brother, Tuthmosis.
- 10 EA 29: 61-4.
- 11 Extracts from EA 7: 8-32.
- 12 Jönsson (2000: 198-9).
- 13 Adapted from EA 15: 1-15, and based on trans. by Moran.
- 14 Kuhrt (1995: 350).
- 15 EA 16.
- 16 EA 16: 14-18, after Moran.
- 17 Ashur-uballit also claims that his ancestor Ashur-nadin-ahhe had received the substantial gift of 20 talents of gold (c. 600 kg) from Egypt. This, as Zaccagnini (2000: 150) points out, can be dismissed as a 'self-serving fairy tale'. There is no evidence of contacts between Egypt and Assyria in the reigns of either Ashur-nadin-ahhe I (mid-fifteenth century) or II (early fourteenth century). Ashur-uballit himself had already stated (EA 15) that none of his predecessors had corresponded with the Egyptian court.
- 18 Artzi (2000: 211).
- 19 EA 9: 31-5.
- 20 As noted in Chapter 3, this was the name by which the remains of the old Mirannian kingdom was now generally known.
- 21 KUB XXIII 102 (CTH 171) (= Hagenbuchner 1989; 260-4 no. 192) i 5-18, trans. Beckman (1996; 138). The identity of the letter's author is still not entirely certain. For its attribution to Uthi-Teshub, see Hagenbuchner (1989; 263), supported by Beckman (1996; 138) and Bryce (1998; 283). Liverani (2001; 42) still favours identifying the author with the Hittite king Tudhaliya IV and the addressee as Tukulti-Nimpra I.
- 22 In general on the ideology of brotherhood, see Zaccagnini (1987: 61-2), Liverani (2001: 135-8).
- 23 KBø I 14 (CTH 173), rev. 15'-16', trans. Beckman (1996: 140). The first few lines of the letter where the author's and the addressee's names would have appeared are missing. However, its attribution to Hattusili is almost certain; and in that case the addressee must be Adad-nirari I. See Beckman (1996: 139), Klengel (1992: 125, n. 199; 1999: 269).
- 24 KBo I 14 rev. 4'-10', after Beckman (1996: 140).
- 25 ÄHK 5 obv. 10': 24-5.
- 26 EA 33-9.
- 27 Egypt also obtained copper from Byblos and countries in northern Syria, but Alasiya undoubtedly became its main supplier of the metal.
- 28 Egypt itself was lacking in silver deposits and obtained its supplies by way of tribute (amongst other means) from its Asiatic territories or by way of trade from Hatti (etc.). Zaccagnini (2000: 146) comments that in this context 'silver' simply means 'price' or 'fequivalent' value' of any item traded.
- 29 EA 3: 18-19, after Moran.
- 30 EA 3: 27-9, after Moran.
- 31 This and the following two passages are from AHK no. 4: 22-5.
- 32 ÄHK 5 obv. 8'-9': 24-5.
- 33 Cf Edel (1960: 20).
- 34 This and the following quotations (to the end of the next paragraph) are from AHK 24: 58-63.

35 This and the following quotations (to the end of the next paragraph) are compiled from passages in AHK 20 and 22: 50-1 and 53-6, respectively.

- 36 As in the case of all such treaties, Kupanta-Kurunta was obliged to pledge his allegiance not only to his treaty partner, but also after his death to his successors in the direct family line. This applied in the first instance to Muwatalli, Mursili's son and successor, and in the second instance to Urhi-Teshub, Muwatalli's son and successor. By the terms of his treaty agreement he was bound to support Uthi-Teshub over the usurper Harrusili.
- 37 ÄHK 28 abv. 9-13: 74-5.
- 38 Beckman (1996: 124).
- 39 Alternatively, Houwink ten Cace (1974: 143) suggests that what Hattusili received was a copy of the letter, whose original was in fact sent directly to Kupanta-Kuruntu by Ramesses.

5 Gift-exchanges

- 1 EA 14. Summerfeld (1995: 920) notes that the intensive relations with Egypt brought so much gold into Babylonia that for more than 100 years after Burnaburiash II gold replaced the tradicional silver as the usual stand and of equivalence. (Weight equivalences: 1 talent (c. 30 kgs.) = 60 minas; 1 mina = 60 shekels.)
- 2 ÄHK54 abv. 8'-11': 140-1.
- 3 There were in fact two inventories of gifts: EA 22 and 25. Kitchen (1998: 258) comments that one set is clearly intended for the pharaoh himself, with chariots, weapons, etc. (EA 22); the other set is a dowry fit for a princess (EA 25), with its earrings, toggle pins, bracelets, mirrors, combs, necklaces, ointment vessels, etc.
- 4 EA 16: 32-3.
- 5 EA 11: rev. 19-20.
- 6 See Oller (1995: 1,469).
- 7 Further on the personal gifts sent by Ramesses and his family, see Cochavi-Rainey (1999: 195-210).
- 8 ÄHK 12: 40-1, trans. Beckman (1996: 123).
- 9 Cf Zaccagnini (1987: 60-1).
- 10 &A 16: 14-21. On the implausibility of Ashur-uballit's appeal to precedent on this occasion, see Chapter 4, n. 17.
- 11 EA 27: 32-3, after Moran.
- 12 Based on EA 20: 46-59.
- 13 EA 7: 71-2.
- 14 EA 7: 64-70.
- 15 EA 1: 67-77.
- 16 On the determination of the value of a gift item, see Zaccagnini (1987: 58).
- 17 EA 7: 33-8, after Moran. See also Liverani's comments (2001: 155).
- 18 The pharaoh addressed in his letters is actually unnamed, but is almost certainly Akhenaten.
- 19 EA 35: 19-26. For the surprising nature of the last of these requests, see Moran's comments (1992: 109, n. 6).
- 20 EA 9: 12-13.
- 31 EA 19:54-8.
- 22 EA 24: iti 76-107.

- 23 Cf. Zaccagnini (1987: 59), Liverani (2001: 156-7). On the other hand, the Alasiyan king's demands to the pharaoh for 'silver' in exchange for copper (EA 35 and 37) seem to come close to straightforward mercantile transactions; cf. Avruch (2000: 155).
- 24 EA 4: 47-50, after Moran,
- 25 EA 7: 61-2.
- 26 Cf. Zaccagnini (2000: 151).
- 27 EA 35: 13-14, trans. Moran.
- 28 EA 7: 53-60. We have discussed, in Chapter 4, another possible implication of this excuse.
- 29 For a comprehensive list of references to iron artefacts in Hittite texts, see Košak (1986).
- 30 Hattusili's letter to Adad-nirari I (KBø I 14) obv. 20'-4', trans. Beckman (1996: 140).
- 31 EA 7: 73-82.
- 32 EA 161: 41-6.
- 33 EA 8- 26-9, after Moran.
- 34 EA 8: 30-4, after Moran.
- 35 On land and sea transport between Egypt and other Near Eastern lands, see Tyldesley (2001: 63). More generally on transport in the ancient Near East, see Astour (1995: 1,401-20).

6 The marriage market

- 1 EA 19: 21-2, after Moran.
- 2 EA 31: t1-14, trans. Moran. Meier (2000: 169) comments that there is no evidence that the anointing of a woman before marriage was an Egyptian custom. Rather, it indicates that Egyptian kings followed the practice of their Near Eastern neighbours in this respect.
- 3 Bryan (2000: 82) sees the prohibition by the eighteenth dynasty pharaohs as a means of protecting chemselves against the claims of families outside the dynastic line. Cf. Kitchen (1998: 255). It was not in fact until the period of the twenty-first dynasty that an Egyptian princess was sent abroad to marry a foreign king, in this case the Israelite king Solomon.
- 4 EA 4: 11-13. The letter almost certainly belongs to the correspondence exchanged between Amenhotep III and Kadashman-Enlil, though the opening lines of the letter which contained the author's and addressee's names are now loss.
- 5 The quotations in this and the previous paragraph are based on EA 1: 10-35.
- 6 See Bryce (1998: 331).
- 7 See Klengel (1992: 141-2), Bryce (1998: 345-7).
- 8 EA 11.
- 9 EA 11: 19-22.
- 10 EA 1: 61-2, trans. Moran. As indicated by Moran, the translation is not altogether certain.
- 11 Information provided by an Egyptian scarab commemorating her actival in Egypt; see Tyldesley (1999: 28).
- 12 EA 29: 16-18.
- 13 See Helck (1984: 159--60).
- 14 Murnane (1995: 9).

- 15 ÄHK 105 (KUB XXI 38) obv. 8"-11": 216-17, adapted from trans. by Beckman (1996: 126). We should remember, as discussed earlier, that this particular document is a draft letter from Puduhepa. We cannot be sure how much of what appears in the draft was incorporated into the final version sent to Ramesses.
- 16 Houwink ten Cate (1994: 238) thinks in terms of 'an economic or administrative institution, presumably situated in the capital, but not necessarily forming part of the Palace on the citadel.'
- 17 ÄHK 105 obv. 15'-16': 216-17, after Beckman (1996; 127).
- 18 ÄHK 105 obv. 12'-13': 216-17, trans. Beckman (1996: 126-7).
- 19 Almost certainly, Puduhepa was not Hattusili's first chief wife, though we have no information about an earlier queen who may have filled this position.
- 20 ÄHK 49 obv. 14-16: 130-1.
- 21 ÄHK 51 obv. 17-20: 136-7.
- 22 ÄHK 56: 146-7.
- 23 ÄHK 54: 142-3.
- 24 ÄHK 57: 148–9.
- 25 Trans. Tyldesley (2001: 138).
- 26 It has even been suggested that Nefertiti may for a short time have been her husband's co-regent and successor, that she was in fact Smenkhkare. It is interesting to note, as Tyldesley (1999: 80) points out, that Nefertiti is never specifically mentioned in the Amarna letters, and it would seem that to Akhenaten's correspondents she was of negligible significance. Her curious exclusion from the Amarna letters does seem to suggest that her influence at home did not extend into the international arens.
- 27 See Tyldesley (2001: 129).
- 28 Tyldesley (2001: 134).
- 29 E.g. this was a condition stipulated by Muwaralli in marrying his daughter Massanauzzi to the western Anatolian vassal ruler Masturi, and by Hattusili III in marrying his daughter Gassuliyawiya to the Amurrite king Beateshina.
- 30 ÅHK 106 obv. 5'-9': 224-5, after trans. in Meier (2000: 171-2).
- 31 Extract from Ramesses' 'marriage-stele', trans. Kitchen (1982: 86; 1996: 86–96).
- 32 ÄHK 110 rev. 4'-6': 230-1.
- 33 However, in a personal communication Professor Kitchen has commented that the length of time Maat-Hor-Neferure lived at Fayum is wholly unknown; the fragment mencioning her there could be of any date in the mid to late years of Ramesses' reign.

7 Sending for the doctor

- 1 ÄHK 75: 178-81. The letter is trans. by Beckman (1996: 131-2).
- 2 KUB XIX 5 (CTH 191) and KBo XIX 79.
- 3 Lines 5-6 of the above. For a teanslation of the surviving portions of the text, see Houwink ten Cate (1983-4: 39-40).
- 4 This is the the Egyptian name for Massanauzzi.
- 5 ÄHK 75 obv. 16-rev. 13; 178-9.
- 6 He was one of the signatories to the treaty inscribed on the bronze tablet between Tudhaliya and his cousin Kurunta. The text of the treaty is edited by Otten (1988). For a recent English translation, see Hoffner (2000).
- 7 This information is provided by KUB XXII 13 (CTH 211.4), a text recording offences committed by the Seha River Land and dating to the reign of Tudhaliya IV

- 8 Odyuny4, 231-2.
- 9 Herodotos 3.1.
- 10 ÄHK 2 rev. 2'-9': 18-19.
- 11 ÄHK 30 obv. 12'-14': 80-1.
- 12 ÄHK 45 tev. [19'-20']: 114-15.
- 13 ÄHK 46 rev. 12'-13': 122-3.
- 14 ÄHK 71 obv. 12'-rev. 12: 170-1. This is one of two parallel letters referring to Kurunta's illness; the other is ÄHK 72: 170-3. Further on these letters, see Edel (1976: 46-50, 82-91), van den Hout (1995: 91-4). On the dating of the letters to the period between the 42nd and 56th year of Ramesses' reign (i.e. 1237-23), see Edel (1976: 20, 29-30). It is just possible, but unlikely, that Hattusili still occupied the Hittite throne when the letters were written.
- 15 Archives royales de Mari, 4: 65, trans. Oppenheim (1967: 108, no. 51).
- 16 EA 49: 24-5. Zaccagnini (1987: 60) doubts the truth of this, noting that Niquaddu's request also included an order for two black servants ('attendants from Kush'). In Zaccagnini's opinion, the purpost of the request was simply to enable the Ugaritic king to show off foreign peoples as interesting rarities at his court.
- 17 KBo I 10 and KUB III 72, rev. 42 ff., after Beckman (1996: 137).
- 18 Op. cit., after Beckman.
- 19 Cf. Zaccagnini (1987: 59-60).
- 20 This and the following passages cited in this paragraph are from rev. 34-41 of Hattusili's letter, and are adapted from Beckman's translation (1996: 136).
- 21 Rev. 58-61.

Part III Historical episodes

8 The Syrian principalities

- 1 For a comprehensive, well-documented treatment of Syria and the control exercised over it by the Great Kingdoms in the Late Bronze Age, see Kleugel (1992: 100-80).
- 2 Goecze (1975: 1).
- 3 The term 'Syria' is used here as elsewhere in this book in the very broad sense of the region lying between the Euphrates river and the Mediterranean Sea. This usage, which goes back to antiquity, thus covers a much more extensive region than modern Syria.
- 4 It should be noted that the term 'principality' as used here is one of variable extension. In some cases it applies essentially to a single city and its immediate surrounding territory. In other cases it covers a broader region, which often includes a number of smaller towas and villages and farming estates.
- 5 EA 132: 1-7, trans. Moran.
- 6 Complaints by vassals against Egyptian officials appear, e.g., in EA 234, 270, 285, 289, 292.
- 7 In general on the relationship between Egypt and her Syro-Palestinian vassals, see James (2000).
- 8 We noted in Chapter 2 that there is no clear evidence for such agreements.
- 9 Weinstein (1998: 228) suggests that it was the economic benefits that Egypt derived from the region that caused a series of pharaohs to show a remarkable tolerance for disorder among the polities of the northern empire.

- 10 See also Klengel (1992: 175-8).
- 11 EA 141-3.
- L2 EA 146-55.
- 13 EA 147: 66-71.
- 14 In EA 151: 64-8, Abi-Milku reported that Zimredda had assembled croops and ships from the cities of Aziru against him.
- 15 EA 149: 54-63.
- 16 For a more detailed treatment of Late Bronze Age Ugarit, see Klengel (1992: 130-51).
- 17 EA 46-8; See Moran (1992: 118, n. 1).
- 18 See Bryce (1998: 177-9).
- 19 Also the seat of a local king, appointed by the pharaoh, who received envoys from Egypt and sent gifts and tribute to the pharaoh.
- 20 See EA 254-6.
- 21 EA 189: obv. 12.
- 22 EA 189: rev. 9-12. For the Habira, see Chapter 9.
- 23 EA 195: 24-32.
- 24 EA 7: 73-5.
- 25 EA 195; 16-23, trans. Moran. EA 194 and 196 contain similar protestations of loyalty.
- 26 The earlier settlement has yet to be discovered.
- 27 EA 53: 42.
- 28 EA 59: 25-8.
- 29 For a more detailed treatment of Niya and the Nuhasse Lands, see Klengel (1992: 151-6).
- 30 EA 53-5. 31 EA 59: 13-20.
- 32 Its history is treated at some length by Klengel (1992: 157-60).
- 33 EA 189. His initial nominal allegiance to the pharaoh perhaps had the agreement of the Hittites, who, Klengel (1992: 158) suggests, did not want to offend the Egyptian overloads of Kadesh. But where EA 189 belongs in the chronology of events of the Amarta perior termins uncertain. It is possible that the letter was written by Aitakkama prior to the Hittite attack on Kadesh, and the removal of the royal family from it, if we accept the suggestion that Aitakkama already at that time ruled as co-regent with his father (cf. Klengel (1992: 157)).

9 The warlords of Amurna

- On Amurru and its rulers, see also Singer (1990, 1991), Klengel (1992: 160-74).
- 2 EA 144: 22-6, after Oppenheim (1967: 126).
- 3 Scholars disagree on the time-relationship between the careers of the Amurrice leader Abdi-Ashirta and subsequently his son Aziru, on the one hand, and the reigns of the pharach Amenhorep III and his son Amenhorep IV/Akhenaten on the other. Abdi-Ashirta and Aziru both figure prominently in the letters of Rib-Hadda, king of Gubla, discussed below (pp. 147). Singer (1991: 148) believes that all of Abdi-Ashirta's recorded activities fell within the reign of Akhenaten, after the transfer of the capital to Akhetaten in Year 5, while noting that his career in Amurru may have started long before his first appearance in the Amarna cottespondence. Comtra Singer, Freu (2002b: 90) believes that Abdi-Ashirta's activities, at least those recorded in the 'first series' of Rib-Hadda's letters, belong within the reign of Amenhorep III. The matter is further compli-

cated by the question of whether or nor, or for how long, there was a co-regency between Amenhotep III and his son. We shall skirt round these problems here by simply using the term 'pharaoh' to refer to the occupant of the Egyptian throne while Amurru was under Abdi-Ashirta's control. We can confidently assign the activities of his sun Aziru, as recorded in the 'second series' of Rib-Hadda's letters, as well as in Aziru's own correspondence with Egypt, to the reign of Akhenaten.

- 4 Greek Simyra. It lay at the mouth of the Nahr el-Kabir river.
- 5 EA 71: 16.
- 6 EA 84: 11-14.
- 7 Based on Motan's restoration of the fragmentary opening lines of EA 62. This is a letter from Abdi-Ashirta to Pahhanate, in which Abdi-Ashirta apparently quotes Pahhanate's words of denunciation.
- 8 EA 60: 19-29, trans. Moran.
- 9 Cf. Singer (1991: 144), who suggests that his letters to Egypt were probably written from there.
- 10 EA 85: 51-5; see also EA 95: 27-33. In this context note also the claim made by Rib-Hadda in EA 90: 19-20 that Abdi-Ashirta had visited Mitanni.
- Liverani (1998: 391-2).
 See Singer (1991: 146-8), who opposes any notion of collaboration between Abdi-Ashirta and either Mitanui or Hatti.
- 13 EA 74: 15-19.
- 14 EA 76: 11-16.
- 15 Thus Aduna, king of Irquta (EA 75: 25-6).16 EA 74: 23-30, after Moran.
- 17 EA 73: 17-25, after Moran.
- 18 EA 88: 16.
- 19 EA 92: 35-7, truns. Moran.
- 20 To judge from Zimredda's letter to the pharuoh, EA 144: 22-30.
- 21 EA 83: 21-7.
- 22 EA 89: 15-29.
- 23 EA 85: 6-15.
- 24 This and the following quotations in this paragraph are from EA 74: 31-53, and are adapted from the trans. by Moran.
- 25 EA 81: 12-14, after Moran.
- 26 Adapted from EA 81: 15-16 and 82: 38-9.
- Adapted and condensed from EA 83: 23-51.
- 28 EA 91: 16-19, after Moran. For the insertion of 'shekels' in the text, see Moran (1992: 165, n. 4).
- 29 Singer (1991: 146); he argues against the suggestion that the pharaoh had finally taken action against Abdi-Ashirra for his alleged collaboration with Mitanni or Harti.
- 30 EA 117: 21-8, trans. Moran. Cf. EA 108: 25-33, where the reading is less certain.
- 31 EA 101. All that survives is the second of a two-tablet letter which does not preserve its author's name.
- 32 EA 101: 29-30.
- 33 Note the alternative interpretation proposed by Altman (1977), cited also by Moran (1992: 174, n. 4). More recently Liverani (1998: 389, 393-4) has proposed 'they will defeat Abdi-Ashirta!'
- 34 EA 103: 8-11, after Moran.

- 35 EA 104: 6-13. Singer (1991: 149) notes that all these places lay in the southern part of Amusru, in the zone bordering the domain of Gubla.
- 36 EA 102: 15-16.
- 37 EA 102; 17-19, after Moran.
- 38 EA 104: 49-54.
- 39 Biblical Arvad, mud. Ruad.
- 40 EA 105: 11-17.
- 41 EA 105; 83-5, after Moran.
- 42 EA 105: 11-13.
- 43 EA 103: 20-2, after Muran.
- 44 EA 103: 23-9, crans. Moran.
- 45 EA 104: 31-6, trans. Moran.
- 46 EA 106: 10-11.
- 47 EA 157: 9-19.
- 48 EA 156: 10-12. He did so apparently at the pharaoh's request. Singer (1990: 135) comments that this may be regarded as a first sign of the pharaoh's willinguess to accept Aziru's submission, despite the opposition of some Egyptian officials in Sumur.
- 49 See the comments of Singer (1991: 150) on the difficult question of whether Azitu's letters with his diplomatic overtures to Egypt were dispatched before or after his takeover of Sumue.
- 50 EA 171: 12-13.
- 51 EA 158; 14-19.
- 52 Later perhaps he was looked upon as one who might represent the Amuerite cause in a more favourable light before the pharaoh.
- 53 EA 157: 28-33.
- 54 EA 157: 37-41.
- 55 I follow here the chronology of Aziru's career proposed by Singer (1990: 134-44).
- 56 EA 140: 20-5. Cf. Singer (1990: 136). It is difficult to see how he could have done this without the pharaoh's knowledge, given the mechanics of the messenger system, and we must remember that the fetter comes from a highly biased source. More likely, the episode it refers to belongs within the later context of dealings between Aitakkama and Aziru after the larter's return to his homeland.
- 57 EA 169: 16-21.
- 58 EA 170.
- 59 The Bega' valley between Lebanon and Antilebanon.
- 60 Even if the assumption that the letter was captured by the Egyptian authorities is correct (see Singer 1990: 133-4, n. 1), almost certainly it was intended to fall into their bands. Cohen (2000: 93) speaks of EA 170 conjuring up a picture of an Amurra skilfully manocuvring between the Great Powers on the basis of sound intelligence.
- 61 For a concise summary of Hittite activity in the region at this time, see James (2000: 118).
- 62 As indicated, for example, in the pharach's letter to him, EA 162, where Aziru is addressed as 'ruler (hazannu) of Amurry' (bne 1).
- 63 EA 161: 28-9.
- 64 EA 160 and 16].
- 65 EA 161; 35-40, after Moran.
- 66 EA 161: 12-16.

- 67 EA 59: 43-6.
- 68 EA 165: 28-41. Singer (1991: 153) sees this reference as a valuable chronological clue which can probably be related to Suppliculiums's one-year Synan campaign (c. 1340).
- 69 EA 124: 9-16, after Moran.
- 70 EA 131: 10-14.
- 71 EA 106: 13-15, trans. Moran.
- 72 EA 124: 36-7.
- 73 EA 136: 8-15.
- 74 EA 136: 24-32.
- 75 BA 142: 15-24.
- 76 EA 137: 27-30.
- 77 EA 162: 2-12.
- 78 EA 162.
- 79 lzre'el (1991: §2.3.2.1).
- 80 Singer (1990: 141, n. 1).
- 81 EA 162: 19-20.
- 82 EA 162: 22-5, trans. Muran.
- 83 Thus Westbrook (2000: 38).
- 84 EA 162: 35-8 trans. Moran.
- 85 Following Singer's chronology, this would have been his second visit to Egypt.
- 86 EA 162: 50-3.
- 87 Probably soon after the one-year Syrian war. Cf. Singer (1991: 154).
- 88 See Chapter 10, and also Singer (1990: 164-5; 1991: 155).

10 Hittite frontier correspondence

- 1 This is clear from the fact that the majority of the correspondence found in the archives consisted of letters addressed to the Great King.
- 2 For a summary of the site and its finds, see Süel (2002).
- 3 For a summary of the site and its finds, see Müller-Karpe (2002).
- 4 On the identification, see Alp (1991a; 42-3).
- 5 For a comprehensive general account of the letters, see Klinger (1995).
- 6 Two tablets discovered in the third level of the size bear seal impressions with the name of Tudhaliya, father of Suppiluliuma. See Alp (1991a: 48-50, 109-12). The father-son relationship was proved by a bulla found in the (later) level II of the site bearing the impression 'Suppiluliuma, son of Tudhaliya' (Alp (1991a: Abb. 3 and Tafel 3).
- 7 HKM 2: 1-9.
- 8 According to Octen (1956; cited also by Beckman 1995: 25, n. 38), Hittite bureaucrats' practice of addressing each other as 'my brother' or by a similar term of family selationship probably goes back to the days when they were school students together.
- 9 Thus Alp (1991a: 71), who observes that from letter 71 we can conclude that he bore the title UGULA NIMGIR ERIN.MES, 'Chief Military Inspector'. See also Beckman (1995: 23).
- 10 See Beal (1992; 406-7).
- 11 HKM 3.
- 12 HKM 10: 17-22.
- 13 HKM 102.
- 14 Hoffner (2002: 68).

- 15 HKM 58: 5-14, after Hoffner (2002: 68-9).
- 16 HKM 59. Cf. Alp (1991a: 336).
- 17 Adapted from HKM 10: 42-52.
- 18 See Bryce (2002: 16-17).
- 19 HKM 48: 31-2; HKM 49: 4-5.
- 20 HKM 52. We shall discuss below the complaint lodged by Tarhunmiya against the local authorities in Tapikka.
- 21 HKM3, referred to above.
- 22 Adapted from HKM 3: 17 ff.
- 23 HKM 31: 20-30.
- 24 HKM 53: 20-3.
- 25 HKM 56; 7-19. Alp (1991a: 63) concludes that Himuili was back in Hattusa at the time since the same tablet contains a letter from the Hattusa-based scribe Tarbunmiya to Walwanu, a scribe in Tapikka.
- 26 HKM 58: 29-31.
- 27 HKM 68.
- 28 Suggested by Alp (1991a: 83).
- 29 HKM 55: 30-3, trans. Beckman (1995: 24).
- 30 HKM 74.
- 31 See Singer (2002: 309-10), Freu (2002c: 71-2).
- 32 HKM 52.
- 33 At least, in earlier versions of the Laws. The number of those who were exempt may have been considerably reduced in later versions.
- 34 Based upon HKM 52: 25-39.
- 35 See also HKM 27: 17--25.
- 36 HKM 52: 10-18, after Beckman (1995: 26).
- 37 A man called Palluwa. On the possible identification of this man with a Hirtite prince of that name, see Singer (1999: 69-70).
- 38 It is possible that Zu-Ba'al presented his case in person before the Great King, though his appeal might just as well have been conveyed by a messenger. Cf. Singer (1999: 68).
- 39 Probably the local Hittite commander (Singer 1999: 68).
- 40 MiK 73, 1097 = Laroche (1982: no. 1), transcribed and trans. by Singer (1999: 66-7). (The translation here is adapted from Singer's.) Cf. Laroche (1982: 54).
- 41 Transcribed and trans. by Singer (1999: 66-7).
- 42 Singer (1999: 70). It should, however, be said that Zu-Ba'al was clearly a person of some eminence within Emar's religious establishment, as his title 'LU-HAL' indicates, as well as having an important role in the affairs of the city in general: see also Westenholz (2000: 78-80).
- 43 HKM 30: 1-10.
- 44 HKM 46: 3-4.
- 45 HKM 17.
- 46 HKM 25: 6-10.
- 47 HKM 50.
- 48 HKM 15.
- 49 HKM 16.
- 50 HKM 35.
- 51 HKM 20.
- 52 KBeVI 28 (CTH 88), obv. 6-15, adapted from trans. by Goetze (1940: 21-2).
- 53 As illustrated by the instructions issued to the BEL MADGALTI; see von Schuler (1957: 41-59).

54 RS 20.33 (Ugaritica V, No. 20).

- 55 From the fact that two other letters in the archive are addressed to a man called Rapanu and another bears his signature, and from the lexicographical rexts and other texts of an educative nature which the archive contains, the conclusion has been drawn that Rapanu was the owner of the house, that he was a stribe and otherwise a person of considerable distinction in the city (see laze'el and Singer 1990; 9).
- 56 The last part of his name is missing. For a review of suggestions as to how it might be completed, see Singer (1990: 174-8).
- 57 This and the following passages from the letter are taken or adapted from the trans, by Izre'el in Izre'el and Singer (1990: 23-7).
- 58 In a first battle at Kadesh, resulting in a victory for Seti; see Bryce (1998: 250-1).
- 59 Discussed at length by Izre'el (1990), with summary of conclusions (pp. 110-11).
- 60 For possible reasons why the letter, if addressed to Suppiluliuma, was actually located in a private residence in Ugarit, see Singer (1990: 172-3). On the other, lexical, text which has been dated to no earlier than the first half of the thirteenth century, see [are el and Singer (1990: 11) (with refs cited therein).
- 61 See Freu (2002a: 37).
- 62 This possibility is discussed by Singer (1990: 171-2), who notes that the lesser title 'king' in the letter's introductory formula is suggestive of a viceroy, as distinct from a 'Great King', who is normally either addressed as such or by the title 'My Sun'. Because of other considerations, however, this is not Singer's preferred option.
- 63 Most likely to the Carchemish viceroy Sharri-Kushuh, who seems to have had particular responsibility for the defence of the Hittite subject states in Syria; see Bryce (1998: 203-4).

11 An extraordinary request

- 1 Ed. Güretbock (1956), cited as DS. All the passages in this chapter quoted from the biography are taken or adapted from Güterbock's translation.
- 2 DS, p. 94, frag. 28, A iii 11-15.
- 3 See Bryce (1990).
- 4 The case for identifying Niphururiya with Akhenaten has been presented at some length by Krauss (1978: esp. 9-19), and recently argued afresh, e.g. by Helck (1994: 16-22), Reeves (2001: 176-7).
- 5 Note that Kitchen (1998: 253, n. 137) emphatically reasserts the identity of Niphururiya with Tutankhamun. Cf. van den Hout (1994: 85).
- 6 Carrer and Mace (1927: 196).
- 7 So too the Greek historian Herodoros reported, many centuries later, in his account of Egyptian embalming procedures (2.86).
- 8 A period of 272 days elapsed between the death and burial of the fourth dynasty queen Meresankh (III); Urk 1, 156-7 (98).
- 9 We have no evidence that foul play was involved, despite a great deal of speculation to this effect.
- 10 DS, pp. 96-7, frag.28, A iii 50-A iv 12.
- 11 XHK 1: 14-15,
- 12 DS, pp. 97, frag. 28, E3 iv 8-12.
- 13 DS, pp. 97-8, frag. 28, A iv 13-15.

14 DS, pp. 108, frag. 31, 7'-11'.

15 KUB XIX 20 (CTH 154), ed. Hagenbuchner (1989: no. 208, pp. 304-9). For a suggested reconstruction of the letter's contents, see Murnane (1990: 25-7).

12 Letter to a Mycenaean king

1 For recent treatments of the material evidence for Minoan settlement at Miletos, see Niemeier and Niemeier (1997), Niemeier (1998: 27-9).

2 See Mee (1978), Niemeier (1998: 40-1).

3 For a recent creatment of the evidence for this in the light of ongoing excavations on the size, see Niemeier (1998: 34-40).

4 Cf. Hawkins (1998; 2).

5 Some decades prior to this, a 'man of Ahhiya' called Attarssiya was militarily active both in western Anatolia and on the island of Cyprus. However, his designation 'man of ...' suggests that he was an individual Ahhiyawan who had escablished a base in western Anatolia rather than an officially recognized king; see Bryce (1998: 140).

6 See Bryce (1998: 209-10).

7 KUB XIV 3 (CTH 181), ed. Sommer (1932: 2-194), and trans. in part

by Gurney in Garstang and Gurney (1959: 111-14).

- 8 See refs. in Bryce (1998: 321, n. 89). Gurney (2002) has now argued for an earlier attribution to Hattusili's father, Muwatalli. However, I believe that the weight of evidence still favours Hattusili.
- 9 Sallapa's location is unknown, but it must have been situated about halfway along one of the routes between the Hittite capital and Psyamaradu's base in western Anatolia.
- 10 This and the following passages are extracts from the Tawagalawa letter, translated by Gurney or adapted from his translation.
- 11 The distinction, if any, between tubkantiand tartems is uncertain. On the apparent interchangeability of the terms, see Gurney (1983: 97-8).
- 12 It had probably come under Ahhiyawan control some time during the reign of Muwatalli; see Bryce (1998: 244).

13 Page (1976: 15).

- 14 On the possible historicity of the Trojan War, see Bryce (1998: 392-407).
- I.e. during the LHIIIb period. Cf. Mee (1978: 146; 1984: 45), Mellink (1986: 94).
- 16 The join is to the so-called Manapa-Tarhunda letter, and the augmented letter (KUB XIX 5 and KBo XIX 79) is edited and discussed by Houwink ten Cate (1983-4. 38-64).

17 See Bryce (1998: 395).

- 18 See Güterbock (1986: 35), who proposes Wilusa>*Wilusa>*Wilusa>Wilios, the initial w equating with an original Greek digamma.
- 19 See Hoffner (1982).

20 Hawkins (1998: 19).

21 Tudhaliya:Shaushgamuwa treaty (KUB XXIII 1 (CTH 105) IV 1-7. The treaty is edited by Kühne and Otten (1971).

13 The clusive Urhi-Teshub

1 The following account of the deteriorating relations and eventual conflict between uncle and nephew is based upon the so-called Apology of Hattusili (CTH 81), ed. Otten (1981).

2 Apology \$11, IV 34-5.

- We know of his letter to Shalmaneser from the fact that the Assyrian king's son and successor Tukulti-Ninurta subsequently returned it to Tudhaliya IV, as indicated in Tudhaliya's letter to Tukulti-Ninurta, KUB XXVI 70 (CTH 209.21). See Hagenbuchner (1989: 265-7 no. 194).
- 4 He may also have accempted, unsuccessfully, to gain the support of the king of Ahhiyawa; see Klengel (1999: 223-4 (for refs), 232).

5 KBs I 10 and KUB III 72 (CTH 172) obv. 67-9.

6 This response (trans. Beckman 1996: 135) allegedly made by Kadashman-Turgu is also reported by Hartusili in his letter to Kadashman-Enlil. Though it occurs shortly before the reference to Hartusili's enemy's flight to Egypt, I have taken it as belonging to the same context.

7 It is possible that for his own ends Harrusili tinkered with the truth in reporting to Kadashman-Entil the offer allegedly made by his father and

predecessor.

- 8 Passage from a letter by Hattusili to Ramesses, quoted by Ramesses in his letter to Kupanta-Kurunta, ÄHK 28 obv. 15–19: 74–5, trans. after Beckman (1996: 124).
- 9 ÄHK 27 obv. 1'-11': 72-3.

10 ÄHK 26: 70-3 and ÄHK 27: 72-5, respectively.

 This largely follows the reconstruction of events proposed by Edel (AHK II: 123-4).

12 ÅHK 28, obv. 21-7: 76-7.

13 AHK 29, esp. obv. 17-21; 78-9.

14 ÅHK 24 rev. 23-5: 62-3.

15 We must of course remember that Puduhepa's letter is only a draft. Parts of what she said may well have been modified or deleted in her final version.

16 Two from the former, five from the latter; published by Alp (1974). See Hawkins (2000:433-41).

17 Alp (1974: 20), Hawkins (2000: 437-8, 442).

18 Hawkins (1992: 270).

19 Singer (1996: 68-71).

20 This is evident from an oracle enquiry rext, KUB XVI 32 (CTH 582), in which Hattusili III's son and successor Tudhaliya considered the question of territorial compensation for Urhi-Teshub's sons.

21 As suggested initially by Mellsart (1974: 514-16). See, more recently,

Singer (1996: 70), Hawkins (1998: 20-1).

22 Unless we take up Singer's suggestion (1996: 64-5) that there was a period of peaceful co-existence and co-operation between two Anatolian Great Kings at the end of the Late Bronze Age.

14 Last days

L See Bryce (1998: 355-6, 363-4, 364-6), with refs.

2 See Bryce (1998: 370-1), with refs.

- 3 He was in fact one of the high-ranking officials of Harri appointed by the Hitrice king as a 'surrogate son'. See Beckman (1992: 47), Bryce (2002: 27-8).
- 4 RS 17.247 = PRU IV 191. Also crans. Beckman (1996: 121 no. 21). See further on this episode Klengel (1992: 145).

5 Bordreuit (1991).

6 Prior to the 1994 find, ewency-two cablets had been uncerthed during the

course of three excavations conducted between 1986 and 1992. For preliminary notes on these, see Bordreuil and Pardee (1995). See also Singer (2000: 21-4). The post-1973 material has yet to be published.

7 See Bordreuil and Pardee (1995: 31, 32).

- 8 See Beckman (1992: 46).
- 9 RS 34.136 (Malbran-Laber 1991, no. 7: 29-30), 5--21.
- 10 RS 17.059 = PRU IV: 150-1.
- 11 RS 20.237; see Nougayrol et al. (1968: 102-4).
- 12 RS 17.289 = PRU IV 192.
- 13 A city on Ugarit's northern frontier, and thus still under the Ugaritic king's immediate control, rather than in Mukish, which lay to Ugarit's north.
- 14 RS 34.143 (Malbran-Labat 1991, no. 6: 27–8) 5–13.
- 15 RS 34.165, ed. Lackenbacher (1982; 1991: 90-100). See Singer (1985), Bryce (1998; 350-2).
- 16 Cf. Singer (2000: 22).
- 17 RS 34.139 (Maibran-Labat 1991, no. 14: 41-2).
- 18 RS 34.135 (Malbran-Labat 1991, no. 17: 46-8, 8-19).
- 19 RS 34.149 and RS 34.137 (Arnaud 1991b, nos. 38 and 37, respectively, pp. 79-81).
- 20 RS [Varia 26] (Arnaud 1991a, no. 30: 66-7).
- 21 RS 34.134 (Arnaud 1991a, no. 30: 68-70).
- 22 Bordreuil (1991: 14).
- 23 Arnaud (1991a: 65).
- 24 RS 34.129 (Malbran-Labat 1991, no. 12: 38-40). See also Dietrich and Loretz (1978).
- 25 Thus Singer (2000: 24).
- 26 RS L1 8-28 = Nougavrol et al. (1968: 85-6, no. 23).
- 27 RS 20.238 = Nougayrol et al. (1968: 87-9, no. 24), trans. Astour (1965: 255).
- 28 RS 34.152, 9-14, trans. Singer (2000: 24).
- 29 RS 20.212, 17'-26', adapted from trans. by Heltzer (1977: 209). For the full text, see Nougayrol et al. (1968, no. 33: 105-7). Cf. RS 20.141 B (op. cit., no. 34, 107-8), RS 26.158 (op. cic., no. 171, 323-4).
- 30 Yon (1992: 111). For evidence of fighting throughout the city, see Yon (1992: 117).

Appendix: the Amarna letters

Notes

- Cohen and Westbrook (2000: 4).
- The most authoritative edition of the Amurna letters is that of Moran (1992). For a recent detailed commentary on the letters, see Giles (1997), with translations of selected letters supplied by A. B. Knapp.
- EA 14, 22, 25.
- 4 See Artzi (1990: 140). These texts are the subject of a study by Izre'el (1997).
- 5 Liverani (1998: 387), with examples. 6 See Albright (1975: 99), who points out that the would be interpreter of the rexts must be a specialist in Hebrew and Ugaricic as well as in Akkadian.
- 7 See Rainey (1995: 109-10).
- 8 On the chronology of the letters and the means of determining it, see Albright (1975: 99-100).
- 9 Reeves (2001: 62-3).

- 10 Artzi (1990: 140). Moran (1992: xvi) suggests that the name 'House of the Letters of the Pharaoh' might in fact refer not merely to a storage place for letters from abroad, but to a larger complex, the more extensive part of which was devoted to affairs of state conducted in the Egyptian language.
- 11 For a detailed treatment of the references in the Amarna letters to intelligence reports, especially from the pharaoh's Syro-Palestinian vassals, see Cohen (2000), who notes (p. 97) that at least thirty-eight out of the 329 documents in the vassal corpus, and two items in the Great King file, contain intelligence references.
- 12 Some sixty-seven or sixty-eight letters were written either by (the great majority) or to Rib-Hadda.
- 13 Cf. Moran (1992: xvii-xviii).

المحتوى

ئىن
الجــزء الأول: إهــادة بناء المشــهــد
1 اللاعبون الرئيسيون1
2 التفاعلات المتبادلة بين القوى:
الإدارة الإمبريالية والعلاقات الدولية
الجزء الثَّاني: المراسلات ومضمونها ٩٣
3 الرســائل والرسل ه٩٠
4 نادى الإخــوة الملوك 4٧٧
5 تبادل الهدايا ٧٥٧
6 ســوق الزواج ه١٧٠
7 استدعاء الأطباء
الجزء الثالث: أحداث تاريخية
8 الإمارات السورية ١١٣
9 ملوك الصرب في عـمـورو و٢٣
10 سراسالات الجبهة الحثية 1۷۱
11 طلب ء ج پب
12 رسالة إلى ملك ميسينيا
13 أورحى - تيــشــوب المراوغ ١٣٥
14 آخـــر الأيام 14
ملحق : رسائل العُـمـارنة
الهـوامش

هذه الدراسة الشيقة تضم دراسات عن خمس ممالك في عالم الشرق الأدنى القسديم، خلال العصر البسرونزى المتأخر، وهي تلقى الضوء على سؤال جوهري ذي أهمية وحبوية قصوى: إلى أي حديمكن للدبلوماسية أن تحقيق سلاماً دائماً واستقراراً في تلك المنطقة بديلاً عن الحسرب والعنف.

من خلال رسائل كثيرة قاومت الفاء حستى عصرنا نعلم أن عظماء ملوك الشرق الأننى القديم كانوا يكتبون وير اسلون بعضهم بشكل منتظم، ويبدو الملوك من خلال نثك الرسائل مغرورين وعنيدين، في معاملاتهم لبعضهم البعض، إلا أن مر اسلاتهم لعبت دور أمهماً على مسئوى التبلوماسية الدولية في تلك المرحلة، وأسهمت في إرساء كثير من التحالفات التي تمت بينهم.

ارتكز البروفيسور برايس على تلك المراسلات في إعادة روية أحداث تلك المرحلة، في المنطقة دائمة التغير والتبدل السياسي، في الممالك التي انتعشت من 3500 علم مصت. ويحسنوي الكتاب على مادة غزيرة منتوعة، من زواج التحافات، إلى تبادل الهدايا، إلى مراسلات الملوك مع كيسار موظفيهم في مناطق الحسود الحساسسة من مملكتهم، والسعى إلى حل المشاكل بالوسائل الدبلوماسية قبل أن تتفاقم وتفضى إلى حل المشاكل بالوسائل الدبلوماسية قبل أن تتفاقم وتفضى إلى حروب عظمى شاملة.

كما يتضمن الكتاب رؤية جديدة لأحدث فاتقسة الأهنية، وتزوننا الرسائل بلمحات حسميمة ومهمة لشخصيات من كتبوها، وردود أفعالهم على الأحداث التي وقعت في عصرهم.

